

جبل نفوسية

منذ إنتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب
(442-21 هـ) (642-1053 م)

تأليف الدكتور: مسعود مزهودي
(أستاذ التاريخ الإسلامي بقسم التاريخ، جامعة باتنة، الجزائر)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(إِنَّ رَّبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)
سُورَةُ الْقَلَمِ. آيَةُ 7



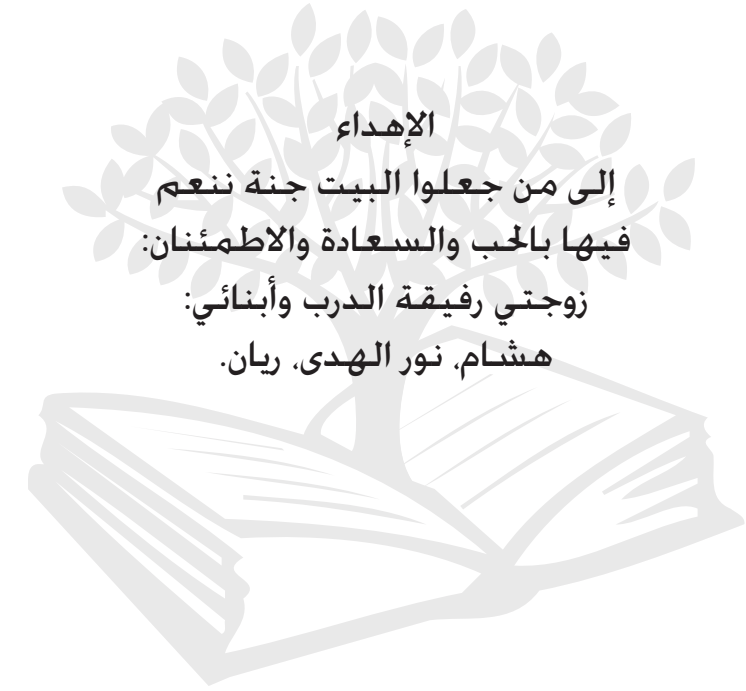
حقوق الملكية الفكرية محفوظة للمؤلف
حقوق الطبع والنشر والتوزيع متاحة
لكل من يستطيع طباعة ونشر وتوزيع هذا الكتاب
مؤسسة تاوالت الثقافية 2003
<http://www.tawalt.com/>

مقدمة

يتناول موضوع هذا البحث تاريخ منطقة من المناطق التي انتشر فيها المذهب الإباضي. هذه المنطقة التي لعبت دورا كبيرا في التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ المغرب خاصة، نظرا لموقعها الحساس الذي تقع فيه. فهي الرابطة بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه.

ونظرا لأهمية هذه المنطقة باعتبارها مركز عبور إلى مصر ومنها إلى الحجاز والشام والعراق ارتأينا أن نتناول هذه الدراسة «جبل نفوسة منذ الإنتشار الإسلامي حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (21-442هـ) (642-1053م)». هذا الجبل الذي كانت تستوطنه عدة قبائل أشهرها وأقواها على الإطلاق قبيلة نفوسة التي كان لها باع طويل في الحركة الإباضية. وخير دليل على فضلها في نشر المذهب الإباضي ما قاله الإمام عبد الوهاب: «إن هذا الدين - يقصد المذهب الإباضي - قد قام بسيف نفوسة وأموال مزانة». ولذلك سمي الجبل - موضوع الدراسة - باسمها نظرا لقوتها عدة وعددا.

ونظرا للدور المميز الذي لعبته بعض القبائل في الأحداث السياسية مثل: زناتة، وكتامة، وصنهاجة، وغيرها... رأينا أن فهم هذه المرحلة الهامة من مراحل التاريخ المغربي يحتاج الى دراسة أهم قبائل البربر، فوقع اختيارنا على قبيلة نفوسة، والجبل الذي استوطنته ليكون موضوعا لهذا الكتاب. ويرجع اختيارنا لهذا الموضوع الى عدة أسباب منها رغبتنا في إمطة اللثام عن التاريخ الاباضي. هذا التاريخ الذي يحتاج إلى المزيد من الاهتمام نظرا لضخامة التراث الذي خلفه أتباع هذا المذهب والذي يكشف بين الحين والآخر عن مصادر مخطوطة جديدة تكشف عن حقائق أخرى. كما يهدف هذا البحث إلى إبراز العلاقة بين جبل نفوسة وبين الدولة الرستمية، هذه العلاقة التي كانت بين مد وجزر، فأتسمت أحيانا بالولاء للدولة، وأحيانا أخرى بمحاولة الانفصال وتأسيس دولة إباضية موازية، خاصة وأن الأئمة الرستميين - المتأخرين خصوصا - لم يحققوا طموحاتهم السياسية والمذهبية. كما نريد من خلال هذه الدراسة الكشف



الإهداء
إلى من جعلوا البيت جنة ننعم
فيها بالحب والسعادة والاطمئنان:
زوجتي رفيقة الدرب وأبنائي:
هشام، نور الهدى، ريان.

عن إسهامات النفوسيين في الحضارة المغربية الإسلامية؛ حيث كان الجبل رافدا من روافد الحركة العلمية والفكرية في بلاد المغرب. بالإضافة إلى تبيان أهمية الجبل ودوره في قوة الدولة الرستمية بشريا، وعلميا، واقتصاديا، ودوره في حمل مشعل الرسالة في نشر المذهب والحفاظ عليه، خاصة بعد سقوط إمامة الظهور في تيهرت.

أما المنهج الذي اتبعناه في هذه الدراسة فيتراوح بين المنهج التحليلي الوصفي، وبين المنهج النقدي المقارن، خاصة وأن أغلب مصادرها هي مصادر أباضية وهبية، والتي تتحمل في أغلب الأحيان على المخالفين من أتباع الفرق الإباضية الأخرى التي انشقت عن المذهب الأم.

هذا وقد جاء البحث في مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة. فأما الباب الأول: فيتناول حول جبل نفوسة من الدعوة الإسلامية إلى الدعوة الإباضية. تناول الفصل الأول منه جغرافية الجبل الطبيعية والبشرية فتطرق إلى موقعه الجغرافي وأهم القبائل التي كانت تستوطنه مع التركيز على أصولهم ومواطنهم. كما تناول أوضاع الجبل قبل الفتح الإسلامي، وديانة النفوسيين، والفتح الإسلامي لهذه البلاد.

وأما الفصل الثاني: منه فتناول دخول المذهب الإباضي إلى الجبل، فتطرق إلى الدعاة الذين مكنوا للمذهب الإباضي من الانتشار في هذه الربوع، وإلى المحاولات الأولى في تأسيس إمامة إباضية كإمامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري وإمامة أبي حاتم الملوذي ثم اختتم الفصل بالحديث عن موقف الخلافة العباسية من تلك الإمامتين.

وجاء الباب الثاني: ليتناول جبل نفوسة والحركة الإباضية منذ تأسيس الدولة الرستمية إلى غاية سقوطها (160-296هـ) أبرز الفصل الأول: منه الحياة السياسية والعسكرية والفكرية والعقائدية في الجبل؛ حيث أثار قضية تبعية الجبل للدولة الرستمية بعرض مختلف الآراء التي قيلت في هذا الموضوع، مع إبداء الرأي فيها ومناقشتها. ثم تطرق إلى الجانب العسكري، فتناول حصار طرابلس (196هـ/811م) والصراع الطولوني - الأغلبي وأثاره على الجبل، وموقعة مانو الشهيرة (283هـ/896م) مبينا خلفياتها، وأهدافها، ونتائجها. واختتم الفصل بالحديث عن الجانب الفكري، والعقائدي، وهو الجانب الذي أثار النزعات الاستقلالية في الجبل ممثلة في الحركة الخلفية والنفائية.

وأما الفصل الثاني: فقد خصص للحديث عن دور نفوسة ومكانتها في تيهرت، فأشار إلى دورها وموقفها من الأحداث الخطيرة التي شهدتها الدولة كدورها في حرب الواصليّة، وموقفها من فتنة محمد بن عرفة وفتنة محمد بن رباح ومحمد بن حماد.

كما تناول هذا الفصل سعة نفوذ نفوسة في تعيين الأئمة وسيطرتها على المناصب الحساسة في الدولة كالقضاء والحسبة والإشراف على بيت المال.

أما الباب الثالث: فتمحور حول أوضاع الجبل في العهد الفاطمي، والزيري، فخصص الفصل الأول: منه للحديث عن الحياة السياسية، فتناول النظام السياسي في الجبل بعد سقوط الدولة الرستمية، والحروب الأهلية، والهجرات النفوسية إلى إفريقية، والمغرب الأوسط، ثم أبرز موقف النفوسيين من الدولة الفاطمية، وتناول كل الانتفاضات الإباضية كثورة طرابلس (300هـ) وثورة نفوسة (310هـ) وثورة النكارية (331هـ) وثورة الوهبة (358هـ).

وجاء الفصل الثاني: ليتناول العلاقات النفوسية - الزيرية. فتطرق في البداية إلى رحيل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر، واستخلافه لبلكين بن زيري على بلاد المغرب، وقيام الإمارة الزيرية ككيان مستقل عن الدولة الفاطمية في مصر. وتناول بالبحث علاقات إباضية الجبل بالإمارة، ثم أشار إلى فكرة الهجرة إلى «جغراف» التي رددتها المصادر الإباضية كثيرا، ومحاولة تقصي موقع هذا الموضع من خلال المعلومات المتناثرة في المصادر. واختتم الفصل بالحديث عن هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب.

وأما الباب الرابع: فخصص للحديث عن الحياة الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية. تناول الفصل الأول: منه الحياة الاقتصادية في الجبل فتعرض للأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب بصفة عامة، ثم الزراعة، والثورة الحيوانية، والصناعة، والتجارة، والمكايل والموازين، فالعملة، والحسبة، ومستوى المعيشة. وجاء الفصل الثاني: ليدرس الحياة الفكرية، والاجتماعية، مبرزاً دور الأئمة الرستميين في النهضة العلمية في الدولة، وانعكاس ذلك على الجهة الشرقية منها. كما تناول الحلقات العلمية، والعلوم والعلماء، وحركة التأليف، والمكتبات، والعلاقات الثقافية بين جبل نفوسة وإباضية المشرق والمغرب. وفي الحياة الاجتماعية تناول نظام العزابة ومدى تطبيقه في الجبل، والتنظيم الطبقي في المجتمع النفوسي، والمرأة دورها ومكانتها في الجبل.

وجاءت الخاتمة حصرا للنتائج التي توصل إليها الباحث من خلال الدراسة.

أما الصعوبات التي واجهتنا فتمثل في قلة المصادر بما أجبر الباحث على الاعتماد كلية على المصادر الإباضية، وحتى هذه المصادر فإنها تنقل عن بعضها البعض.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أوجه جزيل الشكر والتقدير لأستاذي الدكتور إبراهيم فخار الذي أفادني بملاحظاته وتوجيهاته القيمة، كما أوجه شكري الخالص إلى شيوخ

الإباضية بليبيا الذين حاولوا مساعدتي. كما أشكر جمعية حماية التراث بالقرارة على تشجيعاتها لي للمضي قدما في دراسة التاريخ الإباضي. وإنني لأرجو بعد هذا كله أن أكون قد وفقت في إبراز دور الجبل في الحركة الإباضية.

والله من وراء القصد

الدكتور مسعود مزهودي

باتنة في 2003/9/12



المصادر والمراجع (عرض وتحليل)

1 - المصادر الإباضية:

على الرغم من أن أتباع المذهب الإباضي قد خلفوا لنا تراثا ضخما في مختلف فنون العلم، إلا أن التاريخ لم يحظ برعاية واهتمام المشائخ، ولذلك قلت المؤلفات في هذا الميدان. وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن الانتقال من إمامة الظهور إلى إمامة الكتمان جعلهم يهتمون بتأليف الكتب الفقهية حفاظا على استمرار مذهبهم وتراثهم الثقافي بصورة عامة. أما المصادر التاريخية التي وصلتنا فهي:

- الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية: للوالب بن سلام الإباضي الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، بتوزر ببلاد الجريد. وتعود أهمية هذا المصدر إلى كونه أول المؤلفات الإباضية في بلاد المغرب إن لم نقل أول مصدر تاريخي للمغرب الإسلامي. فقد كان معاصرا للدولة الرستمية، ولذلك كانت أغلب رواياته شفوية. ويبدو أن المخطوط الذي قام بنشره وتحقيقه ر.ق. شفاتر وسالم بن يعقوب غير مكتمل وغير مستبعد أنهما عثرا على قطع منه فقط. ولذلك غابت أخبار الأئمة الرستميين فيه. وقد استفدنا من هذا المصدر الهام في الحديث عن إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري، وإمامة أبي حاتم المزوزي. كما أفادنا بمعلومات هامة عن بعض رجال نفوسة، كعمر بن يكتن أول معلم للقرآن في جبل نفوسة، وأهم ما يميز هذا المصدر عن غيره من المصادر هو أنه عدد لنا فقهاء وعلماء الإباضية الذين كانوا يقيمون في إفريقية خاصة في مدينة القيروان وأحوازها. كما استفدنا منه في الحديث عن علاقات إباضية المغرب، بإباضية المشرق، حيث أورد لنا نص الرسالة التي بعث بها أبو عيسى إبراهيم إسماعيل الخراساني - أحد الإباضية المشاركة - إلى أهل المغرب، والتي يبدي فيها رأيه في الخلاف الذي نشب بين أهل الدعوة في جبل نفوسة حول تعيين خلف بن السمع واليا على الجبل، ويقدم فيها النصائح لإخوانه المغاربة.

- كتاب السيرة وأخبار الأئمة: لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر الوارجلاني. عاش هذا الأخير في مدينة وارجلان، ثم غادرها إلى مدينة «تاملست» - الواقعة جنوب شرق إفريقية - للالتحاق بحلقة شيخه أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، صاحب كتاب

السير. وقبيل وفاته عاد إلى بلاد أريغ بالمغرب الأوسط وسكن قرية «تين وال». ثم عاد في الأخير إلى مدينة وارجلان واستقر بها إلى أن وافته المنية. ويرجح أن يكون قد توفي بعد سنة 474هـ وهو آخر تاريخ ورد ذكره في سيره. وقد اعتمد على روايات شيخه أبي الربيع (ت471هـ). ويعد كتاب السيرة من أهم المصادر التي تناولت أحداث الدولة الرستمية. ولا يستطيع باحث الاستغناء عنه نظرا لأهمية الفترة التي عاصرها المؤرخ. بالإضافة إلى أنه تنقل بين العديد من المواطن الإيباضية مما أدى إلى تعدد مصادره. وقد استفاد منه الباحث في مختلف فصول البحث. خاصة وأنه زودنا بتفاصيل عن الحركة الخلفية. والنفاثية. والנקارية. كما أسهب في الحديث عن محاربة الواسلية. والدور الذي لعبه النفوسيون في ذلك. وأفاد في الحديث عن حصار طرابلس. وزيارة الإمام عبد الوهاب إلى الجبل. وعن موقعة مانو. وثورة الوهبة. كما أبرز العلاقات بين أهل الدعوة والفاطميين. وأهل المذهب. وبني زيري. كما اشتمل على كثير من الأخبار المتفرقة منها: فكرة الهجرة إلى «جوغراف». وسير العزابة. وتنقلاتهم. والحلقات العلمية. كما زودنا بمعلومات وافية عن بعض الولاة الذين تعاقبوا على ولاية الجبل.

- **طبقات المشائخ في المغرب:** لأبي العباس أحمد بن سعيد بن علي بن خلف الدرجيني. عاش بمنطقة درجين ببلاد الجريد جنوب إفريقيا. وإليها ينسب في القرن السابع الهجري (الثالث عشر ميلادي) إذ توفي حوالي سنة 670هـ. وقد ألف طبقاته بناء على طلب إيباضية المشرق رغبة منهم في الاطلاع على سير إخوانهم ببلاد المغرب. وقد استفاد الدرجيني كثيرا من سير أبي زكريا حتى إنه كان ينقل عنه دون إضافة خاصة في الجزء الأول. أما الجزء الثاني فقد اعتمد فيه على سير الوسياني. وقسمه إلى اثنتي عشر طبقة كل طبقة تغطي فترة خمسين سنة. وجاء عبارة عن تراجم لشيخ المذهب. مع التركيز على آرائهم خاصة في الأمور الفقهية. ورغم ذلك فقد أفادنا بمعلومات تاريخية. واقتصادية. وقد استفاد الباحث من هذه الموسوعة استفادة عظيمة في مختلف أبواب البحث. فقد زودنا بتفاصيل دقيقة عن شيخ المذهب. وعلمائه. خاصة النفوسيون منهم. كما استفدنا من الأخبار الاقتصادية العارضة التي ورد ذكرها في طبقاته.

- **السير:** لأبي الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان الوسياني. نشأ في بلاد الجريد وعاش سنوات في مدينة وارجلان. صنّفه الدرجيني ضمن علماء الطبقة الثانية عشر (550-600هـ) ووصفه بقوله: «أحد شيوخ الحلق الكبار. الحافظ للسير والأثار. المروي عنه التواريخ والأخبار. لم تفته سيرة لأهل الدعوة في كل الأعصار». وقد اعتمد الباحث على النسخة المخطوطة. خاصة الجزء الثاني منها. كما اعتمد على القطعة المطبوعة.

التي قام بنشرها وتحقيقها الأستاذ إسماعيل العربي. وما يمكن ملاحظته أن الوسياني خالف الدرجيني في طريقة كتابه فلم يقسمه إلى طبقات وإنما ترجم لكل شيخ من الشيوخ على حده. ثم أورد لكل منطقة عنوان أورد تحته الأخبار الخاصة بها. أفادنا هذا المصدر بتراجم المشائخ الإيباضية في بلاد المغرب. كما أفادنا بإسهابه في الحديث عن الحياة الثقافية. والاجتماعية. في التجمعات الإيباضية. وعلاقة الإيباضية بإخوانهم في المغرب. والمشرق. وحركة التجارة. والأسواق. والسلع الواردة. والصادرة. ولعل أهم وثيقة أوردتها الوسياني هي نص الرسالة التي أرسلها الإمام عبد الوهاب إلى نفوسة الجبل. والتي بين فيها حدود الإقطاع الذي أقطعه للمهاجرين من نفوسة إلى الساحل بإفريقية. وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن جبل نفوسة قد حظي باهتماماته. فمن أهم المعلومات التي أوردتها تعدده للقرى النفوسية التي لا نجد لها ذكرا في المصادر الجغرافية. كما أفادنا بمعلومات وافية عن علاقات النفوسيين ببني زيري. فحدثنا عن حصار بني زيري للجبل. وعن موقعة الأبراج. وعن جباية الضرائب وغيرها.

- **سير نفوسة:** لمقرين بن محمد البغطوري. عاش هذا الأخير في القرن السادس الهجري (12م) وقد انتهى من تأليف كتابه سنة 599هـ في قرية «إجناون» بالجبل. ويعد هذا المصدر من المصادر المخصصة للحديث عن نفوسة الجبل. وقد اعتمد عليه الشماخي كثيرا. إذ تردد ذكره في مختلف صفحات سيره. وعلى الرغم من أن النسخة المخطوطة التي حصلنا عليها من المكتبة البارونية بجربة (تونس). رديئة وصعبة القراءة إلا أن الباحث استفاد منه في مختلف فصول البحث. فقد زودنا بتراجم عن ولاية الجبل. وبمعلومات عن اليهود في جادو. وعن انتفاضة نفوسة أيام الفاطميين (310هـ).

- **الجواهر المنتقاة فيما أهمله كتاب الطبقات:** لأبي القاسم محمد بن إبراهيم البرادي. المتوفى في القرن الثامن الهجري (14م). ألف كتابه ليكمل النقص الذي ورد في طبقات المشائخ للدرجيني. وقد استفاد منه الباحث في الحديث عن نظام الحلقة. وفي الحديث عن مؤلفات المغاربة. إذ أحصى ما ألفه شيوخ المذهب في مختلف فنون العلم.

- **السير:** لأبي العباس بدر الدين أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي المتوفى سنة 928هـ. وهو من نفوسة الجبل. جمع سير أبي زكريا وأبي الربيع المزاتي. وسير الوسياني. وطبقات الدرجيني. وسير البغطوري. وجواهر البرادي. في مؤلف واحد. فجاء سفره عبارة عن موسوعة تاريخية شاملة لأهل الدعوة ببلاد المغرب. وقد استفاد كذلك من مؤرخين غير إيباضية كالرقيق القيرواني. وابن الصغير المالكي. والمسعودي. وبما أن الشماخي نفوسي فقد حظي الجبل باهتمام خاص لديه. ولذلك فقد أورد معلومات

وافية وغزيرة عن الولاة الذين تعاقبوا على ولاية الجبل. وعن الحلقات العلمية. وعن الأحداث السياسية الساخنة التي مر بها الجبل. كإسهابه في الحديث عن الخلفية. والنفاثية. والصراع القبلي. والحروب الأهلية. كما أورد أسماء ومواقع العديد من القرى النفوسية. ومسالك الجبل. كما زدنا بمعلومات وافية عن حركة التجارة. وعن الحركة الثقافية. ولا نبالغ إذا قلنا إن سير الشماخي هي المصدر الأول الذي اعتمد عليه الباحث.

وإلى جانب هذه المصادر الأساسية هناك مصادر أخرى استفدنا منها جزئيا في هذا البحث مثل: «الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المقال في الرد على أهل الخلاف» لأبي عمار عبد الكافي (ت ق 6هـ/12م). و«عقيدة التوحيد» لأبي زكريا يحيى الجناوني (ت ق 5هـ/11م). وكتاب «مسائل نفوسة» للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ت 211هـ). وكتاب «فرق الإباضية الست وما زاغت به عن الحق» لأبي عمرو عثمان بن خليفة المارغني (ت أواخر ق 6هـ/12م). وكتاب «السير» لأبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت 471هـ). و«سير الحلقة» لأبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي (345-440هـ). وكتاب «الدليل والبرهان» لأبي يعقوب يوسف إبراهيم السدراتي الوارجلاني (ت 570هـ).

2 - المصادر غير الإباضية:

تعد هذه المصادر مصادر ثانوية بالنسبة لهذا البحث. وذلك يعود إلى كونها لم تتعرض لتاريخ الجماعات الإباضية. اللهم إلا إذا قاموا بثورات ضد الدول المعادية لهم. ويمكن حصر المصادر فيما يلي:

- فتوح إفريقية والأندلس: لعبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم (187-257هـ) (803-871م). يعتبر هذا المصدر من أقدم المصادر العربية التي أرخت للفتح العربي في بلاد المغرب. وقد ألفه كتكملة لفتح مصر. وقد استفدنا من هذا المصدر في تناول الفتح الإسلامي لبرقة وطرابلس وإفريقية.

- أخبار الأئمة الرستميين: لابن الصغير المالكي (ق 3هـ/9م). يعد ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية. فقد كان من سكان تاهرت. اشتغل بالتجارة حيث كان له دكان في سوق الرهادنة يمارس فيه نشاطه. وقد تناول في كتابه تاريخ الأئمة الرستميين في تاهرت. ولم يتحدث عن أخبار الدولة خارج تيهرت. ولذلك فإن أخبار جبل نفوسة قليلة إن لم نقل منعدمة. وهناك العديد من الأحداث السياسية والعسكرية التي لم يعطها حقها من الدراسة. كحصار الإمام عبد الوهاب لمدينة طرابلس. ومشاركة نفوسة في حرب الواصلية. وموقعة مانو 283هـ. وعلى الرغم من ذلك فقد زدنا ابن الصغير بمعلومات

وافية عن نفوذ الجالية النفوسية في تاهرت. واحتكارها للمناصب السامية خاصة القضاء. والحسبة. وبيت المال. بالإضافة إلى تدخلها المباشر في تعيين الأئمة دون الرجوع إلى رأي العامة. كما أفادنا كثيرا في تناول موقف نفوسة من الفتن الداخلية. كفتنة محمد بن عرفة. وفتنة محمد بن رباح. ومحمد بن حماد.

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: لابن عذارى المراكشي (توفي بعد سنة 721هـ/1321م). يأتي هذا المصدر بعد ابن خلدون من حيث الأهمية التاريخية. ورغم ذلك فهو لا يؤرخ للإباضية عامة. وأفرد صفحات قليلة للحديث عن أئمة تاهرت. وقد أفادنا المصدر في تحديد أصول بعض قبائل البربر. وفي فتح مدينة سبرت (صبراتة). وفتح عمرو بن العاص للجبل. كما زدنا بمعلومات وافية عن الصراع بين عبد الرحمن بن حبيب وبين أخيه إلياس. وعن حصار طنبنة. والقيروان. من قبل أبي حاتم الملوذي وحلفائه. كما أفادنا بمعلومات عن حملة العباس بن أحمد بن طولون سنة 269هـ (882م) وقتال نفوسة له بقيادة أبي منصور إلياس. كما تناول الدعوة الشيعية ونجاحها في بلاد المغرب. وتحدث عن حال تاهرت بعد سقوط الدولة الرستمية. وعن الانتفاضات الإباضية في إقليم طرابلس. وعن العلاقات الزيرية الفاطمية وما ترتب عنها من قطع المعز بن باديس للخطبة للفاطميين في بلاد المغرب. وعلى العموم فقد استفدنا من هذا المصدر استفادة كبيرة على الرغم من أن أخبار الإباضية جاءت مقتضبة فيه.

- كتاب العبر: لعبد الرحمن بن خلدون (توفي سنة 1406/808م). يتفق جل المؤرخين على أن كتاب العبر يعد المصدر الأول الذي يجب الاعتماد عليه في دراسة تاريخ المغرب الإسلامي. باعتباره موسوعة تاريخية شاملة. وعلى الرغم من ذلك فإن ابن خلدون جاهل الإباضية تماما. حتى إن تناوله للدولة الرستمية جاء موزعا بين صفحات كتابه. ولم يفرد لها بابا مثل بقية الدول. وحتى فيما كتبه عن النكارية جاء ملخصا. عكس بعض المصادر المشرقية التي أسهبت في الحديث عنها. ومهما يكن من أمر فقد أفادنا ابن خلدون في دراسة أصول القبائل ومواطنها وعدد لنا القبائل التي أخذت بالمذهب الإباضي. والثورات التي قامت بها. كما أفادنا في الحديث عن حملة العباس أحمد بن طولون. وعن مشاركة نفوسة في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى. وعن الصراع بين زناتة وصنهاجة في إقليم طرابلس. وعن العلاقات بين الإمارة الزيرية والخلافة الفاطمية.

- صفة المغرب: لأحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي (ت 284هـ). يعد هذا المصدر من المصادر الجغرافية المهمة: إذ كان معاصرا للفترة التي نؤرخ لها. أضف إلى ذلك أنه

زار المنطقة. وقدم لنا معلومات وافية ودقيقة عن المدن. وعن المسالك. ومراحلها. وعن الموانئ. وعن مواطن القبائل. وحدود تلك المواطن. خاصة مواطن نفوسة. وعلى العموم فإن وصفه لمدين إفريقية والمغرب الأوسط كان مفيدا للبحث في باب الرابع.

- **صورة الأرض:** لابن حوقل (توفي في القرن الرابع الهجري/ 10م). إن أهم ما يميز هذا المصدر أن صاحبه عاش في عصر الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. وقد أفادنا كثيرا في دراسة الحياة الاقتصادية في هذه الفترة. حيث زدنا بمعلومات دقيقة عن المحاصيل الزراعية. وعن التجارة في كل مدينة. ثم أعقبها بذكر المسافات من برقة إلى البحر المحيط. وقد أفادنا كذلك في حديثه عن جبل نفوسة. حيث زدنا بمعلومات عن منتجاته الغذائية. كما أشار إلى دخول المذهب الإباضي إلى هذه الربوع. كما زدنا بمعلومات دقيقة عن تجارة السودان. وعن المعاملات التجارية.

- **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب:** لأبي عبد الله البكري (ت 487هـ). يعد هذا المصدر من المصادر الجغرافية القيمة. خاصة وأنه قريب من فترة البحث. بالإضافة إلى اهتمامه الدقيق بوصف المسالك التجارية. وتحديد مسافاتها ومراحلها. وحركة التجارة. والسلع الصادرة. والواردة. والأسعار. والمكايل والموازين. وقد أفادنا بوصفه الدقيق للمدن المغربية. والسودانية على حد سواء.

- **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس:** المقتبس من كتاب نزهة المشتاق لأبي عبد الله الشريف الإدريسي (المتوفي سنة 564هـ). أفادنا هذا المصدر هو الآخر في دراسة الطرق التجارية. والنشاط التجاري في بلاد المغرب. كما زدنا بمعلومات وافية عن حجم المبادلات التجارية بين مدن المغرب. وبلاد السودان. وقد انفرد الإدريسي بمعلومات قلما نجدها في مصادر أخرى: كذكره بأن أهل وارجلان كانوا يضربون الدنانير باسم بلادهم. وقد استفدنا منه كثيرا في تحديد مراحل المسالك بين جبل نفوسة وبين مدن إفريقية. ومدن المغرب الأوسط. كما أفادنا وصفه لمدينة شروس ومنتجاتها الغذائية. وعلى العموم فالكتاب حافل بمعلومات قيمة استقاها من مشاهداته ومن مصادر أخرى.

- **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار:** لمؤلف مجهول (توفي في القرن 6هـ). اشتمل هذا المصدر على معلومات وافية في التاريخ. والآثار. والعمران. والجغرافية. وقد ذكر المؤلف مشاهداته في الرحلات والأسفار التي قام بها. وبما أنه مراكشي. فقد جاء القسم الذي تناول فيه مدن المغرب غنيا بالمعلومات الدقيقة عن أحوال المدن ومنتجاتها. وأسواقها. وعلى الرغم من أن المؤلف كان معاصرا للموحدين إلا أننا استفدنا منه في

وصف مدينة شروس. وقد انفرد بذكر بعض عقائد سكانها الغربية عن المذهب الإباضي. كما ذكر لنا مراحل الطريق بين الجبل وبعض المدن المجاورة. ومجمل القول فقد أفادنا المصدر في مختلف عناصر الفصل الأول من الباب الرابع.

وبالإضافة إلى هذه المصادر فقد استفدنا من المصادر الجغرافية الأخرى مثل: كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي (ت 388هـ). وكتاب «الجغرافية» لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري (المتوفي في أواسط القرن 6هـ). و«معجم البلدان» لأبي عبد الله ياقوت الحموي (575-625هـ). وكتاب «الجغرافية» لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت 685هـ).

3 - المراجع الحديثة:

اعتمد الباحث على مجموعة كبيرة من المراجع الحديثة المتنوعة العربية منها. والأجنبية. ولعل أهم هذه المراجع هي ما كتبه الشيخ علي يحي معمر (رحمه الله) في سلسلة كتبه «الإباضية في موكب التاريخ». وعلى الرغم من أنه كان متعاطفا إلى حد بعيد مع إخوانه الإباضية. مما جعله يبتعد في بعض الأحيان عن الموضوعية. إلا أن استفادتنا منه كانت كبيرة. خاصة في وصفه للمدن. والقرى في الجبل وصفا دقيقا. مع تزويده لنا بمعلومات غزيرة عن علماء وشيوخ كل مدينة. وقرية. كما أن الباحث اعتمد على ما كتبه المستشرق البولوني تادايوش ليفيتسكي (Tadeusz Lewicki) المختص في التاريخ الإباضي: حيث ألف العديد من الدراسات في هذا الموضوع باللغة الفرنسية. والإنجليزية. وقد زدنا بها أثناء لقائنا معه في جامعة كراكوف ببولندا سنة 1986. ولا نبالغ إذا قلنا بأن أبحاثه أنارت لنا الطريق ويسرت لنا العديد من العضلات. كما استفاد الباحث من مؤلفات الأسرة البارونية مثل: سليمان بن عبد الله الباروني. وعبد الله بن يحي الباروني. كما أفادتنا مجموعة من الكتب التي تناولت الدولة الرستمية مثل كتاب: الدولة الرستمية. دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية» للأخ الفاضل الدكتور بحاز إبراهيم بكير. وكتاب «العلاقات الخارجية للدولة الرستمية» للأستاذ جودت عبد الكريم يوسف. وكتاب «الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي» للأستاذ الدكتور محمد عيسى الحريري.

هذه عينة من أهم المراجع التي اعتمدها الباحث في هذه الدراسة وهناك مراجع كثيرة ترد ذكرها في فصول هذا البحث.

الباب الأول

جبل نفوسة من الدعوة الإسلامية إلى الدعوة الإباحية

الفصل الأول

جبل نفوسة (البلاد والسكان)

1 - الموقع الجغرافي

2 - السكان (أصولهم ومواطنهم)

أ - نفوسة

ب - هوارة

ج - لواتة

د - مزاتة

هـ - سدراتة

و - لماية

ز - زناتة

د - زواغة

3 - أوضاع الجبل قبل الفتح الإسلامي

4 - الديانة

5 - الفتح الإسلامي

1 - الموقع الجغرافي:

يمتد جبل نفوسة على شكل قوس أو هلال، وهو امتداد لجبال أطلس المعروفة بجبال «درن» في المغرب الأقصى، من بحر الظلمات، مروراً بكل من المغرب الأقصى، والأوسط، والأدنى إلى أن تصل وتلتحم بجبال «قماطة»، وهي الهضاب التي تسمى «النقازة» غربي مدينة الخمس الليبية الحالية¹. ويحيط الجبل بمنطقة طرابلس الساحلية كالهلال حيث يفصل بينها وبين الصحراء في فزان. ولذلك تسمى الأقاليم الساحلية من طرابلس بـ «الجفارة»، والأقاليم الداخلية المرتفعة بـ «الجبل». والهضبة القاسية التي تنحدر بالتدريج نحو الصحراء بـ «الظهر»².

وقد تسبب موضع جبل نفوسة بهذا الشكل في ضيق إقليم طرابلس حتى أن الرحالة والجغرافيين المسلمين لم يجعلوه كيلاً خاصاً، بل عدوا مدينة طرابلس أول مدينة إفريقية. كما تسبب في سهولة اتصال إقليم فزان ببرقة وتونس والجزائر أكثر من اتصاله بطرابلس³. ويبلغ طول الجبل حوالي مائتي كيلومتر، ويلتقي في جزئه المركزي بسلسلة جبلية أخرى تصل سفوحها إلى مدينتي قابس، وليبتيس⁴، ويقع قبلة طرابلس على ثلاث مراحل⁵ أو ست مراحل⁶ ويبلغ من الطول سبع مراحل يتصل به من الشرق جبل مسلاتة⁷.

ويبعد عن مدينة سفاقس بتسع مراحل، وعن قسنطينة بست مراحل، وعن جبل

1 - أحمد الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المعارف، القاهرة، (د. ت)، ص 71.

T. Lewiki: Les Noms berbères employés chez les Nafusa médiévaux (VIII-XVI) Folia Orientalia Varsovie, 197273-, Tome 14, p05.

2 - سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، دار بورسعيد للطباعة، الإسكندرية، 1979، ج 1، ص 66.
عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، دراسات اجتماعية وأثنوبولوجية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1969، ص 18. كذا عند المؤلف «الظهر» والأصح هو تسميتها بـ طاهر، كما هو متعارف عليه عند أهالي نفوسة.

3 - سعد زغلول، المرجع نفسه، ج 1 ص 67.

4 - Jean Despois: Le Djebel Nafusa, étude géographique, édition, Larousse, Paris, 1935, p1.

5 - ابن خلدون: العبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1968، مج 6، ص 290.

6 - الشريف الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 199.

7 - ابن خلدون: المصدر السابق، مج 6، ص 290؛ أحمد بك النائب الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مطابع دار الغندور، بيروت (د. ت)، ص 68.

دمر بثلاث مراحل⁸، وعن غدامس بمسيرة سبعة أيام في الصحراء⁹، وعن قفصة بنحو ستة أيام، ويتصل بجبل «درن»¹⁰.

كان جبل نفوسة في القديم يمتد حتى جبال «نالوت»، في «تغرمين» وهي قرية أهلة تقع في منطقة الزنتان، وآخر حد جغرافي له هو مدينة القلعة، يرتفع من الشرق إلى الغرب حيث يبلغ ارتفاعه في نالوت 650م، وكباو 640م، وب «قيقيلة» 740م، وجادو 659م، ويفرن 715م، وككلة 805م. ويبلغ انحداره في السفح 320م في «دهيات» و342م في الجوش، وتبلغ مساحته إجمالاً حوالي أربعة آلاف كيلومتر مربع، ويبلغ عمقه حوالي عشرين كيلومتراً¹¹.

ويرى ليفيسكي أن الجبل يشمل مدن «نالوت»، و«فساطو»، و«يفرن»، وتشكل كل من: «غريان»، و«ترهونة»، و«مسلاتة»، الجزء الشرقي منه، في حين أنه كان في العصور الوسطى يضم «نالوت»، و«فساطو» فقط، أما منطقة «يفرن» فإنها تمثل حيزاً خاصاً. وإذا سائرنا رواية «الشماخي» فإن حيز قبيلة نفوسة كان يشمل كل المنطقة الممتدة من «نالوت» في الغرب، إلى مدينة «تغرمين» في الشرق، ويبدو أن هذا التحديد - يضيف ليفيتسكي - غير مكتمل، لأننا نلاحظ أن مدينة «وازن» الواقعة غرب «نالوت» قرب الحدود الطرابلسية - التونسية كانت في العصور الوسطى تدخل ضمن الإطار الجغرافي للجبل¹².

ويمتاز جبل نفوسة بتكامل طبيعي، واقتصادي، بين الجفارة، والظهر، والجبل، فالجفارة هي ذلك السهل الفسيح الذي يحيط به من الجهة الشمالية، ويمتد إلى غاية البحر الأبيض المتوسط. أما الظهر فهو عبارة عن مرتفعات صعبة المسالك، ووديان مفتوحة متعددة، وهي الوديان التي أقام النفوسيون حولها أغلب قراهم، وجنانهم، ونظراً لتنوع البيئة الجغرافية نلاحظ تعدداً في الأنشطة الاقتصادية، ذلك أن منطقة «الجفارة» عرفت بزراعة الحبوب، في حين قامت الزراعة في الجبل على الأشجار المثمرة خاصة أشجار الزيتون. أما الظهر فتنمو فيه الأعشاب الصالحة لتربية الأغنام والإبل¹³.

8 - الإدريسي: المصدر السابق، ص 199-200.

9 - مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958، ص 145.

10 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، ص 18.

11 - عبد الجليل الطاهر: المرجع نفسه، ص 21.

12 - T. Lewicki, La répartition géographique des groupements Ibadite dans l'Afrique du nord au moyen age, Rocznik Orientalistyczny, 1957, T 12, p332.

13 - عبد الجليل الطاهر: المرجع السابق، ص 18.

وقد أثرت طبيعة الجبل على توزيع السكان خاصة وأن المجتمع النفوسي مجتمع يعتمد على الزراعة، وبما أن كمية الأمطار في الشرق تفوق عن الغرب، فإن عدد السكان في الجهة الشرقية، يتجاوز بكثير عددهم في المنطقة الغربية، خاصة وأن الأراضي الشرقية تمتاز بخصوبتها وصلاحيتها للزراعة¹⁴.

وتتناثر المدن والقرى في الجبل حول مصادر المياه خاصة الوديان، فعلى ضفة وادي «لالوت» تقع مدينة «تيغيت» التي تعرف حالياً باسم «أولاد محمود»، وإلى الشمال من «لالوت» وعلى بعد عشرين كيلومتراً تقع بلدة «تاغرويت» المشهورة بعيونها وغزارة مياهها، وإلى الجنوب منها تقع قرية «تكوت» المعروفة بكثرة نخيلها، وإلى الشرق من «تيغيت» تنتشر مجموعة من القرى أشهرها قديماً قرية «تالات»، ومنها إلى بلدة تسمى «تيركت»¹⁵.

أما «وادي إكرّين»: فهو واد عميق، ينحدر من الجنوب إلى الشمال، ثم يتفرع إلى فرعين عند عين جارية تسمى «عين الثرارة» بالقرب من مدينة «كباو»، وتقع على ضفافه مجموعة من القرى، والمدن، مثل: مدينة «إبناين»، و«القلعة» و«تلات»، و«بودير»، و«نملل»، وغير بعيد عن هذه القرى تقع مدينة «تمزين»، ومعناها «مدينة الشعير»¹⁶.

وإلى الشرق من «كباو» تقع بلدة «فرسطا»، التي ينتسب إليها العديد من مشاهير العلماء النفوسيين، وفي شمالها تقع بلدة «قنطارة» المسماة حالياً بـ «تيجي»، وعلى ضفاف وادي شروس تقع أهم حواضر الجبل وهي مدينة «شروس»، التي تسمى الوادي باسمها، وهي مدينة اشتهرت بمياهها الجارية، وكرومها وأغابها¹⁷، وتقع على الضفة الشرقية لهذا الوادي بلدة «الجزيرة»، وإلى الغرب منها نجد مجموعة من القرى المشهورة في الجبل مثل: «دركل»، «بغطورة»، «دجي»، «تنزغت»، و«جرجن»، و«ويغو»، و«تمنكرت»، و«زعرارة»، وغيرها¹⁸، وغير بعيد عن «ويغو» تقع مدينة «تندميرة» التي ينتسب إليها أبو منصور إلياس التندميري - الذي تولى رئاسة الجبل في إمامة أبي اليقظان محمد بن أفلح بن عبد الوهاب (261 - 281هـ) (874 - 894م) - وإلى الغرب من هذه المدينة تقع مدينة «تملوشايت»¹⁹.

14 - نفسه، ص 19.

15 - علي يحيى معمر: الإيضاح في ليبيا، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ط 1، القاهرة، 1964، ص 173.

16 - المرجع نفسه، ص 178.

17 - ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت (د. ت)، ص 92.

18 - معمر: المرجع السابق، ص 184.

19 - R. Basset: les sanctuaires du djebel Nafusa, les cahiers de Tunisie, Tunis, 1981. T 29, N° 115116- p383, T. kwicki: Tasmiya Suyuks Nafusa Wa Qurahum, Rocznik Orientalistyczny Varsovie, 1961, T

أ - نفوسة:

صنف المؤرخون قبيلة نفوسة ضمن البربر البتر. وذكروا أن جدهم الأول هو «مادغيس». وتشعبت من ابنه «زحيك» بطون عديدة. فقد ترك هذا الأخير أربعة أبناء هم: «نفوس»، «أداس»، «ضرا»، «لوا». وإلى نفوس تنتسب قبيلة نفوسة. فهم بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها. وكانوا من أكبر قبائل البربر، فيهم شعوب كثيرة مثل بني زمر، وبني مكسور، وماطوسة. وكانت مدينة «صبرة» قبل الفتح الإسلامي ضمن مواطنهم²⁵. فأما بنو زمر فقد كان لهم حصن منيع يسمى: «تيرقت» (تيركت). جاورهم قبيلة «بني تدرميت» التي تملك هي الأخرى ثلاثة حصون قرب مدينة «جادو»²⁶ وغير بعيد عن مدينة «جادو» وعلى الطريق الذي يربط «أدرف» بقرية ميري - موطن بني زمر - توجد قرية «ماطوس»، والتي تعود تسميتها إلى قبيلة ماطوسة النفوسية²⁷. كما نجد قرية تسمى «تين مسكورة». وربما تعود تسميتها إلى «بني مسكورة»، إحدى فروع نفوسة²⁸. وهي القبيلة التي ذكرها ابن خلدون باسم «بني مكسور»²⁹ وقد شكك ليفيسكي في أن هذا البطن من نفوسة لأن له ما يشابهه ضمن بطون زناتة وهم بني مصكورين³⁰. ويبدو أن القرية المسماة «مصغورة» الواقعة في الجزء الشرقي من الجبل أخذت اسمها من قبيلة «بني مسكور» هذه³¹. كما أن قبيلة «أمسنان» هي فرع من نفوسة. وهناك بلدة تسمى «نفوسة أمسنان». لا يعرف موقعها ولكن يبدو أنها تقع في بلاد الجريد ولا تبعد كثيرا عن مدينة «تقيوس»، و«قنطرار»³².

ومهما يكن من أمر فإن هناك من يرى بأن نفوسة سميت بهذا الاسم لأن أفرادها أسلموا بنفوسهم، وأذعنوا للإسلام من تلقاء أنفسهم دون داعي قاهر³³. والحقيقة أن القبيلة معروفة ومشهورة بهذا الاسم قبل قدوم الفاتحين العرب.

25 - ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص 230.

26 - البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبعه دي سلا، الجزائر، 1957، ص 7.

T. Lewicki, La répartition géographique, p335.

27 - ibid, p335.

28 - ibid, p334.

29 - ينظر: كتاب العبر، مج 6، ص 230.

30 - T. Lewicki, op, cit, p334.

31 - T. Lewicki, Du Nouveau Sur La Liste Des Tribus Berberes D>ibn Hawkal, Folia orientalia 1971, T 13. p182.

32 - Ibid, p185.

33 - محمد بن يوسف أطفيش: رسالة شافية في تاريخ وادي ميزاب، مخطوط بمكتبة القطب، غرداية (الجزائر)، ص 11.

وتقع على وادي «أمسين»، ووادي «جلازن»، مجموعة من القرى منها «فساطو». وعلى ضفاف وادي الزرقاء تقع «الجماري»، و«تيندباس»، و«مزغورة»، و«ويفات»، و«توكيت» المعروفة كذلك باسم «تمزدة»، وقرية «إرجان». وإلى الشمال من هذه الأخيرة تقع مدينة «جادو»، أم قرى الجبل ومركز الرئاسة فيه. وتقع في أرباضها قرى عديدة منها: «إجنان»، و«تموقط»، و«طرميسة»²⁰.

وعلى ضفاف وادي الآخرة الذي ينحدر هو الآخر من الجنوب إلى الشمال تنتشر مجموعة من القرى مثل: «تاردية»، و«سنتوت»، و«ميري»، و«أدرف»، و«تغرمين»²¹.

وبما سبق، يتضح بأن البيئة الجغرافية كان لها دور كبير في التوزيع السكاني، وأن حياة السكان ارتبطت بمجاري الوديان.

2 - السكان (أصولهم ومواطنهم):

إنه ليس من السهل بمكان أن نعرف بدقة القبائل التي كانت تتخذ الجبل موطنًا؛ ذلك أن المصادر التاريخية أو الجغرافية التي تحدثت عنه تذكر دائما «نفوسة». فقوتها وتعدادها جعلها أخبارا تطغى على بقية القبائل، إضافة إلى ذلك عدم الاستقرار الذي عرفته بلاد المغرب قبل الفتح وبعده جعل القبائل في حركات مد وجزر ما يصعب وضع خريطة جغرافية لمواطن القبائل وتتبعها. فنفوسة نفسها انتشرت في العديد من المناطق مثل: بلاد الجريد، وتونس، والقيروان، وتاهرت، وأريغ، بل هاجرت حتى إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى، إذا صحت رواية اليعقوبي²². ولا تختلف عنها هواره، ولواتة. هذه الأخيرة كانت ضمن القبائل التي انضمت إلى إدريس بن عبد الله في المغرب الأقصى مثلها مثل قبيلة زواغة، وغيانة، ونفزة...²³ ويؤكد ذلك ابن عبد الحكم في قوله: «فتفرقوا هناك (أي البربر) فتقدمت زناتة، ومغيلة، إلى المغرب وسكنوا الجبال. وتقدمت لواتة فسكنت أرض أنطابلس - وهي برقة - وتفرقت في هذا المغرب، وانتشروا فيه حتى بلغوا السوس. ونزلت هواره مدينة لبد، ونزلت نفوسة إلى مدينة سبرت، وجلا من كان بها من الروم من أجل ذلك»²⁴. ويمكن أن نعد القبائل التي استوطنت الجبل كما يلي:

25, p103.

20 - معمر: المرجع السابق، ص 193-202.

21 - نفسه: ص 211-213.

22 - ينظر: تاريخ اليعقوبي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1960، ج 1، ص 154.

23 - ابن خلدون: كتاب العبر، مج 7، ص 24.

24 - ينظر: فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964، ص 28.

ب - هواره:

هي بطن من البربر البرانس تنسب إلى هوار بن أوريج بن برنس. جد البرانس. وتتفرع إلى عدة بطون أخرى مثل: غريان، وورفل، وسراتة، ومجريس³⁴. ولا يستبعد أن تكون مدينة غريان الحالية الواقعة في محافظة الجبل الغربي (جبل نفوسة) تنسب إلى هذا البطن. ورغم اتفاق نسابة العرب والبربر في أنهم من هواره إلا أن بعضهم يزعم أنهم من عرب اليمن، وينتسبون إلى المسور بن السكاسك بن وائل بن حمير. ويذكرون أن هوار بن أوريج هو ابن خنون بن المثنى بن المسور، وأن هواره، وصنهاجة، ولطة، وكزولة، وهسكورة، يعرفون جميعهم بـ «بني ينهل» وأن المسور هو جدتهم جميعا. وقد نزلوا على بني زحيك بن مادغيس الأبتري جد البربر البتر. ولهواره بطون أخرى غير التي ذكرناها أعلاه، تنتشر في العديد من المناطق منها: بنو نيه، أوريج، وبنو كهلان. ولا يستبعد أن تكون قبيلة مليلة بطن من بطونهم³⁵.

وتزعم هواره أن مزاتة، ولواتة، كانوا منهم ثم فارقوا ديارهم، وانتقلوا إلى برقة وغيرها³⁶. وكانت مواطن هواره إبان الفتح الإسلامي في نواحي مدينة طرابلس وما يليها إلى برقة، وسرت، وكانت تجاور نفوسة، ومنهم من ارتحل إلى الجنوب الغربي ونزل قرب قبيلة لطة، إحدى قبائل المثلثين فيما يلي بلاد كوكو من السودان، ويعرفون بـ «هكارة» وقد حول الأعاجم وأوها إلى كاف أعجمية تخرج بين الكاف والقاف العربيتين فقالوا: «هكارة»³⁷. وقد سكنت طائفة من هواره جبل نفوسة³⁸ ولعل مسجد «إمصراتن» الواقع غير بعيد عن مدينة «جادو» من الجهة الشرقية تعود تسميته إلى القبيلة الهوارية «مسراتة» (بنو مسراتة) والتي تواجدت بصورة رئيسية في المنطقة الساحلية لطرابلس³⁹.

كما انتقلت هواره إلى تاهرت واستوطنت أحوازاها. ففي عصر ابن الصغير كان لهم رؤساء يقال لهم الأوس، ويعرفون ببني مسالة. وعلى بعد عشرة أميال عن تاهرت يوجد

34- ابن خلدون: كتاب العبر، مج 6، ص 284؛ أحمد الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 27-28.

35 - ابن خلدون: نفس المصدر والمجلد، ص 282-284.

36 - اليعقوبي: صفة المغرب المأخوذة من كتاب البلدان، نشره دي خوية، مطبعة بريل 1850، ص 7؛ محمد سليمان أيوب: جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، دار المصراي للطباعة والنشر، طرابلس (د.ت)، ص 52.

37 - ابن خلدون: المصدر السابق، مج 6، ص 286؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص 28.

ملاحظة: الأرجح أنها أمازيغية حيث أن الأمازيغ يحولون الواو المشددة إلى ك معكوفة كما في قولهم للشبيء الحمير يزوغ وعندما يحولونه إلى لون يشددون واوه لتصبح أزوغاغ. أو الشعر زاو عندما يحولونه إلى صيغة الجمع تشدد واوه فتصبح نزاكن... والدليل الأهم من ذلك أن الهكارة قبيلة أمازيغية، فلماذا يلجأون إلى لغة الأعاجم لصياغة إسمهم.

38 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص 125.

39 - T. Lewicki, La répartition géographique, p335.

واد يسمى «وادي هواره»⁴⁰. كما تواجدت في جبل وانشريس ولبدة⁴¹ وتيجيس⁴² وأجلو قرب واد آسوف⁴³ وبالمسيلة⁴⁴ وغيرها.

ج - لواتة:

هي إحدى بطون البربر تنسب إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك. ولوا الأصغر هو نفزاو ولوا هو اسم أبيهم. ولا يستبعد أن يكون العديد من الهواريين قد اتخذوا جبل نفوسة موطنًا لهم، خاصة ونحن نعلم أنه لا يبعد كثيرا عن طرابلس وعن موطن هواره الأولى. فابن خلدون يقول: «ويتصل به شرقا (أي جبل دمر) جبل نفوسة تسكنه أمة كبيرة من نفوسة، ومغراوة، وسدراتة، ويتصل به من جانب الشرق جبل مسلاتة، ويعتمره قبائل هواره إلى بلد مسراتة، ويفضي إلى بلد سرت، وبرقة، وهو آخر جبال طرابلس، وكانت هذه الجبال من مواطن هواره، ونفوسة، ولواتة»⁴⁵.

ويرى ابن حزم أن نسابة البربر يزعمون أن سدراتة، ولواتة، ومزاتة، من القبط في حين يفند ابن خلدون ذلك⁴⁶. ويذكر اليعقوبي أنه وقع خلاف في نسبها؛ فالبعض يرى بأنهم من ولد لواتن بن بر بن قيس غيلان، وبعضهم يعتبرهم من لحنم، أصلهم من بلاد الشام وانتقلوا إلى هذه الربوع، والبعض الآخر يرجع أصلهم إلى الروم⁴⁷. وترجح بعض الروايات أن اسم لواتة هو الاسم القديم الذي عرفت به هذه القبائل، وحواره اليونان إلى لوبيين أوليبين⁴⁸ وأن البربر إذا أرادوا الجمع أضافوا الألف والتاء فقالوا: «لوات»، ولما عربته العرب حملوه على الأفراد وأضافوا إليه الهاء فقالوا: «لواته»⁴⁹.

وتتفرع لواتة هي الأخرى إلى قبائل ويطون كثيرة مثل: سدراتة بن نيطط بن لوا، وعزوزة بن ماصلت بن لوا، وأكورة، وجرمانة، ومغانة، وبنو زائد بن لوا، وأكثر بطونهم مزاتة⁵⁰.

40 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر، بحاز إبراهيم بكير، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 52-53.

41 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص 154-155.

42 - إدريس عماد الدين القرشي: عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، (د.ت)، السبع الخامس، ص 73.

43 - الوسياني: السير، مخطوط، بمكتبة القطب غرداية (الجزائر)، ج 2 و 36.

44 - مجهول: الاستبصار، ص 172.

45 - ينظر: العبر، مج 6، ص 290.

46 - نفس المصدر، والمجلد، ص 290.

47 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص 4.

48 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج 1، ص 93.

49 - ابن خلدون: العبر، مج 6، ص 235؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص 29.

50 - نفس المصدر، والجزء والصفحة: حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

وكانت لواتة تستوطن نواحي برقة في أثناء الفتح. فالمصادر تذكر أن عمر بن العاص صالح أهلها على الجزية. ويزودنا اليعقوبي بتفاصيل دقيقة عن مواطن بطونها. حيث يذكر بأن ببرقة جبلين. أحدهما يقال له «الشرقي» والآخر يقال له «الغربي» وهذا الأخير تسكنه بطون «زكودة. ومقرطة. وزنارة». ولبرقة أقاليم كثيرة تسكنها هذه البطون منها مدينة «برنيق» التي سكنتها بطون سوه. مسوسة. مغاعة. وأهلة. ووجدانة. كما تتواجد هذه البطون في مدينة إجدابية. ولهذه الأخيرة أقاليم. وساحل على مسافة ستة أميال منها ترسوا به المراكب. وهي آخر ديار لواتة من المدن. كما تتواجد في مدينة قابس⁵¹. وفي تاهرت حيث كان لها حصن يسمى «تماليت»⁵². وفي بعض مدن الواحات بين إفريقية ومصر⁵³. وفي جبل أوراس⁵⁴. وذكرها ابن خلدون ضمن القبائل التي انضمت إلى إدريس بن عبد الله في المغرب⁵⁵. ولا يستبعد أن تكون أسيرة من لواتة تقيم في الجبل أو في أطرافه. والدليل على ذلك أن عمر بن مكتن اللواتي - أحد علماء الإباضية - سكن الجبل بعدما كان في طريق مغمداً. وهو الذي تولى الإمارة في سرت. وقاد كتائب لواتة في الثورة التي فجرها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري - كما سنرى في الفصل الموالي - وقد اعتمد الأئمة الرستميون على بعض رجال لواتة في تعيينهم على النواحي. مثل تعيين الإمام عبد الوهاب لسلام بن عمرو اللواتي على سرت ونواحيها⁵⁶.

د - مزاتة:

مر بنا أن مزاتة هي من أكبر بطون لواتة. وقد انتشرت هي الأخرى في العديد من الأماكن مثل «باغاية»⁵⁷. وجبل نفوسة. فهناك إشارات توحى بأنها كانت متواجدة فيه بكثرة. ولها قصور ومدن معروفة بها. فقرية «دجي»⁵⁸ كانت تسكنها قبيلة «دغمة». وهي فرع من فروع «مزاتة». كما أن مسجد «طوفت» الذي يقع بين «ويغو» ووادي «بقالة». تعود تسميته إلى بني «يطوفت». وحسب ابن عذارى فإن بني يطوفت ينحدرون من

(د.ت. ص 53).

51 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص 3-4.

52 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 85-107.

53 - مجهول: الاستبصار، ص 148.

54 - ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر، 1982، ص 144.

55 - ينظر: العبر، مج 6، ص 300.

56 - الشماخي: السير، طبعة حجرية، القاهرة (د.ت)، ص 203-142.

T. Lewicki: Lawata, Encyclopédie De L'islam, Nouvelle Edition, 1979, p700701-.

57 - البكري: المغرب، ص 144-145.

58 - (دجي) بكسر أوله وثانيه مع الشدة وتنطق أيضا في بعض المناطق (دَجِي) بفتح الأول.

«نفزاوة»⁵⁹ بينما يذكرها ابن حوقل (يطوفة) كفر من مزاتة. ولواتة. وهوارة⁶⁰. وينسب إلى هذا الفرع الزعيم الإباضي أبو حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي. لأن يطوفت ينحدر من ملزوزة.

وإلى الشمال من جادو توجد بلدة تسمى «أرجان». تعود تسميتها إلى قبيلة تنحدر من مزاتة. وإليها ينسب الشيخ أبو يحيى زكريا الأرجاني. الذي تولى رئاسة الجبل في بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وفي شرق مدينة ميري توجد قرية «درف». المنسوبة إلى «بني درف». والذين ذكرهم ابن حوقل ضمن قبائل مزاتة. ولواتة. وهوارة⁶¹.

كما نجد العديد من الشيوخ الساكنين بالجبل ينحدرون من أصول مزاتية. مثل: أبي عثمان المزاتي في «دجي»⁶². و«بيران الزمرتي». عامل عبد الوهاب وأبي نوح سعيد بن زنگيل المطكودي⁶³. وينتسب هذا الأخير إلى بني مطكوداسن (مصكوداسن). مطكودازن). ويرى ليفيسكي أن بني مطكود فرع من مزاتة. وأن الجزء الأخير من الكلمة (اسن) غير مفهوم على الرغم من شيوع استعماله عند البربر مثل: (جلداسن). (يغمراسن). و(سمداسن). كما أن هناك بلدة تقع على شاطئ طرابلس تسمى «سويقة ابن مطكود»⁶⁴. أما الإدريسي فيسميها سويقة ابن مثكود. ويذكر بأنها تبعد عن مدينة زويلة بستة عشر مرحلة⁶⁵.

وكانت مزاتة زمن الفتح تسكن مدينة الرمادة. وسرت. وودان. وتنقطع منازلها ابتداء من «تاورغا». حيث تبدأ منازل هوارة⁶⁶. كما تواجدت بطون منها في أرياض تاهرت. فابن الصغير يذكر أن المزاتيين. والسدراتيين. كانوا ينتجعون من أوطانهم في المغرب في فصل الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها بحثا عن الكلا⁶⁷. ويبدو أنهم كانوا أعدادا كبيرة حتى إنهم أمروا عليهم أبا يعقوب المزاتي. أحد أثرياهم⁶⁸. ويذكر الإدريسي بأن لهم أقواما قرب «لك» وهو موضع لا يبعد كثيرا عن «طلمئية». بين برقة وطرابلس⁶⁹. وفي عصر الدرغيني

59 - ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان وليفي بروقنسال، دار الثقافة، ط2، بيروت، 1980، ج 1، ص 66.

60 - ينظر: صورة الأرض، ص 103.

61 - نفس المصدر، ص 103؛ وينظر كذلك T. Lewicki, La répartition géographique, p333-336.

62 - الشماخي: السير، ص 205.

63 - المصدر نفسه، ص 591.

64 - T. Lewicki, Du nouveau sur la liste , p183.

65 - ينظر: القارة الإفريقية، ص 214.

66 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص 2-4-5-6.

67 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين، ص 7.

68 - المصدر نفسه، ص 113.

69 - ينظر: القارة الإفريقية، ص 214.

كانت أقوام كثيرة منها تعيش في إفريقية. حيث قال: «كانت مزاتة بإفريقية في قوة عظيمة، من مال، وحال، ورجال، وخيل، وقالوا إنهم كانوا إذ ذاك في إثني عشر ألف فارس، وأما الرجال فلا يحصون كثرة»⁷⁰.

هـ - سدراتة:

هي إحدى بطون لواتة، اتخذت هي الأخرى الجبل موطنًا لها، حيث نجدها في بلدة «تاغرويت»، قرب مدينة نالوت، وفي «تبرست»، و«تين ونزيرف»، و«إنير»، وفي بلدة «مرغاس»، التي تعود تسميتها إلى قبيلة «بني مرغاس»، السدراتية⁷¹. وتذكر المصادر علماء أجلاء من أصل سدراتي مثل: أبي مرداس مهاصر السدراتي الساكن بتبرست، والذي كان معاصرا للإمام عبد الوهاب (171-208هـ) (787-823م)، فهو الذي كان يجمع أموال الوصايا بالجبل، فيحملها معه إلى بيت مال تاهرت⁷². كما تواجدت في مدينة بسكرة ببلاد الزاب، رفقة بني مغراوة⁷³. ويشير ابن خلدون إلى أن «بني جابر» المقيمين في «ورديقة» - في سفح جبل تادلا - بالمغرب يزعمون أنهم بطن من بطون سدراتة⁷⁴. كما استوطنت سدراتة جنوب وارجلان، وأسس أفرادها مدينة لهم عرفت باسمهم. وقد ساهمت هذه القبيلة في تموين أبي يزيد مخلص بن كيداد اليفرنى بالمؤن عندما فجر الثورة ضد العبيديين⁷⁵.

و - لماية:

هي بطن من بطون بني فاتن من ضريسة، إحدى بطون البربر البتر، وكلهم من ولد فاتن بن تمصيت بن ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبت⁷⁶. ولها بطون كثيرة نذكر منها: بنو زكوف، مزيرة، مليزة، بنو مدينين. وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط في تاهرت⁷⁷. كما اتخذت إقليم طرابلس موطنًا لها، حيث اجتمعت جموعها عند عيون «تمولست» بين

طرابلس، وإفريقية⁷⁸. وهناك موضع يعرف باسمها يقع بين «زنزور»، و«الزاوية»⁷⁹. ويبدو أن بطونا منها كانت موجودة في الجبل، خاصة وأنها كانت - فيما بعد - سندًا قويًا للمذهب الإباضي. وقد اشتهر بعض رجالاتها بالعلم وحلقات التدريس⁸⁰.

ز - زناتة:

هي قبيلة بربرية كبيرة اعتبرها ابن خلدون فرعًا قائمًا بذاته عن سائر البربر، ونسبها إلى البربر البتر. وكانت فروع منها مقيمة في الجزء الشرقي من الجبل. ففي ناحية «فساطو» وغير بعيد عن بلدة «واسين»، نجد موضعا يسمى «حارة بني انغاسن»، فهذه التسمية تعود إلى القبيلة البربرية الإباضية «بني ينغاسن»، وهي إحدى فروع زناتة. كما أن «يوجلين» الواقعة قرب «جادو» تعود تسميتها إلى «بني يوجلين» المنسوبة إلى زناتة⁸¹. وإليها ينسب الشيخين العالمين: أبا محمد عبدة بن أفلح الياجلاني، وأبا الربيع الياجلاني (الياجلاني)⁸². كما أن إيدرج (يدرج، تدرج) هي من دون شك اسم لقبيلة زناتية، كانت تسكن واحة «درج» والتي لا تبعد كثيرا عن غدامس⁸³.

ح - زواغة:

هي بطن من بطون البربر البتر، من ولد سمكان بن يحيى بن ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبت، ويتفرعون إلى ثلاثة بطون هي: دمر، بنو واطيل، وبنو ماخرين، وأما مواطنهم فهي جبال شلف، وفاس، وقسنطينة⁸⁴. ولا تذكر المصادر الجغرافية، أو المصادر التي اهتمت بذكر مواطن القبائل وتحركاتها إن كانت زواغة متواجدة في الجبل أو لا على الرغم من أن هناك مدينة تقع غربي طرابلس بنحو خمسين كيلومترا، وغربي صبراتة بنحو عشرة كيلومترات تسمى «زواغة» نسبة إلى القبيلة⁸⁵.

وبالإضافة إلى القبائل التي ذكرناها، هناك قبائل أخرى كانت موجودة في الجبل مثل:

78 - أبو زكريا: كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق: عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985، ص271.

79 - الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص29-30.

80 - منهم أبو محمد عبد الله بن مانوج اللماهي، أحد علماء النصف الأول من القرن 5هـ (11م) وهو أحد الجماعة التي ألقت ديوان العزابة ينظر: أبو زكريا، المصدر السابق، هامش 13، ص241.

81- T Lewicki, La répartition, p335.

82 - ينظر: السير، ص334-335.

83 - T Lewicki: Du Nouveau Sur La Liste Des Tribus Berbères, p185.

84 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص261-264.

85 - الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص29.

70 - ينظر: طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة (د.ت)، ج1، ص124.

72 - الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص292؛ الشماخي: السير، ص595.

73 - البكري: المغرب، ص53.

74 - ينظر: العبر، مج6، ص68-67.

75 - أبو عبد الله الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص41.

76 - ابن خلدون، المصدر السابق، مج6، ص239.

77 - نفس المصدر والمجلد، ص246.

تناوة. زنداجة. ويزمرتن وبعض العرب من معافير اليمن⁸⁶. ويرى الباروني أن هناك بعض القبائل قدمت من المشرق الإسلامي إلى الجبل. ويعلل قوله بأن هناك أماكن وقبائل تسمى بأسماء أماكن في المشرق منها: قبيلة «الحرمان» التي نزلت بجبل فساطو. وعمّرت بلدة تعرف باسمها. ومنها «جزوى» وهو موضع في ظاهر جبل فساطو. ومنها قبيلة «طرمةيسة» التي سكنت الموضع الذي يعرف باسمها والواقع على رأس جبلين «جادو» و«تاردية». ومنها المكان المسمى بـ «جندوبة» بناحية ككلة قرب جبل يفرن⁸⁷.

ومهما يكن من أمر فإن جبل نفوسة كان عامرا بالسكان من قبائل متعددة. على الرغم من أن المصادر تذكر بأن العرب لم يجدوا عند الفتح في إقليم طرابلس سوى لواتة ونفوسة. وجمع المصادر الجغرافية على عمارته. فاليعقوبي يقول: «ومنازلهم (أي نفوسة) في جبال طرابلس في ضياع. وقرى. ومزارع. وعمارات كثيرة... وديار نفوسة متصلة من حد طرابلس ما يلي القبلة إلى قريب من القيروان. ولهم قبائل كثيرة وبطون شتى»⁸⁸. فلا غرابة - إذن - أن تحيط بمدينة «شروس» وحدها أزيد من ثلاثمائة قرية⁸⁹.

وإذا عدنا إلى المصادر الإباضية نجد أنها تشير إلى المئات من القرى. إضافة إلى الحواضر المعروفة مثل: «جادو. شروس. ويغو. إفاطمان. كاباو. ابدلان. تدميرة (تندميرت). ميري. تمزين. فساطو. جناون. تملوشايت. وغيرها من المدن. وتجدر الإشارة في الأخير أنه وبالإضافة إلى القبائل البربرية التي ذكرناها. هناك بعض الروم الذين استقروا في الجبل. أما العبيد من السودانيين فقد كثرت أعدادهم في الجبل عندما راجت تجارة الرقيق في بلاد المغرب.

وأما عن سبب تسمية هذا الجبل بجبل نفوسة. فيعود إلى قبيلة نفوسة وهي أشهر القبائل التي سكنته. على الرغم من أنها كانت تستوطن جزءا منه فقط. ويبدو أن التسمية شملت كل أطرافه فيما بعد أي بين وزان وحدود يفرن الغربية؛ ضامة بذلك كل المناطق الأهلة التي لا ينحدر سكانها أصلا من قبيلة نفوسة. ولكنهم دخلوا في خالف معها. ويبدو أن نفوسة كانت في العصور الوسطى تسيطر فقط على الجهة الغربية من الجبل والتي تسمى «أميناج» في حين أن الجهة الشرقية - أي جهة جادو -

86 - الشماخي: السير، ص596-597.

87 - سليمان بن عبد الله الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية. تحقيق محمد علي الصليبي. المطابع العالمية. روى سلطنة عمان 1987، ج2، ص137.

88 - ينظر: صفة المغرب، ص7.

89 - مجهول: الاستبصار، ص144.

والتي تحدها غربا منطقة الرحيبات كانت تسكنها قبائل عديدة لا تنحدر من نفوسة⁹⁰. وقد اندمجت معها منذ وقت مبكر. فابن خلدون يعد قبائل بني زمو. وبني مصكورة. وماطوسة. كبطون منها⁹¹.

ولا نعرف بالضبط متى أصبح الجبل يسمى باسمها. ولكن يبدو أن ذلك يعود إلى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) خاصة عندما أخذت بالمذهب الإباضي وتزعمت ثورة الخوارج في إفريقية. ولعبت دورا كبيرا في تأسيس الدولة الرستمية سنة 160هـ (776م). ولم تذكر المصادر تسمية أخرى لهذا الجبل اللهم ما ذكره اليعقوبي بقوله: «أرض نفوسة»⁹².

3 - أوضاع الجبل قبل الفتح الإسلامي:

تتفق المصادر على أن جبل نفوسة كان عامرا بالسكان قبل الفتح الإسلامي. حينما كان ضمن إقليم طرابلس. وقد لاحظ J.Despois أن تكاثر العمارة بالجبل قد أكدته علم الآثار. ويحتمل أنه يعود إلى عصر ما قبل التاريخ عندما كان الجبل ملجأ - مثل الواحات ووادي النيل والوديان الصحراوية - لمخلوقات العصر الحجري الجديد. الذين تخلوا عن المساحات الفسيحة المستخدمة في العصر الحجري القديم بسبب الجفاف. وبما أن إمكانات الجبل محدودة. فإننا نلاحظ أن سكانه اعتمدوا على سهل الجفارة الممتد جنوب مدينة زوارة الحالية لمسافة تفوق مائة كيلومتر⁹³.

وإذا كنا لا نجد المادة الكافية التي تضيء لنا تاريخ الجبل كوحدة جغرافية. فلأن أخبار إقليم برقة وطرابلس طغت على تاريخ المنطقة. إلا أن البحوث الأثرية أكدت وجود حضارة فيه بلغت درجة كبيرة من التقدم والازدهار. فقد قام عدد من العلماء الإيطاليين بدراسة عصر ما قبل التاريخ في كل من برقة وطرابلس. وقام الأثري جرازوزي Graziosi بعدة أبحاث. ثم جاء بعده عالم الآثار الفرنسي دالوني Dalloni ليكمل البحوث في إقليم فزان. وسمحت هذه البحوث بالكشف عن العديد من الرسوم والنقوش التي تصور حياة الإنسان في تلك الفترة الزمنية الغابرة. وكانت هذه الرسوم الصخرية ممتدة من جبل نفوسة شمالا إلى تاسيلي جنوبا. أما الرسوم فهي عبارة عن حيوانات مفترسة. وحيوانات برية. ورجال

90 - T. Lewicki, La répartition, p.332

91 - ينظر: العبر، مج6، ص229-230.

92 - ينظر: صفة المغرب، ص7.

93 - Jean Despois: Le djebel Nafusa, p280

يقودون عربات جرها الخيول، أو يركبون الخيول بأنفسهم، ورجال يرعون الجمال⁹⁴. ويذكر محمد سليمان أيوب أن سكان جبل نفوسة هم أول من استورد الجمال بعد سكان لبدة. هذه الأخيرة التي كانت مركزا لبيع الإبل في هذه المنطقة في القرن الرابع الميلادي. ثم اشتهرت قبائل مزاتة، ولواتة، وهوزة بتربيتها واستعمالها كوسيلة نقل للتوغل في الصحراء. ويرى بأن تسمية الجمل في الصحراء بـ «الزائلة» مرده أن هذا الحيوان جاء إلى الصحراء الكبرى لأول مرة مع أهل «زلة». وزلة⁹⁵ مدينة هوارية تقع جنوب سرت⁹⁶ وإذا كانت كلمة «زائلة» يقصد بها في بعض الجهات «الجمل»، فإنها تعني في مناطق أخرى من بلاد المغرب كل حيوان يستعمل للركوب والتنقل، وهذا يجعلنا نستبعد أن تكون كلمة «زائلة» تعود تسميتها إلى هذه المدينة. ولعل أول ما يسترعي الاهتمام هو أن جبل نفوسة كان منذ القدم عامرا ومأهولا بأقوام إفريقية عريقة في القدم، تعرضت لغارات وغزوات آتية من البحر، أو من الصحراء، وبعد هؤلاء أنفسهم أجداد البربر⁹⁷. وقد ذكر صاحب الاستبصار أن مدينة شروس قديمة وفيها آثار للأول⁹⁸ مما يعني أن عمرانها يعود إلى الأزمنة الغابرة.

وتجدر الإشارة إلى أنه ليست لدينا معلومات كافية عن الجبل في العصور الغابرة لأن المصادر أغفلت هذه المرحلة، ولكن يمكن القول إن المنطقة الواقعة بين الساحل والواحات الصحراوية هي المنطقة الوحيدة التي تتوفر على موارد المياه في العصر الحجري القديم والجديد وبالتالي يمكن أن توجد هناك حياة تمكن الإنسان النفوسي من الاشتغال بالزراعة. وبعد مجئ الفينقيين احتل هؤلاء بعض الموانئ مثل: لبيتيس، وماجنا، وأويا، وصبراتة. وقد أشار سنزايون إلى أن سكان الجفارة في القرن الأول الميلادي هم من الليبيين والفينقيين. كما تحدث هيرودوت بعد أربعة قرون عن «اللوتوفاجيين»، و«الجنديانيين»، و«الجارمانت» في فزان ووصفهم بأنهم من الأثيوبيين، وبينهما تواجد الجيتول البدو في القبلة والظهر. والجيتول هؤلاء هم سكان الجبل⁹⁹.

94 - محمد سليمان أيوب: مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى 1811، المطبعة الليبية، طرابلس (د.ت)، ص36-38.

95 - يسميها الإدريسي (زالة) وهي مدينة تبعد عن أوجلة بعشر مراحل، وعن زويلة بعشرة أيام، وعن ودان بثلاثة أيام وعن سرت بتسعة أيام، ينظر: القارة الإفريقية، ص213.

96 - محمد سليمان أيوب: جزمة من تاريخ الحضارة الليبية، ص205-206.

97 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، ص15.

98 - ينظر: ص144.

99 - عبد الجليل الطاهر: المرجع السابق، ص66.

Jean Despois: Le djebel Nafusa, p281-

ومهما يكن من أمر فإن معرفتنا بإقليم طرابلس تبدأ مع القرن العاشر قبل الميلاد، حيث كانت تسكنه أقوام تدعى «الليبيين»، ذكر هيرودوت (ق 5 ق م) بعض أسمائهم مثل: الناسمون (Nasmoni) سكان خليج سرت، وبسيللي (Psylli)، وماكاي (Macae)، وجندانس (Gindanes)، في المنطقة الواقعة بين خليج سرت الصغير (خليج قابس)، وفي المناطق الداخلية نجد «الجارمانت» (Garamanti)، و«الغانفسنتي» (gamfasanti). أما سنزايون فإنه يضيف عما ذكره هيرودوت الجيتول باعتبارهم هم كذلك من سكان المناطق الداخلية. وتعد الأخبار التي أوردها بروكوبيوس (القرن السادس الميلادي) الأكثر دقة؛ حيث ذكر أنه كانت تعيش بطرابلس قبائل لواتة فيما بين خليج سرت الكبير ومدينة طرابلس (أوثيا)¹⁰⁰.

وتشير المعلومات المتوفرة أن الليبيين كانوا من البدو الرعاة، يتحدثون لهجات ليبية، وهي اللهجات التي تحولت فيما بعد إلى لهجات بربرية، وقد احتك هؤلاء بالفينقيين، واتصلوا بهم واستعملوا لغتهم البونيقية القرطاجية في الوقت الذي اشتد فيه الصراع والتنافس بين القرطاجيين واليونانيين (الدوريين الإغريق). هذا الصراع الذي سمح لليونانيين (631 ق م) باستعمار سواحل برقة وتأسيس مدينة «قورينا»، في حين سيطرت قرطاجنة على المراكز التجارية الكبيرة - المعروفة عند اليونان باسم «امبوريا»¹⁰¹.

وتوحي بقايا الآثار الموجودة الآن في الجبل إلى وجود قصور كثيرة يعود تاريخها إلى الفترة الرومانية في شمال إفريقيا¹⁰². ففي القسم الغربي من الجبل بقايا قصور في حاجة إلى دراسة أثرية مثل: القصور الموجودة في كل من نالتوت، وكباو، وأولاد محمود، والمجبرة وفرسطا، والرجبان، وقصر قرية «أولاد عنان»، وقد كانت هذه القصور تستعمل كمخازن للغلال والمحاصيل الزراعية¹⁰³.

وتتحدث الدراسات عن معاصر الزيتون المنتشرة في الجبل، والتي تعود إلى فترة الحكم الروماني للمنطقة. ويختلف جبل نفوسة عن جبل «ترهونة» و«مسلاتة» التي تشهد فيها آثار وأطلال المعاصر على تطور زراعة الزيتون حيث لا نجد في الجبل آثارا لبقايا المعاصر وإنما نجد الكهوف التي شيدت فيها المعاصر. وبعد هذا النوع قديما جدا، حيث يستعمل

100 - روسي إتوري: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ط2، بيروت، 1991، ص26-27.

101 - روسي إتوري: المرجع نفسه، ص30.

102 - Jean Despois: Le djebel Nafusa, p282.

103 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، ص23.

4 - الديانة:

من المعروف أن المسيحية كانت منتشرة بين الأفارقة والجاليات الرومية، أما البربر فلم تدخل المسيحية بينهم بصورة واضحة وجليّة إنما كانوا وثنيين¹⁰⁸، وكانوا يمارسون بعض الطقوس الدينية السحرية التي كانت مستعملة في الديانات الوثنية الإفريقية، وهذا قبل أن يحتل الفينيقيون والرومان هذه البلاد، وما صاحب هذا الاحتلال من فرض عبادة آلهتهم على الأهالي. ولا يستبعد أن يكون البربر قد أخذوا هذه الطقوس الوثنية من إفريقيا السوداء وربما العكس خاصة وأنهم كانوا على صلات وثيقة مع سكان تلك البلاد¹⁰⁹.

وتجدر الإشارة إلى أن البربر لم تكن لهم أفكار معينة عن الإله وعن مصير الإنسان، وإنما كانت لهم بعض المعتقدات البدائية مثل عبادة الشمس، والقمر، والأصنام، والاعتقاد في السحر، والشعوذة. وقد أشار البكري إلى وجود أصنام مثل الصنم الذي شيدته القبائل القاطنة في «ودان» القريبة من جبل نفوسة حيث كانوا يقدمون له القرابين ويتبركون به في أموالهم، وقد أقامته القبائل المحيطة به على ربوة أطلقوا عليه اسم «كرزة»¹¹⁰.

وتشير الروايات إلى بعض مشاهد الجبل المقدسة والتي كانت تحظى بزيارات المشائخ ربما للتبرك، مما جعل ليفيتسكي يرجح أن تكون عبادة الكائنات والظواهر الطبيعية منتشرة في الجبل، فقد ذكر الشماخي أن النفوسيين كانوا يقصدون صخرة الوادي ومصلّى «تزروت» (الصخرة)¹¹¹. وعلى الرغم من أن الشماخي يربط هذه الأماكن بشخصيات إباضية كانت تتعبد فيها إلا أنه - وحسب ليفيتسكي - لا يستبعد أن تكون مراكز للعبادة منذ زمن بعيد، أي قبل الإسلام. وهناك مجموعة أخرى من الصخور المقدسة مثل صخرة «توكيت»، وصخرة «تيناولوتين» أبو خليل. وبما أن هذه الأخيرة كانت مقدسة، فقد أقام أبو خليل الدركلي (ق 3هـ/9م) مصلّى له فيها، فاشتهرت باسمه¹¹².

كما كانت النفوسيات يمارسن بعض الطقوس عند بعض عيون الماء التي اشتهرت

108 - حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار ومطابع المستقبل، ط1، القاهرة، 1980، ص29؛ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص16.

109 - مورس لومبار: الإسلام في مجده الأول، القرن 8-11 (2-5هـ)، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1984، ص83.

110 - ينظر: المغرب، ص12.

111 - ينظر: السير، ص599.

112 - T. Lewicki: Survivances chez le berbères medievales d'être musulmane de cultes anciens et de croyances Paennes, Folia Orientalia, 1967, t 8, p1516-.

فيه الخشب والطواحين من الحجر، وتذكر الروايات أن الرومان قلدوا الأهالي في طرق عصر الزيتون¹⁰⁴.

ويبدو أن الرومان أقاموا في القرن الثاني بعد الميلاد حصونا ومراكز للمراقبة على الطريق الساحلي من قابس إلى لبد، وعند المواقع المرتفعة، وتبع ذلك إنشاء تحصينات أخرى سميت بـ «الحدود الطرابلسية» (Limites Tripolitains) أنشئت على شكل قوس ينتهي طرفاه عند تونس ولبد مروراً بالجبل، كما شيدوا الحاميات الدفاعية لصيانة الطرق التي تمتد نحو الداخل حتى «فزان» عن طريق «غريان» الواقعة في الجبل¹⁰⁵.

أما في فترة حكم الوندال فلا نجد معلومات كافية عن الجبل بل تتحدث الروايات فقط عن الثورات التي ظلت تتزعّمها طرابلس. ولا يستبعد أن يكون سكان الجبل قد شاركوا في هذه الثورات، لأنه ولقرب المسافة فإن أي اضطراب يحدث في طرابلس إلا ويكون له تأثير على الجبل، خاصة وأننا نعلم أن ثورة «كباوون» Cabaon - أحد الزعماء الليبيين - ضد الوندال الذين جهزوا حملة من قرطاجنة لغزو طرابلس، جرت في سفوحه عند السهل الواقع بين طرابلس وقابس¹⁰⁶.

وبالقضاء على الوندال، تمكن البيزنطيون من السيطرة على طرابلس عندما طلب سكانها العون والنجدة، ولم يعمر الاستقرار طويلاً في المنطقة، إذ قامت لواتة بعدة ثورات بين سنتي 545 و546م والانتصار على حاكم إفريقية كلها وقتله، وانتهت في الأخير بأن تمكن البيزنطيون من إخمادها بعد جهد شاق، ويبدو أن قبائل البربر في المنطقة كانت لهم قوة سمحت لهم بإقامة دولة أو دويلات وطنية لها قوانينها وحكامها. وكانت لواتة، وهوارة، ونفوسة، على جانب عظيم من القوة، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه القوة لم تعمر طويلاً، ولم تستمر إلى أواخر عهد البيزنطيين، فالحروب الطويلة أنهكت قواها مما جعلها تجنح إلى السكون والخضوع للحكم البيزنطي على الرغم من تدمير أفرادها من الضرائب المفروضة عليهم، وظلوا يتوقفون إلى التخلص منه خاصة عندما بلغتهم أخبار الفاتحين العرب ووصولهم إلى مصر¹⁰⁷.

104 - المرجع نفسه، ص67: 284-Jean Despois: op. Cit. P283.

105 - روسي إيتوي: ليبيا منذ الفتح العربي، ص41.

106 - روسي إيتوي: ليبيا منذ الفتح العربي، ص34.

107 - حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص51؛ صالح مصطفى مفتاح: ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، بيروت، 1978، ص25-26.

في الجبل بأن الاغتسال من مائها يشفي ويبقي من الأمراض، فغير بعيد عن القلعة توجد عين تسمى عين «نانا تالا» كانت النساء يأتين بأولادهن لغسلهم¹¹³.

وبإبان الاحتلال الروماني حاول الرومان فرض ديانتهم على البربر بعبادة آلهتهم مثل أوزير، وإيزيس، وخاصة عبادة الإمبراطور الروماني، ولكن البربر لم يقبلوا عليه بل ظلوا يحتفظون بعبادة آلهتهم مثل آلهة «تانيت»، والآلهة القرطاجية مثل الإله «بعل حمون»¹¹⁴.

ولما أرسل الله عيسى ونشر الحواريون هذا الدين في مختلف بقاع العالم، وصل هذا الدين إلى المغرب في القرن الثاني الميلادي وانتشر بين البربر على الرغم من احتفاظهم ببعض معتقداتهم، فقد كانوا يشنون الغارات على المدن الساحلية وينهبون كنائسها للحصول على أواني لاستخدامها في طقوسهم الدينية¹¹⁵.

وحارب الرومان في البداية هذه الديانة، وتعرض المسيحيون من البربر والرومان على السواء لاضطهاد كبير من قبل الأباطرة في القرن الثاني الميلادي، خاصة من لدن الإمبراطور (صوكليسيان) الذي تولى الحكم سنة 274م، حتى إن فترة حكمه عرفت بـ «عصر الشهداء»، نظرا لمقتل أعداد كبيرة منهم. ولما ارتقى الإمبراطور قسطنطين عرش روما سنة 312م أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية، ونظرا للكراهية الشديدة التي يكنها البربر للرومان كرهوا ديانتهم واعتنقوا الدوناتية - وهو مذهب مخالف للمذهب الأرثوذكسي الكاثوليكي الذي تبناه الرومان¹¹⁶.

ولما تفاقم الخلاف بين الأسقف دوناتوس وأسقف قرطاجنة إلتجأ دوناتوس إلى البربر وأعلن الثورة ضد الرومان. وحاول هؤلاء إرغام الأهالي على التخلي عن مذهبهم والأخذ بمذهب كنيسة القسطنطينية، حتى إنهم كانوا يحاصرون المدن ويعدمون كل شخص يرفض التخلي عن مذهبه، مما أدى إلى فرار العديد منهم إلى إيطاليا، وإسبانيا، وألمانيا، وتقلص شيا فشيئا عدد المسيحيين في البلاد¹¹⁷.

113 - T. Lewicki: op. Cit. P18.

114 - رشيد الناضوري: المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ج 1، ص 342-343.

115 - يحي هويدي: تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية (الشمال الإفريقي)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965، ج 1، ص 15-17؛ زاهر رياض: شمال إفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، 1981، ص 33.

116 - محمد علي دبو: تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، القاهرة، 1963، ج 1، ص 406.

117 - زاهر رياض: المرجع السابق، ص 34.

ولما جاء الوندال اضطهدوا أتباع المسيحية بمختلف مذاهبها، وقد أدى ذلك إلى ضعفها فارتد عنها الكثيرون. وحاول جستنيان إعادة نشرها في البلاد، فبنى الكنائس ونشط حركة التبشير فانتعشت المسيحية من جديد، وأقبل عليها البربر في مدينة صبراتة وطرابلس وتمكنت المسيحية من التوغل في المناطق الداخلية مثل أوجلة Augila، وغدامس Cydames. أما في العصر البيزنطي فقد ضعف دور الكنيسة الإفريقية، وتعرض دعاة الدوناتية للاضطهاد من جديد، فدعوا مرة أخرى إلى الثورة¹¹⁸.

وأقبل النفوسيون على المسيحية كبقية البربر، وظلوا محافظين عليها، فعندما فتح عمرو بن العاص الجبل وجد سكانه على دين النصرانية¹¹⁹، وتحدث المصادر عن كثرة الكنائس وانتشارها في المدن النفوسية مثل: كنائس «فرسطا، الجزيرة، بقطورة، تنبطين، أغرمينان، تمزدا، توكيت، ونسيم»¹²⁰.

وعاش بقايا النصارى بين نفوسة في هدوء واستقرار بل هناك من العلماء من تزوج من النصرانيات، مثل: أبي يحي الأزدالي الذي تزوج أم الخطاب، وبفضله أسلمت، وحفظت القرآن، وتعمقت في الدين الإسلامي حتى أصبحت مرجعا من مراجعه، وأنشأت معبدا لها في «تغرمين» سمته «إغرم إيمان»، ومعناه «قصر النفس في مجلس الذكر»¹²¹ كما كانت أم أبي يحي تكسنت نصرانية الديانة¹²²، ويرجع الفضل لشيوخ نفوسة في نشر الإسلام بين المسيحيين، واليهود على المذهب الإباضي، فهناك من النصارى الذين اعتنقوا المذهب من تقلد الرئاسة في الجبل مثل: أبي منصور إلياس¹²³.

وأما اليهودية فقد وصلت إلى المنطقة مع موجات الهجرة المتواصلة منذ أقدم العصور بعضها يهودية، وبعضها سامية، وبعضها هندوأوروبية، كاللاتين، والوندال، والإغريق، وبعضها زنجية¹²⁴، وليس مستبعدا أن تكون اليهودية قد وصلت إلى جبل نفوسة من الحبشة، وشرق إفريقيا، ذلك أنه لما احتل بختنصر البابلي مدينة بيت المقدس وشرّد اليهود إلتجأ العديد منهم إلى الحبشة في أواخر القرن السادس ق م، وفيها أنشأوا

118 - حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص 29-31.

119 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 8؛ مجهول: الاستبصار، ص 144.

120 - الشماخي: السير، ص 598-599؛ R. Basset, Les sanctuaires, p372.

121 - المصدر نفسه، ص 256؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص 245-246.

122 - المصدر السابق، ص 245.

123 - نفسه، ص 224.

124 - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، (د.ت)، ص 48.

المراكز التجارية التي لعبت دورا كبيرا في نشر ديانتهم بين الأحباش وفي شرق إفريقيا عموما¹²⁵.

إن المصادر تشير إلى وجود جاليات كبيرة من اليهود اتخذت الجبل موطنًا لها، ونظن أنها من بقايا الفترة التي تسبق الفتح الإسلامي. فجادو مثلا كان أكثر أهلها يهود¹²⁶. ويذكر ليفيتسكي بأنه كان لهم حي خاص بهم¹²⁷. وقد استمر تواجدهم في الجبل إلى فترة متأخرة. حيث اشتغلوا بالتجارة شأنهم في كل مكان وزمان. وظل اليهود يحتفظون بمكانتهم عكس النصارى الذين اختفوا تدريجيا.

ويعود تاريخ التواجد اليهودي في بلاد المغرب إلى عهد الفينيقيين، ثم تكاثرت أعدادهم مع قدوم المهاجرين الجدد بعد الاضطهاد الروماني. واستقروا في بعض المدن المغربية مثل: طلميثة، وطرابلس، وجادو، ومارسوا التجارة. ونظرا لاضطهاد الرومان لليهود فقد فروا إلى المناطق الداخلية. ولا يستبعد أن يكون يهود جادو من الفارين من السلطة الرومانية. كما استقر اليهود في مدينة أجدابية، ودرنة، قرب برقة، وسرت. فهناك قرى خاصة بهم مثل «اليهودية» ويرى صالح مصطفى أن هؤلاء اليهود قد انحدروا من نسل البربر الذين اعتنقوا اليهودية بعد قدوم يهود فلسطين إلى هذه المنطقة بعد طردهم في القرن الأول الميلادي¹²⁸.

ولا نستبعد أن يكون بعض يهود جادو قد أخذوا بالذهب الإباضي على غرار النصارى رغم أننا نفتقر للشواهد التاريخية، فالمصادر الإباضية لا تشير إلى ذلك.

5- الفتح الإسلامي للجبل:

على الرغم من الحن التي مر بها جبل نفوسة في الفترة التي سبقت الفتح الإسلامي، إلا أن القبائل التي كانت تستوطنه ظلت تحتفظ بقدر من القوة K حتى إن العرب الفاتحين عندما تمكنوا من فتح مصر كانوا على علم ودراية بقوة نفوسة. وعندما وصلوا إلى هذه المنطقة كان تعاملهم مع هذه القبيلة. يقول ابن خلدون: «كانت البطون التي فيها

125 - محمد عبد الله النقيرة: انتشار الإسلام في إفريقيا ومناهضة الغرب له، دار المريخ للنشر، الرياض، 1982، ص 46-47.

126 - البكري: المغرب، ص 9: مجهول: الاستبصار، ص 144: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مطبعة السعادة، ط 1، القاهرة، 1906، مج 5، ص 92.

127 - T. Lewicki, La répartition, p 335.

128 - ينظر: ليبيا منذ الفتح، ص 191-194.

الكثرة والغلب من هؤلاء البربر البتر لعهد الفتح: أوربة، وهوارة، وصنهاجة، من البرانس، ونفوسة، وزناتة، ومطغرة، ونفزاوة، من البتر»¹²⁹.

وكما هو معروف فإن المحاولات الأولى لفتح بلاد المغرب تمت في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (13-23هـ) وذلك سنة 22هـ. فلما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية سنة 21هـ توجه رفقة جنده قاصدا بلاد المغرب، حتى قدم مدينة برقة (انطابلس) فصالح أهلها على جزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار، يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه. وكتب لهم كتابا بذلك، وأصبح من يومها أهل برقة يرسلون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم جابي خراج¹³⁰.

وبعد أن خضعت برقة للفاتحين، واصل عمرو بن العاص طريقه سالكا الساحل متقدما إلى طرابلس، وفي طريقه تمكن من فتح المدن المنتشرة في أرياض برقة مثل توكير (توكرة)، ويزنيق (بنغازي)، ومنها انتقل إلى اجدابية في السنة نفسها أي 22هـ (642م)، فافتتحها صلحا على خمسة آلاف دينار¹³¹. ولتأمين ظهره أرسل عمرو عقبة بن نافع إلى ودان، وزويلة فافتتحها. وبعد هذا الانتصار الذي حققه المسلمون في هذه الربوع أرسل عمرو بن العاص الخليفة عمر يخبره بأنه ولي عقبة بن نافع المغرب وأنه بلغ مدينة زويلة، وأن كل البلاد الممتدة بين برقة وزويلة يسودها السلم، وأهلها يحسنون الطاعة، كما أخبره بأنه قد فرض على أهل زويلة ما رأى أنهم يطيقون دفعه، وأعطى أوامره للعمال بأن يأخذوا من الأغنياء الصدقة وتوزع على الفقراء والمحتاجين، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل إليه بمصر¹³².

ووصل عمرو إلى مدينة طرابلس وحاصرها حصارا شديدا دام حوالي شهر. وتذكر الروايات أن أهلها استنجدوا واستغاثوا بقبيلة نفوسة، وكانت مدينة سبرت (صبراتة) من أهم معاقلها، ولكن بعض المؤرخين يستبعدون هذه الرواية لأن المقاومة التي لقيها

129 - ابن خلدون: العبر، مج 6، ص 296.

130 - البلاذري: فتوح البلدان، راجعه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978، ص 225-226.

: ابن الأبار: كتاب الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط 1، القاهرة، 1963، ج 1، ص 13-14: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج 4، ص 389: ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية، ص 30: حسين مؤنس: معالم، ص 31: صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص 29-30: محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة (دون مكان)، 1984، ص 9-10: محمد فرج: عمرو بن العاص، دراسة مستحدثة لحياته وحروبه، دار الفكر العربي، القاهرة، 1960، ص 265.

131 - ياقوت الحموي: المصدر نفسه، مج 1، ص 100: صالح مصطفى: المرجع نفسه، ص 30-31.

132 - البلاذري: المصدر السابق، ص 225-226: صالح مصطفى: المرجع نفسه، ص 31.

الفاخون لا تتعدى حصن سكان المدينة خلف الأسوار. ولذلك فإن كانت هناك نجدة فعلا - كما تذكر الروايات - فإنها لم تصل لأن عمرو بن العاص أسرع في إرسال كتيبة من الجيش إلى سبرت (صبراتة) للحيلولة دون وصول النجدة. وعادت دون أن تحقق أي انتصار لأنها وجدت سكان المدينة متحصنين حصنا منيعا. فشلت الجند في اقتحامه. ولما اقتحم عمرو مدينة طرابلس من ناحية البحر. وتمكن من فتحها أعاد الكرة مرة أخرى. فتمكن من جريدة من الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير من دخولها دون عناء شديد؛ خاصة وأنهم وجدوا الأبواب مفتوحة لانشغال أهلها بإخراج الكراع للمرعى¹³³.

وبعد الاستيلاء على سبرت وتهديم سورها. اتجه عمرو إلى مدينة شروس وهي إحدى حواضر جبل نفوسة فافتتحها. ولا ندري هل تم الفتح صلحا أم عنوة؟ لأن المصادر لا تشير إلى ذلك. ووفق رواية ابن أبي دينار فإن عمرو لما أقام في طرابلس بعث «بسر بن أرطاة» ففتح ودان. وجبل نفوسة¹³⁴. وفي مدينة شروس وصله كتاب أمير المؤمنين بمنعه من مواصلة الفتح ويطلب منه العودة إلى مصر. وبعد رجوعه ترك عقبة بن نافع ببرقة يدعو أهلها وما جاورها من القبائل إلى الإسلام. وتمكن في وقت قصير من نشره بين قبائل لواتة. ونفوسة. ونفزاوة. وهوارة. وزواغة¹³⁵.

وللحفاظ على هذا النجاح اهتم عمرو بإرسال السرايا إلى المنطقة فكان الجند يستحوذون على الغنائم. ويعودون إلى قواعدهم. ولم يكن القصد من هذه الغارات جمع الغنائم - كما يقول بعض المستشرقين - وإنما لإشعار سكان المنطقة بقوة المسلمين. بالإضافة إلى تحسس واستطلاع الأخبار لتهيئة الظروف والاستعداد التام لتكملة الفتوحات في بقية بلاد المغرب. خاصة وأن الخليفة منعه من المجازفة في هذه الربوع¹³⁶.

ويبدو أن طلائع الجند القادمة من مصر إلى شرق إفريقية كان الهدف منها هو إخضاع قبائل البربر القاطنة بمدينة برقة. وطرابلس وضواحيها نهائيا. خاصة وأن المضي قدما إلى إفريقية يحتاج إلى استعداد خاص لأنهم سيواجهون خصما قويا يتمثل في الروم المقيمين في حاضرتهم سببيلة.

133 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص69؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص60؛ إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، (92-442هـ) (711-1031م)، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص23؛ محمد فرج: عمرو بن العاص، ص272؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج1، ص140؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص62؛ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص63.

134 - ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، تونس، 1386هـ، ص230.

135 - حسين مؤنس: فجر الأندلس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، جدة، 1985، ص37؛ محمد زيتون: المسلمون في المغرب، ص14؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص66.

136 - محمد زيتون: المرجع نفسه، ص14-15.

وتهمل المصادر بعد هذه الأحداث أخبار نفوسة. فلا ندري هل أذعن للمسلمين واعتنقت دينهم وتركت وثنياتها؟ وهل رأت في الفتح الإسلامي خلاصا لها من الحكم البيزنطي الجائر الذي عانت منه الولايات طيلة وجوده في المنطقة؟ وعلى الرغم من أن المصادر تشير إلى حملات أخرى تأديبية. لكننا لا نجد أدنى إشارة لأسماء القبائل التي ارتدت ونقضت الصلح. فهناك جرائد خيل أرسلت إلى أطراف إفريقية بأمر من عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان¹³⁷. وحتى في إمارة عقبة بن نافع، تذكر المصادر أن أهل ودان نقضوا العهد. ورفضوا تقديم ما فرضه عليهم بسر بن أرطاة من جزية. كما تشير إلى أنه افتتح بلد مزاتة¹³⁸.

ونعتقد أن نفوسة رأت في الفاتحين الخلاص من الاضطهاد. ومن مصادرة أراضيهم. وأموالهم. فأسلمت وأذعنت للفاحين العرب. وعندما عانت مثل بقية قبائل البربر من جور الولاة الذين تداولوا على حكم بلاد المغرب. رأت في مبادئ الإباضية مسلكا للانتفاضة. والإطاحة بأولئك الولاة الذين أصبحوا لا يختلفون كثيرا عن عمال الحكم البيزنطي. وتظهر نفوسة كقوة من جديد إبان انتشار دعاة الإباضية فأشعلت الثورة.

137 - ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية، ص34؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص227؛ أبو العرب: طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص65؛ المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951، ج1، ص14؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص67.

138 - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص50-53.

الفصل الثاني

دخول المذهب الإباضي إلى جبل نفوسة

- 1 - دعاة الإباضية في الجبل.
- 2 - حملة العلم المغاربة.
- 3 - إمامة عبد الله بن مسعود التجيبي والحارث بن تليد الحضرمي.
- 4 - قيام الإمامة الخطابية في طرابلس (140-144هـ) (757-761م).
 - أ - تولية أبي الخطاب الإمامة.
 - ب - استيلاؤه على طرابلس.
 - ج - استيلاؤه على القيروان.
- 5 - موقف الخلافة العباسية من الإمامة الخطابية.
- 6 - إمامة أبي حاتم الملزوزي.
 - أ - استيلاؤه على طرابلس.
 - ب - حصار طبنة والقيروان

1 - دعاة الإباضية في الجبل:

كان فشل الإباضية في تحقيق أهدافهم في المشرق الإسلامي سببا في توجيه أنظارهم إلى الأمصار الإسلامية النائية عن حاضرة الخلافة الأموية في دمشق¹³⁹. فكانت بلاد المغرب إحدى هذه المناطق التي جلبت انتباه أئمة المذهب الإباضي في البصرة. وحظيت باهتمام كبير. ويبدو - وحسب المصادر - أنهم كانوا على دراية وافية بتدمير البربر من عمال بني أمية. فأرسلوا دعائهم إلى هذه المنطقة لإثارتهم، وبث مبادئهم السياسية. وتعاليمهم الدينية بينهم.

ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ دخول دعاة الإباضية إلى بلاد المغرب. وبالضبط إلى جبل نفوسة، بسبب تضارب الروايات وتباينها. فابن حوقل يقول في حديثه عن الجبل: «والجبل بأجمعه دار هجرتهم على قديم الأيام لهم. وبه معشر الإباضية. والوهبية. ثووا بعد عبد الله بن أباض. وعبد الله بن وهب الراسبي. لأنهما قدما وماتا به. ولم يدخل أهل هذا الجبل في عهد الإسلام إلى سلطان. ولا سكنه غير الخوارج منذ أول الإسلام. بل منذ عهد علي عليه السلام وقت انصرافهم عنه بمن سلم منهم من أهل النهروان. وقد أقام من خلفهم على منهاج سلفهم به. وبما قاربه من مدن الخوارج»¹⁴⁰.

139 - ظهر المذهب الإباضي وترعرع في البصرة. ومنها انتشر إلى مختلف الأصقاع. ففي اليمن استطاع عبد الله بن يحيى الكندي أن يؤسس إمامة سنة 129 هـ (747م) غير أن قربه من مركز الخلافة أثار له المتاعب. فقد أرسل إليه الخليفة مروان بن محمد جيشا ألحق به الهزيمة وبصاحبه أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي. أما عمان فقد ظهر فيها المذهب بصورة جلية بعد سقوط إمامة اليمن. إلا أنها لم تنج من بطش جيوش الخلافة العباسية. ومن هنا نلاحظ أن بلاد المشرق لم تكن أرضا خصبة لإثمار المذهب فرأى الدعاة وكبار الأئمة أن المشرق قد ضاق بهم وبدعوتهم فوجهوا أنظارهم إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي. للمزيد من التفاصيل ينظر:

السيابي: طلاقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الإباضي. مطابع سجل العرب. 1980. ص71-79: الحارثي: العقود الفضية في أصول الإباضية. عمان. 1983. ص187 وما بعدها: فلهاوزن: أحزاب المعارضة في الإسلام (الخوارج والشيعية). مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. 1968. ص143-145: محمد عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية. مطابع دار الشعب. عمان. 1978. ص116-132: فاروق عمر فوزي: ملامح من تاريخ الخوارج الإباضية. مجلة المؤرخ العربي. منشورات اتحاد المؤرخين العرب. بغداد. 1975. عدد2. ص173 وما بعدها.

140 - ابن حوقل: صورة الأرض. ص93.

إن هذه الرواية مشكوك فيها لأن عبد الله بن وهب الراسبي¹⁴¹ قتل في معركة النهروان¹⁴². ولا يستبعد أن يكون بعض من فروا بعد هذه المعركة قد التجأوا إلى جبل نفوسة. ولكنهم لم يتركوا أثراً واضحاً. ذلك أن الانتشار الحقيقي والمذهب الإباضي يعود إلى أواخر القرن الأول. وأوائل القرن الثاني للهجرة¹⁴³ فالإدريسي يقول: «وأهل جبل نفوسة كلهم إسلام. لكنهم خوارج نكار. على مذهب ابن منبه اليماني»¹⁴⁴. وإذا كان هذا الأخير يعتبر سكان الجبل خوارج نكاراً. فإن ياقوت الحموي يذكر بأن جميع سكانه شرارة وهبية وأباضية¹⁴⁵. كما يذكر اليعقوبي بأن أهله أباضية. كلهم دون تمييز. بالإضافة إلى قبائل مزاتة. وسكان زويلة¹⁴⁶.

ولا يستبعد أن يكون قدوم دعاة الإباضية إلى بلاد المغرب قد حدث قبل هذا التاريخ. أي أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي). خاصة إذا عرفنا أن دخول أتباع المذهب إلى مصر كان قبل هذا التاريخ بكثير. فلعل دخولهم إليها كان بعد سنة 78هـ (697م). ففي هذه السنة فرق الحجاج بن يوسف الثقفي شمل الخوارج في العراق. ولربما وصلوا إلى المغرب أيضاً¹⁴⁷. ويرى رفعت فوزي عبد المطلب أن لمصر دوراً هاماً في نقل المذهب الخارجي إلى بلاد المغرب. فقد انتقل الخوارج إلى مصر في عهد مسلمة بن مخلد (47-62هـ) (668-681م).¹⁴⁸ وقاموا بعدة ثورات بها. ويعلل قوله بأن هناك جماعات من البربر

141 - عبد الله بن وهب الراسبي شخصية معروفة في التاريخ الإسلامي عرف بالزهد والعبادة حتى لقب بذي الثنات. أختير إماماً لأهل النهروان بعد خروجهم على علي بن أبي طالب. أدرك النبي (ص) وشهد فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص. وكان من جملة الذين حضروا التحكيم بين علي ومعاوية. وقتل في معركة النهروان سنة 38هـ.

ينظر: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص201-202؛ السيابي: طلاقات المعهد الرياض، ص21.

142 - هي معركة دارت رحاها بين جيش علي وجيش الخوارج في منطقة النهروان بعد خروج هؤلاء على علي كرم الله وجهه. وكانت قواتهم لا تتجاوز أربعة آلاف مقاتل انشق منها في بداية القتال حوالي النصف واشتبك الباقون مع جند علي. فقتل من زعمائهم عبد الله بن وهب الراسبي وزيد بن حصين حرقوص بن زهير. ينظر: الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص201-202؛ محمد عبد الله عنان: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2، القاهرة، 1954، ص14.

143 - محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، دار العودة، بيروت، 1976، ص36.

144 - ينظر: القارة الإفريقية، ص200.

145 - ينظر: معجم البلدان، مج8، ص305.

146 - ينظر: صفة العرب، ص4-6.

147 - T. Lewicki: Ibaddiyya, E.I, p5859.

148 - هو مسلمة بن مخلد بن صامت بن نيار بن لوزان بن عبدو بن يزيد بن ثعلبة. ولاء معاوية بن أبي سفيان على مصر بعد عزل عقبة بن عامر الجهني سنة 47هـ (668م). ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1965، ج3، ص466؛ ابن شغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطابع كوستانتينوسماس القاهرة (د.ت)، ج1، ص132.

كانت تعيش مع الخوارج في واحات مصر. وعندما فر دجيه بن المصعب الذي ثار إبان ولاية إبراهيم بن صالح (165-167هـ) (781-783م) التجأ إلى خوارج الواحات. ويحتمل أن هؤلاء البربر هم الذين نقلوا المذهب الخارجي إلى جبل نفوسة. بعد مغادرتهم مصر. وعملوا على نشره بين سكانه. أما الحجة الثانية - في رأيه - فتظهر جلية في أثناء الخلاف الأول الذي حدث بين الإباضية في الدولة الرستمية. فقد ارتحل أحد علماء الإباضية وهو الربيع بن حبيب¹⁴⁹ مسرعاً إلى تاهرت لفض النزاع. وهذا يدل على وجود اتصال بين رجال المذهب قبل ذلك، ثم إن الكندي يذكر أن والي مصر «غوث بن صالح» (140-144هـ) (757-761م) اتهم بمراسلة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري. والظاهر أن خوارج مصر لم تكن لهم قوة كافية بحيث يثورون. فكان من نتيجة ذلك أن انضووا في مختلف واحاتها. ويحتمل أن يكون فشل دعوتهم في مصر سبباً في نقلها إلى بلاد المغرب¹⁵⁰.

هذا ومع قناعتنا بأن انتقال الأفكار من بلد إلى آخر. أو انتشار المذاهب الدينية من الصعب تخديده تاريخياً لأنها تنتشر تدريجياً. وتتسرب ببطء شديد إلا أننا نرجح ما ذكره ابن خلدون حيث قال: «لم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس... وتناسوا الردة. ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها. ولقنوها من العرب الناقلة من سمعها بالعراق»¹⁵¹. فبعد سنة 95هـ (713م) شهدت حركة الدعوة نشاطاً كبيراً كلل بالنجاح. ولا نشاطر أحمد الطاهر الزاوي الرأي عندما حدد أول دخولهم إلى إفريقية سنة 120هـ (737م). وهو في الوقت نفسه يذكر في موضع آخر بأن ظهور دعوتهم قد اقترن بقتل يزيد بن أبي مسلم سنة 102هـ (720م)¹⁵².

تذكر المصادر أن أول من جاء يدعو إلى المذهب الإباضي سلمة بن سعد. الذي أرسله الإمام أبو عبيدة مسلم¹⁵³ من البصرة. قدمها مصحوباً بعكرمة مولى ابن عباس¹⁵⁴ على

149 - هو أبو عمرو الربيع بن حبيب بن عمرو من تلامذة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وجابر بن زيد. تولى رئاسة الإباضية بالبصرة بعد وفاة أبي عبيدة. ويعتبر مسنده من أهم كتب الحديث المعتمدة لدى الإباضية إلى يومنا هذا. ينظر: السيابي: طلاقات المعهد الرياضي، ص30.

150 - ينظر: الخلافة والخوارج في المغرب العربي (الصراع بينهما حتى قيام دولة الأغلبية)، ط1 (بلا مكان للطبع)، 1973، ص30-32.

151 - ابن خلدون: العبر، ج7، ص110.

152 - ينظر: تاريخ الفتح العربي، ص103-105.

153 - هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم. كان مولى لعروة بن أديبة التميمي أخ مرداس بن أديبة. عاش في مدينة البصرة وأخذ العلم عن جابر بن زيد وصحار العبيدي وجعفر بن السماك وصمام بن السائب العبيدي العماني. وهم أبرز علماء وفقهاء الإباضية في مرحلة الكتمان. ويذكر أن أبا عبيدة أدرك بعض الصحابة منهم: أنس بن مالك، أبو هريرة، عبد الله بن عباس، أبو سعيد الخدري. وعائشة أم المؤمنين. ينظر: الشماخي: السير، ص83-84؛ خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص103.

154 - هو أحد المفسرين المشهورين اشتهر بعلمه واجتهاده. قيل إنه بربري الأصل اشتراه ابن عباس فقتل على

راحلة واحدة. وكان هذا الأخير يدعو إلى المذهب الصفري.¹⁵⁵ غير أن علي يحي معمر ينفرد بالقول بأنه جاء منفردا، فلم يصحبه في انتقاله من الجزيرة إلى العراق ومنه إلى إفريقية إلا إيمانه بصحة العقيدة.¹⁵⁶ وهو الرأي الذي نرجحه. ذلك أننا لا نجد ذكرا لسلمة بن سعد في ترجمة عكرمة في كتاب أبي العرب. ولم تذكر المصادر أنه انتقل في البلاد يدعو إلى الصفرية. وإنما تذكر أنه امتحن التعليم في القيروان. وكان مجلسه في مؤخرة المسجد الجامع. في غربي المنارة في الموضع الذي يسمى بـ «الركيبيّة» ثم غادرها عائدا إلى المشرق. وتوفي في المدينة بين سنتي 104 و108هـ (722-727م).¹⁵⁷ ومعنى هذا أن عكرمة دخل القيروان في أواخر القرن الأول الهجري (السابع الميلادي). وإن صح قدمه مع سلمة ! فيمكن أن نحدد تاريخ دخول الإباضية إلى بلاد المغرب عامة وجبل نفوسة خاصة إلى التسعينات من القرن الهجري وهو التاريخ الذي حدده ابن خلدون.

ومهما يكن من أمر فقد مكن سلمة بن سعد لمذهبه الانتشار في جبل نفوسة وطرابلس. فكان ينتقل في الجبال والصحاري مبتعدا عن مقر الولاة. فنزل نفوسة، ودمر نفزاوة. وما جاورها وهي المناطق التي أصبحت فيما بعد تضم جماعات إباضية كبيرة. وما سهل له المهمة أنه في كل منطقة يحل بها يكون فيها أتباعا يخلفونه عند مغادرته لها.¹⁵⁸ فاعتنقت المذهب قبائل عديدة أهمها: نفوسة، وهوارة، ولماية، وزناتة، وسدراتة، وزواغة، ولواتة، ونفزاوة، ومغيلة.¹⁵⁹ وتذكر المصادر أن سلمة بن سعد كان يدعو إلى مذهبه بحماس. ولعل قوله: «وددت لو يظهر هذا الأمر يوما واحدا ولا أبالي أن تضرب عنقي» لدليل على ذلك، فنجح في كسب عدد كبير من الأتباع المخلصين، الذين رفعوا رايات المذهب في هذه البلاد. كما أن سلمة كان يختار النابغين من لهم ميل إلى العمل الجاد من أجل المبادئ التي آمنوا بها. وسنرى فيما بعد أنه يختار جماعة من البربر ليرسلهم إلى البصرة، لتلقي تكوين مذهبي لدى إمام المذهب أبي عبيدة مسلم.¹⁶⁰

يديه وأصبح من كبار العلماء. دخل إفريقية في زمن بني أمية واستقر بالقيروان حيث كان له مجلسا يجلس فيه في مؤخرة المسجد الجامع في غربي المنارة في الموضع الذي يسمى الركبيبة. ينظر: أبو العرب: طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 82-83؛ محمد علي دبو: تاريخ المغرب الكبير، ج 2، ص 280.

155 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 42.

156 - علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص 26.

157 - أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، ص 83؛ المالكي: رياض النفوس، ج 1، ص 92.

158 - عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر، ط 2، تونس، 1985، ص 111.

159 - الزاوي: تاريخ الفتح العربي ص 159؛ بحاز إبراهيم بكير: الدولة الرستمية (160-296هـ) (777-909م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، مطبعة لافوميك، ط 1، الجزائر، 1985، ص 63.

160 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج 2، ص 288-289.

ويبدو أن عدد الدعاة كان كبيرا لأن الأمان عند البربر كان مضمونا لهم. ولعل أوضح صورة لهذه الدعوة هي التي صورها ابن الأثير بقوله: «فلما دب إليهم أهل العراق استثاروهم قالوا: إنا لا نخالف الأئمة بما تجني العمال، ولا نحمل ذلك عليهم، فقالوا: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا: لهم: لانتقبل ذلك حتى نخبرهم»¹⁶¹.

وبما أن البربر كانوا ساخطين على الحكم العربي، فقد رحبوا بالدعاة وحموهم، وسهلوا لهم مهمتهم. فكثرت وفودهم وركزوا دعوتهم في منطقة طرابلس. وجبل نفوسة، والمغرب الأقصى لابتعاد هذه المناطق عن القيروان من جهة، ومن جهة أخرى فإن إقليم طنجة، ونواحي السوس الأقصى، كانت مواطن ثلاث قبائل تعد من أكبر القبائل الزناتية الأكثر استعدادا للثورة وهي: غمارة، برغواطية، مكناسة، وانضمت إليها أعدادا من صنهاجة.¹⁶²

ونشير في هذا المضممار إلى أن هناك من يعتقد بأنه لا يوجد دليل واضح على صفرية الدعاة، أو إباضيتهم، ويفضل تسميتهم «خوارج» فحسب. لا خوارج سياسيين ولا دينيين. فالدكتور حسين مؤنس يذكر بأنه لا يعرف بالضبط لماذا كان معظم دعاة الثورة في المغرب من هذين الفريقين. ولا السبب في إقبال المغرب عليها. ففي رأيه أن مبادئ هاتين الفرقتين ليست مما تجتذب البربر، فالصفرية، والإباضية، هما أكثر الخوارج ميلا إلى المسالمة والتسامح مع المخالفين. ونعرف أن الإباضية لا تخل قتال غير الخوارج من المسلمين، ولا تستحل الغنائم عدا السلاح والخيل، وحسب رأيه دائما فإن البربر لا يميلون إلى الاعتدال في العقائد، ويشك في نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والإباضية لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية.¹⁶³

ويرى «ألفرد بل» أن دعاة الخوارج كانوا خير رسل للإسلام في بلاد المغرب. فقد جاءوا من بلادهم ليدعوا البربر إلى الثورة، ويسري في قلوبهم إيمان عميق ألهم أعمالهم وأقوالهم. وكانوا يدعون باسم الدين والدين وحده، وهذا يتوافق مع مزاج البربر المستقل المتدين، وأدرك البربر أنهم لا يستطيعون أن يكونوا ثوارا صادقين إلا إذا كانوا مؤمنين صادقي الإيمان بالمذهب الذي كانوا يدعون إليه، فسعوا لتحصيله بقدر ما مكنتهم لذلك وسائلهم. وهكذا نشأ البربر في ثقافة إسلامية تتوافق مع مزاجهم وهي ثقافة الخوارج.¹⁶⁴

161 - ينظر: الكامل في التاريخ، ج 3، ص 45.

162 - حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 164.

163 - المرجع نفسه، ص 149.

164 - ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي.

والرأي عندي أن ثورات البربر جاءت نتيجة لتحريض الإباضية والصفورية هذا، وإن كنا لا نستطيع أن ننفي وجود بعض أفراد الفرق الخارجية في صفوف الإباضية، إلا أننا وبمراجعة للنتائج التي تمخضت عنها هذه الثورات، فإننا نلاحظ قيام دولة صفورية المذهب، هي دولة «بني مدرار» سنة 140هـ (776م)، ودولة إباضية المذهب هي الدولة التي أسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي سنة 160هـ (776م).

2 - حملة العلم المغاربة:

كان من بين المغاربة الذين أرسلهم سلمة بن سعد إلى البصرة لأخذ العلم من إمام المذهب، عبد الحميد بن مغطير الجناوني، فقد ظل هذا الأخير مدة من الزمن في البصرة يتلمذ عند أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ثم عاد إلى طرابلس، فعكف على التعليم والفتوى في جبل نفوسة، وساهم بدوره في نشر مبادئ المذهب بين بربر هذه المنطقة، وأصبح الجبل دار هجرة للإباضية¹⁶⁵. كما لعب عمر بن يكتن دورا هاما في التمكين للمذهب في هذه الربوع، فهو الذي أبرز أهميته الثقافية فبنى لأول مرة في قرية «إفاطمان» بجبل نفوسة مدرسة لتعليم أبناء المنطقة القرآن الكريم، وأصول المذهب. وتعد المصادر الإباضية أول من علم القرآن بالجبل، وقد تعلمه هو في طريق مغمدا¹⁶⁶، حيث كان يمر به المتنقلون من المشرق إلى المغرب والعكس، فيكتب عنهم لوحة من القرآن ثم يعود إلى منزله، فإن حفظها عاد ثانية إلى الطريق وكتب غيرها، وظل على هذا النحو إلى أن حفظ القرآن كله، وهذا يدل على رغبته الشديدة في تحصيل القرآن لقلة المعلمين وندرة المصاحف في ذلك العصر¹⁶⁷.

أما البعثة العلمية التي أرسلها سلمة بن سعد إلى البصرة، والتي كان لها الدور الفعال في نشر المذهب هي البعثة التي يعرف أصحابها بـ «حملة العلم المغاربة» أو «حملة العلم الخمسة». تكونت هذه البعثة من: عبد الرحمن بن رستم، وعاصم بن جميل السدراتي، وإسماعيل بن درار الغدامسي، وأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وأبي داود القبلي النفراوي. فقد حدث أن التقى عبد الرحمن بن رستم بالداعية دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 147.

165 - الشماخي: السير، ص 143: محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص 44: علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص 27-28.

166 - هي مدينة تبعد عن برقة وقصور حسان بمرحلة. ومغمدا هو صنم قائم على شاطئ البحر حوله أصنام، وبه قصر بناه الأعرابي عامل سرت لبني عبيد الله. ومغمدا التقى أبو الأحوص عمرو العجلي -كما سنبين لاحقا- مع أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري سنة 142هـ (759م) ينظر: البكري: المغرب، ص 7.

167 - الشماخي: المصدر السابق، ص 142: موسى لقبال: المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 1981، ص 16.

سلمة، فراقه كلامه وأعجبه فدلّه قائلا: «يا فتى إن كنت تريد علم هذا الأمر الذي كلفت به وعلقت به بالك فدونك أرض البصرة، فإن بها عالما يكنى أبا عبيدة واسمه مسلم بن أبي كريمة التميمي، فإنك تجد عنده ما تطلبه»¹⁶⁸.

واجه عبد الرحمن بن رستم إلى البصرة مع رفقائه الأربعة، وعند وصولهم رحب بهم وسألهم عن بلادهم، فأخبروه بأنهم من المغرب، وأنهم جاءوا لأخذ العلم، فظلوا يتعلمون عنده عدة سنوات، وكان أبو عبيدة يعلم تلاميذه في سرية تامة خوفا من أمراء البصرة¹⁶⁹.

وكانت الدروس التي يتلقونها في حلقة أبي عبيدة متنوعة، فشملت مختلف العلوم، ويرى الدكتور محمود إسماعيل أنها كانت في الأصول، والفروع، والسيرة، والتوحيد، والشريعة، وعلوم اللغة، والفلك، والرياضيات، ويضيف بأن هذه الدروس لم تقتصر على العلوم الدينية فحسب، بل كانت فنون الحكم والسياسة وقد أخذت حيزا لا بأس به، وأن التلاميذ كانوا إلى جانب تكوينهم الديني يتكيفون سياسيا لتولي المسؤولية وتقلد المناصب، وبما أنهم سيصبحون في المستقبل دعاة للمذهب فقد علموا تعليما جيدا لتأدية الرسالة على أحسن وجه، وضم أكبر عدد ممكن من المسلمين إلى صفوفهم¹⁷⁰.

ونعتقد أن أعضاء البعثة كانوا يتلقون مبادئ المذهب الإباضي، والآراء التي خالفوا فيها بقية الفرق، وأساليب الإقناع، والاستمالة، والأحكام، والتفسير، والسيرة، ودليلنا على ذلك أنه قبيل مغادرتهم البصرة سأل إسماعيل بن درار الغدامسي شيخه عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام¹⁷¹. أما العلوم الأخرى كالأصول، والفروع، والفلك، والرياضيات، وفنون الحكم، والسياسة، فلم تأسس بعد علميا ولذلك فإننا نستبعد.

ولما عزم حملة العلم المغاربة مغادرة البصرة والعودة إلى بلدهم كلموا شيخهم أبا عبيدة واستشاروه في إقامة إمامة في بلاد المغرب إذا ما أنسوا من أنفسهم قوة، ويذكر أبو زكريا بأنهم قالوا له: «يا شيخنا إن كانت لنا في المغرب قوة ووجدنا من أنفسنا طاقة أفنولي على أنفسنا رجلا منا أو ما ترى؟ فقال لهم أبو عبيدة: توجهوا إلى بلادكم فإن يكن في أهل دعوتكم ما يجب به عليكم التولية في العدد والعدة من الرجال

168 - البغطوري: سير نفوسة (مخطوط)، ورقة 2: الشماخي: السير، ص 124: أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 57: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 20: محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)، دار القلم، ط 2، الكويت، 1987، ص 81.

169 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص 36.

170 - ينظر: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص 43.

171 - الشماخي: السير، ص 124.

فولوا على أنفسكم رجلا منكم فإن أبي فاقتلوه»¹⁷². وأشار إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري. وعندما وصلوا إلى طرابلس واستقروا بها. وساهموا بدورهم في تنشيط الدعوة وأصبحوا علماء للمذهب. انقطع عبد الحميد بن مغطير الجناوني عن الفتوى وحجته في ذلك أن حملة العلم هم أولى بالفتوى. لأنهم أخذوا عن الإمام بعد أن حرر جميع الأقوال¹⁷³.

وهكذا نلاحظ أن الدعاة استطاعوا نشر مذهبهم في بلاد المغرب في مدة زمنية قصيرة. فلم يمض على قدومهم عشرون سنة حتى أصبحت الإباضية أكثر المذاهب انتشارا بين قبائل البربر. هذه القبائل التي عكفت على دراسة تعاليم المذهب فأعجبوا بمقالات أصحابها. خاصة المقالات التي تدعو إلى المساواة والتي لم يحس بها البربر. وكانت السبب في اعتناق البربر لمذهب الإباضية. لا مندوحة إذن أن تلقى الإباضية إقبالا كبيرا عند البربر. فانتشرت بين قبائل كثيرة أهمها «نفوسة» فابن رسته يصف سكان جبل نفوسة موطن هذه القبيلة بقوله: هم قوم عجم الألسن إباضية كلهم¹⁷⁴. ويذكر ياقوت الحموي بأن كل نفوسة شراة وهبية وإباضية متمردون على طاعة السلاطين¹⁷⁵. كما انتشرت بين قبائل مزاتة. فاليعقوبي يقول: ومزاتة كلها إباضية على أنهم لا يفقهون ولا لهم دين¹⁷⁶. ويبدو أن قبائل مزاتة انقسمت إلى قسمين: قسم تمذهب بالإباضية وقسم أخذ بالواصلية¹⁷⁷. ويؤكد ذلك ابن حوقل بقوله: «وتجاورهم - أي سكان جبل نفوسة - من البربر زناتة. ومزاتة قبيلتان عظيمتان الغالب عليهما الاعتزال من أصحاب واصل بن عطاء»¹⁷⁸.

كما انتشرت بين قبائل هواره. لواتة. مكناسة. مطماطة. لماية. نفزاوة. مغيلة. مغراوة. بني يفرن. وزواغة¹⁷⁹. وتجدر الإشارة إلى أن جبل نفوسة قد لعب دورا كبيرا في نشر المذهب فإلى سكانه يعود الفضل في نشره بين القبائل البربرية. ولتدعيم هذا

172 - ينظر: كتاب السيرة. ص 60.

173 - الشماخي: المصدر السابق. ص 143؛ علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا. ص 28.

174 - ينظر: الأعلام النفيسة. مطبعة بريل. ليدن. 1891. مج 7. ص 346.

175 - ينظر: معجم البلدان. مج 8. ص 305.

176 - ينظر: صفة المغرب. ص 5.

177 - هي فرقة تنسب إلى واصل بن عطاء مولى بني مخزوم. وقيل مولى بني ضبة. ولد سنة 80 هـ بالمدينة وتوفي سنة 131 هـ. وواصل هذا هو رأس المعتزلة. فلما كثرت الخوارج مرتكب الكبيرة قال واصل بل فاسق لا مؤمن ولا كافر فهو في منزلة بين المنزلتين. ولذلك اعتزل حلقة الحسن البصري رفقة عمرو بن عبيد. ومن يومها سمي أتباعه بالمعتزلة. ينظر: ابن تغري يردى: النجوم الزاهرة. ج 1. ص 313-314.

178 - ينظر: صورة الأرض. ص 94.

179 - ابن خلدون: العبر. مج 6. ص 121؛ الزاوي: تاريخ الفتوح العربي. ص 108 بحاز الدولة الرستمية. ص 63.

الانتشار مر بنا أن سلمة بن سعد أرسل من كل جهة رجلا يتعلم تعاليم المذهب. فمن غدامس (جنوب الجبل) أرسل إسماعيل بن درار الغدامسي. ومن نفزاوة أرسل أبا داود النفزاوي. ومن الأوراس عاصم السدراتي. ومن القيروان عبد الرحمن بن رستم¹⁸⁰.

وإذا بحثنا عن أي فريق من البربر نهض يساند حركة الخوارج. فإننا نجد أن قبيلة زناتة هي التي قدمت الدعم للإباضية والصفورية. ذلك أن زناتة ويطونها مثل «غمارة. برغواطة. مكناسة». كانت أكثر استعدادا للقيام بالثورة. وهي النتيجة التي توصل إليها «جوتيه» الذي قام بتحليل التركيبة البشرية التي تشكلت منها الحركة. فتبين أن الذين قاموا بها كانوا في الغالب زناتيين. ففي رأيه أن الثورة انفجرت في البداية في «طنجة» بالمغرب بالأقصى. ثم امتد لهيبها إلى القيروان. ومن خلال تتبعه لمعارك البربر مع الجيوش العربية لاحظ أن مواقعها هي مواطن زناتة. فموقعة الأشراف وقعت قرب مجرى نهر الشلف سنة 122 هـ (739م). ووقعت المعركة الثانية وهي موقعة بقدورة على نهر «سبو» سنة 124 هـ (741م). ووقعت الثالثة عند «القرن» قرب القيروان سنة 125 هـ (742م). أما الرابعة فكانت في جنوب إفريقية وفيها استولى الخوارج على مدينة طرابلس. فكل هذه المراكز هي مواطن زناتة¹⁸¹.

ونؤيد «جوتيه» في رأيه خاصة وأن ابن عذارى. وابن خلدون يتفقان في القول في أن برغواطة. ومغيلة. وهواره. وبني يفرن. هم السباقون إلى تعبئة الحركة الخارجية الأولى¹⁸². ويرى حسين مؤنس أن هذا التحليل مقبول. خاصة وأن زناتة آزرت المسلمين أملا أن تنتصف بهم على الروم. والنصارى. والأفارقة. وصنهاجة. لكن آمالها خابت. ما جعلها تقبل على الأخذ بمبادئ الإباضية والصفورية للانتقام من العرب¹⁸³.

والحقيقة أن البربر أعجبوا بالنظريات الإباضية خاصة نظرية الإمامة. لأن الإباضية لا يشترطون أن تكون الخلافة في قريش. بل ولا في العرب عامة. وهم بذلك لا يختلفون عن فرق الخوارج. وفي رأيهم أن كل من اتقى الله كان أحق بها ولو عبدا حبشيا. ودسوا مع هذا المبدأ بعض تشديداتهم وتعمقاتهم. فظهر للبربر أن تعمقهم ذلك إنما هو زيادة في الخشية من الله. وأن ذلك هو التقوى الذي أمر به الشرع¹⁸⁴.

180 - الشماخي: السير. ص 124؛ الحارثي: العقود الفضية. ص 184؛ محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي. ص 44؛ الزاوي: المرجع نفسه. ص 158.

181 - E. F. Gautier: Les Siècles Obscurs Du Maghreb, Payat, 1952, p262264.

182 - ابن عذارى: البيان. ج 1. ص 52-53؛ ابن خلدون: العبر. مج 6. ص 221.

183 - ينظر: فجر الأندلس. ص 113.

184 - السلاوي: الاستقصاء. ج 1. ص 60.

ويتحكمون فيها. بالإضافة إلى هذا أن المصادر الإباضية تحتوي على أحاديث نبوية هي نفسها التي استعملها الشعوبيون في المشرق والتي تظهر فضائل الفرس والبربر¹⁸⁶.

ويرى البعض الآخر أن البربر دخلوا الإسلام رغبة في الحصول على الغنائم، ولما لم يغير شيئاً من حياتهم أخذوا بمذهب الإباضية والصفورية. فالبربر - حسب جيفر - تغلبت المصلحة في إسلامهم على الإقناع، لأن العرب عمدوا إلى تجنيدهم في جيوشهم فأسلموا طمعاً في الغنائم¹⁸⁷.

كما أن أرنولد توماس هو الآخر قال بشككية إسلام البربر. ويرى بأن هذا الدين الجديد لم يرسخ بين البربر إلا بعد أن أخذ شكل حركة قومية، وأصبح مرتبطاً بتوليهم الحكم في الدول التي أنشأوها. وهذه الدول هي التي دخل في عهدها البربر إلى الإسلام. أما قبل ذلك فكانوا يعدون قبول الإسلام رمزا على ضياع استقلالهم السياسي¹⁸⁸.

ومهما يكن من أمر فنحن نستبعد نزعة البربر المادية أو الرغبة في الوصول إلى المناصب، فلو كان البربر كذلك لماذا أعادوا محمد بن يزيد واليا عليهم بعد قتلهم ليزيد بن أبي مسلم¹⁸⁹، فلما كانوا فعلاً يهدفون إلى الاستيلاء على الحكم لنصبوا واحدا منهم، بل جدهم يرسلون إلى الخليفة الأموي يزيد يعتذرون له، ويبلغونه ما قاموا به، وإذا كان الإسلام يحتاج إلى عدة قرون على حد قول أرنولد توماس لنشره بين البربر، فبماذا نفسر قول عبد الرحمن بن حبيب: «إن إفريقية الآن إسلامية، وقد انقطع السببي...»¹⁹⁰.

186 - Cheikh Bekri: Le Kharredjisme Berbère, Extraits Des Annales De L'institut d'étude Orientales (Alger), 1957, T 5, p5859.

187 - رفعت فوزي: الخلافة والخوارج، ص32-33.

188 - أرنولد توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مطبعة الشيكيني، القاهرة. (د.ت)، ص266-267.

189 - هو يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف وصاحب شرطته وكتابه. كان إنساناً ظالماً حل بإفريقية سنة 102، وسار سيرة الحجاج في المشرق فثار به حرسه وقتلوه، لأنه أراد أن يفرق بين حرسه وبين بقية البربر بأن يشتم في أيديهم كلمة «حرسى» ليميزهم بذلك عن عداهم. فأدى ذلك إلى غضبهم لأنهم رأوا أنه شبهم بالحيوانات التي توشم جلودها للتمييز. ينظر: ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1963، ج1، ص88؛ المسعودي: الخلاصة النقية، ص13؛ السلاوي: الاستقصاء، ج1، ص46؛ ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج1، ص245؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص103.

190 - المسعودي: المصدر نفسه، ص16.

والملاحظ أن أعداد الموالي لم تكن كثيرة في صفوف الخوارج، وقد كثر عددهم عندما أسرف بنو أمية في اضطهاد الموالي وإذلالهم، وبما أن المذهب الإباضي كان ينادي بالثورة على الجور ومثليه من الولاة فقد وجد البربر في اعتناقه مبرراً لثورتهم على الحكم العربي. والشيء المؤكد أن بلاد المغرب كانت أكثر المناطق تهيئاً للثورة، لأنه بعد أن تم الفتح الإسلامي فيها برزت جميع الخلافات السياسية، والمذهبية التي كانت بين العرب ببلاد المشرق بصورة أعنف، وانتقلت هذه الخلافات من المشرق إلى المغرب. ولما تمت عملية الفتح في الأندلس ومشاركة البربر بكثرة جعلت رد فعل البربر عنيفاً ضد السياسة العربية، وضد المظالم التي تعرضوا لها من بعض الولاة.

ويرى صالح مصطفى مفتاح بأنه على الرغم من أن مبادئ وعقائد الخوارج تتميز بالغلو إلا أنها نجحت بسهولة في بلاد المغرب أكثر من المناطق الأخرى، وأن سبب ذلك يعود إلى طبيعة البربر التي تتسم بالعنف، إضافة إلى ذلك أن البربر كالفرس من أكثر الشعوب الإسلامية تأثراً بالدعوات السياسية المناهضة للأمويين¹⁸⁵.

ولا نتفق مع الأستاذ صالح مصطفى فيما ذهب إليه من وجهين:

أولاً:

إنه يجب التمييز بين الإباضية وبقية الفرق الخارجية، لأن الفرقة الإباضية ليست فرقة غالية ومتطرفة، فمبادئها وآراءها السياسية دليل على ذلك.

وثانياً:

إن الفرس يختلفون على كل فرق الخوارج لأنهم ساندوا وتبنوا هذه الدعوات لا رغبة في الإصلاح أو تقويم سلوك الخلفاء والأمراء، بل رغبة في السيطرة على الحكم، فالفرس ثاروا ضد العرب عامة وما لبثوا أن ثاروا ضد الإسلام نفسه بإحيائهم لمعتقداتهم القديمة.

ولم يكتف بعض المؤرخين بتشبيه البربر بالفرس بل اتهموا الإباضية بأنها حركة شعبية كانت تطمح إلى تأسيس دولة إسلامية غير عربية، فاستغلت الدين حتى لا يفهم أنها ضد العنصر العربي. فشعبوية الإباضية - كما يرى الشيخ بكري - تظهر في صورة جليلة أثناء تأسيس الدولة الرستمية من قبل الفرس، فهم الذين ظلوا يديرونها

185 - ينظر: برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، رسالة ماجستير مخطوطة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1976، ص55-56.

3 - إمامة عبد الله بن مسعود التجيبي، والحارث بن تليد الحضرمي:

رأينا فيما سبق أن أول ثورة خارجية مغربية كانت صفرية المذهب، اندلعت في طنجة وامتد لهيبها إلى مناطق أخرى. أما الإباضية فقد تأخرت ثوراتهم نوعاً ما، لأن تركيزهم كان قريباً من القيروان مقر الإمارة. ومركز الجند العربي وقريبة نسبياً من عاصمة الخلافة وولاتها في مصر. ولما نجحت ثورات الصفرية في المغرب الأقصى حفز ذلك الإباضية على التعجيل بالظهور. فقد تزعم التجمع الإباضي في منطقة طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبي الذي اعتمد على قبيلة هواره. والتي كانت تسيطر على المنطقة التي تقع شرق هذه المدينة إلى سبخة تاورغا. فلما قام الإباضية بتوليته الإمامة، خشي عبد الرحمن بن حبيب خطر هذه الإمامة فولى أخاه إلياس بن حبيب عاملاً على طرابلس، فتمكن هذا الأخير من قتل إمامهم¹⁹¹.

ويبدو أن إلياس قام بذلك لإثبات هيئته بين الإباضية وليزرع في قلوبهم الذعر حتى لا يحاولوا الانفصال عن الإمارة. لكن هذا العمل جعلهم يطالبون عبد الرحمن بدم أخيه، ولتهدئة الأوضاع اكتفى بعزله؛ وتولية حميد بن عبد الله العكي مكانه¹⁹².

ولما لم يتحقق مطلبهم قاموا بتولية الحارث بن تليد الحضرمي سنة 130 هـ (748 م). يؤازره عبد الجبار بن قيس المرادي. فقاما بشن حصار على العامل الجديد وخبروه بين البقاء أو مغادرة طرابلس. فغادرها بعهد وأمان. لكن عبد الجبار قام بقتل نصير بن راشد أحد أصحاب حميد آخذاً بثأر قتلهم. ثم استولى على بلاد زناتة. ولما بلغت الأخبار عبد الرحمن بن حبيب ولى يزيد بن صفوان المعافري على طرابلس. وأرسل مجاهد بن مسلم الهواري إلى هواره. يدعوها للوقوف في صفه. لكنه طرد بعد أن أقام عندهم شهراً. والتحق بيزيد بن صفوان وفي هذه الأثناء أرسل عبد الرحمن جيشاً يقوده محمد بن مفروق. وكتب إلى يزيد يأمره بالخروج معه. فكان النصر حليف الإباضية حيث قتلوا كلا من يزيد بن صفوان ومحمد بن مفروق. أما مجاهد بن مسلم فقد فر إلى هواره بعد أن هزمه الإباضية. ولما فشلت كل هذه المحاولات عزم عبد الرحمن بن حبيب على الخروج بنفسه، فجمع قواته وزحف على الإباضية. لكنه مني هو الآخر بالهزيمة. وكان

191 - محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص 62؛ إحسان عباس، تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن 9 هـ، ط 1، بيروت، 1967، ص 43.

192 - ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية، ص 106؛ موسى لقبال: المغرب الإسلامي، ص 128.

من نتيجة ذلك أن سيطر الإباضية على منطقة طرابلس كلها، خاصة بعد القضاء على الحملة التي قادها عمرو بن عثمان ومجاهد بن مسلم¹⁹³.

لم يأس عبد الرحمن بن حبيب على الرغم من كل هذه المحاولات الفاشلة. لأن القضاء على الإمامة الإباضية كان ضرورة حتمية. لأنها ستقطع صلة الشام والمشرق عامة بالمغرب، فيصبح في عزلة تامة لا تأتیه الإمدادات في حالة ثوران المغرب كله. وفي هذه الظروف غير من استراتيجيته القتالية بالتجائه إلى الحيلة للتخلص من هذا الخطر الذي يهدده، فأنزله الشقاق والخلاف بين الإباضية. عندما أوعز إلى شخصين مهمة قتل عبد الجبار. والحارث. وعندما تمكنا من ذلك جعلنا مقبضي سيفهما متقابلين وكأن عبد الجبار والحارث تقاتلا. حينئذ انقسمت الإباضية إلى فريقين: فريق رأى التبرئة من القتلين، والفريق الآخر خالف ذلك، لأنه لا يعرف بالضبط الباغي منهما حتى يتبرأ منه¹⁹⁴.

وحولت هذه المسألة للمشرق للإفتاء فيها من قبل علماء المذهب، فدعاهم الإمام أبو عبيدة وحاجب الطائي إلى عدم ذكرها تجنباً للخلاف¹⁹⁵. ولكن الشقاق ظل موجوداً حتى قيام الإمامة الخطابية سنة 140 هـ (757 م). بل حتى إلى عصر أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي - أي القرن الخامس الهجري (11 م)¹⁹⁶. ولذلك فإننا لا نستبعد أن يكون مقتل الحارث وعبد الجبار كان نتيجة لخلافات داخلية لا علاقة لها بعبد الرحمن بن حبيب.

وفي خضم هذه الأحداث تولى إسماعيل بن زياد النفوسي الإمامة سنة 132 هـ (750 م) ولقب بـ «إمام دفاع»، فحاول جمع شمل أتباعه لكن دون جدوى. مما سهل لعبد الرحمن القضاء على إمامته بعد مدة قصيرة. حيث خرج إسماعيل متجهاً إلى مدينة «قابس» فالتقى الجيشان وانتهت المعركة بمقتل إسماعيل وعدد كبير من أفراد جيشه. ثم أجه عبد الرحمن إلى طرابلس ففتحها وولى عليها عمرو بن سويد المرادي¹⁹⁷.

وعاد عبد الرحمن إلى القيروان سنة 132 هـ (747 م) بعد أن حقق ما كان يصبو إليه، إلا أن الجو تعكر بينه وبين أخيه إلياس. والسبب في ذلك يرجع إلى أنه كان يرسل إلياس لقتال البربر كلما حقق انتصار نسبته لابنه حبيب، فاستغل إلياس فرصة مرض أخيه وطعنه بسكين بين كتفيه، أنهت حياته. واستولى على السلطة سنة 137 هـ (754 م)¹⁹⁸.

193 - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص 106-108؛ موسى لقبال: المرجع نفسه، ص 128.

194 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 24؛ موسى لقبال: المغرب الإسلامي، ص 168.

195 - الشماخي: السير، ص 125.

196 - الدرجيني: المصدر السابق، ج 1، ص 153.

197 - ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية، ص 108؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص 171.

198 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 67؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج 1، ص 332.

أبو الخطاب على ذلك، وخبروه بين البقاء أو المغادرة فاختار الأخيرة. وسلم لأبي الخطاب مفاتيح بيت المال²⁰¹.

وباستيلاء أبي الخطاب على طرابلس، اشتد ساعد الإباضية وعظمت شوكتهم، فاتخذ طرابلس عاصمة لإمامته، وشرع في تعيين العمال على النواحي، فولى كلا من عمر بن يمكتن الأفطمانى على سرت، وعبد الرحمن بن رستم على القيروان، وأرسل إلى أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة يخبره بقيام الإمامة، فاغتبط لذلك وأوصاهم بالعمل على المحافظة على التضامن، واقتفاء أثر السلف الصالح²⁰².

ج - استيلاؤه على القيروان:

بعد أن قتل عبد الرحمن بن حبيب، قارب بنو عبد الرحمن وبنو أخيه إلياس، وتكونت لكل نفر منهم شيعة، فاضطربت البلاد وكثرت الحروب ففر عبد الوارث - أحد قواد إلياس - مستنجدا بقبيلة ورفجومة، فلقي الترحيب لدى عاصم بن جميل، ويزيد بن سكوم أمير ولهاصة، وانضمت إلى هذا الحلف قبيلة نفزاوة، وزحفوا إلى القيروان، فدخلوها بالقوة سنة 135هـ (752م)، فلم يستطع حبيب بن عبد الرحمن المقاومة، ففر إلى قابس، ولكن فراره لم ينجمه من قبضة الورفجوميين، حيث لاحقه عاصم وتمكن من قتله، ولما عاد عاصم إلى القيروان ولى عبد الملك بن أبي الجعد عليها²⁰³.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون يذكر أن عبد الملك بن أبي الجعد، ويزيد بن سكوم كانا على مذهب الإباضية²⁰⁴، ونحن نستبعد ذلك لأنه من خلال اطلاعنا على ثورات الإباضية لم نجد تجاوزا في الحرب، بل إنهم لا يحاربون إلا إذا استحل عدوهم دماءهم، ثم إن الإباضية حاربوا هذين القائدين وأخرجوهما من القيروان، أما ما ارتكبته ورفجومة، مثله في قائدها عبد الملك بن أبي الجعد من ربطهم للدواب في المسجد، وانتهاك الحرمات، فهذا لا يمت بصلة إلى الإباضية، كما أن معظم المصادر تتفق على أن هذه القبيلة كانت صفرية المذهب، وهو المذهب الذي عرف بالغلو، وحب الحرب أكثر من السلم، فهم الذين فجروا أول ثورة في المغرب الأقصى بقيادة ميسرة المطغري.

وورفجومة هذه هي أوسم بطون نفزاوة الزناتية، استبدت بشؤون إفريقية، وكانت شرّاً

201 - الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص24: الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص174.

202 - الشماخي: السير، ص143: علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص41: محمود إسماعيل، الخوارج في

المغرب الإسلامي، ص64.

203 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص224-225.

204 - المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص231.

4 - قيام الإمامة الخطابية في طرابلس (140/144هـ)

(761/757م):

أ - تولية أبي الخطاب الإمامة:

عندما عاد حملة العلم المغاربة، واستقروا في مدينة طرابلس، ساهموا بدوره في تنشيط حركة الدعوة، وعملا بنصيحة شيخهم في البصرة تشاوروا سرا حول عقد الإمامة، فلقيت هذه الفكرة إقبالا وتشجيعا، حينئذ أخبروا أبا الخطاب أن يذهب معهم إلى موضع يسمى «صياد» (قرب طرابلس) لإقامة الصلح بين متخاصمين على قطعة أرض، (وقيل عقد صلح بين رجل وزوجته)، وكان أبو الخطاب يجهل أن أصحابه يريدون مبايعته، فتم الاجتماع في الموقع المتفق عليه وعرضوا عليه الإمامة، وتذكر المصادر أنه امتنع، لكنهم ذكروه بوصية شيخهم أبي عبيدة فوافق على الدخول في الولاية¹⁹⁹.

وتجدر الإشارة إلى أن الإمامة عرضت في البداية على عبد الرحمن بن رستم، إلا أنه اعتذر فقبلوا عذره لأنه كان - حسب المصادر الإباضية - مشغولا بتأدية أمانة للناس، وقد اتفق في أثناء مبايعة أبي الخطاب بأن يأتي كل واحد بأتباعه، ورجال عشيرته مسلحين، وأخبروهم سرا بأن أبا الخطاب هو الإمام، فلما كان اليوم المحدد جاء شيوخ نفوسة، وهوارة، وهويشة، وزناتة، وغيرهم وقالوا لأبي الخطاب: «أبسط يدك لنبايعك على أن تحكم بيننا بكتاب الله، وسنة نبيه (ص)، وأنار الصالحين». ولما رأى أبو الخطاب إصرارهم على ذلك اشترط عليهم أن لا يذكروا في عسكره مسألة الحارث وعبد الجبار، خوفا من استمرار الخلاف بين الجماعات الإباضية²⁰⁰.

ب - استيلاؤه على طرابلس:

لما أنشأ الإباضية إمامتهم، وأعلنوا الظهور، واستولوا على مدينة طرابلس، وطردها منها عامل أبي جعفر المنصور، عمرو بن سويد المرادي، وقد اتبع الإباضية خطة ذكية في فتحها، حيث عمدوا إلى رجال بأسلحتهم فحملوها في الجواليق على الجمال وكأنها عيرا أقبلت إلى المدينة، فلما توسطوا المدينة، ولم يفتن أحد بما صنعوا، فتحوا الجواليق فخرج الرجال والسلاح في أيديهم فقصدوا عامل أبي جعفر ليقتلوه، لولا أن نهاهم

199 - الشماخي: السير، ص124-125: السيابي: طلاقات المعهد الرياضي، ص53: علي يحي معمر: الإباضية في

ليبيا، ص49: بحاز: الدولة الرستمية، ص65.

200 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص62-63: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص22-23.

خالصا على أهلها. فقد أئختنت القتل في العرب من قريش. واستباححت كل محرم. مما أدى إلى استيلاء جيرانهم بربر نفوسة. وهوارة. وبعض زناتة²⁰⁵. ويصف ابن عذارى أعمال هذه القبيلة بقوله: «تغلب على إفريقية بعض القبائل الصفرية بعد مقتل حبيب وعاصم. فدخلوا القيروان. وربطوا دوابهم. وأساءت ورفجومة لأهل القيروان سوء العذاب. وندم الذين استدعوههم أشد ندامة»²⁰⁶.

ومن أسباب دخول الإباضية القيروان. تذكر المصادر أن امرأة من القيروان هي التي أرسلت كتابا إلى أبي الخطاب تبلغه أن لها ابنة جعلتها في مطمورة. خوفا عليها من ورفجومة. وبعضها تقول أن رجلا من الإباضية دخل القيروان فرأى بعض رجال ورفجومة قد كابروا امرأة على نفسها والناس ينظرون. ولم ينكر ذلك عليهم. وقال البعض بأن جماعة من رجال هذه القبيلة أخرجوا امرأة وهي تصيح: يا معشر المسلمين أغيثوني. فلم يغثها أحد فمد الله في صوتها فسمعها أبو الخطاب. فاستغل هذه الفرصة وزحف برجاله لتطهيرها من الصفرية. وفي طريقه استولى على مدينة قابس (140هـ) (757م). بعد حصار لم يدم طويلا. وترك عليهم عاملا. كما استولى على جزيرة جربة. وجبل دمر في السنة نفسها²⁰⁷.

وهنا نلاحظ أن المصادر الإباضية تريد أن تعطينا مبررا لهذا الحملة. وأن القصد منها هو النهي عن المنكر. والحقيقة أن الإباضية عندما شعروا أنهم أقوىاء أرادوا توسيع الرقعة الجغرافية للإمامة. وما فتح قابس وجبل دمر إلا دليل على ذلك. وهناك سبب آخر له أهميته هو الآخر وهو الصراع التقليدي بين فرق الخوارج. هذا الصراع الذي انتقل من المشرق إلى المغرب. فهذه الظروف كانت مهيأة للإباضية للقضاء على منافسيهم. وفي الوقت نفسه الاستيلاء على القيروان مركز الإمارة. والانتقام من الدولة الأموية وعمالها في العدو المغربية.

ولما استولى أبو الخطاب على قابس وما جاورها. انتقل إلى القيروان. فلما علم عبد الملك بوصول الحملة أرسل إليه جيشا لكنه هزم وتمكن كذلك من قتل عبد الملك (صفر 141هـ) (758م). وعند وصوله القيروان خرجت إليه ورفجومة وقاتلته قتالا شديدا. فانهزم أهل القيروان شر هزيمة وتمكنوا من السيطرة على المدينة. حينئذ عين أبو الخطاب زميله في الدراسة عبد الرحمن بن رستم واليا عليها ثم غادرها²⁰⁸.

205 - ابن خلدون: المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص 231-232؛ حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 184.

206 - ينظر: البيان المغرب، ج 1، ص 70.

207 - الشماخي: السير، ص 127.

208 - ابن خلدون: العبر، مج 6، ص 112؛ ابن الأثير: الكامل، ج 2، ص 127.

والملاحظ دائما أن المصادر الإباضية تبرر أعمال أهل المذهب بأنهم لا يحاربون إلا إذا استحل عدوهم دماءهم. ففي حصار القيروان مثلا يذكر أبو زكريا والدرجيني أنه حدث وأن مرض عاصم السدراتي فاشتتهى قثاة. فبعث أهل القيروان رجلا يبيع القثاة فسموا له واحدة وأمروا البائع بأن يعطيها لعاصم فأكلها فمات. ثم صاح أهل القيروان يخبرونهم بما فعلوه. ولما وصل خبر الجريمة إلى أبي الخطاب أمر أصحابه بالانسحاب ليلا وكأنهم انهزموا. فلاحقوهم إلى أن وجدوهم مختبئين قرب مدينة «رقادة» فهجم عليهم الإباضية وظلوا يلاحقونهم ويقتلونهم إلى أن دخلوا المدينة معهم. وذلك سنة 141هـ (758م)²⁰⁹.

كما تظهر المصادر الإباضية رغبة إخوانهم في الإصلاح. وأن ثوراتهم هي وسيلة للإصلاح وليس للتخريب والاستيلاء على السلطة. فمثلا عند دخولهم القيروان تذكر أن أبا الخطاب منع أصحابه من إفساد الزرع. فلما رأى الناس سلامة زرعهم. تعجبوا من عدله. وسيرته. وطاعة أصحابه له فيما يأمرهم به من الحقوق²¹⁰.

وإذا كانت هذه المصادر تؤكد على أن خروج الإباضية إلى القيروان كان تلبية لدعوة تلك المرأة التي استنجدت بهم. والعمل على القضاء على المناكر التي ارتكبتها ورفجومة. فإننا لا نستبعد العامل الاقتصادي. ففي هذه السنة شهدت منطقة طرابلس قحطا شديدا أرغم سكانها على أكل الجراد²¹¹.

وتذكر المصادر الإباضية كذلك أن مدينة «رقادة» سميت بهذا الاسم لأنها كانت موقع معركة كان فيها القتلى مزمليين في ثيابهم كأنهم رقود²¹². والحقيقة أن تسمية المدينة بهذا الاسم كان متأخرا عن هذه الفترة. فمدينة رقادة بناها إبراهيم الأصغر الأمير الثامن في دولة الأغالبة سنة 263هـ (876م) وانتقل إليها من العباسية مع أهله ورجال دولته. وبنى بها القصور ونصب في إحدى عماراتها بيت الحكمة التي جلب إليها علماء في الطب والحكمة وغيرها من العلوم من بغداد ومصر²¹³.

ونلاحظ كذلك أن الإباضية يحاولون دائما تطبيق مبادئهم في أثناء غزواتهم. وفي الميدان. فالمعروف عنهم أنهم إذا غنموا لا يأخذون سوى السلاح. والكراع. وما عدا ذلك

209 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 40؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 26.

210 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص 40.

211 - الشماخي: السير، ص 127.

212 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 129.

213 - ابن عذارى: البيان المغرب، ج 1، ص 117؛ البكري: المغرب، ص 27؛ رابح بوناز: المغرب العربي تاريخه وثقافته.

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 1981، ص 31.

فإنه لا يستحلونه لأنفسهم. ففي القيروان تفقد أبو الخطاب القتلى فوجد قتيلا مسلوبا وعندما عثر على السلب عند رجل من سدراتة أقام عليه الحد. فراح السدراتي غاضبا إلى بغداد وترجى الخليفة المنصور كي يبعث معه جيشا إلى بلاد المغرب. وأنفذ هذا الأخير جيشا يقوده محمد بن الأشعث الخزاعي²¹⁴.

5 - موقف الخلافة العباسية من الإمامة الخطابية:

ظلت الخلافة الأموية والعباسية خارب الإباضية في كل مكان. فلما قضى الأمويون على إمامتهم في حضرموت. وقضى بنو العباس على دولتهم في عمان في فترة متأخرة. أوعزوا إلى الولاة في المغرب مهمة محاربتهم والقضاء عليهم بسرعة قبل أن يشتد ساعدتهم. خاصة وأنهم استولوا على القيروان مركز الإمارة. كما وضع الخلفاء الجيوش تحت تصرف الولاة. فعندما بلغ الخبر إلى المنصور سواء عن طريق الرجل السدراتي. أو عن طريق العرب الذين فروا من القيروان قاصدين بغداد ليشتكوا ما حل بهم من الصفرية. أرسل محمد بن الأشعث إلى مصر مكلفا إياه بالقضاء على الفتنة في إفريقية. قام ابن الأشعث في البداية بإرسال قوة من مصر يقودها أبو الأحوص العجلي سنة 142 هـ (759 م). فهزمه الإباضية بسرت. وعاد من حيث أتى²¹⁵. حينئذ طلب المنصور من ابن الأشعث الخروج إليهم بنفسه. فقدم إفريقية على رأس أربعين ألف. وبث عيونه في المنطقة ليزوده بأخباره. فعادت عيونه تقول له: «رأينا رهبانا بالليل. أسرابا بالنهار. ويتمنون لقاءك كما يتمنى المريض لقاء الطبيب. لو زنى صاحبهم لرجموه. ولو سرق لقطعوه. وخيلهم من نتاجهم. ليست لهم بيت مال يرزقون منه. وإنما معاشهم من كسب أيديهم»²¹⁶.

أثر هذا الخبر على معنويات ابن الأشعث. وما أن علم بحدوث خلاف وانقسام في صفوف أبي الخطاب عندما تنازعت هواره. وزناته. فيما بينها حيث اتهمت زناته أبا الخطاب بميله إلى هواره. سر بذلك ولجأ إلى الحيلة بإبلاغ عمر بن مكتن - عامله في سرت - بأنه لا يحاربه إلا في النهار. ثم أظهر العودة وكأن أبا جعفر استدعاه. فأدى ذلك إلى انصراف أصحاب أبي الخطاب بالرغم من تحذيره لهم قائلا: «إن العرب أصحاب مكر وخداع فلا تفترقوا على ملككم حتى تتيقنوا برجوع القوم»²¹⁷. لكن دون جدوى ولما علم

214 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص41.

215 - المسعودي: الخلاصة النقية. ص18؛ إحسان عباس: تاريخ ليبيا. ص47.

216 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص44؛ الشماخي: السير. ص131.

217 - أبو زكريا: المصدر نفسه. ص45.

ابن الأشعث بذلك كر على طرابلس ونفوسة. واستنفر أبو الخطاب أصحابه. والتقى الجيشان بموضع قرب طرابلس يعرف باسم «تاورغا». وانتهت المعركة بمقتل أبي الخطاب وانهزام أصحابه سنة 144 هـ (761 م). أما الذين لجؤا من القتل فقد فروا لائذين بالجبال والمرتفعات في طرابلس. ومنهم من فر إلى المغرب الأوسط. وعلى الرغم من هذه الهزيمة التي منوا بها. إلا أنهم التفوا مرة أخرى حول أبي هريرة الزناتي في السنة نفسها وأعادوا الكرة لكنهم هزموا²¹⁸.

ولما علم عبد الرحمن بن رستم ما حدث غادر القيروان متجها إلى إباضة المغرب الأوسط صحبة ستين شيخا من مشائخ الإباضية. فنزل على قبيلة لماية. لحلف كان بينه وبينهم. فقصده ابن الأشعث وحاصره في جبل منيع يقال له «سوفجج» وظال الحصار حتى تفشى المرض في صفوف ابن الأشعث فاضطر إلى العودة إلى القيروان²¹⁹.

وفي طريقه تتبع أثر الإباضية في كل من «ودان وزويلة» فقتل عبد الله بن حيان زعيم زويلة سنة 144 هـ (761 م). ولما دخل إلى القيروان قام بتعيين مجموعة من العمال. حيث أمر على أهلها عمرو بن عثمان القرشي. وولى على طرابلس الحارق بن غفار الطائي. وعلى طبنة والزاب الأغلب بن سالم²²⁰.

ومهما يكن من أمر فإن معركة تاورغا كان لها تأثير كبير على نفوس إباضية طرابلس ونفوسة. فهي التي أنهت أكبر دولة أسسوها في إفريقية حتى هذا التاريخ. ولكن نفوسهم لم تهدأ فسرعان ما فجرت زناته ثورة أخرى قادها أبو هريرة الزناتي آلت في النهاية إلى الفشل. حيث تمكن ابن الأشعث من القضاء عليها في ربيع الأول سنة 144 هـ (761 م). كما تعرض إباضية طرابلس والجبل إلى بطش شديد من قبل الحارق بن غفار. الذي أسرف في تقتيلهم وسبي ذراريهم فأرغموا إلى الجنوح إلى السلم. ودانوا لابن الأشعث بالطاعة مكرهين.

وما أن استقرت الأوضاع في إفريقية. وعاد الهدوء حتى اضطربت الأمور في المغرب الأقصى. فظل الإباضية يتبعون عن كثب ما ستسفر عليه ثورة أبا قره المغيلي الصفري. لعلهم يستفيدون من ثورته في تمثيل دور الحكم العدل. لكن انهزام هذا الأخير حال

218 - السلاوي: الاستقصاء. ج1. ص57؛ علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا. ص42؛ إحسان عباس: تاريخ ليبيا. ص47-48.

219 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص47.

220 - ابن عذاري: البيان المغرب. ج1. ص72-73؛ ابن خلدون. العبر. مج4. ص411.

دون ذلك، مما أدى إلى تنظيم صفوفهم من جديد، وبايعوا يعقوب بن ليبب مولى كندة المعروف بأبي حاتم المزوزي، إماما خلفا لأبي الخطاب سنة 151هـ (768م)، وبنوا خطتهم هذه المرة على التنسيق بين بقية الطوائف البربرية للظفر بالحكم²²¹.

6 - إمامة أبي حاتم المزوزي:

لما قتل أبا الخطاب بايع الإياضية في طرابلس وجبل نفوسة وغيرهما أبا حاتم يعقوب بن حبيب بن مرين بن يطوفت، ويسمى كذلك أبا قادم، وتختلف المصادر في قبيلته، فابن خلدون يذكر أنه من أمراء مغيلة²²²، في حين يرى البرادي بأنه من هواره²²³، وقيل إنه من سدراتة. ونشاط محمد إسماعيل الرأي حين رجح انتماءه إلى قبيلة هواره، لأن هذه الأخيرة كانت من أهم القبائل التي أخذت بالمذهب الإياضي، وشاركت في أغلب الثورات الإياضية، أما قبيلة مغيلة فقد كانت على المذهب الصفري، وأما سدراتة فلم يكن لها دور فعال في هذه الفترة²²⁴.

وعن تولية أبي حاتم الإمامة تردد المصادر الرواية نفسها التي قيلت حول مبايعة أبي الخطاب، فقد أظهر الإياضية لأبي حاتم أن امرأة أساء إليها زوجها فطلبوا منه الخروج معهم لإقامة الصلح بينهما، وهم في الوقت نفسه يريدون الخروج على جند طرابلس لما آنسوا من أنفسهم قوة، فلما سمع عامل طرابلس «الجنيد بن بشار الأزدي» أرسل إليهم قوة بلغت خمسمائة فارس إلا أنها هزمت، وتتبع أبو حاتم فلول الجيش إلى أن دخل طرابلس واستولى عليها، كما قضى على الحملة التي قادها الجنيد نفسه، والتي تكونت من أربع مائة فارس، أتته كإمداد من عمرو ابن حفص بقيادة خالد بن المهلب، انهزم الإثنان ولجأ إلى مدينة قابس²²⁵.

أ - استيلاؤه على طرابلس:

ظل أبو حاتم مقيما في طرابلس إلى أن وصل عمرو بن حفص الملقب بهزار مرد (يعني ألف رجل)، إلى إفريقية سنة 151هـ (768م)، حاول عمر استرداد المدينة بأن أرسل لهذا الغرض ثلاثة جيوش هزمها الإياضية كلها، كان أولها بقيادة الجنيد بن بشار الأزدي، والثاني بقيادة خالد بن يزيد المهلب²²⁶.

221 - محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص66: موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص170-171.

222 - ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص226.

223 - البرادي: الجواهر المنتقاة فيما أهمله كتاب الطبقات (طبعة حجرية)، القاهرة، (د.ت)، ص173.

224 - ينظر: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص66.

225 - الشماخي: السير، ص134: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص335.

226 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص226: محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص68.

ولم يكتفوا بهذا الانتصار، بل طاردوا سليمان بن عبادة المهلب إلى القيروان، وفرضوا عليه الحصار سنة 153هـ (775م)، وفي هذه الأثناء كان عمرو بن حفص غائبا عنها منشغلا ببناء مدينة طبنة، بأمر من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، حينئذ غادر أبو حاتم القيروان متجها إلى مدينة طبنة التي حاصرها هي الأخرى حصارا شديدا، واشترك في هذا الحصار الإياضية والصفريه جنبا إلى جنب²²⁷.

ب - حصار طبنة والقيروان:

تذكر المصادر أن اثني عشرة جيشا أحاطوا بمدينة طبنة، منهم أبو قرّة الصفري في أربعين ألف، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألف، وعاصم السدراتي في ستة آلاف، والمسعود الزناتي الإياضي في عشرة آلاف فارس، إلى جانب جيش أبي حاتم²²⁸، بالإضافة إلى جيش عبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري الذي بلغ ألفين، وأتباع جرر بن مسعود من قبيلة مديونة²²⁹، ولما رأى عمرو بن حفص ما أحاط به من العساكر جمع قواده واستشارهم في الأمر، كان مصمما على لقائهم على الرغم من قلة عدده وعدته، فأشاروا عليه ألا يخرج من المدينة خوفا من مقتله فلجأ إلى الحيلة بإثارة الشقاق بين محاصريه، حيث صالح أبا قرّة ووعد به بأن يعمل على صرف أخيه وتفريق الصفري عنه لكنه أبى فأغرى أخاه بمبلغ مالي قدره أربعة آلاف درهم، وثيابا كثيرة، على أن يعمل على صرف أخيه، فأجابته وانسحب، واضطر أبو قرّة إلى اتباعهم، ويذكر ابن الأثير أن عمرو عرض على أبي قرّة مبلغا قدره ستين ألف درهم وقال: «بعد أن سلم علي بالخلافة أربعين سنة أبيع حريكم بعرض قليل من الدنيا»²³⁰.

وبعد أن تمكن عمرو من فك الحصار عاد إلى القيروان وشحنها بالقوات والرجال وعدة الحصار لاحقه أبو حاتم ثم ضرب عليه الحصار بجيش بلغ تعداداه مائة وخمسين ألف مقاتل.

وتجدد الإشارة أن عمرا بعد أن استطاع تفريق الصفريه عن الإياضية، أرسل جيشا تمكن من إلحاق الهزيمة بعبد الرحمن بن رستم، الذي فر لاثدا بتاهرت، أما أبو قرّة فقد عاد إلى طبنة بعد خروج عمرو ومنها، لكن قوات هذا الأخير ألحقت به الهزيمة²³¹.

227 - المصدر نفسه والجزء والصفحة ذاتهما، المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

228 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص241.

229 - ابن خلدون: المصدر السابق، مج6، ص226: الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص186.

230 - ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص241.

231 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص76: محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص69: موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص172.

واشتد الحصار على سكان القيروان حتى أنهم أكلوا دوابهم وكلابهم. وكان يخرج إليهم في كل يوم يحاربهم. ثم أثر سياسة الدفاع بحفره خندقا على باب أبي الربيع. لكن هذه السياسة عادت عليه بالعواقب الوخيمة. خاصة وأن العديد من جنده فر من المدينة والتحق بالإباضية. وقام أبو حاتم بتوزيع رجاله على سائر أبواب المدينة مانعا المحاصرين من الإفلات. وفضلوا كذلك حتى لم يبق لهم شيئا من الأقوات فاضطربت أمورهم. واختلف القواد على عمرو²³².

وعندما علم هذا الأخير بقدوم يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب والذي أرسله الخليفة العباسي لنصرته على رأس ستين ألف جندي قال: «لا خير في الحياة بعد أن يقال يزيد أخرجه من الحصار. إنما هي رقدة وأبعث إلى الحساب». فخرج عمرو واشتبك مع الإباضية في معركة قتل فيها. وفتحت أبواب المدينة لأبي حاتم في ذي الحجة سنة 154 هـ (770م) فما كان من حميد بن صخر الذي تزعم الجند بعد مقتل أخيه إلى عقد الصلح على شرط أنه وأصحابه لا يخلعون طاعة سلطانهم. ولا ينزعون سوادهم مما أغضب أبا حاتم. فأمر بإحراق أبواب المدينة وإخراج أهلها إلى منطقة الزاب²³³.

ولما بلغ الخبر أبا حاتم بوصول جيش يزيد من المشرق غادر القيروان لملاقاته. واستطاع أن يهزم طليعته التي قادها سالم بن سودة التميمي. ثم انتقل إلى طرابلس ليستنفر قبائل البربر الإباضية من نفوسة. وهوارة. وضريسة. وغيرهم. ومنها عرج إلى تونس للقضاء على ثورات جند العربي على عامله عبد العزيز بن السمح في الزاب. ذلك أنه لما غادر طرابلس أمر صاحبه بالقيروان أن يأخذ السلاح من الجند. وأن يفرق بينهم فخالف بعض أصحابه وقالوا: «لا نغدر بهم». وكان على رأس الخالفين عمرو بن عثمان الفهري. وقام بقتل أصحاب أبي حاتم فعاد إليه²³⁴.

ويبدو أن شقاقا آخر حدث في صفوف الإباضية حيث انحازت قبيلة مليلة الهوارية بزعامة يوسف الفرطيطي إلى يزيد. وكذلك بعض رجال نفوسة أمثال عمرو بن مطكود. وساعده بكتشفهم له عورات البلاد²³⁵. والتقى الجيشان في منطقة جندوبة ووقعت معركة هائلة في ربيع الأول سنة 155 هـ كانت فيها نهاية أبي حاتم وتمزق جيشه. وشرع يزيد في تتبع فلول جيشه في طرابلس ونفوسة ومختلف المناطق الأهلة بالإباضية.

232 - ابن عذاري: المصدر نفسه والجزء والصفحة ذاتهما: محمود إسماعيل: المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

233 - ابن عذاري: المصدر نفسه والجزء ذاته. ص76: السلاوي: الاستقصاء. ج1. ص58: ابن أبي الضياف: أخاف أهل الزمان. ج1. ص94-95.

234 - ابن الأثير: الكامل. ج5. ص242.

235 - الشماخي: السير. ص136.

وكانت هذه الضربة قاضية على الإباضية. ففقدوا إمامهم المشهور. الذي قاد ثوراتهم مدة خمس سنوات (-150 155 هـ) (767-772م). وانتهت أحلامهم في إقامة إمامة الظهور في طرابلس ونظرا لمكانة هذا الإمام نسجت حوله أحداث خرافية. فالشماخي يروي في سيره أن مكان المعركة يستضيء نورا كل ليلة²³⁶.

هذا وتجدر الإشارة أن نشاط الإباضية العسكري تواصل بعد موت أبي الخطاب. فقد قامت هوارية بثورة تزعمها أبو يحيى بن فوناس سنة 156 هـ (773م) في نواحي طرابلس. وتمكن عبد الله بن السمط الكندي من القضاء عليها بسهولة. لأنها كانت تفتقر إلى التنظيم. ويذكر ابن عذاري أن الإباضية لم تقم لهم قائمة طول حكم يزيد الذي امتد إلى غاية سنة 170 هـ (786م) بقوله: «تهدنت إفريقية ليزيد بن حاتم»²³⁷.



236 - المصدر نفسه. ص137.

237 - ابن عذاري: البيان المغرب. ج1. ص79.

الباب الثاني

جبل نفوسة والحركة الإباضية

(160-296هـ) (776-909م)

الفصل الأول

الرواد النفوسيون في المجال السياسي والعسكري والعقائدي

1 - المجال السياسي.

2 - المجال العسكري.

أ - حصار طرابلس.

ب - نفوسة والصراع الطولوني الأغلبي.

ج - موقعة مانو.

3 - المجال الفكري والعقائدي.

أ - الخلفية.

ب - النفائية.

1 - المجال السياسي:

تضاربت الآراء وتباينت حول حدود الدولة الرستمية وتبعية الجبل للإمامة في تاهرت. فهناك من يرى أنها لم تتعد مدينة تاهرت، وبالتالي فهي دولة مدينة، وهناك من قال إن هذه الدولة تضم إليها بعض المناطق القريبة من العاصمة، ويستبعد البعض الآخر أن يكون جبل نفوسة خاضعا لسلطة الرستميين، وإنما كان تابعا لها روحيا فقط. مثل بقية القبائل الإباضية المنتشرة من تلمسان غربا إلى برقة شرقا.

ومن خلال المصادر المتوفرة نستنتج أن هذه الآراء غير صحيحة، فالمتبع لتاريخ الجبل يلاحظ بأن «أهل الدعوة» كانوا في أغلب الأحيان يطلبون من المركزية في تاهرت أن تعين عليهم عاملا أو واليا أو أميرا، بل حتى المناطق الأخرى مثل قابس، وقنطرة، وقسطلية، ونفزاوة كان عمالها يعينون من قبل الإمام الرستمي، ويبدو أن نواحي الجبل كانت تابعة لعامله، والدليل على ذلك ما سنراه في حديثنا عن التجاء حفيد خلف إلى قبيلة زواغة بجرية، إذ من الحلول التي اقترحها الوسيط أبو سلامة اليهراسني للزواغيين أن يسلموا حفيد خلف لأبي منصور إلياس، ويكتبوا الإمام أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م) يطلبون منه أن يولي عليهم واليا منهم، وبذلك يستقلون عن حكم نفوسة²³⁸.

والجدير بالذكر أن الإمامة الرستمية قد أعطت في بعض المرات الحرية لسكان الجبل في اختيار من يولونه، ويرتضونه، وفي بعض الأحيان لا تعطى لهم مثل رفضها لتولية خلف بن السمح.

ومن خلال تصفحنا للمصادر ارتأينا أن نذكر النصوص الآتية كقرائن على أن الجبل كان تابعا للإمامة الرستمية، على الرغم مما ظهر من بعض النزاعات الاستقلالية التي شكلت في وقت معين خطرا على الوحدة الترابية.

1 - «وأنته (أي أفلاح بن عبد الوهاب) نفوسة الجبل يسألونه أن يقدم عليهم من رآه»²³⁹.

2 - «لما استقام له ملكه (أي أبو اليقظان) أتته وفود من نفوسة من الجبل، المعروف بجبل نفوسة ليقدم عليهم أميرا من أنفسهم»²⁴⁰.

3 - «طلبه (أي السمح بن أبي الخطاب) أهل طرابلس إلى الإمام أن يوليه عليهم، وكان به

238 - ينظر: ص100.

239 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص57: البرادي: الجواهر المنتقاة، ص174.

240 - ابن الصغير: المصدر نفسه، ص98.

ظنينا فآثرهم على نفسه وقدمه عليهم»²⁴¹.

4 - «لما توفي السمع ولوا على أمورهم خلف بن السمع. فجاء الرد من الإمام عبد الوهاب «من ولي خلفا من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين. ومن أبى توليته فقد أصاب»²⁴².

5 - «فلما وصل إليهم (أي الخلفية) جوابه أنكروا إمامة عبد الوهاب من غير حدث وزعموا أن إمامهم خلف. واعتلوا أن حوزة طرابلس منقطعة عن حوزة تاهرت وبعيدة منها. فلما أبوا من قبول الحق استعمل الإمام أبي الحسن أيوب بن العباس»²⁴³.

6 - «ولما حضرته الوفاة (أي أبو الحسن أيوب بن العباس) أرسلوا إلى الإمام أن يولي عليهم. فأجابهم: أن يختاروا أفضلهم... وكتبوا إليه أنه ليس مثل أبي عبيدة لهذا الأمر. عبد الحميد الجناوني فأرسل الإمام إليهم أن يولوه بأمره»²⁴⁴.

7 - «ذكر غير واحد من أصحابنا أن الإمام رضي الله عنه استعمل على قنطرة أبا يونس وسيم النفوسي، وأصله من جبل نفوسة»²⁴⁵.

8 - «ومنها وكيل بن دراج عامل الإمام عبد الوهاب على قفصة»²⁴⁶.

9 - «ومنها سلام بن عمرو اللواتي عامل الإمام عبد الوهاب على سرت ونواحيها»²⁴⁷.

10 - «ومنها مبال بن يوسف عامل الإمام أفلح على نفزاة»²⁴⁸.

11 - «ومنها سلمة بن قفطة عامل الإمام عبد الوهاب على قابس ونواحيها»²⁴⁹.

12 - «ومنها جaron بن القمري عامل الإمام عبد الوهاب وصهره وهو زناتي»²⁵⁰.

13 - «ومنها نهدي بن عاصم الزناتي عامل الإمام عبد الوهاب»²⁵¹.

241- أبو زكريا: كتاب السيرة. ص119: الشماخي: السير. ص163-164.

242 - أبو زكريا: المصدر نفسه. ص121.

243 - الشماخي: المصدر السابق. ص181.

244 - نفسه. ص182.

245 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص136.

246 - الشماخي: المصدر السابق. ص203.

247 - نفسه. ص203.

248 - الشماخي: ص203.

249 - نفسه. ص203.

250 - نفسه. ص203.

251 - نفسه. ص203.

14 - «ومنها ييران من بني يزمتن المزاتي عامل الإمام عبد الوهاب»²⁵².

15 - «اختار الإمام أفلح (بن عبد الوهاب) سعد (بن أبي يونس وسيم) لإحكام الناس في موضع أبيه (قنطرة)»²⁵³.

16 - «ومنها أبو ذرابان بن وسيم الويغوي... كان عاملا على جبل نفوسة»²⁵⁴.

17 - «ومنها ابو منصور النفوسي عامله (أي عامل أبي اليقظان) على نفوسة وطرابلس»²⁵⁵.

18-«ومنها أبو يحيى زكريا الأرجاني... قدمته نفوسة حاكما أو إماما مدافعا»²⁵⁶.

19-«ومنها أبو محمد الدرفي... كان حاكما على أهل جادو»²⁵⁷.

20 - «وأن نصر بن أكتب مقدم فساطو»²⁵⁸.

21 - «وكان أبو يحيى يوسف متفنا في العلوم وعارفا بالنجوم. وتولى بعد أبيه (أبو محمد الدرفي) حكومة جادو»²⁵⁹.

22 - وأما أبو داود سليمان وأبو عبد الله محمد بن أبي يحيى فكانا حاكمين في أهل زمور»²⁶⁰.

23 - «ومنها أبو عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس التندميرتي عزله أهل نفوسة من غير حدث. فولوا مكانه أبا زكريا الأرجاني»²⁶¹.

24 - «ومنها أبو عبد الله (الويغوي) الكبير حاكم على أهل ويغو»²⁶².

من خلال هذه النصوص يتضح لنا أن جبل نفوسة كان تابعا للدولة الرستمية. مع التأكيد في الوقت نفسه على أن النفوسيين حاولوا عدة مرات الاستقلال مع

252 - نفسه. ص203-204.

253 - نفسه. ص214.

254 - نفسه. ص215.

255 - نفسه. ص224.

256 - نفسه. ص243.

257 - نفسه. ص285.

258 - نفسه. ص285.

259 - الشماخي: المصدر نفسه. ص287.

260 - نفسه. ص288.

261 - نفسه. ص318.

262 - نفسه. ص326.

الحفاظ على الرابطة الروحية، وهي المسألة التي سنتعرض إليها لاحقاً. ونلاحظ كذلك أن نفوسة كانت تقوم بتعيين العمال على بعض القرى دون العودة إلى الإمامة. بل حتى أخذ رأيها. وهذا ما يدل على أن ولاية الجبل كانت لهم حرية التصرف على المستوى الداخلي. كما نلاحظ أن نفوسة اشترطت على الإمامة أن يكون العامل منها دون اقتراح شخصية معينة²⁶³ وفي حالة أخرى اقترحت اسماً معيناً²⁶⁴ وفي حالة ثالثة قام النفوسيون بتولية رجل على أمورهم دون استشارة الإمامة أو تزكيته وترشيحه في انتظار موافقة الإمام²⁶⁵.

وإذا كان في بعض الأحيان يتولى شيوخ الجبل تولية عامل عليهم فربما يعود ذلك إلى ظروف الإمامة التي لا تهتم لما يحدث في الجبل خاصة في الفترة التي سادت فيها القلاقل والفتن فمن خلال النصوص السابقة نلاحظ أن نفوسة عينت أو عزلت مرتين فقط²⁶⁶.

وعلى الرغم من ورود كلمة (عامل)، و(إمام)، و(حاكم)، و(أمير)، في المصادر إلا أن هناك من الباحثين من راح يناقش كلمة (عامل) للوصول إلى نتيجة وهي أن مهمة العامل تكمن في جمع الصدقات، وجباية الأموال فقط. وإرسالها إلى الدولة. ومن هؤلاء «محمد الطالبي» الذي يذكر بأن الشماخي أورد ما يوحي بذلك. وإذا عدنا إلى سيره جده يقول: «ومنهم يبيب بن زلفين... كان له... ثلاثون ألف ناقة، وثلاثمائة شاة، وإثنى عشر ألف حمار. وإذا جاء العامل وقت الصدقة قال للرعاة: اختاروا خيار الإبل فغيبوها فيأمر العامل بأخذها»²⁶⁷.

ونعتقد أن هذا النص لا يحيط بمفهوم (العامل) فقد يكون لكل وال على الجبل عاملاً يساعده في جباية الأموال. وفرضاً أننا أخذنا برأي محمد الطالبي فبماذا نفسر المصطلحات الأخرى التي وردت في كتاب السير (حاكم) (إمام) وفي كتاب «أخبار الأئمة الرستميين» (أمير).

والحجة الأخرى التي يركز عليها محمد الطالبي هي أن هناك العديد من الإباضية الذين كانوا يعيشون في أماكن لا تخضع للسلطة الرستمية، وبالتالي فإن مسألة الجباية تطرح دون شك وفي هذه الحالة كلف عامل رضي به الإمام، وكأنه رئيس للإباضية

263 - ينظر: النص رقم 2.

264 - ينظر: النص رقم 3-6.

265 - ينظر: النص رقم 4.

266 - ينظر: النص رقم 18-23.

267 - ينظر: النص رقم 204.

للسهر على مصالحهم والحفاظ على تطبيق المذهب. وما العمال الذين ذكرهم الشماخي إلا عمال جباية، لأن الإباضية كانوا ينتمون روحياً إلى الإمامة في تاهرت، وسياسياً إلى الأغلبية، وبالتالي كانوا يدفعون الضريبة مضاعفة²⁶⁸.

وإذا كان هذا الرأي صحيحاً من جانب، فمن جانب آخر نجد أن هذا العامل كان يعين العمال على قرى الجبل، ويعين القضاة، ويسير الجيوش، ويعلم الناس أمور دينهم وديارهم، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وهذه الأعمال كلها ليست من صلاحيات جابي الأموال، وإذا كنا لا نعثر على لفظ (عامل) في المصادر بعد سقوط الإمامة الرستمية، فلأن إمامة الظهور انتهت وحلت محلها إمامة الكتمان، وتشتت الجماعات الإباضية وراحت كل جماعة تسير شؤونها بما يناسبها، فسكان الجبل مثلاً ظلوا يعينون «حكاماً» يشرفون على شؤونهم، مما يمكن لنا أن نقول بأن النفوسيين أحيوا الدولة الإباضية بعد اندثارها، ولما تأسس نظام العزابة أصبح مجلس العزابة يقوم مقام العامل، ضف إلى ذلك إذا سألنا قول محمد الطالبي فلماذا لم تعين الدولة الرستمية عمالاً لجباية الصدقات على وارجلان التي كانت شرياناً حيويًا لتجارة السودان، تدخلها الأموال الكثيرة؟ بل لماذا لم يعينوا الولاة أصلاً على هذه المدينة؟ أي يعني هذا أن المدينة كانت مستقلة عن تاهرت، وكانت تابعة لها روحياً لها فقط؟

وكان الأجدر بالأئمة الرستميين الاهتمام أكثر بهذه الجهة التي تدر على بيت مالهم بالذهب المتدفق من السودان، اللهم إلا إذا كانوا ينظرون إلى هذه الجهة على أنها مضمونة ولا تحتاج إلى حماية لأن حدودها لا تتاخم دولة عدوة أو قبائل تعتمد في حياتها على السلب، والنهب، والغارات. وحتى جبل نفوسة على الرغم من أهميته السياسية والثقافية والعسكرية لأنه يقع في أحد الجبهات الحامية، إلا أنه لم يحظ هو الآخر باهتمام الأئمة إلا في حدود المصالح، فكلما احتاج الأئمة لنفوسة بعثوا يطلبون نجدها، مثلما حدث إبان حرب الواصلية. وفي المقابل ظل النفوسيون يواجهون أعداءهم لوحدهم دون أن تقدم إليهم الإمامة السند القوي كالذي حصل في «مانو»، وفي غزوة ابن طولون. واكتفت الإمامة بتعيين العمال، والحرص على تبعيته للإمامة، بالوقوف ضد أي محاولة للانفصال. ويكفي أن نقول إن هذا الجبل الذي كان لأهله الفضل في قوة هذه الدولة، قد حظي بزيارة واحدة من قبل الأئمة تتمثل في زيارة الإمام عبد الوهاب واستقراره فيه سبع سنوات، وحتى هذه الزيارة تحتاج إلى وقفة لمناقشتها.

268 - محمد الطالبي: الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي 184-296هـ)، ترجمة: المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985، ص389-391.

أما عن التبعية الروحية والتي أراد بعض المؤرخين التركيز عليها. منهم الشيخ بكري الذي يستبعد تبعية الجبل للإمامة سياسياً. ويرى بأن سلطتها لا تتعدى تاهرت وأرباضها²⁶⁹. فإننا نميل إلى الأخذ بهذا الرأي جزئياً فقط ذلك أن التبعية الروحية. وحتى الجبائية يمكن أن نحدد بدايتها بموقعة «مانو» سنة 283هـ (896م). لأنه من خلال النصوص السابقة نجد أن كلا من الأئمة: عبد الوهاب، وأفلح، وأبو اليقظان قد عينوا ولاة على الجبل. وهذا يعني أنه كان تابعا للإمامة طيلة الفترة الممتدة من سنة 160هـ (776م) - وهو تاريخ تأسيس الدولة - إلى غاية 281هـ (894م). وهي السنة التي توفي فيها أبو اليقظان. وتولى أبو حاتم يوسف الإمامة (281-294هـ) (894-906م). وما يدعم كلامنا ما ذكره اليعقوبي في وصف الجبل بقوله: «هم قوم عجم الألسن، إباضية كلهم لهم رئيس يقال له إلياس (أبو منصور إلياس) لا يخرجون عن أمره... لا يؤدون خراجا إلى سلطان. ولا يعطون طاعة إلا إلى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الإباضية يقال له عبد الوهاب»²⁷⁰.

ولما انهزمت نفوسة في «مانو» أصبح شيوخها يعينون الحكام دون الرجوع إلى تاهرت وأصبحت الصلة الوحيدة التي تربطهم بالدولة هي وحدة المذهب. وعلى الرغم من ذلك فإن النفوسيين عجزوا عن تقديم أية مساعدة لإمامتهم التي كانت تختصر. فموقعة مانو كانت ضربة قاضية فيها حد سيفهم. وفي هذه الفترة (281-294هـ) (894-906م) يصح القول بأن الدولة الرستمية أضحت دولة مدينة لانقطاع الرابطة السياسية بينها وبين الأقاليم التي كانت تابعة لها في السابق.

2 - المجال العسكري:

أ - حصار طرابلس:

من الأحداث المهمة والخطيرة التي شهدتها جبل نفوسة في عهد عبد الوهاب بن عبدالرحمن بن رستم (171-211هـ) (787-826م). حصار مدينة طرابلس. ذلك أنه لما تمكن من الإمامة واستقرت له الأمور بعد أن قضى على الخلافات التي شهدتها فترة حكمه²⁷¹

269 - chikh bekri, le kharrejisme, p7780.

270 - ينظر: صفة المغرب، ص7.

271 - من الحركات المناوئة لإمامته حركة النكار التي تزعمها يزيد بن فندين فقد أنكر هذا الأخير إمامة عبد الوهاب بحجة أن عماله ليست لهم الكفاءة. وغير مؤهلين لإدارة شؤون الدولة. وأن بيعته باطلة لأنه لا يجوز تولية المفضل مع وجود الفاضل. ويجب أن تكون للإمام جماعة من أهل الحل والعقد لا يقطع أمرا دون استشارتها. وقد تحولت هذه المعارضة إلى معارضة مسلحة نتجت عنها محاولة لاغتيال الإمام وحدثت معارك قتل فيها عدد كبير من النكار. أما الخلافات الأخرى فقد أثارها كل من الواسلية وبعض القبائل كهوارة ومزاتة

شد الرحال رفقة زوجته متجها إلى مكة للحج. وفي طريقه نزل بجبل «دمر»²⁷² وأخذ البيعة منهم. ثم ولى عليهم رجلا يسمى (مدرار المنتصر)²⁷³ زوج (أروة) أخته. وقيل اسمه (فزار). ومن دمر واصل مسيره فنزل بلدة «ويغو»²⁷⁴. ثم توجه الإمام إلى «تالت»²⁷⁵ والتي طالت فيها إقامته. حتى إنه بني له مصلى. ومنها انتقل إلى «ميري». قرب حصن «بني زمرور»²⁷⁷ وبني له مسجد آخر في بلدة تيطاوين غير مسقف. مشهور بمسجد عبد الوهاب. وقد اجتمع فيه الشماخي مع بعض الخالفين²⁷⁸.

ويبدو أن الإمام استغل هذه الفرصة للاطمئنان على الرعية وتفقد أحوالها. فكان ينتقل من قرية إلى قرية. وفي كل واحدة يمكث أياما. يجتمع مع وجوهها فيقدم لهم النصيح ويعلمهم أمور دينهم.

وفي مدينة «ميري» اجتمع به «أهل الدعوة» من الجبل ولما علموا مقصده منعوه خشية أن يقع في قبضة العباسيين. «فتتعطل أمور المسلمين وحدود الله وأحكامه»²⁷⁹. وأصبحت الحاجة ملحة - كالعادة - إلى أخذ ورأي رؤوس المذهب في المشرق. فكتبوا إليهم مع رجل من «تمزدا»²⁸⁰ يستفتونهم في هذه النازلة. وكان رأس الجماعة هناك وقتئذ أبو الربيع بن حبيب. وابن عباد المصري. فلما بلغهما الكتاب. أجابه الربيع بأن يبعث بحجه

وسدراتة: ينظر: ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص47-56؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص113-127.

272 - هو جبل يبعد عن جبل نفوسة بثلاث مراحل. تسكن أطرافه أقوام من البربر يسمون (رهانة) كانوا في زمن الإدريسي يعيشون على الغارة والسلب ينظر: القارة الإفريقية، ص200.

273 - هو الذي ولي سجلماسة في النصف الثاني من القرن 2 هجري (8م) بعد وفاة أبيه القاسم سمعون بن واسول الكناسي الملقب بمدرار (155-167هـ) وأنجب من (أروة) ولده ميمون. توفي سنة 253هـ. ينظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص502.

274 - الدرجيني: الطبقات، ج1، ص65-66.

275 - هي قرية تقع في الجزء الغربي من الجبل جنوب شرق مدينة شروس اشتهرت بالعلم. فهي إحدى الحواضر العلمية التي لا تحتاج فيها بيت إلى بيت أخرى في مسألة علمية. فإليها ينسب العلامة مهدي النفوسي الويفوي وفرج النفوسي، ينظر: علي يحيي معمر: الإباضية في ليبيا، ص186-187.

T. Lewicki: Tasmiya Suyukh Nafusa, p98.

276 - تقع «تالت» على الضفة الغربية لوادي الشيخ وهي ليست بعيدة عن «القلعة وتومات» وهي قرى تطل كلها على الوادي. اشتهرت «تالت» بعلمائها منهم أبي سليمان داود بن إبراهيم. ينظر: معمر: المرجع نفسه، ص177.

277 - ميري: قرية صغيرة تقع في أرض بني زمرور غرب وادي الآخرة وهو ما يطلق اليوم على هذه الجهة اسم «الرجبان». ينظر: معمر: المرجع نفسه، ص207؛ الباروني: الأزهار، ص192.

278 - السير: ص158-159.

279 - الدرجيني: الطبقات، ج1، ص65-66.

280 - تسمى كذلك توكيت هي إحدى القرى الكبيرة في ناحية جبل فساطو. ينظر: الباروني: الأزهار، ص194؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص199.

وهو حي، وأجابه ابن عباد بأنه ليس عليه حج، لأن الطريق غير آمن. ومن شروط وجوب الحج الاستطاعة، وأمان الطريق. فلما وصلت ردود علماء المذهب، أخذ الإمام برأي أبي الربيع فأرسل من يحج بدله، ومدد الإمام إقامته في الجبل بين «أهل الدعوة» يعلمهم مسائل الصلاة فقط، وتقدر المصادر مدة إقامته في الجبل بسبع سنوات، ورغم ذلك لم يكمل أبوابا من مسائل الصلاة، وهذا يدل على سعة علمه بالفرائض²⁸¹.

ولم يكتف الإمام بالتعليم فقط، بل عقد وحضر مجالس القضاء، فالمصادر تذكر أنه اختصم إليه رجلا، وعندما لم يكن ابن مغطير حاضرا راح يؤجل الجلسة إلى أن حضر، وأصدر حكمه على أحدهما بأن وطنه بركبته وهو يصيح حتى طلب الغوث من الإمام فأمر بتركه. ونعتقد أن الإمام طلب حضور ابن مغطير لأن أحد المتخاصمين لم يفهم ما قاله الإمام فكان يسأل: «ماذا يقول الحضرمي»²⁸².

كما عين الإمام العمال على بعض المناطق، فولى سلام بن عمرو اللواتي على سرت، وزقون بن عمير على «قسطالية»²⁸³ واستغل طول إقامته في الجبل لتوطيد أركان الدولة، وتأمين الجبهة الشرقية، وخاصة وأن حدودها تتاخم دولة الأغالبة (184-296هـ) العدو التقليدي لبني رستم، ففي أثناء وجوده في الجبل حدثت مناوشات بين قبيلة هواره الإباضية يتزعمها عياض بن وهب²⁸⁴ - الذي لم يرد ذكره في المصادر الإباضية - وبين جند طرابلس²⁸⁵ هذه المناوشات التي لم يتحدث عنها ابن الصغير المالكي بينما تناول الخلاف الذي تزعمه الأوس من هواره²⁸⁶.

281 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص117، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص66.

282 - الشماخي: السير، ص161.

283 - الشماخي: المصدر السابق، ص161.

284 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص286-287.

285 - لم تكن هذه أول ثورة تشعلها هواره في طرابلس، فقد ثارت سنة 189هـ ضد عاملها «سفيان بن المهاجر» في عهد إبراهيم بن الأغلب، حيث أخرجوه من داره إلى المسجد وقتلوا عامة أصحابه ثم على أن يغادر المدينة فخرج منها بعد شهر فقط من ولايته، واستعملوا عليهم «إبراهيم بن سفيان التميمي» فأرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب العساكر فهزموهم واسترجعوا طرابلس.

286 - يذهب سعد زغلول بعيدا في تأويل صمت ابن الصغير حتى إنه يذكر أن الافتراق الثاني الذي حدث عنه هو نفسه الذي حدث في طرابلس رغم أن الرواية واضحة وصريحة وتبين أن الحرب كانت بين هواره وبين الإمامة بسبب مصاهرة تمت، ويرى سعد أن نفوسة كانت ممثلة بقوة في الجيش مما يؤيد أن اللقاء بين الإمام عبد الوهاب وبين أوس هواره كان غير بعيد عن جبل نفوسة إن لم يكن قد وقع في الجبل نفسه، والمعروف أن اللقاء تم على مجرى نهر جاف يقال له (أسلان) أو (أسلن) يبعد عن تاهرت بأربع مراحل وعن أرشقول بمرحلة، وهذا يفند ما قاله سعد زغلول.

ينظر: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص330.

ويرى الباروني ومحمود إسماعيل أن ثورة هواره وتشبثها بمخالفة الأغالبة مرده إلى رغبتها في الانضمام إلى الدولة الرستمية، الموافقة لها في المذهب، مستغلين وجود الإمام في الجبل وطمعاً في مساعدته²⁸⁷.

ومهما يكن من أمر فقد خرج الجند إلى «وادي الرمل» لقتال «هواره»، ودخلا في حرب كانت الغلبة فيها لهذه الأخيرة، وفتحوا طرابلس وخربوها، فولى الجند مدبرين تلاحقهم قوات «أهل الدعوة»، وما كان من إبراهيم بن الأغلب (184-196هـ) إلا أن جهز جيشا يقوده ابنه عبد الله، وتمكن هذا الأخير من تحقيق الانتصار واسترجاع مدينة طرابلس، فأعاد بناءها. وحين طلبت هواره النجدة من الإمام عبد الوهاب أقبل ومعه نفوسة حتى نزل طرابلس، وشن حصارا عليها²⁸⁸ فكان عبد الله يقاتل من باب «هواره» بعد أن سد باب «زناتة»²⁸⁹.

ويبدو أن الإمام واجه صعوبات جمة في فتح المدينة لخصائنها من جهة، فهي على «صور صخر جليل البنيان»²⁹⁰، ولما أبلاه أهلها من بسالة المقاومة من جهة أخرى، حتى إنه طلب من قواته العودة إلى الجبل. وما يوحى أن نفرا من جنده كان غير متحمس لهذه الحرب إن لم نقل كان يتعاون مع الأغالبة، إذ إن المصادر تشير إلى أن خطط الهجوم التي كان يرسمها تفتش وتنتشر²⁹¹ ولا نستبعد أن يكون قد حدث انقسام في جيشه بانضمام بعضهم إلى عبد الله، مما أجبره على العودة إلى الجبل، خاصة وأن المصادر لا تتحدث عن إمدادات جديدة تزود بها الإمام بعد عودته، فلا يعقل أن يحدث هذا الانسحاب هكذا دون قتال وبعد أن شدد الحصار على المدينة، وتنتقل المصادر إلى الحديث عن مناوشات بين الفريقين، هذه المناوشات التي قتل فيها عالم نفوسة مهدي الويغوي، الذي ثني عليه المصادر الإباضية كثيرا، ذلك أنه خرج من المعسكر إلى شاطئ البحر - ربما رفقة مجموعة²⁹² يريد الدخول إلى المدينة من الجهة المطلة على البحر، لأن المدينة محصنة حصينا جيدا من الجهة البرية، وعندما رآه العسكر سبحو إليه وقتلوه²⁹³.

287 - الباروني: الأزهار، ص198؛ محمود إسماعيل: الأغالبة (سياساتهم الخارجية)، مطبعة النجاح الجديدة، ط2، الدار البيضاء، 1978، ص104-105.

288 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص286-287؛ الباروني: المرجع نفسه، ص197.

289 - الشماخي: السير، ص159.

290 - البكري: المغرب، ص7.

291 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص116-117؛ سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج2، ص332؛ محمود إسماعيل: الأغالبة، ص106.

292 - يذكر الشماخي في سيره بأنه كان منفردا، ينظر: ص161.

293 - أبو زكريا، المصدر السابق، ص116.

وتصادف عودة الإمام إلى الجبل وفاة إبراهيم بن الإغلب مما جعل ابنه عبد الله يجنح إلى السلم. فصالح الإمام على أن «تكون المدينة والبحر للمسودة. وما كان خارجا فللإمام عبد الوهاب»²⁹⁴.

وبهذا الاتفاق طويت مرحلة من مراحل الصراع الأغلبي - الرستمي. وأصبحت قبائل هواره التي كانت تستوطن أحواز طرابلس تابعة للدولة الرستمية وهي: بنو اللهان، ومليلة، وورسطفة. أما منازل هذه القبائل فهي - كما حددها اليعقوبي - من آخر عمل سرت إلى طرابلس²⁹⁵. ولم تكن هواره وحدها معنية بهذا الاتفاق. بل هناك «بنو يسمكان» من بني دمر، ودمر بطن من بطون زواغة يقع بنواحي طرابلس²⁹⁶.

كما أرسل الإمام عبد الوهاب بعد عودته من حصار طرابلس حملة عسكرية على مدينة قابس. قاده «قطعان بن سلمة الزواغي»²⁹⁷. وتشير الروايات إلى أن عامل بني الأغلب امتنع عن الدخول في الطاعة فشدد عليه الحصار إلى أن استولى عليها. ثم انتقل إلى ما يليها من القرى التي تقطنها قبائل مطماطة، زنزفة، دمر، وزواغة فأخضعها ورتب العمال عليها²⁹⁸.

ولم نتمكن من خلال المصادر المتوفرة لدين من معرفة أسباب هذه الحملة التي عقبها الصلح مباشرة. وهل حققت الأهداف المرجوة منها؟ وهل تمكن «قطعان» هذا من الاستيلاء عليها فعلا وأصبح يدير شؤونها؟ فاليعقوبي (ت 284هـ) يذكر بأن بها عاملا من قبل ابن الأغلب²⁹⁹.

ولما عزم عبد الوهاب على العودة إلى عاصمة ملكه اجتمع إليه «أهل الدعوة» من النفوسيين، وطلبوا منه أن يولي عليهم عاملا. ويبدو من خلال رواية الدرجيني أن الإمام اختار لهم أحد وزرائه ولكنهم رفضوه. إذ كانوا يميلون إلى تولية السمع بن عبد الأعلى

294 - الشماخي: المصدر السابق، ص 161؛ محمود إسماعيل: الأغلبة، ص 106؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط 9، القاهرة، 1986، ج 2، ص 214؛ محمد بن تايوت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1957، مج 5، ص 115-116.

295 - ينظر: صفة المغرب، ص 7.

296 - ابن خلدون، كتاب العبر، مج 6، ص 264.

297 - الشماخي: السير، ص 161؛ وفي ص 203 يذكر بأن سلمة بن قطفة كان عاملا للإمام عبد الوهاب على قابس ولا ندري هل هو اسم لشخص واحد أم لشخص آخر نظرا لتشابه الأسماء إلى حد بعيد.

298 - الشماخي: المصدر نفسه والصفحة ذاتها؛ الباروني: الأذهار، ص 199.

299 - ينظر: صفة المغرب، ص 7.

وزيره. ولبي الإمام طلبهم رغم أن السمع كان أحب الناس إليه وأنصحهم له. ثم توجه عائدا بركبه إلى تاهرت³⁰⁰.

ولنعد الآن إلى مسألة حج عبد الوهاب، وإقامته المطولة في الجبل وحربه مع الأغلبة وما يحوم حول هذه الزيارة من شكوك وغموض. وقد تناول بعض الباحثين هذه المسألة بالتحليل وأبدوا رأيهم فيها. ومن بينهم محمود إسماعيل الذي يرى بأن خروج الإمام إلى المشرق لم يكن لأداء فريضة الحج إذ من غير المعقول أن يغيب عن تاهرت زهاء سبع سنين ينتظر فتوى من شيوخ المذهب المشاركة. والأرجح أنه كان يعد العدة للتوسع على حساب الأغلبة³⁰¹. أما سعد زغلول فيرى رأيا آخر، وهو أن خصوم الإمام في منطقة طرابلس كانوا سيسببون له المتاعب، خاصة لما لجأ إلى هناك «شعيب المصري» حليف يزيد بن فندين النكاري. ويضيف أن هذه الرواية تشبه إلى حد كبير الرواية الأغلبية الخاصة بالأمير إبراهيم بن أحمد عندما ترك المارة وسار للجهاد في صقلية ف قيل إنه كان يقصد الحج³⁰².

إن بقاء الإمام عبد الوهاب طيلة هذه المدة في جبل نفوسة بعيدا عن مركز سلطانه أمرا يدعو إلى الحيرة. فهل انتظار فتوى من المشرق تجعله ينتظر هذه المدة؟ وهل كان انتقاله إلى المشرق للحج فعلا؟ ومن كان طيلة هذه الفترة يسير شؤون تاهرت؟

وأمام هذه التساؤلات فإننا نستبعد ما روته المصادر الإباضية من أن الإمام كان متوجها إلى الحج. ولكنه توقف بالجبل لأن شيوخ نفوسة منعه من جهة. ومن جهة أخرى ظل ينتظر وصول فتوى من المشرق. ذلك أنه لا يعقل أن إماما عالما مثل عبد الوهاب ظل مدة سبع سنوات يعلم النفوسيين «مسائل الصلاة» ورغم ذلك لم يكمل أبوابا منها. ويجعل أن من شروط الحج الاستطاعة، وأمان الطريق. ضف إلى ذلك أن ابن الصغير - وهو أحد المعاصرين للإمامة وعاش في تاهرت - لم يذكر أن عبد الوهاب خرج إلى الحج. بل سمع أنه حاصر مدينة طرابلس³⁰³. ويتضح جليا أن رواية الحج قيلت في فترة متأخرة نقلها أبو زكريا في سيره. ونحن نعرف أنه ألف كتابه بعد سنة (471هـ) (1078م). وإذا قارنا بين رواية خروج عبد الوهاب إلى الحج، ورواية سفر أبي اليقظان إلى مكة حاجا، نلاحظ أن مخاوف نفوسة هي التي حدثت لهذا الأخير. فقد روى ابن الصغير بأن بني

300 - ينظر: الطبقات، ج 1، ص 67؛ وينظر: علي يحيى معمر: الإباضية في ليبيا، ص 79.

301 - ينظر: الأغلبة، ص 105.

302 - ينظر: تاريخ المغرب العربي، ج 2، ص 329-330.

303 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين، ص 45.

العباس بلغهم أن «مقدم الشراة» بالمغرب أرسل ابنه يرتاد البلاد ويتصل بأهل المذهب لتعبئتهم في انتظار قدوم أبيه من تاهرت، فألقي عليه القبض في مكة، وحبس في بغداد رفقة خادمه النفوسي³⁰⁴. ونستنتج مما ذكرناه أن رواية حج أبي اليقظان أسقطت على الإمام عبد الوهاب، فلما لم يجد مؤرخو المذهب تفسيراً لسفره إلى طرابلس - وهي أول زيارة يقوم بها إمام للمنطقة - وبقائه هناك مدة سبع سنوات، قالوا إنه سافر إلى الحج، ولكنه توقف بالجبل لأن «أهل الدعوة» هناك أدركوا أن إمامهم لن يلفت من قبضة العباسيين في مكة، فأرسلوا في طلب فتوى من المشرق.

وأما عن أسباب إقامته في الجبل فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن الإمام كان يهدف من هذه الزيارة إلى تحقيق هدفين: الهدف الأول: يتمثل في العمل على الحفاظ على الوحدة الترابية للدولة، خاصة وأن الإمامة تكون قد أحست بوجود نزعات استقلالية بالجبل، قد يدعمها «شعيب المصري» حليف النكارية الذي قدم إلى منطقة طرابلس. ومادام أن الدولة الرستمية هي الجبل، والجبل هو الدولة الرستمية فإن عبد الوهاب أراد أن يقضي هو شخصياً على هذه المتاعب المستجدة في بدايتها قبل أن تستفحل، وما انقسام الجبل فيما بعد إلى قسمين: قسم مال إلى تولية خلف بن السمح، وقسم رفض التولية دون استشارة الإمامة لدليل كاف على أن الإرهاصات الأولى للاستقلال، ظهرت قبل حركة خلف وأتباعه. وأما الهدف الثاني: فيتمثل في تأمين الجبهة الشرقية التي عانى سكانها من مضايقات الأغالبة، ولحسم الموقف ارتأى أن يقود العمليات العسكرية بنفسه. وبالإضافة إلى ذلك قام بتعيين العمال على النواحي، وهذه العملية ليست سهلة في مجتمع تطغى فيه في أغلب الأحيان روح العصبية القبلية على العصبية المذهبية إن صح التعبير. أما عن تسيير شؤون تاهرت مدة غيابه فإننا نميل إلى القول بأن ابنه أفلح هو الذي كان يشرف على تسيير دواليب الحكم.

ب - نفوسة والصراع الطولوني - الأغلبي:

بعد قدوم العباس بن أحمد بن طولون سنة (269هـ) (882م) إلى بلاد المغرب على رأس جيش للاستيلاء على دولة الأغالبة من الأحداث التي لم تعطها المصادر حقها من الدراسة، فاعتبرتها حادثة عارضة على الرغم من القوات والحشود التي سخرتها في هذه الغزوة. ولاشك أن هناك ظروفا وأسباباً مهدت لها أهمها المؤرخون، واكتفت المصادر بالقول إن الأمير استغل غياب أبيه عن مصر فسولت له نفسه التوجه إلى إفريقية وإخضاعها لسلطانها، خاصة وأن مستشاريه حطوا له من شأن إبراهيم بن

أحمد الأغلبي (261-289هـ) (874-901م)، أمير هذه البلاد ولا تتفق المصادر عن تاريخ خروج ابن طولون من مصر. قيل سنة 265هـ (878م)³⁰⁵ و267هـ (880م)³⁰⁶ و269هـ (882م)³⁰⁷ وتذكر أنه خرج في قوة كبيرة قدرتها المصادر بثمانئة فارس وعشرة آلاف رجل من سودان أبيه، وحمل معه من بيت المال في مصر ثمانمائة حمل دنانير. وفي الطريق أشار عليه أبو عبد الله أحمد بن محمد الكاتب بأن يؤخر التقدم إلى طرابلس حتى يصانع البربر، فرفض لأنه كان يخشى عودة عساكر أبيه من بلاد الشام قبل تحقيق طموحه. وفي الوقت نفسه حتى لا يعطي فرصة لإبراهيم بن أحمد للاستعداد³⁰⁸.

وأرسل العباس كتاباً إلى إبراهيم مدعياً فيه أن أمير المؤمنين المعتمد (256-279هـ) قلده أمر إفريقية، وأنه يأمره بالدعاء له على منابرهما والخروج لاستقباله. واستولى العباس على برقة وكان عاملها محمد بن قهر، ثم انتقل إلى لبدة³⁰⁹ فخرج إليه عاملها الأغلبي لاستقباله. وعلى الرغم من ذلك أباح لجنده نهب أهلها وقتل رجالها وسبي نساءها. فاستغاث أهلها بأبي منصور إلياس عامل جبل نفوسة³¹⁰. وأرسل العباس كتاباً إلى زعيم نفوسة يأمره الدخول في الطاعة³¹¹. فأرسل إليه هذا الأخير جيشاً من خيرة رجاله من نفوسة والقبائل الإباضية الأخرى، يقدر عدده باثني عشر ألف فارس³¹². ولم يكن القصد من تجهيز هذه الحملة هو حماية الأغالبة، وإنما كان الهدف هو حماية وحدة الإباضية التابعين له، لأن بعض سودان العباس تعدوا على حرم البوادي³¹³.

ولما علم إبراهيم بن الأغلب بقدوم ابن طولون قاصداً طرابلس أخرج إليه أحمد بن

305 - ابن خلدون: كتاب العبر، مج 4، ص 434؛ النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار، مراجعة عبد العزيز الأهواني، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983، ج 24، ص 129.

306 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 118.

307 - محمود إسماعيل: الأغالبة، ص 109.

308 - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 1، ص 118؛ محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص 138.

309 - هو حصن يقع بين طرابلس ومدينة شروس، ذكر البكري أن به آثار تعود إلى أزمان غابرة، سكنه في عصره قوم من العرب عرفوا بغاراتهم لجميع القبائل القريبة إليهم من البربر، ينظر: المغرب، ص 9.

310 - قيل إن الاستغاثة كانت من أهل طرابلس عندما حاصرها العباس فيما بعد، ينظر: الباروني: الأزهار، ص 317.

311 - رد إلياس عن رسالة أبي العباس بقوله: «قل لهذا الغلام: أما إنك أقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي، فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعني التخلف معه عن جهادك، وأنا على إثر رسالتي إليك».

ينظر: الباروني: المرجع نفسه، ص 318؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج 3، ص 166-167.

312 - ابن خلدون: كتاب العبر، مج 4، ص 645-646؛ حسن إبراهيم حسن: المرجع نفسه والجزء ذاته، ص 166-167؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص 120-121.

313 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 119؛ الباروني: المرجع السابق، ص 317؛ محمود إسماعيل: الأغالبة، ص 109.

على إفريقية، ولذلك فلا نستبعد أن يكون قد استغل غياب أبيه فعلا عن مصر. وكذلك الظروف السياسية التي كانت تمر بها الخلافة العباسية نتيجة ثورة الزنج والصراع بين المعتمد وأخيه الموفق لتحقيق طموح كان يعتقد أنه سهل المنال.

أما الإمامة الرستمية فلم تحرك ساكنا نظرا للضعف والهوان الذي بدأ يدب فيها. وتركت النفوسيين يواجهون أعداءهم دون دعم مادي أو حتى معنوي. والغريب في الأمر أنه أثناء الخلافات المذهبية بين أتباع المذهب تكثر الاتصالات بين نفوسة وناهرت. بينما لا نجد ذلك سواء في حملة ابن طولون، أو في حربهم ضد الأغالبة في «مانو».

ج - موقعة مانو 283هـ (896م): خلفياتها، أهدافها، ونتائجها:

اتسمت العلاقات الرستمية - الأغلبية بالطابع العدائي. وكان السبب في ذلك تشابك الحدود بينهما، خاصة وأن الرقعة الجغرافية للدولة الرستمية تحيط بالدولة الأغلبية من الشرق والغرب. ولم يكن هناك مانعا من تنقل القبائل من مكان إلى آخر. فهناك العديد من المدن الأغلبية تعيش فيها جاليات وإباضية تابعة روحيا للإمامة الرستمية. مثل طرابلس، ومدن بلاد الجريد، وجبل أوراس. وكثيرا ما كان يحدث الصدام بين رعايا الدولتين. ولا غرو أن يستغل بنو الأغلب المنشقون من الإباضية في إثارة القلاقل، والفتن، مثل: هواره النكارية، وزواغة الخلفية. وقد بنى الأغالبة مدينة «العباسية» التي لا تحدد المصادر الجغرافية موقعها. سنة 239هـ (854م) لتكون قاعدة انطلاق الغارات على ناهرت. وقد خربها الإمام أفلح. وفي المقابل حاول الإباضية في جبل نفوسة الاستيلاء على مدينة طرابلس كما مر بنا. وموقعة مانو التي سنتناولها بالدراسة ما هي إلا نتيجة لهذا الصراع الذي دام طويلا إلى غاية سقوط الدولتين.

تتفق أغلب المصادر على أن هذه الموقعة كانت أعنف ضربة وأقسى هزيمة حلت بالإباضية، بل إن هذه الهزيمة كانت - حسب المصادر الإباضية - السبب المباشر في انهيار الدولة الرستمية ككل. وعجزت عن الصمود أمام الزحف الشيعي. فقبيلة نفوسة كانت الساعد الأيمن للإمامة، فهي التي أقامت بسبيلها. كما بلغت مبلغا عظيما في العلم والتقى والعدل والورع³¹⁷ ولذلك انتشرت أخبارها مشرقا ومغربا حتى هابها من في هذه الجهات، فكثرت المكاتبات عن قوتها إلى بغداد من قبل القيروانيين. وأهل طرابلس، وتوحي المصادر الإباضية إلى أن اهتمام الخلافة العباسية بالرستميين في ناهرت

317 - الشماخي: السير، ص 267.

قرهب في ألف وستمئة فارس ليلا. فدخل طرابلس قبل وصول العباس إليها. وفيها حشد الجند، ثم أجه إلى لبداء فالتقى على خمسة عشرة ميلا منها. وقد تأخرت جمال العباس التي كانت تحمل البنود، فلم يكن بينهم إلا مناوشة يسيرة. انهزم خلالها ابن قرهب وعاد إلى طرابلس معتقدا أن مقدمة الجيش هي التي ناوشته. وسار العباس متقدما إلى طرابلس حتى وصلها فنصب عليها المجانيق. وحاصرها حصارا شديدا دام ثلاثة وأربعين يوما. ولما استغاث أهل طرابلس بإلياس - وهي الرواية الأرجح - قام هذا الأخير «محتسبا وناصرا جيرانه من المسلمين»³¹⁴.

وزحف إلياس بعساكره، وتمكن من إلحاق الهزيمة بالعباس فخرج إلى برقة بعد نهب أهل طرابلس لجميع عسكره. ولما بلغت أخبار ابن طولون إلى ابن الأغلب وأنه وصل إلى طرابلس، حشد الجند، ووفر الأموال حتى إنه ضرب حلي نساؤه دنانير ودراهم. وخرج بنفسه لملاقاته ولما علم بانتهزامه استغل هذه الفرصة وراح يبحث عن الأموال التي أخذت من ابن طولون «فكان الرجل من أهل العسكر يبيع مئاقيل ابن طولون سرا بما أمكنه خوفا أن تؤخذ منه»³¹⁵. وعاد إلياس بقواته إلى الجبل، بينما راح ابن الأغلب يعيد الأمن إلى دولته. فقد فتك بأهل الزاب سنة 268هـ (881م)، وفي سنة 280هـ (893م) أوقع برجال بلزمة بعد أن هدأت ثورة الدراهم* سنة 275هـ (888م)³¹⁶.

ومجمل القول فإن حملة ابن طولون فشلت فشلا ذريعا. خاصة وأنه وجد نفسه أمام قوتين: قوة نفوسة، وجند الأغالبة، ويبدو أنه لما أشار عليه أبو عبد الله أحمد بن محمد الكاتب بمصانعة البربر، كان يقصد استمالة القبائل الإباضية المناوئة للدولة الأغلبية لتقف إلى صفه. ولكن تعجله حال دون إتمام الصفقة. أما عن إدعاء العباس بأن أمير المؤمنين المعتمد قد ولاه إفريقية، فهذا أمر غير مؤكد تاريخيا. لأنه إذا كانت الخلافة غاضبة - كما سنرى فيما بعد - عن تصرفات إبراهيم بن أحمد، فإنها قد أمرته بالتنازل عن الحكم لابن عمه محمد بن زيادة الله، ولم نخبرنا المصادر بأن المعتمد ولى ابن طولون

314 - ابن عذاري: المصدر السابق، ص 119.

315 - المصدر نفسه، ص 119.

316 - قامت هذه الثورة عندما ألغى إبراهيم بن الأغلب قطع النقود الصغيرة التي جرى التعامل بها. وضرب بدلها الدراهم الصحاح من الفضة. وبما أن هذا التبديل أحدث متاعب للتجار، أغلقوا حوانيتهم وخرجوا في تظاهرات حدثت خلالها مناوشات بينهم وبين الحرس. ولكن الأمور هدأت بعد تدخل إبراهيم بن الأغلب والفقهاء أبو حفص أحمد بن مغيث. ينظر: ابن عذاري، المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 120-121؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج 2، ص 128.

- ابن عذاري: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 120-123.

وطرابلس بدأ منذ عهد الخليفة المتوكل (233-247هـ) (847-861م). حتى إن أبا زكريا في روايته يظهر إبراهيم بن أحمد الأغلبى وكأنه يزحف بقواته من شرق طرابلس قاصدا تاهرت. بناء على أوامر بغداد³¹⁸.

وما لاشك فيه أن الخلافة العباسية حرضت الأغالبة ضد الرستميين. ضف إلى ذلك فإن الأمير الأغلبى أراد من خلال ضرب الإباضية أن يغطي على أعماله الإجرامية وقساوته ضد رعاياه في تونس. وطرابلس. بأن يكسب رضاها وودها. وفي الوقت نفسه قد تكون قساوته ضد الإباضية من قبائل هواره في طرابلس سببا مباشرا في خروج نفوسة لقتاله. فالشماخي يذكر بأنه كان ظالما وقد أفسد حين قدم إلى طرابلس³¹⁹.

وخرج إبراهيم بن أحمد من تونس في العاشر من محرم 283هـ فأقام بمدينة «رقادة» إلى سبع بقين من صفر. ثم غادرها متجها إلى طرابلس متتبعا أثر ابنه عبد الله الذي سبق وأن سيره على رأس جيش لتأديب بوادي طرابلس. والاستيلاء على المدينة. وذلك سنة 281هـ (894م). أو متجها إلى مصر للثأر من ابن طولون. وفي الطريق اعترضته نفوسة. بين قابس وطرابلس. في موقع تسميه المصادر الإباضية بـ «مانو». وكانت نفوسة مصممة على قتاله. على الرغم من اعتراض عامل الجبل أفلح بن العباس الذي تولى الولاية بعهد من الإمام أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م) وسعد بن يونس عامل قنطرة. ومعبد الجنائوني. لأن إبراهيم بن أحمد كان يريد التوجه إلى مصر للثأر من ابن طولون. ويبدو أن ابن الأغلب لم يكن ينوي مواجهة نفوسة. بدليل أنه طلب منهم أن يتركوا له ساحل البحر مقدار نشتر عمامة ليمر هو وجيشه إلى وجهته فرفضوا³²⁰.

ولما رأى الأمير الأغلبى أن نفوسة مصممة على عدم ترك مجاز له تهيأ لقتالهم. ولكنه أثر أن لا يبدأ هو القتال. فقد خاطب أصحابه قائلا: «خذوا عدتكم. وشمروا على أنفسكم. وجوزوا على ساحل البحر ولا تتعرضوا لهؤلاء القوم. فإن هم تركونا وطريقنا. وإلا ناصبناهم»³²¹.

وظل الخلاف قائما بين نفوسة. وبين مؤيد. ومعارض لترك جيش الأغالبة وشأنه. حتى إن سعدا اتهم بالجبن والخيانة. وأنه أراد العودة إلى عمالته «قنطرة». واقتتل الجيشان

318 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص150؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج2. ص388.

319 - ينظر: السير. ص268.

320 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص151؛ الشماخي: المصدر نفسه. ص268؛ الباروني: الأزهار. ص343-344؛ سعد زغلول: المرجع السابق. ج2. ص389؛ محمد الطالبي: الدولة الأغلبية. ص326.

321 - أبو زكريا: المصدر نفسه. ص151.

أعنف قتال. فلم تصمد نفوسة كثيرا حتى هموا بالانهزام. «فصارت تنهدم الرجال من الصفين كالحيطان»³²² وتطارح منهم خلق كثير في البحر حتى أحمر لون مائه من دمائهم. فلا عجب إذن أن قال ابن الأغلب «لو كان هذا القتل لله لكان إسرافا»³²³.

وفي خضم هذا القتل أمر أفلح بن العباس صاحب البند «شعبة الدجي» بأن يركزه كي لا ينهزم عنه أحد. فرفض ثم اقتتلوا مليا. وعندما أصر أفلح حفر له وأوقفه. وفر أفلح من ميدان المعركة. وترك رجال نفوسة يسقطون قتلى قرب البند. فرأى ذلك رجل من ذوي البصائر. فضربه بسيفه حتى وقع وعندما رأى ذلك بقية العسكر ولوا مدبرين³²⁴ وحملت نفوسة أفلح بن العباس هذه الهزيمة. فاتهمته بأنه صمم على تركيز البند رغم أن القوتين غير متكافئتين. ولأنه كان من الكارهين للخروج. وخرجت نفوسة من هذه المعركة بخسارة فادحة. إذ تقدر المصادر عدد القتلى فيها اثني عشر ألف. منهم أربعة آلاف من نفوسة أما البقية فمن مختلف القبائل. منهم حوالي أربعمئة عالم فقيه. في حين لم يتعد عدد الأسرى ثمانين أسيرا³²⁵.

ولم يرحم ابن الأغلب الأسرى. فعمروس بن فتح قاضي الجبل في عهد أبي منصور إلياس - وهو أحد الأسرى - أخذوا يقطعونه بالحديد من إبهامه حتى وصلوا إلى مرفقه. فاستشهد رافضا طلب العفو³²⁶.

ومهما يكن من أمر. فإن موقعة مانو هي الموقعة التي فل بها حد سيف نفوسة. وهي الموقعة التي فقدوا فيها أشهر علمائهم. والكثير من رجالهم. ولعل أصدق وصف لنتائجها ما عبر عنه الوسياني في قوله: «ذكر أن نفوسة لما قتلوا في وقت مانو فبقي من بقي منهم ولم يجدوا من يبين للناس أموالهم من الأنشجار إلا العسفاء يعني الأجيراء»³²⁷. وفعلا فالموقعة كانت لها نتائج وخيمة على إمامة الظهور في بلاد المغرب. فعندما عادت نفوسة أدراجها تحصنوا في الجبل وتشاوروا في عزل قائدهم أفلح بن العباس. وتولية ابن عم له واتفقوا على ذلك. ما عدا أبي معروف ويدرن بن جواد حاكم

322 - النويري: نهاية الإرب. ج24. ص133.

323 - النويري: المصدر نفسه والجزء والصفحة ذاتهما.

324 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص152؛ الشماخي: السير. ص269؛ معمر: الإباضية في ليبيا. ص185-186؛ محمد الطالبي: الدولة الأغلبية. ص327-328.

325 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص152؛ الشماخي: المصدر السابق. ص269.

326 - البغطوري: سير نفوسة. و2؛ الدرجيني: طبقات المشائخ. ج1. ص89؛ الشماخي: المصدر نفسه. ص269.

327 - ينظر: السير. ج2. و11؛ يذكر أبو زكريا أنه لم يبق من علمائهم إلا أبي القاسم البغطوري وعبد الله بن الخير. وكانا يتوليان الفتوى في الجبل بعد النكسة. فلولاهما لعطلت إلى يوم القيامة. ينظر: كتاب السيرة. ص154.

شروس. الذي كان يخشى الخلاف. وسرعان ما أعيد إلى منصبه بعد مضي ثلاثة أشهر فقط. لأن ابن عمه لم يحسن السيرة.

واستغل ابن الأغلب أفول «نفوسة» وانشغالها بتضميد جراحها. فانتقل إلى طرابلس وقتل ابن عمه. وأراد الزيادة فتفرق عنه أصحابه وعادوا إلى إفريقية. وكر من جديد على نفوسة سنة 284هـ (897م). حيث نكل الرجال واستباح النساء. وقتل منهم الكثير وعاد محملاً بالأسرى³²⁸ ثم قصد «قنطرة» فباغت سكانها وقتل منهم الكثير. ثم اختار ثمانين من العلماء والفقهاء فألقى عليهم القبض. ومنها آتاه إلى «تيزاج» - إحدى قرى نفزاوة - فأسر عالمها أبا يوسف النفوسى أحد مستجابي الدعاء. وقد استطاع الإفلات من قبضته عندما هبت عاصفة مظلمة حالت بينه وبين جند ابن الأغلب. ثم آتاه رفقة ابنه عبد الله إلى تناونت «قرب نفزاوة»³²⁹. أما علماء وفقهاء قنطرة فقد أخذوا إلى القيروان وقتلوا عن آخرهم ونظمت قلوبهم في حبال ونصبت على باب تونس³³⁰.

إن المصادر الإباضية وغير الإباضية تتفق وتجمع على قساوة ابن الأغلب مع الأسرى من الإباضية وينفرد النويري برواية تؤكد ذلك بقوله: «قال له بعض رجاله: ليدع الأمير بعض من أحب من مشائخهم. ويسأله عن اعتقاده فإذا سأله علم أن ذلك لله. فأحضر بعضهم فقال: «ما تقولون في علي بن أبي طالب. فقال: نقول إنه كافر في النار من لم يكفره فقال إبراهيم: فجميعكم على هذا الرأي؟ فقالوا: نعم. قال: الآن طابت نفسي على قتلكم وجلس على كرسي وبيده حربة. فكان يقدم إليه الرجل منهم فيقد أضلاعه من تحت منكبيه ثم يطعنه فيصيب قلبه حتى قتل منهم خمسمائة رجل بيده وحده في وقت واحد»³³¹.

إن هذا النص يدعم وصف المصادر الإباضية لقساوة ابن الأغلب في التعامل مع الأسرى وفي الوقت نفسه يشير إلى أن الإباضية كانوا يكفرون علي ويكفرون من لم يكفره. والصحيح أن الإباضية لم يكفروا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بل كانت خطبه تتلى على ألسنة الأمة في مساجد تاهرت خاصة في الأعياد والمواسم الدينية³³². ولذلك فإن النويري لا يميز بين الإباضية وبين فرق الخوارج.

328- الشماخي: السير، ص 269-270؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج 1، ص 130؛ محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 328.

329 -الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 90-91؛ أبو زكريا: المصدر السابق، ص 156.

330 -الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 91.

331 -ينظر: نهاية الإرب، ج 24، ص 134.

332 -ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 121-122؛ دبو: تاريخ المغرب الكبير، ج 2، ص 285-384.

ويبدو أن إبراهيم بن أحمد قد أصيب بالجنون في آخر أيامه فقد «استحال طبعه وغلب عليه سوء المزاج فتغير عقله وساءت حالته وأسرف في قتل أصحابه وأولاده وبناته وحجابه»³³³. ويتفق ابن عذارى مع الشماخي في القول بأنه اختل عقليا³³⁴ ويضيف المؤرخون أن فترة مرضه دامت سنوات كاملة حتى خافه الناس لأنه بالغ في القتل. فقتل من خدمه ونسائه وبناته. وقتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به ولذلك قرروا خلعه وبعثوا إلى الخليفة يشكون من عماله ويطلبون عزله. ولكنه تطفن لنفسه شيئا فشيئا قرب نهاية حكمه خاصة وأن الشيعة أصبحوا يهددون ملكه ويطرقون أبواب إفريقية والمغرب عامة. ففى سنة 289هـ (901م) أعلن التوبة. وعمل على استمالة العامة فرد المظالم وأعفى الفلاحين من خراج سنة وأعتق ممالিকে ووزع الأموال على الفقهاء ووجوه الناس³³⁵.

ونعود مرة أخرى إلى مناقشة خلفيات وأهداف ونتائج موقعة مانو للتوصل إلى معرفة الأسباب الحقيقية التي أدت إلى اصطدام نفوسة بالأغلبية. إن المصادر لا توضح لنا وجهة إبراهيم بن أحمد الحقيقية: هل كان متجها إلى طرابلس لتأديب محمد بن زيادة الله؟ أم إنه استشعر ضعف الدولة الرستمية في تاهرت. وانشغالها بحربها الأهلية فأراد أن ينهي مرحلة التعايش السلمي ويعتدي على نفوسة بغية القضاء عليهم؟ أم إنه كان متجها إلى مصر للثأر من أبي العباس أحمد بن طولون؟

وإذا بدأنا بالمصادر الإباضية فإن هذه الأخيرة تجمع على أن القصد من الحملة هو القضاء على نفوسة. يقول الدرجيني: «انتهز الصيت على نفوسة حتى اشتهر في بلاد المشرق عند ملوك المسودة لمكاتبات أهل بلاد القيروان وأهل طرابلس وغيرها من بلاد المغرب التي انتشرت بها دعوتهم. وكان ذلك أيام المتوكل ببغداد»³³⁶. فلما تواترت الكتب إليه من الجهات الغربية أن دعوة الرستميين قد تمت وأيامهم قد استقامت لا ينازعهم منازع. ويستنفرون من عنده جيشا ينتظم به إليهم ملك طرابلس والمغرب. فاهتز لذلك وحرك إليه خاطره فوجه عسكره إلى المغرب وأمر عليه إبراهيم بن أحمد من بني الأغلب فتوجه إبراهيم بعسكره إلى المغرب قاصدا تاهرت فلما قرب من طرابلس سمعت بخبره نفوسة»³³⁷.

333 -الشماخي: السير، ص 271.

334 -ينظر: البيان المغرب، ج 1، ص 129-130.

335 -ابن عذارى: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 131-132؛ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 93؛ محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص 107.

336 -أخطأ الدرجيني حين ذكر بأن واقعة مانو حدثت في عهد المتوكل (232-247هـ) بل حدثت في خلافة المعتضد (279-289هـ).

337 -ينظر: الطبقات، ج 1، ص 87.

من خلال هذا النص - وهو لا يختلف عن رواية أبي زكريا - نلاحظ أن الحملة أرسلت من المشرق للتوجه إلى تاهرت وكلفت إبراهيم بن أحمد الأغلبي باعتباره ممثلاً للمسودة في هذه الربوع بقيادة هذا الجيش ولما علمت نفوسة بوجهة هذا الجيش خرجت من عرينها للتصدي له والحيلولة دون وصوله إلى حاضرة الإمارة. ونحن نستبعد مطلقاً هذه الرواية ولا يمكن الأخذ بها لسببين: أولهما: أننا لا نجد ذكراً لهذه الرواية في المصادر التاريخية الأخرى ولم نعث على أدنى إشارة تدل على أن الخليفة المعتضد (279-289هـ) (892-901م) قد سير جيشاً إلى بلاد المغرب لموازاة الأغالبة في القضاء على الدول المستقلة التي لا يذكر على منابرها اسم الخليفة العباسي أضف إلى ذلك أن ظروف الخلافة في ذلك الوقت لم تكن أبداً تسمح بتسيير الجيوش إلى إفريقية. ثانيهما: أن الحملة لم تتجه إلى تاهرت بعد القضاء على نفوسة فلو أرسل هذا الجيش من المشرق لما تخلى العديد من أفرادها عن مواصلة القتال. إذ تذكر المصادر أنه عندما اتجه إبراهيم بن أحمد إلى «عين تاورغا» خارجاً من طرابلس رجع كثير من معه إلى إفريقية. ولم يبق معه إلا أقل من النصف. فلما رأى ذلك انصرف إلى رقادة ثم إلى تونس³³⁸. وتضيف المصادر أنه عاقبهم بدفع غرامة مالية مقدارها ثلاثين ديناراً سميت بـ «غرم الهاربين»³³⁹.

ونستنتج من هذا النص أن جل أفراد هذا الجيش هم من إفريقية وليسوا مشارقه. وإذا أردنا أن نذهب بعيداً في تحليل رواية أبي زكريا والدرجيني نقول: بأن اهتمام الخلافة العباسية بالدولة الرستمية ازداد منذ عهد المتوكل (232-247هـ) (846-861م) عندما ألقى القبض على أبي اليقظان رفقة خادمه النفوسي في مكة. يقول ابن الصغير «لما طاف وسعى (أي أبو اليقظان) كشفتة رسل بني العباس إذ قدموا معه من عندهم. وقيل لهم إن ابن مقدم الشراة. قد قدم من المغرب من عند أبيه يرتاد البلاد ويرسل رسله في كل الآفاق إلى من كان على رأيهم ومذهبهم ليأخذوا إلى أنفسهم إلى أن يأتيه والده من المغرب. فحمل أبو اليقظان من مكة وحمل معه رجل من نفوسة كان يخدمه حتى ورد بهما مدينة السلام. والعامل إذ ذاك المتوكل»³⁴⁰.

أما الرواية الثانية: فتذكر بأن وجهة إبراهيم بن أحمد هي مصر. للانتقام من العباس بن أحمد بن طولون الذي استغزه وأهانته سنة 267هـ (880م) طالباً منه التنحي عن إفريقية لصالحه. يقول النويري: «في سنة 283هـ حرك إبراهيم يريد محاربة ابن طولون

بمصر»³⁴¹ وقد يبدو أن هذه الرواية صحيحة. لأنه مر بنا أن ابن الأغلب لم يكن يرغب أبداً في قتال نفوسة. بدليل أنه طلب منهم أن يتركوا له مجاز نشر عمامته فقط. وهو - في رأينا - أقصى تنازل قدمه لنفوسة. كما أنه واصل زحفه إلى أن وصل «تاورغا». وبلاد الأغالبة كما هو معروف تنتهي في لبد. وكانت تاورغا تشكل أقصى ولاية برقة الخاضعة لبني طولون. ولذلك فقد وصل ابن الأغلب فعلاً إلى البلاد المصرية. ولكن إذا كان إبراهيم قد امتلأ قلبه حقداً على العباس بن أحمد بن طولون وأنه قرر منذ سنة 267هـ (880م) أن ينتقم منه. فإنه بالضرورة لا ينتظر ست سنوات حتى يتوفى ابن طولون. وابنه العباس. وإلا ما الفائدة من الانتقام إذن؟

أما الرواية الثالثة: فتقول بأن وجهة إبراهيم كانت طرابلس. وقد تعرض في طريقه للقبائل الإياضية. من لواتة. وهوارة. وزواغة. وغيرهم. فأفسد³⁴². فخرج إليه أبو منصور إلياس عامل الجبل «محتسباً. وناصر جيرانه»³⁴³. فإبراهيم كان يريد الوصول إلى ابن عمه أبي العباس محمد بن زيادة الله المثني. لأنه من النتائج التي تمخضت عن حملة إبراهيم على طرابلس هي مقتل أبي العباس ومقتل أهله بقساوة شديدة. فالمصادر تذكر أنه كان يكن حقداً دفيناً وكرهية شديدة لابن عمه الذي تصفه المصادر بأنه كان أكثر اقتداراً منه. وبالتالي فإن سمعة هذا الأخير كانت أحسن عند الخلافة. يقول النويري: «كان إبراهيم كثير الحسد له من صغره على علمه وأدبه»³⁴⁴.

وفي الحقيقة فإن السبب الحقيقي هو أن أبا العباس أصبح ينافس ابن عمه في الإمارة بالتزكية من الخلافة. يقول ابن عذارى: «وسبب قتله أن المعتضد بالله العباسي كتب إلى إبراهيم بن أحمد يعنفه على جوره وسوء فعله بأهل تونس ويقول له: «إن انتهيت عن أخلاقك هذه. وإلا فسلم العمل الذي بيدك لابن عمك محمد بن زيادة الله»³⁴⁵. بينما تفيد رواية النويري أن الخليفة المعتضد أرسل رسولا إلى تونس سنة 289هـ (901م) واستقبله إبراهيم في سبخة تونس. وبين الرسول للأمير أن الخليفة أرسله بناء على غضب وسخط لشكوى أهل تونس منه. وأن الخليفة أمره بالحقاق به. وأن يعتزل عن إفريقية. ويولي عليها ابن أبا العباس. وتضيف الرواية بأن إبراهيم كره المسير إلى المعتضد فأظهر التوبة ورفض الملك. واستدعى ابنه أبا العباس من صقلية ليؤول الملك إليه»³⁴⁶.

341 - ينظر: نهاية الإرب. ج24. ص133.

342 - الشماخي: السير. ص267.

343 - ابن عذارى: البيان المغرب. ج1. ص119.

344 - ينظر: نهاية الإرب. ج24. ص134.

345 - المصدر السابق. ج1. ص129.

346 - المصدر السابق. ج24. ص135.

338- النويري: نهاية الإرب. ج24. ص134.

339 - ابن عذارى: البيان المغرب. ج1. ص130.

340- ينظر: أخبار الأئمة الرستميين. ص64-65.

ويبدو أن هذه الشكوى هي الثانية التي رفعها سكان تونس. وأن توبيخ الخليفة هو الثاني كذلك ما دام أن الخليفة قد أمر إبراهيم أن يتنازل عن الملك لابنه وليس لمحمد بن زيادة الله المقتول.

ويرى محمد الطالبي أن إظهار إبراهيم بأنه يريد الخروج إلى مصر هي حيلة منه فقط للظفر بابن عمه وقتله. هذا الأخير الذي وصله التأييد الأدبي والرسمي للخلافة. وكأنه في الجملة نوع من المباينة. ولذلك فعندما أقبل إبراهيم على فعلته تلك إنما كان يستهدف الخليفة عبر ابن عمه. وإذا كان قد أشاع بأنه سيعزو مصر. ومصر كانت مبدئياً ولاية تابعة للأمير المؤمنين في بغداد. هو رد آخر على رسالة الخليفة التي نقلها الرسول. وتناول فيها عليه. وما الصدام مع نفوسة سوى حادثة عارضة لم تكن ضمن مخطط الأمير³⁴⁷.

ويعارض هذا الرأي محمود إسماعيل الذي يرى أنه من غير المعقول أن يجهز إبراهيم بن أحمد حملة من عشرين ألف مقاتل. ويدخل في حرب مع نفوسة. حتى إن ماء البحر أحمر لونه من كثرة الدماء من أجل تحقيق هدف جزئي يتمثل في قتل ابن عمه. ويضيف أن الخليفة المعتضد لم يتدخل لإقصاء إبراهيم عن إفريقية إلا سنة 289هـ (901م) حين أمره - كما تقدم - بالتنازل عن الحكم لابنه³⁴⁸.

ويبدو أن محمود إسماعيل عندما اقتنع بأن هدف الحملة كان غزو مصر هو وقوفه على الرسالة الثانية المؤرخة سنة 289هـ (901م). ومن غير المعقول أن يفكر إبراهيم في الانتقام من أبي العباس بن أحمد بن طولون بعد أكثر من عشرين سنة 267-289هـ. إذن فإن هدف الحملة هو القضاء على منافسه في الإمارة. والرد على الخلافة. وفي الوقت نفسه تأديب القبائل الإباضية القاطنة بأحواز طرابلس. والتي كانت تسبب مشاكل لعماله في هذه الجهة مستغلاً الفترة الحرجة التي كانت تمر بها الدولة الرستمية. وهي الفترة التي شهدت فيها فتنة محمد بن رباح. ومحمد بن حماد في إمارة أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م).

2 - في المجال الفكري والعقائدي:

أ - الخلفية:

لما توفي السمعاني بن الأعلى المعافري عامل الإمام على جبل نفوسة لم يوصي لأحد

347 - ينظر: الدولة الأغلبية، ص 325-326.

348 - ينظر: الأغلبية، ص 80-81.

من بعده على الرغم من طلب الناس ووجوه أصحابه ذلك. واكتفى فقط بأن دعاهم إلى تقوى الله وطاعة إمامهم عبد الوهاب مادام في الطريق المستقيم. وكان لموته صدى عظيم في نفوس «أهل الدعوة» النفوسيين حتى إن العامة من الناس بادرت إلى تولية ابنه «خلف»³⁴⁹ تقريراً وعرفانا لأبيه. وتصف المصادر الإباضية هؤلاء بأنهم «أناس لا بصيرة لهم بالأمور. وأنهم ظنوا بأن عملهم ذلك هو أرفق بالمسلمين. وأوفق بأمر المؤمنين»³⁵⁰.

وقد عارض هذه التولية أهل الصلاح منهم: أبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي. وأبو الحسن أيوب بن العباس. وغيرهم. معتبرين ذلك خروجاً عن التقاليد السياسية المعمول بها. والمتمثلة في موافقة الإمامة في تاهرت على ذلك. ورد بعضهم قائلاً: «نوليّه فإن أبي أمير المؤمنين عزلناه»³⁵¹. وأرسل الجناح المعارض لتولية خلف وهو الجناح الذي أصبح يعرف بـ «السمحيين» رسالة إلى الإمام. وجاءهم الرد بأنه: «من ولي خلفاً من غير رضى إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين. ومن أبى من توليته فقد أصاب. فإذا أتاكم كتابي هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السماح على عمالته التي ولي عليها «خلفاً» حتى يأتيه أمري»³⁵².

ويبدو من خلال كتاب الإمام عبد الوهاب أن «خلفاً» مارس فعلاً مهامه كحاكم للجبل. فعين العمال على النواحي دون انتظار تركية المركزية في تاهرت. ولذلك يمكن أن نعتبر حركة خلف حركة استقلالية تهدف إلى استقلال حيز طرابلس على تاهرت. ونشاط الباروني الرأي عندما قال بأن خلفاً كان يرغب في الاستقلال لما رأى وأتباعه في أنفسهم من القوة والكثرة. فعدد قبائل نفوسة ومزاتة تتجاوز مائة ألف فارس³⁵³.

349 - يتساءل سعد زغلول إن كان خلف هو اسمه الحقيقي أم إنه اسم جريح أطلقه عليه المؤرخون من خصومه كما سيطلقون عليه لقب «الخبث بن الطيب» وهو التساؤل الذي نميل إليه نحن كذلك لأن المصادر الإباضية تتخذ دائماً مواقف معادية ضد المخالفين خاصة أن مصادر الوهبية هي التي وصلتنا دون غيرها. ينظر: تاريخ المغرب العربي، ج 2، ص 333.

350 - الشماخي: السير، ص 180؛ أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 120؛ الباروني: الأزهار، ص 201؛ سعد زغلول: المرجع نفسه والجزء والصفحة ذاتهما.

351 - الشماخي: المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

352 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 121؛ الدرجيني: طبقات المشايخ، ج 1، ص 69.

353 - تزودنا المصادر الإباضية بمجموعة من التسميات كانت تطلق على أتباع المذهب الإباضي منها: «أهل الدعوة» وهو اسم أطلقه الإباضية على أنفسهم منذ بداية الحركة في القرن الأول الهجري. كما أطلقوا على أنفسهم اسم «جماعة المسلمين» أما تسمية «أهل الاستقامة» والتي يقصد بها كذلك أتباع المذهب فكانت تطلق في المشرق أكثر من المغرب. وأما التسمية الواردة في رسالة أبي عيسى فهي غير مستعملة بكثرة والمقصود منها فيما نعتقد أهل المغرب من الإباضية ليس إلا. ينظر: عوض خليفات: النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقية في مرحلة الكتمان، ط 1، عمان، 1982، ص 98-99.

وقد بلغ هذه الخلاف علماء المذهب في المشرق لأنهم ظلوا يتتبعون أخبار إمامة الظهور منذ تأسيسها سنة 160هـ (776م). فالمصادر تورد رسالة بعثها العلامة أبو عيسى الخراساني إلى أهل المغرب يحثهم ويرشدهم فيها إلى إتباع الحق. وجمع الكلمة ويثني فيها على الإمام عبد الوهاب. وعلى عامله السمع والد خلف. وينكر على خلف وأتباعه³⁵⁴.

وانقسم سكان الجبل إلى قسمين: قسم يدعم ويساند هذه التولية. وقسم آخر يرجئ ذلك إلى أخذ رأي الإمامة. ومن وقف مع خلف من العلماء: منيب بن إسماعيل بن درار الغدامسي، ويوسف بن سادين (سائد الفرستائي)، وأبو يوسف حجاج بن فوتين، الذي تراجع فيما بعد عن رأيه وعاد إلى صفوف أبي عبيدة عامل الجبل³⁵⁵. وانضم إليه كذلك «عبيد بن سيدي» الذي كان - كما قال الشماخي - مي يدي النسك والتقى. وكان يحمل القمح والكباش للمشائخ³⁵⁶. فكان يبلغ الإمام كتابيا بكل ما يسمعه من أخطاء في القول أو في العمل من وجهاء أهل الدعوة. مع الزيادة زورا وبهتانا. دون أن يطلب منه الإمام ذلك. مدعيا أنه بذلك يقدم خدمة جليلة للدولة. ولما تظن الإمام لمكائده كتب إليه قائلا: «أعاذنا الله يا عمرو بن يانس من النزول بعد الطلوع. ومن الترك بعد الاجتهاد. ومن بغض المسلمين بعد محبتهم. ومن نفاق تخفيه الصدور. ومن اقتحام الأشياء من غير تجارب»³⁵⁷. وتشير المصادر إلى أن هذا الكتاب لم يصله لأنه توفي. ولا نستبعد أن يكون قد تعرض للاغتيال أثناء لشهره.

إن هذا النص يريد من خلاله المؤرخون أن يوحيوا لنا بأن الإمام عبد الوهاب كان له موقف مناهض لأتباع خلف. إذ اتهم عمرو بن يانس بالنفاق وببغض المسلمين من أهل الدعوة. وفي الوقت نفسه يعبر عن عدم رضا النفوسيين عن سلوك وجهاء «أهل الدعوة» في المنطقة. كما يمكن أن نستشف منه رغبة النفوسيين في الانفصال عن الإمامة. خاصة وأن أتباع خلف لم يكونوا كلهم من دهماء المجتمع الذين ليست لهم بصيرة بالدين مثلما تقول المصادر. بل انضم إليه مجموعة كبيرة من العلماء المعروفين وهذا ما يدعم فكرة الانفصال. أضف إلى ذلك أن القبائل التي آازرت «خلف» كثيرة. وعلى الرغم من أننا لا نعرفها بدقة إلا أن المصادر تشير إلى بعضها كزواغة، بني يفرن، نفوسة وسكان

354 - ابن سلام: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، تحقيق: رت. شفايرتز وسالم بن يعقوب، دار إقرأ، ط1، بيروت، 1985، ص165؛ الباروني: المرجع السابق، ص229.

355 - الشماخي: السير، ص187؛ الباروني: المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

356 - المصدر نفسه، ص186.

357 - البغطوري: سير نفوسة، و41؛ الباروني: المرجع نفسه، ص227.

مدينة شروس³⁵⁸. ويذكر ليفيسكي بأن الخلفية انتشرت في أماكن أخرى مثل كيكلة، وبابل، وتقبال. وفي المنطقة الشرقية من جبل نفوسة وساحل إقليم طرابلس، وظل أتباع خلف موجودين في هذه النواحي إلى غاية القرن السادس الهجري. ويضيف نقلا عن L. Massignon بأنهم موجودون إلى الوقت الحاضر في مدينة «غريان»³⁵⁹ وتجدر الإشارة في هذا السياق أن النزعة الاستقلالية بين الإباضية لم تقتصر على إباضية حيز طرابلس، بل انتشرت في جزيرة جربة كذلك. وسنرى أن قبائل زواغة القاطنة هناك قد آوت حفيد خلف وآزرته.

لقد أحدثت «الخلفية» بتزعمها للحركة الانفصالية في الجبل شرخا عميقا في علاقة الإمامة بالولايات التابعة لها. فظلت المراسلات مستمرة بين الإمامة والجبل. وعندما وصل إليهم الكتاب الأول من تاهرت وعلموا ما فيه من تصويب للجماعة التي رفضت التولية وتخطئة أتباع خلف راسلوه ثانية يلتمسون منه أن يجيز توليته فرفض، وأرسل كتابين: أحدهما موجه إلى خلف يأمره فيه بتقوى الله واعتزال أمر المسلمين كافة، والآخر فيه توليته. وطلب منهم الإمام أن يدفعوا إليه الأول، فإن امتثل لأوامر الإمام أطلعوه على الكتاب الثاني، وإن رفض تركوه. وفي رواية ثانية أن الإمام أرسل أمناء من قبله إلى جهة طرابلس، وعهد إليهم توليت خلف على جهات طرابلس إن وجدوه قد اعتزل وأطاع الله، وإن وجدوه مصرا على الخلاف رافضا أمر الإمام رفضوه. وقد طلب منهم الإمام أن يبلغوا أهل الصلاح بأنه تبرأ منه، ويجب عليهم اجتنابه «حتى يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين»³⁶⁰.

إن الاختلاف في الروايات يحتم علينا طرح مجموعة من التساؤلات محاولين معرفة الأسباب التي جعلت الإمام عبد الوهاب يبعث برسالتين إحداهما تدعو خلف إلى الدخول في الطاعة وإعلان التوبة، والأخرى يقبل فيها الإمام تعيينه. أما التساؤل الثاني فالغرض منه معرفة الدوافع التي جعلت نفوسة تراسل الإمام ثانية تطلب منه أن يجيز لهم توليته على الرغم من أن الإمام كان قد حسم موقفه في الرسالة الأولى والمتضمنة - كما مر بنا - تصويب الجماعة التي رفضت توليته.

وللإجابة على هذه التساؤلات فإننا نميل إلى القول بأن الكتابين اللذين أرسلهما الإمام عبد الوهاب لم يرسل - على الأرجح - في وقت واحد، بمعنى أن الإمام خاطب

358 - الدرجيني: الطبقات، ج1، ص84-85؛ الباروني: المرجع نفسه، ص227.

359 - T. Lewicki: Les Subdivisions De L>Ibadiyya, Studia Islamica Larousse, Paris, 1958. T9, p7980-.

360 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص69.

«خلف» في الرسالة الأولى داعيا إياه الدخول في الطاعة. ولما كان رد هذا الأخير سلبيا بعث إليه بكتاب التعيين معترفا بولايته وانفصاله عن الإمامة. وأثرا لسياسة الأمر الواقع. ولما توفي عبد الوهاب وتولى ابنه أفلح الإمامة تراجع عن قرار أبيه فاستمر الخلاف. أما مراسلة نفوسة الثانية فهي الأخرى جعلنا نرجح القول بأن الاستقلاليين كانوا يمثلون الأغلبية. وبالتالي فإن الأقلية الباقية هي التي ترجت من الإمام توليته خوفا على حياته ومصالحها. ثم بماذا نفسر اعتذار أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني للإمام حين ولاه أمور الجبل بقوله: «أنا ضعيف. أنا ضعيف. أنا ضعيف»³⁶¹. ألا يعني هذا الاعتذار هروبا من المسؤولية وإدارة الظاهر للإمامة؟ أي فهم من ذلك أن أبا عبيدة اقتنع بأنه يتعسر عليه تسيير شؤون الجبل في الوقت الذي مالت فيه الأغلبية إلى خلف؟

ومهما يكن من أمر فالمصادر تذكر أنه لما اطلع خلف على الكتاب أبي واستكبر. ورأى أتباعه أن يكتبوا إلى أبي سفيان محبوب بن الرحيل يستفتونه إذ هو يومئذ واسطة العقد ورأس من بالمشرق. والمقدم في الأمور بعد الربيع. وأبي المهاجر وأبي غسان. وأبي أيوب³⁶². فأجابهم بمثل جواب الإمام عبد الوهاب بتخطئة من ولى خلفا. ونصحهم بتقوى الله وطاعة الإمام. ولما جاءت الفتوى في غير صالحهم صعدوا الموقف وأعلنوا إنكارهم لإمامة عبد الوهاب. وزعموا أن إمامهم هو «خلف» مدعين أن حوزة طرابلس منقطعة عن تاهرت وبعيدة عنها. مما يحق لهم أن يكون لهم إمامهم الخاص. حينئذ قام عبد الوهاب بتولية أبي الحسن أيوب بن العباس الذي اشتهر في حرب الواسلية ونال إعجاب الإمام ورعيته في تاهرت³⁶³. ونظرا لبأسه وشجاعته وقوته في الحق هابته. فلم تحرك الخلفية ساكنا إما خوفا منهم منه. وإما لعدله واستقامته³⁶⁴.

ويبدو أن اتصال نفوسة بعلماء المشرق مرة أخرى هو لإخراج الإمامة. بإبلاغها بالخلاف الذي بدأ يشتد بين أهل الدعوة. لأن القضية هي قضية سياسية أكثر منها دينية. وبالتالي لا تحتاج إلى فتوى لأن المطلب الوحيد لخلف وأتباعه هو الفوز بتسيير شؤونهم بكل حرية دون حاجة ماسة إلى تدخل الإمامة. فلو كان الخلاف في المذهب نفسه لقلنا أن طلب الفتوى ضروري بل واجب. ونلاحظ بأن فكرة الاستقلال المذهبي لم تطرح أبدا

361 - الشماخي: السير. ص182؛ الباروني: الأذهار. ص206.

362 - الشماخي: المصدر نفسه. ص181؛ الدرجيني: المصدر السابق. ج1. ص70؛ أبو زكريا: كتاب السيرة. ص122.

363 - الشماخي: المصدر نفسه. ص181-182؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء والصفحة ذاتهما؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج2. ص335.

364 - الشماخي: المصدر نفسه. ص182.

سواء في الحركة الخلفية أو في غيرها. وإذا قارنا هذه الفتوى بالفتوى التي طلبتها الإمامة إبان حركة يزيد بن فندين النكاري. فإننا نقول بأن هذه الأخيرة كانت من صميم الدين. إذ كان الهدف منها هو الإجابة على سؤال مهم وهو: هل يجوز إمامة المفضل مع وجود الفاضل؟

وظل الجبل على هذا الوضع إلى أن توفي أبو الحسن. فراسل وجهاءه الإمام يطلبون منه أن يولي عليهم أفضلهم - وهو أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني - لتقواه. وزهده. فوافق الإمام لأنه كان يميل إلى من ليست له رغبة في تولي المناصب. ويبدو أن أبا عبيدة لم يكن يعلم بذلك حيث أخبروه برسالة الإمام عبد الوهاب وما أمرهم به من توليتهم إياه على أنفسهم. فامتنع معتذرا بأنه ضعيف لا يستطيع تحمل هذه المسؤولية خاصة في هذه الظروف التي يمر بها الجبل وأحواله. فكتبوا الإمام ثانية يخبرونه بامتناعه فأجابهم بأنه لا يقلد أمورهم إلا رجلا يقول: «أنا ضعيف». وكتب إلى أبي عبيدة يأمره بالدخول في أمور المسلمين³⁶⁵.

ويتضح جليا مما سبق أن موقف الإمامة اتسم باللين عكس المواقف السابقة. ولم تتدخل في تعيين عامل على الجبل. بل تركت الأمر لنفوسة لتختار من تراه مناسبا لهذا المنصب ويحظى قبوله بالإجماع. وأمام هذا التغيير في المواقف يبدو أن الإمامة رأت أن تدخلاتها المباشرة في شؤون الجبل قد سبب لها متاعب جمّة. وبالتالي ارتأت ترك الأمر شورى بين النفوسيين. ولو صعدت في مواقفها ربما حدثت القطيعة وهذا ما تخشاه الإمامة لأنها تعي جيدا فضلهم في إقامة إمامة الظهور. فأثر الإمام عبد الوهاب عدم التدخل تجنباً للمشاكل خاصة وأن التجارب أثبتت أن الإمام معرض في كل حالة إلى عرض مشاكله على المشاركة من طرف رعيته وهذا طبعا ما لا يرضيه. لأنه من مصلحته أن يحافظ دولته على السمعة نفسها التي كسبتها عند المشاركة في عهد أبيه عبد الرحمن. يذكر ابن الصغير على لسان المشاركة قولهم: «قد ظهر بالمغرب إمام ملأه عدلا وسوف يملك المشرق ويملاؤه عدلا»³⁶⁶. وفي موضع آخر يضيف قائلا: «اجتمعت الإياضية بالمشرق وتراسلوا فيما بينهم. وقدم القوم وجمعهم البصرة فقال بعضهم لبعض. إذ اتصلت بهم الأخبار من كل الأقطار مع ما جاءتهم به رسلهم مما عاينوه وشاهدوه. إمامكم بالمغرب خلف من أبي بلال مرداس بن أدية ومن حمزة الشاري فلا تدخروا عليه مالا ولا تحبسوا عنه عطاء»³⁶⁷.

365 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص124-125؛ الدرجيني: المصدر السابق. ج1. ص71؛ الشماخي: نفسه. ص182.

366 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين. ص32.

367 - المصدر نفسه. ص37.

جاء في سير نفوسة أن أبا عبيدة امتنع واعتذر بحجة أنه ضعيف المال. والبدن. والعلم. وكتب إليه الإمام: «إن كنت ضعيف البدن فادخل في أمور المسلمين يقوي الله بذلك بدنك. وإن كنت ضعيف العلم فعليك بأبي زكريا يصلتن التوكيتي. وإن كنت ضعيف المال فبيت المال يسعك ويسع غيرك»³⁶⁸. ونلاحظ من خلال هذا النص أن الإمامة وكأنها تغريه بأن وضعت بيت المال تحت تصرفه إذا كان في حاجة إلى المال. وتقتصر له من يساعده.

وتضيف المصادر أن أبا عبيدة طلب مهلة ليستشير. واستشار عجزوا تسكن في موضع يقال له «إرجي أزمار» معروفة بعلمها وورعها وتدينها. فأشارت عليه بالدخول في أمور أهل الدعوة. وتولى أبو عبيدة شؤون الجبل فأحسن السيرة. وساس الرعية ولم ينكر عليه أحد بل رضي عنه وجهاء نفوسة. مثل: أبي زكريا وأبي مرداس. وأبي الحسن الأبدلاني. وغيرهم. وفي ولايته أصبح خلف يشن الغارات ويتفاهم خطرته يوما بعد يوم مما حدا بأبي عبيدة أن يكاتبه طالبا منه الكف عن الغارة. فأبى معلنا عدم اعترافه بولايته. عندئذ اتصل بالإمام طالبا منها السماح له للتصدي لغاراته. ويبدو أن الإمام لم يكن يرغب في اقتتال الأخوة فطلب من عامله أن يلاطفه ويلينه إلا إذا فاجأه³⁶⁹.

ولم يمض وقت طويل حتى توفي عبد الوهاب (211هـ) واعتلى عرش الإمامة ابنه أفلح (211-258هـ) (271-826م). فاستغل هذا الظرف بأن جمع أتباعه في ناحية «تيمتي»³⁷⁰ وما يليها من الشرق معلنا العصيان. ومرة أخرى يطلب أبو عبيدة الإذن لقتال «خلف» من الإمامة بعد أن تولى أفلح الحكم. ويأتي الرد بوجوب الملاطفة والملاينة رغم تمادي خلف في الفساد ونهب الأموال وقتل الأنفس. وقد ساعدت الظروف الطبيعية على انضمام العديد من الناس إلى صفه وانتقالهم إلى حيزه في «تيمتي». ذلك أن جفافا حل بجهة أبي عبيدة فمال الناس إلى خلف طلبا للخصب³⁷¹. ولا ندري هل كان انضمامهم إلى خلف بسبب الجفاف حقا؟ أم إن خلفا كسب أنصارا جددا يدعمونه ويساندونه في مطلبه الانفصالي؟ خاصة وأن أفلح أبدى هو الآخر مرونة في التعامل مع خلف. إن لم نقل أثبت عجزه في التصدي للمعارضة. فصرف النظر عن الجبهة الشرقية. خاصة وأن

368- البغطوري: سير نفوسة. و2: 62. الشماخي: السير. ص182.

369 - البغطوري: المصدر نفسه والورقة ذاتها: أبو زكريا: المصدر السابق. ص127. الدرجيني: طبقات المشائخ. ج1. ص71-72: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج2. ص337.

370 - هي إحدى قرى «جادو» تقع في الجزء الشرقي من الجبل سكنها في زمن الباروني عرب الرجبان. ينظر: الأزهار. ص222.

371 - أبو زكريا: المصدر السابق. ص129-130.

بوادر معارضة شديدة بدأت تظهر في عاصمة دولته نفسها. وهي التي تشكل خطرا عليه أشد من خطر الخلفية. فالإمام أفلح مستعد للتنازل عن تبعية الجبل لحكمه. وغير مستعد بالتأكيد لفقدان ملكه في تاهرت. وما يدعم ذلك ما ذكره ابن الصغير: «كانت القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت لما اكتسبت الأموال واتخذت العبيد والخيول قد نالها من الكبر ما نال أهل المدينة. حتى خاف أفلح أن تجتمع الأيدي عليه فتزيل ملكه. فلما رأى ذلك أرش ما بين كل قبيلة وما جاورها فأرش بين لواتة. وزناتة. وما بين لواتة. ومطماطة. وما بين الجند والعجم. حتى تنافرت النفوس ووقعت القلوب»³⁷².

وأمام كثرة عدد خلف وعدته قرر الخروج قاصدا أبي عبيدة. فقام هذا الأخير بحشد قواته مهينا نفسه للدفاع وخرج بعيدا عن الجبل للقائه. وقبل أن يلتحم الجيشان أرسل خلف سرية من الجند للاستخبار أو لمناوشة طلائع أبي عبيدة. ولم يشعر بهم حتى غشواهم نهارا فأمر أصحابه بالكف حتى يعلموا ما يريدون. ولما أغاروا على «أدرف»³⁷³ وقتلوا نحو عشرة من سكانها ونهبوا الأموال أمر أبو عبيدة أصحابه بقتالهم. فقتلوا منهم الكثير وأرغموا على الأدبار وعاد خلف إلى «تيمتي» ورجع أبو عبيدة إلى إجنان³⁷⁴. وكلاهما ينتظر المعركة. ويبدو أن أبا عبيدة أربهته ضخامة عدد قوات خلف. فنراه يعترف له باستقلال حيزه عن ولايته. حيث كتب إليه قائلا: «إذا نزع يدك من الطاعة. فكن في حيزك. وأكون في حيزي»³⁷⁵. ولكن خلف أبى وتمادى في النهب والقتل مدة سنة. ورفض التعايش السلمي على أساس أن ينفرد كل منهما بناحيته. ونعتقد أنه كان يطمح في رئاسة الجبل كله لا حيز طرابلس فقط. وحاول بمختلف الوسائل الترغيبية والترهيبية. ترجيح كفته. فاستمال الرجال بالأموال والإقطاعات. وبالف في إرهاب الناس. حتى إنه قتل خطأ بعض أتباعه ظنا منه أنهم من رعية أبي عبيدة³⁷⁶.

واشتعلت الحرب من جديد. حيث آجّه خلف بعساكره نحو أبي عبيدة. وخرج هذا الأخير بدوره للقائه بعيدا عن الجبل. في قلة من الرجال لا يتعدى عددهم ثلاثمائة أو سبعمائة. في حين بلغت قوات خلف أزيد من أربعين ألف³⁷⁷.

372 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين. ص63.

373- هي قرية تبعد عن جادو بمسافة قصيرة. ورد ذكرها باسم «ويدرف» و«تسمات درف» ينظر: الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاتها. ص72-73.

374 - هي قرية تقع في أرباض «جادو» في سفح الجبل. تبعد عن «طرميسة» بأربعة أميال. اشتهرت هذه القرية بكثرة العلماء فكان يجتمع في مسجد أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني سبعون عالما لا يرد أحدهم السؤال إلى الثاني إلا في طريق الأدب. ينظر: معمر الإباضية في ليبيا. ص202.

375- أبو زكريا: كتاب السيرة. ص131: معمر: المرجع نفسه. ص96: سعد زغلول: المرجع السابق. ج2. ص344.

376 - الشماخي: السير. ص183.

377- المصدر نفسه. ص184.

إن هذا التفاوت في العدد بين الطرفين الذي تورده المصادر الإباضية هي ظاهرة نلاحظها في كل مصادر التاريخ الإسلامي. ولكن القصد هنا من هذا التفاوت هو الإيحاء بأن أصحاب أبي عبيدة - كالبدرين - فرغم قتلهم فهم «أهل بصائر يموتون على ما بأيديهم من الحق. لا يأسفون على ما فاتهم من دنياهم»³⁷⁸. ويمكن كذلك أن نستنتج من هذا التفاوت - إن كان صحيحا طبعا - أن خلفا كان في مركز قوة لا يستهان به. وبعبارة أخرى إن أعداد المطالبين بالاستقلال تفوق عدد المتمسكين بالوحدة.

وقبل بداية المعركة أرسل خلف رسولين إلى أبي عبيدة يطلب منه خلع ولاية الإمام أفلح. ويثبت ولايته بغير سبب ولا حدث. واحتج عليه أبو عبيدة بطاعة والده السماح الإمام عبد الوهاب. ورفض حجة انقطاع الحوزات التي ادعاها. وعاد الرسولان ليخبرا زعيمهما بما قاله. حينئذ أمر عسكره بالاستعداد للقتال بترتيب الصفوف. وتذكر المصادر أن نكاريا أراد أن يخطب عزيمة أبي عبيدة. بأن نصحه بأن لا طاقة له بخلف. وعساكره. ولكنه لم يأخذ بنصيحته بل حلف له بكل اللغات التي يعرفها من بربرية. وعربية. وكامية. بأن يقاتله³⁷⁹.

ونفهم ما سبق أن النكار من بقايا أتباع يزيد بن فندي كانوا في صف خلف ما يدعم كذلك فكرة الانفصال. وأما السؤال الذي يتبادر إلى الذهن لماذا خاطب أبو عبيدة ذلك النكاري بالعربية. والكامية ؟ أمكن أن نستشف من ذلك وجود جماعات من العرب. وجماعات من الخدم الكاميين في صفوف خلف ؟ خاصة وأن المصادر أشارت - كما سنرى - إلى تجارة الرقيق في الجبل خاصة في قرية «ويغو». وللأسف فإن هذه التساؤلات تبقى دون إجابة نظرا لصمت المصادر.

ويبدو أن شقاقا قد حدث في صفوف خلف. حيث إن أحد أصحابه نصح أبا عبيدة حين اقترب الجيشان بالرجوع إلى الجبل قائلا له: «أوي إلى الجبل بأصحابك. فإن كانت لكم الدائرة أدركتم ما رجوت. وإن كانت عليكم كنتم في حصن من عدوكم»³⁸⁰. وأخذ أبو عبيدة بنصيحة النكاري. ويرى الباروني أن المكان يسمى «قصة المصلى» وهو قريب من الجبل وفيه مصلى ينسب إلى أبي عبيدة. وربما هو المكان الذي يوجد فيه المسجد الجامع المسمى «أمي بيدت». لأن اللفظ يبدو أنه منحوت من «عمي عبيدة» نحنا بربريا بعد تصحيف لفظ (عمي) وموقعه في وسط جادو³⁸¹.

378 - الدرجيني: طبقات المشائخ. ج 1. ص 73.

379 - الشماخي: المصدر السابق. ص 185.

380 - البغطوري: سير نفوسة. و 63.

381 - ينظر: الأزهار: ص 226.

وظن خلف أن ذلك هروبا من الميدان. خاصة وأن قواته تعززت بأهل شروس الذين أقبلوا بسلاحهم لمؤازرته³⁸². فهيجوا حرارة الخوف في صفوف خصومه. ولفرغ المعنويات ألقى أبو عبيدة خطبة يرغب فيها أصحابه في الجهاد. وتم اللقاء غير بعيد من قرية «اجناون» بالجبل. عشية الخميس 13 رجب 211 هـ (836م) وكانت البداية المبارزة حيث خرج من عسكر خلف «عبيد بن سيدي» بين رجلين. وخرج من الجانب الآخر أبو عبيدة. وأبو مرداس والعباس بن أيوب. وتمكن هؤلاء من قتل خصومهم³⁸³.

وأبلى أبو عبيدة ورجاله حيث أمعنوا القتل في الخلفية حتى ولوا مدبرين. وتتبعهم إلى أن خرجوا من حوزته. مما يدل على أن هدف أبي عبيدة دفاعي أكثر مما هو محاولة للقضاء على هذا الشقاق نهائيا. ودخول سكان المنطقة إلى الطاعة. وتحدثت المصادر عن بطولة العباس بن أيوب في هذه المعركة. حيث كان «يضرب في أعراض الخيل ويكشفها يمينا وشمالا. قد حمى الميمنة والقلب والميسرة»³⁸⁴.

وعاد أبو عبيدة إلى مركز حكمه بالجبل. وانسحب خلف مهزوما إلى «تيمتي». وبدل أن يتراجع هذا الأخير عن مواقفه نراه يتمادى في أعماله العدوانية ضد أتباع أبي عبيدة. فأبو زكريا يذكر بأنه أخرج من «تيمتي» جميع من فيها من نفوسة. وغيرهم. من غير المتعاطفين معه. وأمهلهم ثلاثة أيام فمن وجد بعد ذلك هدر دمه. ولم يستثن من ذلك اليتامى والأرامل والمساكين³⁸⁵.

ووضعت الحرب أوزارها. وأظهر العديد من أتباع خلف التوبة كما تقول المصادر. وربما استسلموا. وصادف وقف الاقتتال وفاة أبي عبيدة. وفي الفترة التي كان أهل الدعوة يتشاورون فيها مع الإمامة فيمن يخلفه. حرك «خلف» من جديد وبدأ في إعداد العدة وتجهيز الجيوش. وبمجرد تولي العباس بن أيوب بن العباس الولاية بعث إليه طالبا منه الكف عن العدوان والاعتداء على أموال الناس. وإزهاق أرواحهم. ولما علم بقدمه إليه استعد له وتشابك مع قواته. ولما لم ينهزم «خلف» بسرعة طلب أبو مرداس مهاصر التوبة من العباس قائلا له: «تب إلى ربك فما تأخر عنا النصر إلا لأن شيئا ما وقع منك. وما كان للباطل أن يقف أمام الحق هذا الوقت الطويل»³⁸⁶. ورغم ذلك اندفع العباس إلى

382 - المرجع نفسه. ص 227.

383 - البغطوري: سير نفوسة. و 63؛ الشماخي: السير. ص 186؛ الباروني: المرجع نفسه. ص 227-228.

384 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 134.

385 - أبو زكريا: المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

386 - البغطوري: سير نفوسة. و 38.

ويمكن العباس أن يخلص سكان الجبل من غاراته، وتبين المصادر أن قتال «خلف» كان شغله الشاغل حتى إنه «لم يخلع الدرع من عنقه. من يوم إلى يوم فوجد صدا الحديد في فيه»³⁹³.

وبعد أن وهنت قوة خلف لم يحرك أتباعه ساكني ردها من الزمن. ولا يعني هذا انهم جنحوا إلى السلم، بل نجد أن فلولهم ظلت متشبثة بأفكاره. حيث انضمت إلى حفيده، وظهروا على مسرح الأحداث في ولاية أبي منصور إلياس عامل الجبل في عهد الإمام أبي اليقظان (261-281هـ) (874-894م). ولا تتحدث المصادر عن غارات قام بها بقايا الخلفية ضد أبي منصور، بل تكتفي بالقول بأن هذا الأخير خرج في عهد الإمام أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م) لطلب حفيد خلف، والذي لجأ إلى جبهة جربة، فالتفوا حوله وعاهدوه على الوقوف معه ضد نفوسة، إذ كانوا على مذهب أبيه³⁹⁴.

ووصل أبو منصور إلياس التندميرتي إلى مواطن زواغة، ووجد أعدادا هائلة ملتفة حوله، وقبل بداية القتال جرت مفاوضات تدخل أثناءها أحد وجوه «بني يهراسن»، يعرف بأبي سلامة، وقيل أبو سلمة في رواية أخرى، وعرض على زواغة مجموعة من الحلول، يراها حلوًا ناجعة لحقن الدماء وهي:

- 1 - أن يترك الزواغيون من أتباع خلف البرية - أي بادية «ريصو» - ويعبروا إلى داخل جزيرة جربة، وبذلك يخرجون من حيز أبي منصور، ويحق لهم الدفاع عن زعيمهم.
- 2 - أن يكتبوا الإمام أبي حاتم يوسف يطلبون منه أن يولي عليهم واليا منهم، وبذلك يستقلون عن حكم نفوسة.

- 3 - أن يسلم الزواغيون زعيمهم إلى أبي سلامة اليهراسني، ويذهب به إلى نفوسة، والتعهد لهم بحفظ أمنه وسلامته³⁹⁵.

وفشلت هذه الوساطة عندما اتهم بعض الزواغيين أبا سلامة بأنه يريد الوقيعة بزعيمهم، فأثر التنحي عن الوساطة رغم نداء العقلاء من الزواغيين بضرورة استمرارها، وأصبحت المواجهة هي آخر ما تبقى من الحلول، وانتهت بانهزام زواغة بعد قتال شديد

393 - الشماخي: السير، ص 197.

394 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 146؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 85؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج 2، ص 384.

395 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص 147؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 85؛ الشماخي: المصدر السابق، ص 255؛ سعد زغلول: المرجع نفسه والجزء ذاته، ص 385.

الميدان وتمكن من إلحاق الهزيمة بخلف، وطارده حتى تجاوز «وادي الآخرة»³⁸⁷ وهو آخر حد لحوزة العباس، ولكن أصحابه ظلوا يغيرون. أما أبو مرداس فظل هو الآخر يقدم النصيحة للعباس حيث طلب منه أن يعطيهم فرصة لعلمهم يتوقعون ولكنه صمم على لقائهم وتخليص الجبل من شغبهم مما جعل أبو مرداس يهدده بالنداء في الناس بأن يرجعوا. فلما رأى هذا الإصرار استجاب له موضحا لأصحابه بأن الزاد نفذ والكرع ضعف، وهذا لا يسمح لهم بمواجهة خصومهم³⁸⁸.

ولم يعط هذا التريث أية نتيجة حيث واصل خلف حملاته، ولما جهز له العباس حملة للرد عليه فر من أمامه، ثم عاد العديد من رجال العامل إلى أوطانهم بعد أن استأذنوا من قائدهم، خاصة وأن الموسم موسم زراعة، وأغلبهم متطوعون، وكانوا في حاجة إلى استغلال الأمطار التي هطلت وهم في ميدان المعركة. وبعد انقضاء موسم الحرث، والبذر، جهز العباس حملة أخرى. هذه الحملة التي تغيب عنها أبو مرداس، وأبو الحسن الأبدلاني، ولم يشأ أن يسير دون مرافقتهم له حيث رجع يلتمسهما مخافة أن يكون قد وقع حدث دون أن يعرف، ولكن الشيخين تعبوا من المسير ففضلا الاتجاه إلى «أغرميمان»³⁸⁹ بـ «تغرمين»³⁹⁰ لزيارة «أم الخطاب» وهي عجوز عرفت بالصلاح والتقوى. ولما علم العباس سبب تخلفهما، تعقب خلف، واستطاع أن يقضي على أسباب الفتنة، عندما هزمه في موضع يسمى «فاغيس» القريب من «تيمتي»³⁹¹.

وطلب العباس من أصحابه عدم اتباعهم، ولكن أصحاب الرأي اتفقوا على إخراجهم من حيزهم، فاقترفوا أثرهم حتى تجاوزوا مدينة لالت (لالوت)، وهو نهاية حكمهم آنذاك

387 - هو واد عميق ينحدر من الجنوب إلى الشمال شاقا جبل نفوسة، وتنتشر على ضفتيه مجموعة من القرى؛ ينظر: معمر: الإياضية في ليبيا، ص 207.

388 - البغطوري: المصدر السابق، ص 38.

389 - هي بلدة تقع ناحية «تغرمين» بالجبل، ومعناها بالبربرية «قصر النفس» وردت بعدة أسماء تختلف جزئيا. فقد سماها الشماخي «إغرم إينان» وعند البغطوري فهي «أغرمينان» ويقال في اللغة الأمازيغية اليوم «تادارت نيمان» بمعنى الدار الشخصية، و«أغرم نيمان» بمعنى «القصر الخاص» أي السكن الفردي. ينظر: ص 198؛ سير نفوسة، و39؛ الباروني: الأزهار، ص 234.

390 - هي قرية تقع على الضفة الشرقية لوادي الآخرة (وادي متلالة) تقع شرق لالوت وهي التي تسمى اليوم «الزنتان»؛ معمر: الإياضية في ليبيا، ص 212.

T. Lewicki: La Répartition Géographique, p332.

391 - الباروني: الأزهار، ص 234؛ معمر: المرجع نفسه، ص 110.

392 - هي مدينة مشهورة في الجبل، فالمصادر تصفها بأنها مدينة الأشباخ، تقع على قمة صخرة تطل على وادي يحمل اسمها (وادي لالوت) وهو الوادي الفاصل بين (الزنتان) من جهة (تغرمين) والرجبان) من جهة فساطو والمسمى بوادي الآخرة. أجببت هذه المدينة علماء أجلاء منهم: أبو زكريا يحيى بن جرناز اللالوتي وأبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي. ينظر: معمر: المرجع نفسه، ص 171-172؛ الباروني: المرجع نفسه، ص 222.

راح ضحيته العديد من الزواغيين الذين لم يتمكنوا من الفرار. بسبب وقوعهم في الحبال الممدودة بين الأشجار لمنع الوحوش من إفسادها³⁹⁶.

والتجأ حفيد خلف إلى الجزيرة. فنزل عند رجل زواغي تسميه المصادر «معقل». من «بني مزانت» (بني تامستاوت)، وأسكنه في قصر يقال له «غردانت». وعندما وصل أبو منصور إلى ساحل جربة لجأ إلى طريقة الإغراء حيث أرسل رجلاً من «بني يهراسن» إلى معقل يعرض عليه مبلغ مائة دينار مقابل تسليمه. ونجح أبو منصور في خطته حيث تسلمه وسار به إلى الجبل وسجنه. وتذكر المصادر أنه ظل مكرماً في سجنه معزراً لشرفه. وعلمه، وفقهه. حتى إنه إذا نزلت نازلة، ولم يجدوا لها حكماً يرجعون إليه حتى إنه تسأل متعجباً: «يسجنونني ويسألونني». وتنتهي الرواية بأنه عاد إلى مذهب الحق وأصبح الإباضية يسمونه بعد ذلك بـ «الطيب بن الخبيث بن الطيب»³⁹⁷.

وما تقدم يتضح أن الحركة الخلفية لم تكن مجرد خلاف في الآراء بين أتباع المذهب. بل كانت حركة تعبر عن نزعة استقلالية اختارت السلاح وسيلة لتحقيق تلك الرغبة. وانضم إلى هذه الحركة حتى العلماء. ويبدو أن أبا مهاصر. وأبا الحسن الأبدلاني. كانا ميلان إلى خلف لأن أبا مرداس طلب من العباس التوبة إلى الله بقوله: «تب إلى ربك فما تأخر عنا النصر. إلا لأن شيئاً ما وقع منك. وما كان للباطل أن يقف أمام الحق هذا الوقت الطويل». ويمكن أن نستشف من هذا النص بأن هناك خلافاً بين أبي مهاصر. والعباس. ربما في السياسة المتبعة من طرف هذا الأخير. خاصة وأن النص يوحي بأن أتباع خلف على حق. وأتباع العباس على باطل. أضف إلى ذلك أن أبا مهاصر هدد بالنداء في الناس بأن يرجعوا إذا أصر العباس على قتال خلف. كما أن أبا مهاصر وأبا الحسن الأبدلاني انسحبا من الجيش. وتبرر المصادر ذلك بحجة أنهما تعباً من السير. فانتقلا إلى اغرميمان للاستراحة عند عجوز. ولا يعقل أن يتركا ميدان المعركة من أجل زيارة عجوز صالحة ! أليس أبو مرداس هو القائل: «لا أخاف على عسكر فيه أبو الحسن الأبدلاني»³⁹⁸. وتبرر المصادر كعادتها الانسحاب من المعركة تارة بحجة أن الزاد نفذ. والكراع ضعف. وتارة بأن الموسم موسم حرث. وبذر. وهو التبرير نفسه الذي تورده المصادر في حديثها عن هزيمة أبي الخطاب عبد الأعلى أمام ابن الأشعث سنة 144 هـ عندما أرجعت أسباب هزمته إلى

396 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص148: الشماخي: المصدر نفسه والصفحة ذاتها. سعد زغلول: المرجع نفسه والجزء ذاته، ص385-386.

397 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص148-149: الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص86: سعد زغلول: المرجع نفسه والجزء ذاته، ص386-387: معمر: الإباضية في ليبيا، ص20.

398 - الشماخي: السير، ص172.

انسحاب الكثيرين من رجاله لأنها وقعت في وقت الحصاد. ورجاله أغلبهم من المزارعين. وما نستنتجه كذلك أن ميزان القوى كان غير متكافئ، لأنه مر بنا أن أصحاب أبي عبيدة كانوا يرغبون في الصلح مع الاعتراف باستقلال حيز «خلف» عن الجبل. ويتجلى ذلك في الرسالة التي أرسلها قائدهم إلى خلف يقول له فيها: «إذا نزع يدك من الطاعة. فكن في حيزك. وأكون في حيزي». وإذا كان الخلفية قد رفضوا هذا العرض إلا أننا نلاحظ بأنهم في عهد حفيد زعيمهم تنازلوا عن المطالبة باستقلال حيز طرابلس. وطالبوا فقط باستقلالهم عن نفوسة. وجاء هذا المطلب في اقتراحات أبي سلامة.

وما نلاحظه كذلك أن المصادر الإباضية - وأغلبها وهبية - تشنع على خصومها السياسيين ومخالفهم في الرأي. فنراها تطلق على خلف اسم «الخبيث بن الطيب». وتطلق على حفيده بعد توبته الطيب بن الخبيث. ولذلك فإننا نشاطر سعد زغلول حين شكك في صحة هذه الأسماء. واعتبرها أسماء اصطنعها المؤرخون من الوهبية. لنعت خصومهم ونعتقد أن «خلف» سمي بهذا الاسم لإظهاره الخلاف والشقاق. ولو استمر حفيده في الخلاف لأطلقت عليه اسم «الخبيث بن الخبيث بن الطيب».

ب - النفاثية:

تنسب هذه الفرقة إلى «فرج بن نصر النفوسي» أحد العلماء النفوسيين. المعاصرين للإمام أفلح بن عبد الوهاب (211-258هـ) (826-871م). وقد أخذت اسمها من «نفاث». وهو لقب أطلقه الإمام «أفلح» على «فرج» لأنه «له نفاث ينفث في الأسماع بدعته»³⁹⁹. وقيل أن «نفاث» اسم قرية من قرى الجبل. وهي المعروفة في عصر الباروني بـ «نفاثة» والتي تقطنها قبيلة مالكية المذهب تعرف بالاسم نفسه⁴⁰⁰.

ويرى سعد زغلول أن هذا اللقب هو الآخر لقب جريح لا يختلف عن غيره من الألقاب التي أطلقها الإباضية الوهبية على مخالفهم كالنكارية، والخلفية. وأغلب الظن - حسب رأيه - أن اسم نفاث مشتق من الفعل: نفث ينفث أي ينفث سموم الخلاف والفرقة⁴⁰¹. ونميل إلى الأخذ بهذا الرأي لأن فرج تنسبه المصادر إلى بلدته «ويغو»⁴⁰² وليس إلى نفاثة. ويحتمل أن هذه الأخيرة عرفت بهذا الاسم ربما لانتشار آراء فرج بين سكانها.

399 - الوسياني: السير (مخطوط)، ورقة 9.

400 - الباروني: الأزهار، ص252: علي يحي معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية. مطابع سجل العرب، ط1، القاهرة، 1976، ص264.

401 - ينظر: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص347-348.

402 - الشماخي: السير، ص179.

أما تسمية أتباع هذه الفرقة بـ «الكتمانية»⁴⁰³ فلم نجد لها ذكرا أو تعليلا في المصادر.

تذكر المصادر أن فرج سافر رفقة زميله سعد بن أبي يونس وسيم النفوسي إلى تاهرت، للتعلم عند الإمام أفلح بن عبد الوهاب (211-258هـ) (826-871م)⁴⁰⁴. فلما بلغا من العلوم ما شاء الله أرادوا العودة نحو بلادهم فنظرة⁴⁰⁵. وعندما بلغ الإمام أن عامله عليها أبا يونس وسيم النفوسي قد أدركته الوفاة، أراد أن يعين من يخلفه فاختر الناس ولم يجد إلا ابنه سعد. فكتب له سجلا بالتعيين وطواه وختم عليه بخاتمه. ولم يبين لهما عمن وقع عليه الاختيار. وطلب منهما عدم الاطلاع عليه حتى يصلا إلى قنطرة. وبما أن فرج بن نصر كان يطمح إلى تولي الولاية والرياسة، لم يلتزم بتلك الوصية واطلع على السجل. وعندما وجد أن «سعدا» هو العامل أضمر في قلبه العداوة⁴⁰⁶.

وعندما وصل «فرج» إلى موطنه أظهر الطعن في الإمام، متهمًا إياه بأنه أضاع أمور المسلمين. ولما بلغ ذلك الإمام أرسل إليه يستدعيه ليوضح له ما ضيعه من أمور المسلمين. ويبدو أن الرسالة تحمل تهديداً ولذلك خشى على حياته فلم يلب الدعوة⁴⁰⁷.

403- المارغني: فرق الإباضية ليست وما زاغت به عن الحق. طبعة حجرية (د.ت). ص56.

404 - يرى علي يحي معمر أن نفائنا لم يسافر إلى تاهرت للتعليم هناك رغم إجماع المصادر لأنه من خلال ما ورد في رسائل الإمام أفلح يدل على أن فرج لم يدرس عندهم. فقد جاء في رسالته إليه: «لم أشاهدك ولم أشاهد موافقتك حتى يجب لك على الأصل ولاية». وجاء في رسالة أخرى أرسلها إلى عماله في شأنه قائلا: «لم يبلغ العلماء فيقتبس منهم. ولم يصحب أهل الورع. ولكنه نشأ وحيدا وأقام متوحشا من العلماء. فتقلب في جوانحه الشيطان». والراجح أنه درس في تاهرت ولما طعن في الأئمة أنكروا ذلك ونعتوه بأنه نشأ وحيدا لم يصاحب العلماء ولم يتلق العلم عن الأئمة على الرغم من أن المصادر تثبت سعة علمه وفهمه عندما سافر إلى بغداد وتمكن من الإجابة على مسألة عجز علماء المشرق عن الإجابة عنها. ينظر: الإباضية بين الفرق الإسلامية ص264.

405 - تباينت الآراء في تحديد موقع قنطرة. فـ «ليفيسكي» يرى أنها مدينة تقع قرب قسطنطينية في بلاد الجريد وهي «قنطنار العليا» التي ذكرها الشماخي والتي يحدها خارج مدينة درجين السفلى الجديدة. عندما أشار إلى أحداث وقعت في عهد الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي السوفي (ق 6هـ) أما الدرجيني فيسميها «قنطنار الفوقية». وما يؤكد ذلك أن أبا يعقوب يوسف بن نفث -أحد شيوخ الإباضية المشهورين- عاش في قنطرة وقتل في درجين عندما خربها المعز بن باديس سنة 440هـ. أما صالح باجية فيحدد موضع قنطرة قرب نقطة شرقي درجين. ويرى بأن منابع المياه بواحة نقطة والمعروفة باسم «عين قطارة» يبدو أن اسمها محرفا من «قنطرة» في حين يذهب علي يحي معمر إلى اعتبارها «تيجي» وهي قرية تقع شمال «كباو» تحت سفح جبل نفوسة. ينظر: معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية. ص264؛ صالح باجية: الإباضية بالجريد. دار بوسلامة للطباعة والنشر. تونس. 1976. ص12؛ 104؛ T. Lewicki, Tasmiya Suyukh Nafusa, p105.

406 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص137؛ الدرجيني: طبقات المشائخ. ج1. ص77؛ معمر: المرجع نفسه. ص265؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج2. ص350؛ T Lewicki, melanges berberes, ibadites (sur la vieille litterature ibadite en langue berbere), revue des etudes islamique, 1936, cahiers n°2, p270.

407 - أبو زكريا: المصدر نفسه. ص138؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته. ص77.

ونلاحظ من خلال ما مر بنا أن طبيعة الخلاف بين الجبل وبين الإمامة اتخذ منحى آخر. فبعد أن كان بعض النفوسيين يطالبون بانفصال واستقلال حيز طرابلس. أصبحوا يطعنون في الأئمة مباشرة. متهمين إياهم بتضييع أمور المسلمين. وهي سابقة خطيرة. وعلى الرغم من أن المصادر الإباضية الوهابية تريد أن ترجع منشأ الخلاف إلى التنافس على ولاية قنطرة. وطموح فرج في تولي هذا المنصب. إلا أننا لا نستبعد أن يكون حلقة أخرى من الصراع بين الجبل والإمامة حول الانفصال. وأن النفوسيين من غير الوهابية أعلنوا صراحة عن عدم رضاهم بحكم الأئمة. وتجدر الإشارة في هذا السياق بأن طعن فرج في الإمام لم يكن الأول من نوعه. فقد رويت المصادر عن الشيخ أبي مسور يصلتن. أحد المعاصرين للإمام عبد الوهاب أنه قال: «عشت حتى لم أجد في الإمام⁴⁰⁸ ما أريد. ولا في نفسي. ولا في الأولاد. ولا في الإخوان. ولا في القبيل. قولوا للمسلمين يدعو (يدعون) علي⁴⁰⁹. وعلى الرغم من أن المصادر تنفي أن يكون القصد من ذلك هو الطعن في الإمام عبد الوهاب. لأن أبا مسور عمر طويلا حتى ضعف جسمه وقل ما بيده وعجز عن فعل الخير كالذي كان يقوم به في ريعان شبابه. فنقم على الكل. إلا أنه يمكننا القول بأن قوله يعبر فعلا عن سخط وعدم رضا. ألم يقل أبو عبيدة للإمام عبد الوهاب في أثناء زيارته إلى الجبل عندما ترك هذا الأخير الرعاية يرعون ماشيتهم في المزارع: «إنه الرعاية عن المضرة. إن لم تعرف فقد أعلمناك. وإلا فصل بيننا هذا يعني السيف»⁴¹⁰.

ولا نستبعد أن تكون العصبية القبلية وراء هذه الحركات المناوئة للإمامة. وأن البربر أضحووا يشعرون بفقدان مستقبلهم السياسي تدريجيا مع بقاء سيطرة الفرس على زمام الأمور في الدولة. والبربر الإباضية لا يختلفون عن بقية القبائل الأخرى خاصة وأننا نعرف جيدا أسباب الصراع بين زناتة. وصنهاجة. وكنانة. وغيرها من القبائل. ولا عجب إذن ان يتهم فرج الإمام أفلح بأنه «يزيد في الخلفة. ويلبس الطرطور. ويخرج إلى الصيد. ويصلي بالأشبر»⁴¹¹. ويعني هذا انه كان ضد مظاهر الترف والبذخ التي بدأت تتفشى في قصر الإمامة.

واتخذ الخلاف منحى آخر. حيث تحول إلى خلاف ذو طبيعة فقهية. مذهبية. واجتهد

408 - نقل الدرجيني كذلك هذا القول مع تغيير كلمة (الإمام) بـ (الأيام) وإضافة عبارة أرى مكملته للنص حيث قال: «عشت حتى لم أجد في الأيام ما أريده ولا في نفسي ولا في الإخوان ولا في الأولاد ولا في القبيلة فأدعو الله أن يريحني ما أنا فيه». ينظر: المصدر نفسه. ج2. ص315.

409 - الوسياتي: السير. و9.

410 - الشماخي: السير. ص189.

411 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص137-138.

فرج في بعض المسائل التي أنكرها عليه أهل الدعوة من الوهبية. ويمكن إجمالها في ما يلي:

1 - أن خطبة الجمعة بدعة وضلال، وأن الله هو الدهر الدائم.

2 - أنكر استعمال الإمام للعمال والسعاية لجباية الحقوق الشرعية، ومطلب بيت مال المسلمين من الرعايا.

3 - أن ابن الأخ الشقيق، أحق بالميراث من الأخ للأب⁴¹².

وما يمكن أن نستشفه من هذه المسائل أن فرجا كان يدري رأي الدهريين في قدم العالم، وهو الرأي الذي خالف فيه الإباضية الوهبية. ونحن نعرف أن مؤلفاتهم احتوت فصولا للرد على الدهريين⁴¹³. أما المسألة الثانية فيبدو أنها نسبت إليه على أساس أنه عندما لم يفز بولاية قنطرة، أنكر على الإمام توليته العمال.

وعلى الرغم من هذه المسائل التي ابتدعها في الدين كما يقول الوهبية، إلا أنهم يعترفون بغزارة علمه، وكانت له مجالس علمية وحلقات في الجبل يقول الباروني: «كان (أي فرج) ذا فهم عجيب، وذكاء غريب، وإطلاع، وإدراك زائدين، أخذ العلوم من منبعها، والتقط غرائب الفنون من معدنها»⁴¹⁴.

وحسب المصادر فإن «سعدا» ظل يكرر له النصائح خوفا من انتشار أفكاره بين الناس، فكلما اجتمع به وبخه وهدهد، وفي بعض الأحيان يلاينه حتى إنه اشترى دارا بجنب داره، وشرع في توسعتها فكان «فرج» ملازما له يقدم له المساعدة، فهو بناء ماهر له دراية بطرق البناء، وإذا رأى سعد الناس قد اجتمعوا قال له: «متى تترك كفرك وضلالك يا نفاث؟» خوفا من أن يتوهموا بأنه راض عنه وأنه في ولايته، ويرد عليه منزلها نفسه بقوله: «معاذ الله أن أكفر أو أضل يا شيخ». وقد بين سعد جلسائه أن قوله ذلك ما هو إلا ليعلم الناس أنه غير راض عن سيرته، فلا يأخذوا بأقواله⁴¹⁵.

وقد تصدى العلماء لدعوته خاصة عندما ألف كتابا يشرح فيه آراءه، ومن تصدى

412 - المارغني: فرق الإباضية الست ومازاغت به عن الحق، ص56-57؛ الباروني: الأزهار، ص251-252؛ علي يحي معمر: الإباضية دراسة مركزية في أصولهم وتاريخهم، مطبعة التضامن، ط2، القاهرة، 1987، ص67؛ المؤلف نفسه: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص267؛ صالح باجية: الإباضية بالجريد، ص63؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص472.

413 - عمار طالبي: آراء الخوارج، دار العلم للطباعة، الإسكندرية، 1971، ج1، ص244 وما بعدها.

414 - الباروني: الأزهار، ص252.

415 - البغطوري: سير نفوسة، و28؛ أبو زكريا: كتاب السيرة، ص139؛ الباروني: المرجع نفسه، ص254-255؛ معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص265.

له أبو مهاصر مرداس، ومهدي النفوسي الذي وضع كتابا للرد على تعاليمه بلغة البربر حتى يسهل على الناس فهمها⁴¹⁶.

ولما لم تأت بنتيجة، ولم توقف الخلاف، أرسل العمال يستشيرون الإمام في أمره، مما يدل على أن آراءه تجاوزت قنطرة وانتشرت في مختلف مواطن الإباضية. ذلك أن الرد جاء موجها إلى عامله على نفزاوة «ميال بن يوسف» ويعلل الباروني ذلك أنه لشدة خوف العمال من الخلاف والشقاق كاتبوا كلهم الإمام، وجاءت الرسالة موجهة إلى جميع عماله يحثهم فيها على عدم مجالسته، وهجرانه، حتى يعود إلى سنة المسلمين، ثم رد عليه وأبطل مسائله بحجج وبراهين⁴¹⁷. وظل «نفاث» في غيه - كما تقول المصادر الإباضية - فكثرت الكتابات في حقه إلى الإمام، فجاءت رسالة ثانية تطلب منهم مرة أخرى هجرانه، والبراءة منه. ويبدو من نص الرسالة أن كاتبها طلب من الإمام أن يستدعيه إلى تاهرت لأن أفلح قال في رده: «ما أحوجكم إلى مجيئه وأشخاصه، وإن كنتم تريدون أن تعلموا ما نحن عليه فنحن على ما مضى عليه سلفنا ومقرون لما حكيتموه عنه»⁴¹⁸.

وطلب الإمام من الرعية في الجبل الامتثال لأوامره، والرضا عن العمال الذين عينتهم الدولة، ومن عاب أحدا منهم أو أنكر عليه شيئا فليرفع ذلك إليه، وهو الذي يغيره إن كان يستحق ذلك. وليس للرعية الوثوب على السلطان⁴¹⁹. كما اشتملت الرسالة على أجوبة لمسائل وردت في كتاب نفوسة للإمام، وهذه الأجوبة ربما هي التي أصبحت تعرف فيما بعد بـ «مسائل الإمام أفلح» على غرار مسائل والده عبد الوهاب. ولما بلغ خبر المكاتبات إلى «نفاث» وإعلان البراءة منه حتى يتوب، أرسل إلى الإمام كتابا يلتمس منه معرفة أسباب البراءة منه وإخراجه من ولاية «أهل الدعوة». فجاءه الرد مشحونا بالغضب حتى إن أفلح لم يفتح رسالته بالبسملة والسلام، يقول له فيها: «كتبت إليك غير كتاب أنصح لك فيه، وأدعوك إلى رشدك وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك ما أكره... فكتبت إلي كتابا كأنك تسخط ذلك... ثم قلت إنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك، فإن كنت كما كتب به إلينا عمالنا، فأنت محقوق بالبراءة، ومقص من جماعتنا... وإن لم تكن كذلك، فإظهار الانتفاء من ذلك... وإني غير كاتب إليك بعد هذا إلا إن انتهى إلينا منك ما نحب»⁴²⁰.

416 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص314.

417 - ينظر: المرجع السابق، ص256.

418 - المرجع نفسه، ص259.

419 - المرجع نفسه، ص260.

420 - نفسه، ص261-262؛ عثرنا على نسخة مخطوطة لمسائل للإمام عبد الوهاب وأجوبة للإمام أفلح ونفاث

إن هذه الرسالة توحى لنا أن «نفث» أنكر ما نسب إليه من مسائل، وأن كل ما قيل فيه لا يعدو أن يكون باطلاً. وبهتاناً. وبالتالي لا يحق للإمام إعلان البراءة منه خاصة وأنه اعتمد في ذلك على ما نقله إليه عماله، وتبين الرسالة كذلك أن الإمام أفلح لم يكن متأكداً من أن كل ما وصله عنه صحيح. بدليل أنه قال له: «وإن لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء من ذلك».

وبعد فشل «نفث» في البقاء في ولاية أهل الدعوة، جمع ما عنده من مال، وفر بنفسه إلى أن تجاوز حدود الإمامة في سرت. وواصل رحلته إلى بغداد. وأقام فيها مدة طويلة في ضيافة صديق بغدادى نعتقد أنه من الإباضية، ولما علم بنزول نازلة على الخليفة وعجز العلماء على حلها تقدم إليه وأجابه، إجابة مقنعة فأعجب بذلكه وفطنته، وقربه إليه، وصار الخليفة يسأله عن معضلات المسائل وهو يجيب دون عناء، واشتهر فأصبح مجلسه يحفل بالعلماء والأدباء والأمراء. وعندما أراد السلطان أن يكافئه طلب منه «نفث» السماح له بنسخ الديوان - أي ديوان جابر بن زيد - الموجود في مكتبته فلبى طلبه، وحدد له فترة النسخ بيوم واحد، لأن وزراءه كانوا يعارضون ذلك فرضي بالشرط، واستأجر لهذا العمل الكتاب الذين مكنوه من نسخ أجزاء، ولم يبق له إلا جزء واحد فقط، سمح له بالاطلاع عليه فحفظه بعد قراءة واحدة، وأعاد سرده على مسمع الخليفة، ووزرائه.⁴²¹

وتذكر المصادر بأنهم دبوا له خطة لكي يأخذوا منه الديوان. حيث اتفقوا على طرح أسئلة عليه قبل سفره، فإن عجز أخذه منه، وعندما فشلوا في ذلك قرروا أن يبعثوا وراءه من يأخذه منه عنوة، ويبدو أن «نفثاً» علم ما في صدورهم فغير الطريق، وأجته إلى مكة ومنها إلى طرابلس. وعندما وصلها خشي - كما تقول المصادر - أن ينتفع من الديوان «أهل الدعوة» فحضر له في الأرض فدفنه. ولم يلبث أن تاب ورجع عن مسأله التي خالف بها أهل الدعوة. ولم يعد من الناس من يردد آراء «نفث» إلا القليل، بعضهم في الجبل، والبعض الآخر في مطماطة.⁴²²

ويذكر ليفيسكي بأن آراءه انتشرت في «زيزو» قرب جزيرة جربة، وفي نواحي غمراسن.

بن نصر بالمكتبة البارونية بجزيرة جربة بتونس، ولكنها للأسف رديئة جداً بحيث لم يتمكن من معرفة مضامينها.

421 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 139-140؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 80-81؛ الباروني: المرجع نفسه، ص 264-266؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج 2، ص 348-349.

422 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص 42؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 82؛ الباروني: المرجع نفسه، ص 266-267.

وفي غريان بجبل نفوسة. وظلت أفكاره موجودة إلى زمن أبي الربيع سليمان بن خلف المزاتي والذي تصفه المصادر ضمن الطبقة العاشرة (450-500هـ) واستمرت إلى غاية القرن الثامن الهجري (14م)⁴²³.

وهكذا ينتهي هذا الخلاف دون اقتتال، ولعل سلميته هي التي جعلت ابن الصغير لا يتعرض له، واصفاً عهد أفلح بقوله: «لم يكن الشرارة تطعن عليه في شيء من أحكامه ولا في صدقاته ولا في أثماره»⁴²⁴. وعلى الرغم من أن المصادر الإباضية تذكر أن هذا الخلاف المذهبي لم يصل إلى المشرق لأخذ الفتوى كما جرت العادة، إلا أننا نشك في ذلك خاصة وأن الخلاف هذه المرة قد مس مسائل دينية بحتة. وبما أن مصادر الإباضية الوهبية هي الوحيدة التي وصلتنا فإنه تعذر علينا إيجاد تفسير للعديد من الإشكاليات في هذا البحث. أضف إلى ذلك أن المصادر السنية لم تتناول إلا الجانب العسكري. وبالتالي فإننا لم نتمكن من معرفة أي سلطان تقصده المصادر؟ لأن نفثاً كان معاصراً للخليفة المأمون (198-218هـ)، والمعتصم (218-221هـ) (833-842م)، والواثق (227-232هـ) (842-847م). اللهم إلا إشارة واحدة ذكرها السيوطي عن استقبال الخليفة المأمون لرجل من الخوارج. لا يذكر اسمه أو بلاده.⁴²⁵

وإذا كانت المصادر التي اعتمدناها تريد أن تخط من مكانة فرج، حين ذكرت بان السلطان أو الخليفة أعجب بذكائه «مع سخافته ونسبه وقلة أدبه»⁴²⁶ إلا أنها في الوقت نفسه تشيد - ربما عن غير قصد - بسعة علمه، واشتهاره بين علماء بغداد. أما قولها بأنه نسخ ديوان جابر وأخفاه حتى لا يستفيد منه الناس فهذا أمر غير مقبول من وجهين: أولهما أن الرجل بعد عودته تراجع عن آرائه، فلماذا لم يكشف عنه؟ وفيما يخص التوبة نرى أنه من المحتمل جداً أنه إبان إقامته في المشرق خاصة في مكة، التقى بعلماء المذهب هناك، وبما أنهم كانوا على علم بخلافه أقنعوه بالتراجع فأعلن التوبة، ثم عاد إلى بلاده. ولذلك لم يرد ذكره في الرسالة التي بعث بها أبو عيسى إبراهيم بن إسماعيل الخراساني إلى

423 - T. Lewicki, La Répartition Géographique, p311. / Les Subdivisions De L>ibadiyya, p79. / Melanges berberes, p271.

424 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين، ص 57.

425 - ذكر السيوطي أن رجلاً من الخوارج دخل على المأمون فقال له المأمون: ما حملك على خلافنا؟ قال: آية في كتاب الله قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون». قال ألك علم بأنها منزلة؟ قال: نعم، قال: وما دليلك؟ قال: إجماع الأئمة، قال: فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل فارض بإجماعهم في التأويل، قال: صدقت، السلام عليك يا أمير المؤمنين.

ينظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دون مكان الطبع (د.ت)، ص 319-320.

426 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 140.

أهل المغرب في حين أشارت إلى خلف وأتباعه⁴²⁷، وثانيهما أن ديوان جابر بن زيد يعد من أهم مصادر الحديث عند الإباضية على الإطلاق مما نرجح أن يكون وصوله إلى بلاد المغرب قد تم في وقت مبكر. ربما ضمن قافلة الكتب التي أرسلها الإمام عبد الوهاب بل ربما قد نقله حملة العلم الخمسة معهم بعد عودتهم من البصرة.

الفصل الثاني

نفوسة دورها ومكانتها في الدولة الرستمية

- 1 - نفوسة وواصلية تاهرت.
- 2 - نفوسة وفتنة محمد بن عرفة.
- 3 - نفوسة وفتنة محمد بن رباح ومحمد بن حماد.
- 4 - نفوسة وتعيين الأئمة.
- 5 - نفوسة وتولي المناصب.



427 - ينظر: ابن سلام، الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، ص161-166.

1 - نفوسة وواصلية تاهرت:

يتفق الإباضية والمعتزلة في العديد من المسائل الكلامية التي اختلف حولها عامة المسلمين مثل: القول بالوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخلق القرآن، وتأويل كل تشبيه ظاهر تأويلاً مجازياً، ويختلفون في مسألة القدر، وحرية الإنسان في أفعاله، وفي المنزلة بين المنزلتين، وفي التحكيم وغيرها من المسائل.

وبما أنهم كانوا يلتقون في العديد من المسائل ذكرت المصادر أنه قد كان يقيم في أحواز تاهرت ما يقرب من ثلاثين ألف واصل في خيام⁴²⁸. ولا يعرف على درجة الدقة تاريخ قدوم دعاة هذه الفرقة إلى بلاد المغرب. ولكن الشيء المؤكد أن ذلك تم في زمن واصل بن عطاء (ت 131هـ/748م). يقول القاضي عبد الجبار: «لحق بعض أولاده (أي أولاد بشير الرحال) وأصحابه بالمغرب فغلبوا على مدن منها، وأظهروا الحق فيها، وكان واصل من قبل وجه عبد الله بن الحارث ومعه كتبه، ثم غلبت المعتزلة على تلك المدن، ويسمون أنفسهم بالواصلية»⁴²⁹.

وبفضل هؤلاء انتشرت أفكار واصل بن عطاء شمال تاهرت، وفي جنوبها في موقع يسمى «تيلغمت»⁴³⁰، وفي بعض المناطق الصحراوية كمدينة العطف في وادي ميزاب. فالمصادر تذكر بأن أهلها ليسوا إباضية، بل كانوا معتزلة ينتقلون إلى تاهرت لمحاربة الإباضية. وقد تمكن أبو عبد الله محمد بن بكر أن يردهم بالوعظ والتعليم إلى مذهب الإباضية، بعد انقراض الإمامة الرستمية⁴³¹. ومن أشهر علمائهم في المنطقة: سليمان بن عبد الجبار المدفون بقرية العطف في وادي ميزاب⁴³².

كما انتشر المذهب المعتزلي في «البيضاء» وهي كورة كبيرة لم تحدد المصادر الجغرافية موقعها، يقال إن فيها مائة ألف واصل يحملون السلاح⁴³³. وانتشر كذلك في شمال المغرب الأقصى في «وليلي» التي تبعد مسير يوم واحد عن فاس، وكون أتباعه جمعاً

428 - ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج5، ص8؛ البكري: المغرب، ص67؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص119؛ جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص103.
429 - بنظر: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس، 1986، ص227.

430 - لا تحدد المصادر الجغرافية موقع هذا الموضع ويرى بحاز ومحمد ناصر أنها ربما القرية المسماة «تيلغمت» الواقعة على الطريق بين مدينة الأغواط ومدينة غرداية، بنظر: أخبار الأئمة الرستميين، هامش ص108.
431 - أطفيش: رسالة مختصرة في تاريخ وادي ميزاب، و11؛ معمر: الإباضية في الجزائر، ص409؛ دبو: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص480-481.

432 - يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، المطبعة العربية غرداية (الجزائر)، 1992، ص16.

433 - أبو القاسم البلخي: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص109.

رستم خروج صارخ على مبدئهم في الإمامة. ولذلك اشتعلت الحرب بين يزيد وبين عبد الوهاب⁴³⁸. وهو الأمر الذي أشار إليه أبو زكريا عندما عرّف الواصلية بقوله: «قوم من البربر أكثرهم قبائل زناتة»⁴³⁹.

ونميل إلى الأخذ بهذا الرأي. ذلك أن الخصومة بين الواصلية والرسّتميين قد اتخذت فعلا طابع الصراع القبلي أكثر من الصراع الطائفي. مثل ما حدث مع النكار. هذه الخصومة التي لم يتحدث عنها ابن الصغير. فبعد مقتل يزيد بن فندين أختت بطون بني يفرن للانتقام من مقتله. هذه البطون التي كانت تستوطن المنطقة الواقعة غرب مدينة «منداس»⁴⁴⁰. إحدى مدن كورة تاهرت. كما كانت تاهرت نفسها مركزا لتجمع بني يفرن. وكانوا يشكلون قوة لها ثقلها حتى إنهم تدخلوا في بعض الأحيان في اختيار الأئمة. ونافسوه حتى في الجلوس على كرسي الحكم. يقول ابن الصغير: «كانت القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت لما اكتسبت الأموال. واتخذت العبيد والخيول قد نالها من الكبر ما نال أهل المدينة. حتى خاف أفلاح أن تجتمع الأيدي عليه فتزيل ملكه»⁴⁴¹.

ومن خلال النصوص التاريخية نلاحظ أن جدلا ونقاشا حادين قد حدثا في الدولة بين مختلف الفرق والطوائف. وقد أقحم زعماء الواصلية أنفسهم في هذا النقاش. خاصة في المسائل التي كانت موضع خلاف بين أهل المذهب. ويورد لنا ابن الصغير والبرادي. مثلا عن ذلك عندما ذكرا أن عبد الله اللمطي كان يناظر المعتزلة (الواصلية) وسائر الفرق في المغرب في عهد أبي اليقظان (261-281هـ) (874-894م)⁴⁴².

أما الواصلية في عهد عبد الوهاب فقد ترأسها زعيم أهملت المصادر ذكر اسمه. وإنما ركزت فقط على ابنه الذي تصفه بأنه كان فارسا مغوارا صعب المنال. وأنه كان فيهم رجلا مناظرا يجيد فنون الكلام. وكثيرا ما ناظر الإمام⁴⁴³.

438 - محمد بن تاووت: دولة الرسّتميين. ص114.

439 - ينظر: كتاب السيرة. ص104.

440 - تقع اليوم في الطريق الرابط بين زمورة ووادي السلام في اتجاه تيهرت ولا تبعد عن هذه الأخيرة إلا بـ 60 كلم.

441 - ينظر: أخبار الأئمة الرسّتميين. ص63.

442 - اجتمع جمع من المعتزلة والإباضية بنهر مينة للمناظرة. وكان كثير من هواره من حضري يسمى عبد الله بكسر الدال. ونادى رجل من المعتزلة عبد الله اللمطي وقال له: هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه إلى مكان لست فيه. فقال: لا فقال: هل تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه إلى مكان لست فيه فقال إذا شئت فقال: خرجت منها يا ابن اللمطي. ينظر: المصدر نفسه. ص93-94-95: الجواهر المنتقاة. ص179-180.

443 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص105: الدرجيني: طبقات المشايخ. ج1. ص57.

كبيرا تزعمه اسحق بن محمد بن محمد بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي. فإلى هذه المدينة التجأ إدريس بن عبد الله في ربيع سنة 172هـ (787م). ولقي كرم الضيافة حيث استضافه اسحق. وأنزله في داره. وتولى هو شخصيا خدمته. والقيام بشؤونه عدة أشهر. ثم جمع أخوته وأعيان قبيلة أوربة وعرفهم بنسب إدريس وقرابته من النبي. فرحبوا به وبايعوه «بأوليلي» في يوم الجمعة 14 من شهر رمضان سنة 172هـ (787م)⁴³⁴.

ونعتقد أن للأدرسة يد في تحريك واصلية تاهرت. والدليل نجده جليا عندما أجه إدريس الأكبر بقواته إلى تلمسان سنة 173هـ (789م) وهي حينئذ قاعدة المغرب الأوسط. تقطنها قبائل مغراوة. وبني يفرن. واستطاع إخضاع أميرها محمد بن خزر بن صولات المغراوي. الذي طلب من إدريس الأمان. وقبل الاعتراف بإمامته فبايعه. وبايعته قبائل البربر⁴³⁵.

وقد حاول أمراء تلمسان ضم أجزاء من الدولة الرسّتمية إلى دولة الأدرسة التابعين لها. فقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: «لم يزل الملك في بني رستم هؤلاء بتاهرت. وحاربهم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الأدرسة. لما ملكوا تلمسان وأخذت بها زناتة من لدن ثلاث وسبعين ومائة. فامتنعوا عليهم سائر أيامهم إلى أن كان استيلاء أبي عبد الله الشيعي على إفريقية والمغرب سنة ست وتسعين»⁴³⁶.

ويذكر الباروني والحري أن اتصالات ومكاتبات تمت بين واصلية تاهرت وبين إسحق الأوربي. وكان هذا الأخير يهدف إلى إثارته على أئمتهم الرسّتميين⁴³⁷. ويضيف ابن تاووت سببا آخر لخروج الواصلية أيام عبد الوهاب. يتمثل في غضبهم بمقتل يزيد بن فندين اليفرني زعيم النكارية. وقبيلة يفرن كما هو معروف فرع من زناتة. التي ينتمي إليها أغلب واصلية بلاد المغرب. ويؤكد ذلك انضمام فلول النكار بعد مقتل زعيمهم لهؤلاء الواصلية. وخاصة الرابضين منهم في شمال تاهرت. وقد انضمت إلى حركة بن فندين الواصلية الذين رأوا كما رأى الإباضية. أن عمل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن

434 - أبو عبد الله التنسي: تاريخ دولة الأدرسة من كتاب نظم الدرر والعقيان. تحقيق عبد الحميد حاجيات. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1984. ص34-35: البكري: المغرب. ص118: مجهول: كتاب الاستبصار. ص194: الحري: الدولة الرسّتمية. ص119: محمد الطالبي: دولة الأغالبة. ص402: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي. ص383: إسماعيل العربي: دولة الأدرسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1983. ص63-64.

435 - التنسي: المصدر نفسه. ص35: السيد عبد العزيز سالم: المرجع نفسه. ص384: رابح بونار: المغرب العربي. ص38-39.

436 - ينظر: العبر. مج6. ص248.

437 - ينظر: الأزهار. ص169: الدولة الرسّتمية. ص120-121.

وتذكر المصادر أن الإمام عبد الوهاب استنجد بعلماء نفوسة لهذا الغرض. ويبدو أن الإمامة كانت في حاجة ماسة إلى جيش مقاتل للقضاء على شغب الواسلية في أحواز تاهرت. ففي هذه الأخيرة كان يعيش العديد من العلماء البارعين في علم الكلام أمثال عبد الله اللمطي، وأبي عبيدة الأعرج الذي كان «في غاية العلم، والعمل، والورع، والأدب»⁴⁴⁴. وكانوا كلهم «مقرون له بالفضل، مسلمون له بالورع. إذا اختلفوا في أمر من الفقه، أو من الكلام صدروا عن رأيه»⁴⁴⁵. أضف إلى ذلك أن الإمام عبد الوهاب نفسه كان عالماً. فالبيت الرستمي هو بيت للعلم في جميع فنونه من الأصول، والفقه، والتفاسير، وفنون الرد عن المخالفين، وعلم النحو، واللغة، والإعراب، وعلم النجوم⁴⁴⁶. ولعبد الوهاب كتاب معروف بـ «مسائل الجبل». لأن نفوسة كتبت إليه في مسائل أشكلت عليها فأجابها عن كل مسألة مما سألت عنه. وكان هذا الكتاب مشهوراً عند الإباضية⁴⁴⁷ كما كان ابنه أفلح من «أوتي من العلم، والجمال، والعقل، والشجاعة كثير»⁴⁴⁸.

ومهما يكن من أمر فإن عبد الوهاب كان في حاجة ماسة إلى قوة نفوسة، أليس هو القائل: «إن هذا الدين قام بيسيوف نفوسة، وأموال مزاتة». وكان قد أئذ وأعذر الواسلية عدة مرات. ولما تمادوا في الخلاف استنجد في آخر المطاف بقبائل نفوسة، طالبا منهم أن يرسلوا إليه جيشاً يتألف من أربع مائة رجل، مائة يكونون من خيرة فرسانهم، ومائة من المتضلعين في علم التفسير، ومائة من علماء الكلام المطلعين على نزاعات الفرق، والعارفين بالرد على المخالفين، ومائة من المتبحرين في مسائل الحلال والحرام⁴⁴⁹.

ولما بلغ كتابه إلى أبي الحسن أيوب بن العباس عامله على الجبل، جمع أصحاب الرأي وعرض عليهم مطلب الإمام. وبعد نقاش وتبادل لوجهات النظر اتفقوا أن يرسلوا أربعة أشخاص لأن إرسال جيش يكلفهم ويكلف الإمام مؤونة وتعباً. وقد وقع اختيار النفوسيين على:

1 - مهدي الويغوي.

2 - أيوب بن العباس.

٤٤٤ - الشماخي: السير، ص ٢٢٣؛ الباروني: الأزهار، ص ١١٢.

445 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 95.

446 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 102.

447 - ابن الصغير: المصدر السابق، ص 45-46.

448 - البغطوري: سير نفوسة، و 47.

449 - البغطوري: المصدر نفسه، و 39؛ الشماخي: السير، ص 154؛ الباروني: الأزهار، ص 118؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص 83.

3 - محمد بن يانس.

4 - قيل اسمه محمد أبو محمد وقيل أبي الحسن الأبدلاني⁴⁵⁰.

يعد هؤلاء من خيرة رجال الجبل. وحسب المصادر الإباضية فإن كل واحد منهم يقوم مقام مائة من طلبهم الإمام. فكان كل واحد يختص بعلم من العلوم، مهدي بعلم الكلام، وأبو الحسن بالفقه، ومحمد بن يانس بالتفسير. أما أيوب بن العباس فهو الفارس الشجاع، والبطل المشهور المكلف بمبارزة الفتى الواسلي. ويبدو أن اختيار هؤلاء للسفر إلى تاهرت ونجدة إمامهم قد تم في غيابهم. ذلك أن أيوب - عامل الجبل - أرسل إليهم يخبرهم باتفاق إخوانهم على إرسالهم إلى المغرب تلبية للنداء، فأجابوا بالسمع والطاعة. وسافر الوفد قاطعاً هذه المسافة الطويلة، يخدمه محمد بن يانس حيث كلما نزلوا منزلاً هياً لهم الطعام، والمصلى، وتكفل بخيلهم⁴⁵¹.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: لماذا لم تلبية نفوسة طلب الإمام المتمثل في إرسال جيش لمحاربة الواسلية؟ وهل كان الإمام فعلاً في حاجة إلى هذا العدد الضئيل لكي يرجح ميزان القوة لصالحه؟ ألا يمكن أن يكون الإمام قد طلب فعلاً أربعة رجال فقط، ولكنه وفي إطار الحرب النفسية أشاع في تاهرت بأن نفوسة عازمت على إرسال جيش يضم أشجع الفرسان للحط من معنويات الواسلية؟ وهل كانت الظروف فعلاً تسمح بانتقال جيش من الجبل إلى تاهرت؟ خاصة وأن الأغلبية ظلوا يتربصون بهم، ومن المؤكد بأنهم لم يسمحوا لهم بالمرور بأراضيهم.

حاول بعض المؤرخين المحدثين إيجاد تفسير لذلك، فعلي يحي معمر علل عدم إنفاذ نفوسة الجيش إلى أن ذلك سيكلفهم، وسيكلف الإمامة مؤونة وتعباً⁴⁵² بينما لا يستبعد محمد بن عميرة أن يكون عامل الجبل قد لبى الطلب فعلاً وأرسل جيشاً يقوده هو أو أحد العلماء الذين ذكرت المصادر أسماؤهم، ولكن شهرة هؤلاء غطت أخبار بقية الجيش التي اختفت بالتدريج ولم تنقلها المصادر⁴⁵³.

450 - يسميه البغطوري (مامد بن يانيس) بنظر: المصدر نفسه والورقة ذاتها.

- الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 58؛ البغطوري: المصدر نفسه والورقة ذاتها؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص 155.

451 - البغطوري: المصدر نفسه، و 46؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج 1، ص 57؛ أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 105؛ الباروني: المرجع السابق، ص 118-119.

452 - ينظر: الإباضية في ليبيا، ص 83.

453 - محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 129-130.

وأمام هذه الاختلافات فإننا نستبعد أن يكون النفوسيون قد جهزوا جيشا. وأنفذوه إلى تاهرت لأن ظروف الجبل السياسية كانت لا تسمح بذلك. إذ كانوا منشغلين بحركة خلف وأتباعه. ومن غير المنطق أن يهتموا لإنقاذ الإمامة وجبلهم يمر بأخطر حركة استقلالية. ولا يستبعد أن يكون طلب الإمامة قوبل بالرفض لأنه لما وصل الوفد إلى تاهرت اتهمهم بالتقصير في إمداده عندما علم بأنهم أربعة فقط. وهو قد طلب أربعمائة وقيل أربعة آلاف. أضف إلى ذلك أن ابن الصغير لم يرد أي إشارة عن ذلك الوفد. ولا عن المناظرة. ولا عن الحرب. وكل ما ذكره كان حول النكار وثورتهم. وثورة الأوس⁴⁵⁴.

ومهما يكن من أمر فإن عبد الوهاب كان ينتظر جيشا كبيرا. حتى إنه وعد من يبشره بوصولهم من عبيده بالحرية. وظل العبيد يخرجون كل يوم يترقب وصوله. حتى قيل في المثل التيهرتي «فاز بها الأعرج»⁴⁵⁵.

ولما وصل الوفد أمر بإنزاله في دار الضيافة ليستريح من عناء السفر. وبعد أن أخذ قسطا من الراحة اجتمع بهم فأخبروه بوظائفهم وبهمة كل واحد منهم. ووعدهم بالوفاء فاكتمسبوا ثقة الإمام. ثم عرض على الإمام ما جرى بينه وبين الفتى الواسلي من محاورات ليكون على بينة وبصيرة بمناظره. وكان مهدي «كلما رأى خطأ في كلام المعتزلي قال: هنا حاد عن جادة الصواب. وزاغ عن الحجة. وسفسط. وكان من الصواب أن تجيبه يا أمير المؤمنين بكذا وكذا»⁴⁵⁶. وبذلك أطلع مهدي الإمام على جميع الأخطاء التي وقع فيها المعتزلي ولم ينتبه إليها. فعرف مهدي أسلوب المعتزلي المنتحل للمناظرة. وكيف كان يحيد عن الجواب. وهنا أيقن الإمام بأن مهديا سينال من المعتزلي وتأكد بأنه وأصحابه يقومون مقام العسكر⁴⁵⁷.

أما أيوب بن العباس فقد أذهل سكان تاهرت بقوته. أليس هو القائل: «لا أعلم من فاس إلى مصر فارسا يبارزني»⁴⁵⁸. والدليل على قوته أنه عندما أراد اختيار فارس من خيل الإمامة لم تعجبه كلها لأنه كان يجذبها إليه حتى تكاد أن تقع محاولا اختبار قوته. حتى انتهى في آخر المطاف إلى علاج فرسه الذي تعب من مشاق السفر فأصابه الحفا⁴⁵⁹.

454- ينظر: أخبار الأئمة الرستميين. ص 47-56.

455 - البغطوري: سير نفوسة. و 46.

456 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 108؛ الشماخي: السير. ص 155؛ الباروني: الأزهار. ص 121.

457 - الدرجيني: طبقات المشائخ. ج 1. ص 59.

458 - الشماخي: المصدر السابق. ص 165؛ معمر: الإباضية في ليبيا. ص 81.

459 - الشماخي: المصدر نفسه. ص 15؛ الباروني: الأزهار. ص 12؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج 2. ص 327-328.

ونادى الإمام في القبائل للاجتماع وفتح باب المناظرة وضرب موعدا مع الواسلية بعد ثلاثة أيام. ويذكر أن النفوس من الفريقين المتخاصمين كانت مشتاقة لرؤية النفوسيين. فمجيئهم كان له صدى أطبق الأقطار كما يقول الباروني⁴⁶⁰. وامتلات قلوب الواسلية خوفا وساءت ظنونهم حتى إنهم باتوا في غم شديد⁴⁶¹.

وخلال الثلاثة أيام التي احتاج إليها رجال نفوسة للراحة كان مهدي يتغيب عن رفاهه يوميا لمناظرة العلماء من المخالفين. فقد تمكن من الانتصار على تسعين⁴⁶² وقيل سبعين⁴⁶³ عالما خلال هذه المدة. فهو القائل: «لا أخاف بإذن الله مخالفا أن يدحض حجتي. إلا إن داهنت في دين الله»⁴⁶⁴.

وانتهت المهلة وخرج الإمام عبد الوهاب بعساكره ومعه رجال نفوسة وتم اللقاء فدعا الإمام المعتزلة مرة أخرى إلى الطاعة فأبوا وطلبوا المناظرة فنادى مناديه بالحضور إلى المناظرة والمبارزة. «فهرعت من الفريقين أمة كالجراد»⁴⁶⁵. واصطف الطرفان. وخرج الفتى الواسلي المناظر. وخرج مهدي بعد أن امتنع محمد بن يانس. وللدلالة على قدرة مهدي في الرد والمناظرة تذكر المصادر الإباضية بأنه أربها مناظره حتى إنه عرف بأنه مغلوب في النهاية ولذلك قال له: «إني إذا ناظرتك وغلبتني أريد أن تستر علي. وإن غلبتك سترت عليك. وليس فينا أحد يدري لمن الزيادة على صاحبه»⁴⁶⁶.

وشعر مهدي أن طلبه هذا ما هو إلا مكيدة فأخبر أصحابه بأنه عاهده على الستر. ولكن إذا نزع طاقته ووضعها تحت ركبته فليعلموا بأنه فاز عليه وانتصر. وكان كل واحد من المتناظرين قد اصطحب معه خواصه من العلماء. ولا ندري هل كان خواص مهدي من الجبل. أم كانوا من تاهرت؟ فالمصادر تذكر أنه لما بدأ الجدل الفقهي كان الإمام عبد الوهاب يستمع إلى النقاش الدائر. مما يرجح أن حاشية الإمام وبعض علماء تاهرت كانوا ضمن الحضور. وتضيف المصادر أن النقاش بدأ بسيطا في المسائل الخلافية. ولكن عندما طال ولم يفلح أحد على صاحبه دخلا في فنون العلم صعب على الحاضرين فهمه. وما لبث أن عجز المعتزلي واستسلم. فنزع مهدي عمامته كما وعد أصحابه من قبل فكبروا تكبيرة رجل واحد. حينئذ بهت الواسلي لأن مهديا غدر به. وخالف العهد. وبرز

460- ينظر: المرجع نفسه. ص 121.

461 - الدرجيني: طبقات المشائخ. ج 1. ص 60.

462 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 109.

463 - الدرجيني: المصدر السابق. ج 1. ص 60.

464 - الباروني: الأزهار. ص 122.

465- المرجع نفسه والصفحة ذاته.

466- أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 110.

نفوسة في خلافاتها الداخلية وفي مقاومة الاعتداءات الخارجية.

2 - نفوسة وفتنة محمد بن عرفة:

لسنا هنا بصدد التأريخ للدولة الرستمية، فهناك دراسات كثيرة ولكن سنركز الحديث فقط عن دور نفوسة وموقفها إزاء هذه الفتنة، تذكر المصادر أنه لما تصاهر محمد بن عرفة مع الإمام أبي بكر بن أفلاح (258-261هـ) (871-874م) أصبح له نفوذ كبير، حتى أضحت الإمارة لأبي بكر بالاسم أما الإمام الحقيقي فهو محمد بن عرفة⁴⁷²، وكانت لهذا الأخير شيعية تمشي معه حتى إن «الرستمية» كرهت ذلك واعتبرته خطرا يهدد مستقبلها السياسي. ورغم ذلك فقد ظلت الأحقاد كامنة في القلوب إلى أن عاد أبو اليقظان من المشرق وتولى تسيير شؤون البلد، لأن أخاه تفرغ إلى الملذات والشهوات فمال الناس إلى أبي اليقظان، ولما رأى أبو بكر ما بلغه ابن عرفة من القوة نصحه ناصح بان يتخلص منه خارج تاهرت، بعد عودته إلى موضع منتزههما وهو موضع يعرف بـ «جنان الأمير» فأقاموا يومهما هناك، ولما حانت صلاة العشاء دعاه الإمام إلى الصلاة، وبينما هما قائمان إذ أشار إلى غلامه فقتله ثم رميت جثته في مكان وعمر يسمى «الشفة الحمراء» وعاد إلى المدينة⁴⁷³.

ولما علم إخوانه وشيعته بمقتله أمر محمود بن الوليد -وهو أحد خاصة ابن عرفة- الناس بأخذ السلاح والمسير إلى أبي بكر لقتاله، ولما نشبت الحرب استغلها العجم فدخلوا فيها حفاظا على مصالحهم، وسرعان ما قاتل الجند العرب والعجم فقتلوا منهم الكثير⁴⁷⁴.

اعتزل أبو اليقظان الفريقين، وانتقل إلى عدوة نفوسة. أما الإمام أبو بكر فقد ظل في داره لا يحرك ساكنا، أما نفوسة ففضلت هي الأخرى البقاء بعيدة عن الأحداث تتربص تطور الأمور فلم تشارك في القتال. وعندما وقعت حرية بجوار درب النفوسيين الذي كان ميدانا للقتال، واستولت العرب والجند على الدرب - وكان أغلبهم للعجم وبعضه لنفوسة - انضمت هذه الأخيرة إلى العجم وتمكنت من استمالة أبي اليقظان والرستمية، ومالت الكفة إلى هذا التحالف الجديد والذي تمكن من دفع العرب والجند إلى أطراف مدينتهم، والاستيلاء على أكثرها، ثم حدثت عدة وقائع منها موقعة «قنطرة الدمتس»، و«قنطرة سليس»، كانت الغلبة فيها لنفوسة والعجم⁴⁷⁵.

472 - ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص72.

473 - المصدر السابق، ص75-77.

474 - نفسه، ص81-78.

475 - نفسه، ص81-82.

فارس الواصلية وابن رئيسهم يُظهر للجميع من أنواع الفروسية والشجاعة، كما خرج أيوب بن العباس هو الآخر إلى الميدان يستعرض قوته كما جرت العادة في المعارك⁴⁶⁷. وصال وجال في الميدان ثم هجم على خصمه فقتله، والتحم الفريقان، وعظم التقتيل، وكان بطلا هذه المعركة أفلاح بن عبد الوهاب، وأيوب بن العباس، وانتهت المعركة بانتهزام الواصلية حيث ولوا الأدبار، واستسلموا وأقروا الطاعة التامة للإمامة. وعاد الإمام إلى حاضرة ملكه ظافرا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ولم يبق من المعتزلة إلا العدد القليل⁴⁶⁸ فمنهم من بقي تحت الحكم الرستمي، ومنهم من كون إمارة مثل إمارة إيزرج⁴⁶⁹ قرب تاهرت، ومنهم من غادر المنطقة واجه إلى المغرب الأقصى أين التفوا حول إسحق بن محمد الأوربي⁴⁷⁰.

وتجدر الإشارة إلى أن نفوذ المذهب المعتزلي ظل موجودا في أحواز المدينة، فابن خلدون يقول: «ولى عبد الوهاب ابنه ميمون وكان رأس الإباضية، والصفورية، والواصلية، وكان أتباعه من الواصلية وحدهم ثلاثين ألف ظواغن ساكنين بالخيام»⁴⁷¹. ودام هدوء الواصلية إلى غاية سقوط تاهرت سنة 296هـ (909م)، وإذا كان باب الحرب قد أغلق فإن باب المناظرة قد ظل مفتوحا نظرا لما عرفته الدولة الرستمية من تسامح وحرية التعبير؟

وما سبق يتضح أن نفوسة قد لعبت دورا كبيرا في دعم الإمامة الرستمية، سواء في الميدان العسكري، أو في الميدان العلمي، خاصة وأن الدولة لا تملك جيشا نظاميا مما جعلها عرضة للعديد من المتاعب، كما يمكن القول بأن موقف الإمامة أصبح مهزوزا هشا، وأصبحت عاجزة عن الدفاع عن نفسها ضد الحركات المناوئة، وراحت كل مرة تستنجد بنفوسة في أبسط الأمور، ولاشك أن هذا الضعف كان هو السبب في تعجيل الإمامة في إقامة الصلح مع الأغالبة، وتوثيق علاقاتها مع بني مدرار والأمويين في الأندلس والأدارسة في المغرب الأقصى، وبذلك ظلت علاقاتها مع هذه الدول تميزها سياسة حسن الجوار، وانطلاقا من كل هذا فلا نستغرب عدم تمكن الدولة من مؤازرة

467 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص60-62؛ الباروني: المرجع السابق، ص124.

468 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص62؛ الباروني: المرجع السابق، ص125؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، مج2، ص328-329.

469 - هي إمارة تقع بين تلمسان وتاهرت تقع إلى الغرب من إمارة محمد بن مسالة، يقول اليعقوبي: «ومن مدينة تاهرت... إلى ملكة رجل من هواره يقال له ابن مسالة الإباضي... ثم من ملكة ابن مسالة الهواري إلى ملكة بني محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن أيضا سوى المملكة التي ذكرناها وهي مدينة مدكرة ومسكنهم في المدينة العظمى التي يقال لها تمطلاس وأهل هذه المملكة قوم من بطون البربر... وأكثرهم... بنو مطماطة... ولهم في ملكتهم مدينة عظيمة يقال لها إيزرج». ينظر: صفة المغرب، ص17.

470 - الحريري: الدولة الرستمية، ص122؛ محمد بن تاويت، دولة الرستميين، هامش ص10.

471 - ينظر: العبر، مج6، ص248.

وكانت للمتقاتلين موقعة أخرى تعرف بـ «يوم الرد المعوج». وفيها أوثقت نفوسة أرجل رجالها ليثبتوا في الحرب ولا يدبر أحد. وبعد قتال شديد مالت الكفة إلى العرب. والجند. حتى أبعدوهم عن المدينة. فتحصنت نفوسة والعجم والرسومية في عدوتها المعروفة «بعودة نفوسة»⁴⁷⁶.

وعلى الرغم من ذلك لم يصمدوا طويلا حيث تفرقوا في أقاصي البلاد. فنزلت العجم في موضع يسمى «تنبغيلت». يبعد عن المدينة بمرحلتين. أما الرسومية فقد التحقوا بموضع يعرف بـ «إسكدال». وأما نفوسة فقد نزلت بقلعة منيعة تسمى باسمها. وفي هذه الظروف استغل محمد بن مسالة⁴⁷⁷ خروج القبائل من تاهرت فقدم إليها.

ولما حدث خلاف بين هواره ولواتة لجأت هذه الأخيرة مرغمة إلى حصنها المعروف باسمها. وأرسلت إلى أبي اليقظان ليلتحق بها. فأنزلته بجوارها في موضع يسمى «تسلونت». كما التحق به شيعته من تاهرت. وصارت الإمامة لأبي اليقظان خاصة وأن الإباضية وفدوا إليه من كل الجهات. وألغى ذكر أبي بكر ومحمد بن مسالة. حاول أبو اليقظان الاستيلاء على تاهرت ولكن دون جدوى. حتى إن الحرب دامت سبع سنوات. ولذلك استنجد بنفوسة وارحلت مجموعة إلى غرب المدينة. واقترحت نفوسة على أبي اليقظان مراسلة سكان المدينة من أهل الدعوة ليطلب منهم الدخول في الطاعة. فإن أبوا فعند ذلك يقتحمونها ثانية. وعادت الرسل تبلغ نفوسة بأن الناس كرهت الحرب وأنهم يريدون الصلح على «أن لا يتبع أحد بدم ولا مال»⁴⁷⁸. ولما أعلمت نفوسة أبا اليقظان بذلك أعطاهم العهود في اجتماع تم بين أهل المدينة وعسكر أبي اليقظان. وعندئذ ارحل الإمام ونزل قلعة نفوسة. وضرب سرادقه في انتظار إتمام بناء داره التي تهدمت⁴⁷⁹. وهكذا استقرت الأوضاع في تاهرت وتمكنت نفوسة من إعادة الطمأنينة والسلم وهدأت الأمور إلى أن توفي أبو اليقظان سنة 281هـ (894م).

وتكشف لنا هذه الفتنة مرة أخرى حالة الضعف التي بلغتها الدولة الرسومية. وأصبحت هذه المرحلة تتسم بالقلقل. والفتن. والصراع القبلي. مما أدى إلى دخول البلاد

476 - نفسه. ص 83.

477 - هو أحد الزعماء الذين كونوا إمارة في ضواحي تاهرت في عهد الإمام عبد الوهاب بعد الخلاف الذي نشب بين هذا الأخير وبين الأوس. وإذا كان ابن الصغير لا يعطينا معلومات كافية حول موقع الإمارة ومناطق نفوذها فإن اليعقوبي يذكر بأن الإمارة كانت في أرباض المدينة وتضم مدينتين الأولى تسمى يلل والثانية تسمى «الجبل» وهذا الجبل يبعد اليوم بـ 19 كلم جنوب مدينة هلل (يلل) الواقعة جنوب شرق مستغانم. أما البكري فيسمي هذا الموضوع بقلعة هواره أو تاسقذالت. ينظر: اليعقوبي: صفة المغرب. ص 17؛ البكري: المغرب ص 69.

478 - ابن الصغير: المصدر السابق. ص 87.

479 - نفسه. ص 87.

في حرب أهلية. ونلاحظ مرة أخرى أن نفوسة كان لها الفضل في مؤازرة الأئمة وإعادة الاستقرار إلى المدينة.

3 - نفوسة وفتنة محمد بن رياح ومحمد بن حماد:

وقعت هذه الفتنة في إمامة أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م). عندما قام هذا الأخير بإخراجهما من المدينة. ذلك أنهما اقترحا عليه مرة من المرات اغتيال والده. ليصير الأمر إليه عندما اشتكى منه. وبلغ أبا حاتم بأنهما قالا الكلام نفسه لمشائخ المدينة ووجوهها. وظلا في منفاهما في موضع يسمى «المثلث»⁴⁸⁰. على بعد أميال من تاهرت يبعثون الرسل إليها يتهمون الإمام بأنه أخرجهم دون جناية. واتفق إخوانهم في المدينة على استدعائهما وإدخالهما إلى المدينة رغم إرادة الإمام. فلما دخلا كبر الناس مما أفرغ الإمام. ويبدو أن عددا كبيرا من التيهريين كانوا متعاطفين معهما إلى درجة أن أبا حاتم جمع قومه وأهل بيته للنظر في هذا الأمر. وتذكر المصادر أنهم اقترحوا عليه الخروج إلى حصنهم المسمى بـ «تماليت»⁴⁸¹ في طرف لواتة. والاتصال بهذه القبيلة وغيرها من القبائل. فإن ناصرهم أوجب على الإمام اللحاق بهم. وخرجت الرسومية إلى الحصن المذكور. والتحقت كل من العجم ونفوسة بحصنها. ثم جمع أبو حاتم قواته وهاجم المدينة من ثلاثة مواضع من القبلة. والمشرق. والمغرب. تولت نفوسة الزحف من المغرب. والعجم وصنهاجة من المشرق. والإمام والرسومية (السمحية) ولواتة من القبلة. واشتعلت الحرب مما جعل سكان المدينة يتصلون بيعقوب بن أفلاح لعقد الولاية له. لأنهم رأوا بأن الإباضية لا يكفون عن قتالهم ما لم يكن عندهم رئيس إباضي من الرسوميين⁴⁸².

وبمجرد تولية الولاية انقسمت جموع الإباضية حيث انضمت إليه جماعة من لواتة. وظلت الحرب مستمرة بين الأخوين. حيث أمر يعقوب بإغلاق أبواب المدينة إلا بابا واحدا كان يقاتل منه. ولما انهزم أبو حاتم حين حاول الهجوم غرة على الباب الشرقي انصرف عنه أحد كبار مساعديه وهو الذي تسميه المصادر «وانودين». وبذلك ضعفت الحرب. ورغب الناس في السلم. فطلبوا من أبي يعقوب المراتي أن يصلح بين الأخوة الأعداء. وتم الاتفاق على أن يختار كل طرف ممثلا له لعقد الهدنة. ولما التقوا في اليوم المحدد اتفقوا

480 - لا تشير المصادر المتوفرة لدينا إلى موقع هذا الموضع. ويبدو أنه لا يبعد عن تاهرت.

481 - لعلها «تماليت» التي أشار إليها ابن حوقل. عندما تحدث عن مراحل الطريق الذي يربط فاس بمدينة المسيلة.

ينظر: صورة الأرض. ص 87-88.

482 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرسوميين. ص 106-109.

على توقيف القتال وتوقيف أبي حاتم ويعقوب عن النظر لمدة أربعة أشهر حتى تعود الطمأنينة إلى الناس. ويتمكنوا من قضاء مآربهم. فقد «قطعت السبل. ونزع من أيد الناس الحرث والنسل»⁴⁸³.

وفي أثناء الهدنة استمال أبو حاتم الناس فمالق قلوبهم إليه. في حين فضل الباقي البقاء مع يعقوب. وتمكن أبو حاتم من الدخول إلى المدينة. بينما خرج يعقوب في قلة إلى زواغة. واستقرت الأمور لأبي حاتم فحاول إصلاح ما أفسدته الحرب فعين القضاة والشرطة وأمن السبل. وشرّد قطاع الطرق⁴⁸⁴.

ونلاحظ مما سبق أن النظام الحاكم في تيهرت أصبح هشاً لدرجة أن أعيان البلد لهم من القوة ما يمكنهم من الوقوف ضد إرادة الأئمة. كما يتضح أن تيهرت ما هي إلا مجموعة من الحصون. كل حصن تسكنه قبيلة معينة ترتبط بمجموعة من المصالح. فإن تعارضت يحدث نزاع قبلي وطائفي يصعب على الإمامة التحكم فيه. ومرة أخرى يقدم النفوسيون المقيمين في عدوتهم الدعم العسكري للإمامة بمؤازرتهم لأبي حاتم ومساعدته في استرجاع ملكه رغم انقسام البيت الرستمي على نفسه.

كما نستنتج أنه في هذه المرحلة التي مرت بها الدولة أصبح بمقدور الأعيان والوجهاء تنحية إمام واستبداله بآخر. وبدل أن يطرد الإمام ابن رياح وابن حماد ثانية غادر هو المدينة. ويمكننا أن نتساءل قائلين: ألا يعد ذلك انقلاباً؟ وخاصة وأن سكان المدينة اتفقوا على توقيف أبي حاتم ويعقوب عن النظر لمدة أربعة أشهر. ومن كان يشرف على تسيير شؤون الدولة طيلة هذه المدة؟ يبدو أن هذه الفترة اختلط فيها الحابل بالنابل وأصبحت الكلمة العليا لزعماء القبائل وكبار الأعيان. وتحول اهتمام الأئمة إلى الصراعات الضيقة والتصفيات الجسدية. والإيقاع بين القبائل. وفي الأخير نقول إنه للدلالة على قوة الأعيان ونفوذهم يكفي أن صاحب الشرطة في عهد أفلح كان لا يتجرأ على دخول سوق ابن وردة هيبة منه⁴⁸⁵.

4 - نفوسة وتعيين الأئمة:

كانت قبيلة نفوسة تشكل عصبية قوية لها وزنها وثقلها في تاهرت. ورغم أن المصادر لا تقدر عدد النفوسيين المقيمين فيها. إلا أنه يمكن القول بأن أعدادهم كانت كبيرة. فالعدوة التي كانوا يسكنونها والمعروفة باسمهم مشهورة في كتب التاريخ.

483 - المصدر السابق. ص 113.

484 - نفسه. ص 114-116.

485 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين. ص 62-63.

ونشير هنا إلى أن التواجد النفوسي في المدينة بدأ مع مرحلة التأسيس. فالباروني يذكر بأنه اجتمع عند عبد الرحمن بن رستم ما يزيد عن ستين عالماً من طرابلس ونفوسة⁴⁸⁶. ولذلك كانت تحظى بمرتبة عالية عند الأئمة. فالإمام عبد الوهاب عندما خرج بعساكره لقتال بني أوس. جعل عديله وقائد راحلته من نفوسة⁴⁸⁷. وعندما سافر أبو اليقظان إلى المشرق تولى نفوسي خدمته⁴⁸⁸. وكانت نفوسة معجبة بهذا الإمام حتى إنها اعتمدت عليه في دينها وتحليلها وتحريمها. وكان أغلبهم يستأذنه قبل الخروج إلى الحج⁴⁸⁹. ولا غرو إذن أن يتخذوا مجلسه كالمسجد «طائفة يصلون. وطائفة يقرأون الكتاب. وطائفة يتذاكرون في فنون العلم»⁴⁹⁰. وقد قرب هذا الإمام النفوسيين فكان عيسى بن فرناس - مثلاً - يقابله نصب عينيه في مجلسه⁴⁹¹.

وقد ساعدت قوة نفوسة على أن تكون لها الكلمة الأولى في الدولة. ولذلك سميت «العسكرية» أي أهل العسكر⁴⁹². وبلغت من النفوذ حتى أصبحت تولي الأئمة دون أخذ رأي بقية القبائل. وكان العديد من وجهاء الإيباضية يرفض ذلك. حتى إن عبد العزيز بن الأوز نادى بأعلى صوته في السوق: «اللّٰه سائلكم معاشر نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر. ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى»⁴⁹³. وعلى الرغم من ذلك لم يلتفتوا إلى كلامه ولم يولوه أدنى اهتمام. وقد بايعوا أبا بكر بن أفلح بالرغم من إنكار العامة لأن هؤلاء كانوا يطالبون بتطبيق مبدأ الاختيار بشكل عام. أضف إلى ذلك أن أبا بكر بن أفلح لم تكن فيه من الشدة في دينه مقارنة بالأئمة السابقين له⁴⁹⁴.

وما يمكن ملاحظته أن الرستميين تخلوا عن مبدأ هام وهو الشورى. وتحولت الإمامة إلى ملك يتوارثه الآباء. ويعد ذلك خرقاً صارخاً لأهم مبدأ نادى به الإيباضية منذ خلافة علي بن أبي طالب. وأصبح مجرد شعار يستغل ليلتف حولهم الموالي والمستضعفين. ونعتقد أن كل الثورات والفتن التي عرفت تيهرت ما هي إلا تعبيراً عن رفض الرعية

486 - ينظر: الأزهاري. ص 44.

487 - ابن الصغير: المصدر السابق. ص 54.

488 - نفسه. ص 64-65.

489 - نفسه. ص 97-98: الباروني: الأزهاري. ص 304.

490 - الدرجيني: طبقات المشائخ. ج 1. ص 83.

491 - ابن الصغير: المصدر السابق. ص 92-93.

492 - السابق. ص 44-45.

493 - نفسه. ص 70-71.

494 - نفسه. ص 71.

لهذه الممارسات. ولعل يزيد بن فنين هو أول من تفتن لهذه المسألة عندما تولى عبد الوهاب الإمامة. فأنكر إمامة عبد الوهاب باعتبارها لا تجوز شرعا. ويعبر سكوت البقية عن هذا الخرق وانضمامهم إلى الأئمة تراجعاً كبيراً عن مبادئ المذهب الإباضي التي ناضل من أجلها أبي عبيدة مسلم. وعبد الله بن أباض، وأبي حمزة الشاري. وعبد الله بن طالب الحق. وغيرهم. واتخذت القبائل الإباضية هذا الخرق قاعدة لها في تعيين العمال. وسنرى بأن النفوسيين أنفسهم حصروا ولاية الأقاليم والمدن في الجبل في أسر معينة. وما نلاحظه كذلك هو أنه إذا كان التيهريون اختاروا عبد الرحمن لتولي الإمامة نظراً لعدم وجود عصبية قومية، ويسهل تحييته إذا حاد عن الطريق المستقيم. فإن الأئمة الذين تولوا بعده اعتمدوا أساساً على العصبية للحفاظ على الحكم. وكانت نفوسة إحدى العصبية القوية التي استعان بها الأئمة في الاحتفاظ بالحكم. ونلاحظ كذلك انتشار مظاهر الفساد والجور في البيت الرستمي نفسه. وفي مصالح الدولة. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن الإباضية في تيهرت تحولوا بعد مدة زمنية إلى أقلية. خاصة بعد هجرة العديد من المسلمين إليها. وأصبحت الأقلية هي التي تحكم الأغلبية وتفرض عليهم مبادئها السياسية والدينية. وتحول المجتمع التيهري إلى فسيفساء يتشكل من المالكية. والواصلية. والصفورية. والشيعية. والمسيحية من العرب. والبربر. والعجم. وبذلك استحال التعايش بين مختلف القبائل. ومختلف المذاهب. والطوائف.

ونشير في الأخير إلى أن نفوسة وقفت إلى جانب الأئمة في حروبهم مع مختلف القبائل. فشارك أبو بكر في القضاء على العصيان الذي ترتب عن مقتل محمد بن عرفة. وانضمت إلى أبي حاتم يوسف في صراعه مع أخيه يعقوب بن أفلاح. ولذلك فقد حظيت نفوسة باهتمام الأئمة لما كان لها من فضل في انتشار المذهب. وفي إقامة إمامة الظهور. سواء في منطقة طرابلس. أو في المغرب الأوسط. كما كان لها الفضل في الدفاع عن المذهب بواسطة علمائها وشيوخها.

4 - نفوسة وتولي المناصب في الدولة:

كان القضاء من المناصب التي استحوذت عليها نفوسة. فكانت هي التي تشرف على تعيينهم. فقد ذكر ابن الصغير في حديثه عن إمامة أفلاح بأنها كانت تلي عقد تقديم القضاة⁴⁹⁵. ويفهم من هذا أنه في حالة عدم تعيين القضاة منها فقبولهم مشروط بموافقتها. فمثلاً عندما أراد أبو اليقظان أن يختار قاض شاور جماعة منها

495 - المصدر السابق. ص 63.

فأبدوا موافقتهم عندما اقترح أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ⁴⁹⁶. كما أن أفلاح شاور الشراة في اختيار من يوليه القضاء. والشراة هم فئة تتكون من شيوخ المذهب. ومن مشائخ تاهرت سواء من الإباضية أو من غير الإباضية. وكانت نفوسة مثلاً بقوة في هذه الفئة. وتذكر المصادر أن الشراة اختاروا محكم الهواري لتولي هذا المنصب. رغم تحفظ الإمام قائلا: «ويحكم دعوتهم إلى رجل وصفتهم في ورعه ودينه ولكن هو رجل نشأ في بادية ولا يعرف لذي القدر قدره ولا لذي الشرف شرفه»⁴⁹⁷. وتم استدعاء محكم من جبل أوراس. وتولى هذا المنصب وحكم بالعدل فلم يميز بين أبي العباس أخ أفلاح. وبين خصمه عندما مثلاً أمامه للحكم في نزاع حول قطعة أرضية. وقد أعجب بذلك وجوه الإباضية وسروا بعدالته⁴⁹⁸. وهذا يدل على أن القاضي كان يتمتع باستقلالية في فض النزاعات. فلم يكن الأئمة يتدخلون في عمل القضاء. فعلى الرغم من أن أبا العباس اشتكى إلى أخيه من معاملة محكم الهواري له إلا أن هذا الأخير أقر بأن ما فعله هو الصواب. والحق أولى من أن يؤثر⁴⁹⁹.

كما تولت نفوسة الإشراف على بيت المال. فالمصادر تذكر أن أبا اليقظان ولى على بيت ماله رجلاً من نفوسة. كما تولت مهمة الاحتساب وإنكار المنكر في الأسواق. وسخرت نفسها لإصلاح هذه الأسواق. وقمع الفساد الذين استغلوا فترة الحرب الأهلية فأفسدوا وأضرروا⁵⁰⁰. وقد أمر أبو اليقظان أهل الحسبة بالمشي في الأسواق. فإن رأوا قصاباً ينفخ في شاة عاقبوه. وإن رأوا إنساناً حمل دابته أكثر مما تطيق أنزلوا حملها وخفقوا عنها. وإن رأوا أوساخاً طلبوا من صاحب المكان أن يكتسبه. وكانوا لا يمنعون أحداً من الصلاة في مساجدهم. ولو رأوه رافعا يديه ما عدا المسجد الجامع فإنهم يمنعون من يرفع يديه في الصلاة⁵⁰¹. ونلاحظ أن نفوسة كانت تتولى المناصب الحساسة في الدولة لثقة الأئمة في رجالها وتبجيلهم عن بقية رجال القبائل الأخرى. ولذلك فإننا نشاطر سعد زغلول الرأي حين قال بأن اختيار صاحب بيت المال كان محدداً في نفوسة أو مشروطاً بموافقتها⁵⁰².

496 - نفسه. ص 88.

497 - السابق. ص 57-58.

498 - نفسه. ص 60: الشماخي: السير. ص 195.

499 - نفسه. ص 61.

500 - نفسه. ص 88: الشماخي: المصدر السابق. ص 221.

501 - ابن الصغير: المصدر نفسه والصفحة ذاتها: الباروني: الأزهار. ص 298.

502 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج 2. ص 366.

الباب الثالث

جبل نفوسة بين ثلاث قوى

الفاطميون - الزيرون - الهالليون

442-296هـ (909-1053م)

الفصل الأول

جبل نفوسة والخلافة الفاطمية.

1 - النظام السياسي في الجبل بعد سقوط إمارة الظهور.

أ - الرئاسة العامة.

ب - مقدمي النواحي.

2 - الحروب الأهلية.

3 - الهجرة النفوسية إلى إفريقية والمغرب الأوسط.

4 - قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب وموقف الإباضية منها.

5 - الانتفاضات الإباضية:

أ - ثورة طرابلس (300هـ/912م).

ب - ثورة نفوسة (310هـ/922م).

ج - ثورة النكارية (322هـ/933م).

د - ثورة الوهبية (358هـ/968م).

1 - النظام السياسي في الجبل بعد سقوط إمامة الظهور:

رأينا في الفصول السابقة أن قوة نفوسة كانت كبيرة. وأن المذهب قام بسيوفها ولكن هذه القوة لم تعمر طويلا لأنها تعرضت لأكبر هزيمة على يد الأغالبة في موقعة مانو الشهيرة سنة 283هـ (896م) وعجزت على إنقاذ الإمامة التي كانت تحتضر. خاصة مع تفاقم الصراع الأسري حول السلطة. ونجاح الدعوة الشيعية في بلاد المغرب. فعندما استطاع أبو عبد الله الشيعي دخول تاهرت سنة 296هـ (909م) دون قتال خرج يعقوب بن أفلح مع أهله وجمع غفير من التيهريين متجهين إلى وارجلان خوفا من بطش الشيعي. ويبدو أن رفقاء يعقوب كانوا كثيرين حتى إنه ولد لهم في الطريق في ليلة واحدة سبعة ذكرا عدا البنات⁵⁰³.

ويبدو كذلك أن عددا غير قليل منهم فضل البقاء في المدينة على الرغم من أن المصادر الجغرافية تتحدث عن ازدحام بعض المناطق بالإباضية خاصة منطقة الزاب وجبل أوراس. فابن سعيد يشير إلى أن معظم سكان أوراس كانوا من لواتة الإباضية⁵⁰⁴. كما تضاعف عدد الفارين إلى الزاب. وقسطنطيلية. وقفصة. وبشرة. وسوماطة في منطقة نفزاوة. والتجأ بعضهم الآخر إلى جبل نفوسة. وجزيرة جربة⁵⁰⁵. كما زادت أعدادهم في مدينة باغاية. فالبكري يذكر أن سكانها من مزاتة. وضريسة كلهم إباضية. كانوا يضرعون في الشتاء إلى الصحراء حيث لا توجد الأمطار خوفا على نتاج إبلهم⁵⁰⁶.

ولاشك أن حركة الهجرة من تاهرت كانت كبيرة. حتى وإن لم تكن دفعة واحدة نظرا للظروف الصعبة التي مرت بها المدينة بعد وقوعها في يد الشيعة. وقد عبر عن تلك الظروف ابن حوقل بقوله: «تغيرت تاهرت عما كانت عليه. وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا - (توفي في القرن 4 الهجري) - فقراء بتواتر الفتن عليهم. ودوام

503 - الشماخي: السير. ص365 وما بعدها؛ حمو محمد عيسى النوري: دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا. دار الكروان. باريس. 1984. ج1. ص107.

504 - ينظر: كتاب الجغرافية. ص144.

505 - ابن حوقل: صورة الأرض. ص93؛ موسى لقبال: دور كتامة في قيام الخلافة الفاطمية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ط1. الجزائر. 1979. ص348؛ موسى لقبال: من قضايا التاريخ الرستمي. مجلة الأصالة. منشورات وزارة الشؤون الدينية. الجزائر. 1977. عدد41. ص57.

506 - ينظر: المغرب. ص144-145.

القحط. وكثرة القتل والموت»⁵⁰⁷. وكانت بالأمس القريب مدينة جليلة المقدار. عظيمة الخيرات. حتى سميت «عراق المغرب»⁵⁰⁸.

وبما لا شك فيه كذلك أن جزءاً مهماً من الجالية النفوسية فيها قد غادرتها هي الأخرى مثل كل إباضية المدينة. فمنهم من رحل إلى وارجلان مع آخر الأئمة. ومنهم من التجأ إلى جبل نفوسة. خاصة وأنه يتوفر على كل أشكال الحماية من مناعة وصعوبة في المسالك بعيداً عن ضغوط الشيعة المذهبية.

ومهما يكن من أمر. فإن يعقوب بن أفلح قد رفض رفضاً قاطعاً إحياء الإمامة المندثرة بطلب من سكان وارجلان قائلاً لهم: «لا يستتر الجمل بالغنم»* معبراً عن الضعف الذي حل بأهل الدعوة. وبذلك انتقل الإباضية من إمامة الظهور⁵⁰⁹ إلى إمامة الكتمان⁵¹⁰. وأصبحت الجماعات الإباضية تعيش لأول مرة دون كيان سياسي يحميهم. ويلم شملهم. إذ حل الحكام المحليون محل الإمامة ودخل الإباضية مرة أخرى في مرحلة الستر والكتمان. خاصة في مدن المغرب الأوسط.

وعلى الرغم من سقوط دولتهم إلا أن ذلك لم يقض على النفوذ الإباضي في بلاد المغرب. بل ظل جبل نفوسة معقلاً رئيسياً للإباضية. حيث تمكن أهل الدعوة فيه من الحفاظ على استقلاليتهم مدة طويلة من الزمن. وأصبحت الرابطة المذهبية والثقافية هي الرابط الوحيد بين التجمعات الإباضية في كل مكان. وسنحاول في هذا المضمون أن نتناول النظام السياسي في الجبل من خلال المعلومات المتوفرة في المصادر. هذه المصادر التي تشير إلى أن النفوسيين أمروا عليهم في كل تجمع رجلاً سموه (حاكم) أو (سيد) أو (مقدم). وكان هؤلاء بمثابة حكام يعوضون الأئمة. لهم كافة صلاحيات الإمام السياسية، والإدارية، والاقتصادية.⁵¹¹ هذا من جهة. ومن جهة أخرى فقد كانوا في الوقت

507 - ينظر: صورة الأرض. ص 93.

508 - اليعقوبي: صفة المغرب. ص 14.

* وفي رواية أخرى «لا يستتر الجمل خلف الغنم».

509 - هي الإمامة الكبرى العلنية. ويشترط في إقامة هذه الإمامة أن يكون للإباضية عدة وقوة في المال والعلم بدين الله مثل الدولة الرستمية. ينظر: أبو عمار عبد الكافي: الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المقال في الرد على أهل الخلاف. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1978. ج 2. ص 236.

510 - أي الحفاظ على الدين دون إعلانه حتى لا يمنع تطبيقه مثلما كان حال شيوخ الإباضية الأوائل أمثال جابر بن زيد وأبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة. ينظر: الجناوني: عقيدة التوحيد نشرت ضمن:

Extrait du Bulletin d'études orientales, 1980, T3233-, p49.

511 - كان الإمام الرستمي يتمسك بالسلطة التامة. فهو أمير المؤمنين والقائد الأعلى للجيش والقاضي الأكبر والعالم بالعقيدة والتوحيد والمحتسب. ورغم سعة السلطة التي تمتع بها فإنه لا يمكن له أن يطبق سياسة إلا على أساس امتثاله لما جاء في القرآن والسنة. وإذا خرج عنها فإن الفقهاء والعلماء المعترف بكفاءتهم بين أهل

نفسه قضاة يحكمون بين المتخاصمين وفق المذهب الإباضي. كما حملوا على عاتقهم مسؤولية تنظيم الحلقات العلمية وتدريس التلاميذ فمعظم الحكام الذين أفادتنا المصادر بسيرهم كانوا من أهل العلم. وبتعبيرها «أصحاب القلنسوات».

والإشكالية التي نواجهها في دراسة النظام السياسي في الجبل هي أن مصادرنا الرئيسية لا تعطينا قائمة متسلسلة تاريخياً للحكام. بل تكتفي بالحديث عن سيرهم وحلقاتهم العلمية. أما طبيعة النظام السياسي في الجبل فيمكن في أن النفوسيين يعينون رجلاً يشرف على تسيير شؤون الجبل ويتخذ في الغالب مدينة جادو مركزاً له. وتكون رئاسته شاملة. أما المدن والقرى الأخرى. فكان يشرف عليها مقدم أو سيد يعين في أغلب الأحيان من قبل الرئاسة في جادو. ويكون بمثابة مقدم محلي يساعد الرئاسة العامة في تسيير شؤون مدينته. وتدخل في هذا التعيين اعتبارات قبلية وعلمية.

أ - الرئاسة العامة:

إن أول من تولى رئاسة أهل الدعوة في الجبل هو أبو محمد عبد الله بن الخير. نصب مباشرة بعد هزيمة نفوسة أمام الأغالبة في مانو. وكان من العلماء القلائل الناجين من هذه المعركة. إذ لم يبق من علمائها سوى أبي القاسم البغطوري. وعبد الله بن الخير اللذين توليا الفتيا في نوازل أهل الجبل. ولولاهما لعطلت إلى يوم القيامة على حد قول أبي زكريا⁵¹². والحقيقة أن أبا القاسم كان هو المفتي بينما كان عبد الله يشرف على ولاية الجبل. وعلى الرغم من تقدم الأول في السن إلا أنه كان يسير كل ليلة من «ويغو» إلى «بغطورة»⁵¹³ لكثرة النوازل. وقد قيل إنه جلس للإفتاء بعد مانو ثلاثة أيام بلياليها. وقيل يوماً وليلة⁵¹⁴. وهذا دليل على ندرة العلماء في الجبل في هذه الفترة. ويبدو أن المفتي كان مساعداً رئيسياً للرئاسة. ولذلك كان يختار من العلماء الأكفاء المعترف بأهليتهم في هذا الميدان بين أهل الدعوة.

تصنف المصادر عبد الله بن الخير ضمن علماء الطبقة الخامسة (200-250 هـ). تولى الرئاسة باتفاق أهل الحل والعقد. نشأ في قرية «تين زيرف»⁵¹⁵. وفيها تعلم مبادئ الدين ثم

الدعوة هم الذين يقررون عدم أهليته للقيام بالحكم فيعزل. ينظر: محمد ولد دادة: مفهوم الملك في المغرب. دار الكتاب اللبناني. ط 1. بيروت. 1977. ص 27.

512 - ينظر: كتاب السيرة. ص 154.

513 - ذكرتها المصادر بأسماء عديدة: بغطورة بقطورة بغطورة. وهي قرية تقع قرب الجزيرة المشهورة التي تطل على وادي شروس. وهي لا تبعد كثيراً عن دركل ودجي وزعرارة وويغو. ينظر: معمر: الإباضية في ليبيا. ص 184.

514 - الشماخي: السير. ص 235.

515 - تقع هذه البلدة على قمة جبل يطل على واد يفصل بينها وبين (تميجار) أولاد بوجديد اليوم في منطقة

انتقل إلى حلقة العلامة أبي ذر أبان بن وسيم. وفيها تخرج وأصبح عالما فاضلا، مما جعل سكان الجبل يقدمونه للصلاة، والمعروف أن أبا ذر كان واليا بالجبل ممثلا للإمامة الرستمية في عهد أبي اليقظان بن أفلح (261-281هـ) (874-894م). تولى عبد الله ولاية الجبل مباشرة بعد وفاة أفلح بن عباس. وقد عمر طويلا إذ توفي عن عمر يناهز مائة وعشرين سنة⁵¹⁶. فقد كان على قيد الحياة سنة 310هـ (922م) عندما حاصر الفاطميون قرية «الجزيرة» الواقعة في الناحية الغربية للجبل. وظل أبو عبد الله يحتفظ بمقامه العالي والمرموق بين أهل الدعوة رغم أن مقاليد الولاية انتقلت إلى أبي يحيى زكريا الأرجاني. ويرى ليفيسكي أن أبا محمد لم يتول الولاية مباشرة بعد «مانو» - أي بعد سنة 283هـ (896م) - لأن الوالي وقتها كان أفلح بن العباس. فهو الذي قاد قوات نفوسة. ولكن بعد عودة من تبقى من فلول الجيش عزل لأن أصحابه حملوه مسؤولية الهزيمة. وعينوا مكانه ابن عمه. ولا تذكر المصادر اسم هذا الأخير. وتكتفي فقط بالقول بأنه عزل هو الآخر بعد ثلاثة أشهر. لأنه لم يحسن السيرة. فرجع الناس مرة أخرى إلى أفلح وولوه أمورهم. ويرجح ليفيسكي أن تعيينه كان بعد وقت قصير من الواقعة - أي بين سنتي 285هـ (898م) و290هـ (902م) - واستمر في السلطة إلى ما بعد سنة 310هـ (922م)⁵¹⁷.

وسار أبو محمد سيرة حسنة في أهل الدعوة. وعمر كثيرا حتى غلب عليه الكبر. وأصبح يجهر بصوته في القراءة السرية في الصلاة. واضطر إلى القدوم إلى منزل أبي القاسم ليعاونه في تسير شؤون الناس⁵¹⁸.

ونظرا لتقدمه في السن أوكل قيادة جيش نفوسة إلى أبي يحيى زكريا الأرجاني عندما حاصر الفاطميون الجبل سنة 310هـ (922م). ولا يعرف على وجه التحديد متى توفي عبد الله. ومتى تولى أبو يحيى زكريا السلطة. ومن المحتمل جدا أنه تولى الرئاسة بعد سنة 310هـ (292م) لأن المصادر تشير إلى أن اختياره لهذا المنصب كان بعد إمامة أبي حاتم يوسف (281-294هـ) (894-906م)⁵¹⁹.

ومهما يكن من أمر فإن أبا يحيى تولى ولاية الجبل باتفاق أهل الشورى، بايعوه إمام دفاع وليس مجرد مسير لشؤونهم. ذلك أن الخطر الشيعي ظل يهدد وجودهم. واستقلالهم.

الرحيبات الحالية عند وادي الرومية. ينظر: معمر: المرجع نفسه. ص 147.

516- الشماخي: المصدر السابق. ص 237؛ معمر: المرجع نفسه. ص 147-149.

517 - T. Lewicki : Les Hakims Et Les Mukaddams Du Gabal Nafusa Au Moyen Age, Rocznik Orientalistyczny Warazawa, 1962, T 26 (2eme Episode), p99100-.

518- الشماخي: المصدر السابق. ص 237-238؛ معمر: المرجع السابق. ص 149-150-518.

519 - T. Lewicki : Les Hakims, p100.

ولذلك فإننا نلاحظ بأنه هذه المرة هي المرة الأولى التي يحمل فيها زعيم إباضي اسم «إمام» بعد سقوط الدولة الرستمية. فالشماخي يسميه: «القاضي العادل العالم الكامل الإمام الفاضل». وما يجب الإشارة إليه هو أن لقب الإمام تطلقه المصادر على من تولى السلطة فقط. لأن الشماخي يقول: «قدمه (قدمته) نفوسة حاكما أو إماما مدافعا»⁵²⁰. ومعنى ذلك أن إمامته هي إمامة دفاع. وهي لا تختلف عن إمامة أبي حاتم المزوزي.

كان أبو يحيى ينتقل يوميا من «أرجان»⁵²¹ إلى جادو حاضرة الجبل لممارسة مهامه ويعود إليها في آخر النهار. ولم يفكر في الاستقرار في جادو رغم أن هذا التنقل اليومي قد أنهكه حتى إنه يضطر للاستراحة في الطريق العديد من المرات من كثرة التعب والضعف رغم أن المسافة غير بعيدة⁵²².

ودام حكمه قرابة الخمسة عشر سنة. اعترضته خلالها عدة متاعب داخلية وخارجية. ففي فترة حكمه وقعت حرب أهلية بين بني زمور. وسكان بلدة «طرميسة»⁵²³. راح ضحيتها العديد من رجال هذه الأخيرة. وإذا كنا نجمل أسباب ودوافع هذه الحرب إلا أنه يمكن إرجاعها - على الأرجح - إلى تفشي الصراع القبلي والخلافات المذهبية. خاصة وأن الجبل شهد مختلف الطوائف من نكارية. وخلفية. ونفاثية. وربما السكاكية⁵²⁴. أما المتاعب الخارجية فتتمثل في الحملة التي شنّها الفاطميون - كما سنرى - على الجبل⁵²⁵.

وتشيد المصادر الإباضية بعدالته وورعه. فقد أهدها يهود «جادو» أربعين دينار بمناسبة

520 - ينظر: المصدر السابق. ص 243.

521 - هي قرية تقع في الجهة الشرقية من الجبل على ضفاف وادي الزرقاء. اشتهرت هذه البلدة بكثرة العلماء مثل زورغ الأرجانية. أبو الخير الأرجاني. وغيرهم. ينظر: معمر: الإباضية في ليبيا. ص 199؛ R. Basset: Les sanctuaires, p395.

522 - البغطوري: سير نفوسة. و65: الشماخي: المصدر السابق. ص 244.

523 - هي بلدة تقع على بعد أربعة أميال من «إجناون» بنيت فوق قمة جبل. وحفرت حولها خنادق. فلا يمكن العبور إليها إلا على معابر توضع في النهار وتزاح بالليل. ينظر: معمر: المرجع السابق. ص 20.

524 - تنسب الفرقة إلى رجل من قنطرة اسمه عبد الله ويكنى بأبى الله واشتهر بلقب «السكاك» تعلم فنيغ في العلم وكانت له آراؤه الخاصة التي خالف فيها أهل المذهب وهي: 1- أنكر السنة والإجماع والقياس.

2 - اعتبر صلاة الجماعة والأذان بدعة.

3 - لا يجوز الصلاة إلا بما عرف تفسيره من القرآن.

4 - لا يجوز الصلاة بثوب فيه القمل.

للمزيد من التفاصيل عن هذه الفرقة: ينظر: الدرجيني: طبقات المشائخ. ج 1. ص 118-119؛ المارغني: فرق الإباضية الست. ص 59؛ معمر: أضواء على الإباضية. المطابع العالمية روى. سلطنة عمان (د.ت). ص 31؛ يحيى هويدي: تاريخ فلسفة الإسلام. ج 1. ص 48؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج 2. ص 402-403.

525 - الشماخي: السير. ص 243. T. Lewicki : Les Hakims, p100.

ميلاد صبي له. ولكنه رفضها لأنه لا يقبل الهدايا وخاصة وأنه في هذا المنصب قائلاً لهم: «لو قدرت أن أصونكم لأخذت منكم أكثر من هذا. يقصد الجزية». فتعجبوا من ورعه حتى قال قائلهم: «ما رأينا مثل هذه البلاد بلدة لا يأخذ سلطانها. ولا يطمع في أموال الناس»⁵²⁶.

ورغم إشادة يهود جادو بعدله. إلا أن هناك من إخوانه من كان غير راض على سيرته. حيث تمكن أحد الجند من بلدة تسمى «تين بكر» من قتله. متهماً إياه بالظلم عندما خرج لقتال الفاطميين في «تيرقت»⁵²⁷.

وبعد مقتل أبي يحيى اجتمع رأي المشائخ على تولية أبي عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس التندميرتي. وذلك سنة 325هـ (936م). ولم يدم حكمه طويلاً حتى عزل من غير حدث⁵²⁸. ربما لم يحسن السيرة وربما لأسباب أخرى جهلها. وعوض بأبي زكريا بن أبي يحيى الأرجاني لكفاءته وقدرته على مواجهة الأحداث. ولم يدم حكمه هو الآخر إذ اغتيل مثل أبيه اغتاله رجل من «طرميسة» عندما كان عائداً من قتال الشيعة. وهنا تختلف الروايات حول خليفته من بعده. فإذا كان البغطوري يذكر بأنه بعد عودة نفوسة رجع مشائخها إلى أبي عبد الله بن أبي عمرو وطلبوا منه الرجوع في الأمور وقبل ذلك بدليل أنه قال لهم: «لولا أنني خفت أن أكون كمن قتل نفوسة مرة أخرى لم أرجع في أموركم أبداً»⁵²⁹. فإن الشماخي يذكر أن أبا زكريا قبيل وفاته اقترح عليهم «زيد بن أفصيت» المعروف بأبي محمد الدرفي⁵³⁰ في حين يرى ليفيسكي أن أبا عبد الله بن أبي عمرو عين مرة أخرى ودامت ولايته طويلاً إلى غاية منتصف القرن الرابع الهجري (10م)⁵³¹. وهو الشيء الذي أكدته أبو زكريا حين تحدث عن مقتل أبي القاسم يزيد بن مخلد. ذلك أنه لما أرسل أباضية إفريقية أبا نوح سعيد بن زنگيل لاستنفار نفوسة. وكان شيخهم ومن ترفع إليه من الأمور أبا عبد الله بن أبي عمرو⁵³² ويحتمل أن قدومه إلى الجبل كان سنة 355هـ (965م)⁵³³.

526- البغطوري: سير نفوسة. و64: معمر: الإباضية في ليبيا. ص152-153.

527 - معمر: المرجع نفسه. ص154.

T. Lewicki : op. Cit, p101.

528- البغطوري: المصدر السابق. و22: الشماخي: السير. ص244.

529 - البغطوري: المصدر نفسه والورقة ذاتها.

530 - ينظر: المصدر السابق. ص244

531 - ينظر: Les Hakims, p102.

532 - ينظر: كتاب السيرة. ص201.

533- T. Lewicki :op. cit, p102.

والمؤكد أن أبا محمد الدرفي تولى السلطة في الجبل وتولى بعده ابنه أبو يحيى. ولكن ولايتهما كانت على أهل جادو فقط. ولم تشمل الجبل كله كما أوصاهم أبو زكريا⁵³⁴. اتخذ أبو عبد الله مدينة جادو مركزاً للولاية حتى إن منزله - الذي كان يدير منه دفة الحكم - أصبح مشهوراً في الجبل. فالإباضية يسمونه «دار بني عبد الله» وتكمن شهرته في أنه كان مجلساً وملتقى للمشائخ. وقد عايش أبو عبد الله أحداثاً ساخنة كثورة النكار بزعامة أبي يزيد. رغم أن الوهبية كانوا غير معنيين بها حسب ما روته المصادر. كما شهد التحضير لثورة الوهبية فهو الذي وعد أبا نوح بإمداده بفرق من الجند رغم ضعف نفوسة وانكسارها بعد مانو. ولا نعرف بالضبط متى توفي لأنه مباشرة بعد انهزام الوهبية توجه أبو خزر إلى الجبل. وكان الوالي وقتها أبو زكريا عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس. فقد كان هذا الأخير «القائم على شأن أبي خزر والحافظ له»⁵³⁵ ويمكن تحديد تاريخ وفاته بين سنتي 355هـ (965م) و358هـ (968م).

تولى أبو زكريا السلطة باتفاق المشائخ. ودام حكمه ستين سنة وقيل سبعين. فإذا كان تعيينه قد تم بأشهر قليلة قبيل هزيمة الوهبية. فمعنى هذا أن حكمه دام إلى غاية سنة 418 هـ (1027م) أو (1036م)⁵³⁶. عرف أبو زكريا - كغيره من الولاة - بغزارة علمه ورغم ذلك كان يستعين بأبي محمد الكباوي. وأبي يحيى الفرستائي حتى إنه كان يحكم بما اتفقا عليه. وكان لا يتوانى في ملاحقة الجناة في مختلف حواضر الجبل. فقد قيل له إن أحدهم في «إجناون» فتوجه إليه صبيحة العيد. وطلب من عزابته تسليمه لحبسه في جادو. وسمع بآخر في بلدة «ويفات»⁵³⁷ فألقى عليه القبض ونفذ فيه حكم الشرع⁵³⁸. ولا نستغرب إذا أنشاد البغطوري بتقواه وحزمه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله: «لا ينام كل ليلة حتى يميز نفوسة كلها قويعهم وضعيفهم. ومن فيه الحق ومن لم يكن فيه الحق. وذلك من كثرة خوفه من التقصير»⁵³⁹.

حاول في العديد من المرات التخلص من هذا العبء. لكن المشائخ رفضوا فهو الذي جنبهم سيوف الفاطميين وبني زيري - كما سنرى فيما بعد - بحنكته السياسية. وظل على هذه السيرة إلى أن اشتد عليه المرض. فلما سألته المشائخ رأيه فيمن يولونه أمورهم اقترح عليهم أحد الثلاثة: أبو زكريا اللالوتي. أبو يعقوب البغطوري. أو أبو داود

534 - الشماخي: السير. ص285.

535 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص231.

536 - T. Lewicki : Les Hakims, p103.

537 - هي قرية تبعد عن جادو بعشرة أميال.

538 - الشماخي: السير. ص319: معمر: الإباضية في ليبيا. ص182.

539- ينظر: سير نفوسة. و22.

عن مركز ولايته بسبع أو بثمان مراحل إلا أنه صمم على قتال أهلها رغم معارضة المشائخ له. وتمكن من إلحاق الهزيمة بالغدامسيين وإصلاح الفساد⁵⁴⁵.

ولا نعلم هل غدامس كانت تابعة للجبل تبعية سياسية أم روحية ؟ أم إن تأديب أهلها يدخل في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ ويحتمل أن هذا الأخير هو الأرجح لأن المشائخ اتفق رأيهم - كما مر بنا - على رده وعدم تركه يواصل تلك المغامرة. فقد أودت فعلا بحياته رغم الانتصار الذي حققه. ويرى ليفيسكي أن سكان غدامس هم الذين طلبوا المساعدة من نفوسة باعتبار أن سكانها من المذهب نفسه⁵⁴⁶. ويحتمل كذلك أن هذا الفساد الذي تحدث عنه المصادر هو من صنع قبائل بني هلال. لأن أبا الفضل عايش هجرتهم إلى بلاد المغرب وما صاحبها من تخريب وغارات على أملاك الناس.

وبعد مقتله اتفق أهل الحل والعقد على تولية أبي زكريا يحيى بن إبراهيم الباروني النفوسي وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (11م). وتواصل تعيين الشيوخ على ولاية الجبل بعد الفترة التي نؤرخ لها. مثل أبي هارون موسى بن هارون الذي نقل مركز السلطة من «جادو» إلى «إبناين»، وأبي الربيع سليمان بن أبي هارون، وأبي يحيى بن ماطوس وغيرهم.

وما يمكن ملاحظته من خلال ما مر أن رئاسة الجبل لم تقتصر على شيوخ من جهة ما. بل تولاها كل من رأى فيه النفوسيون الكفاءة. فقد تولاها شيوخ من أدرف. إرجان. شروس. بغطورة. تندميرة. لالوت. كما أن مركز الرئاسة كان تارة في جادو. وتارة في شروس. وأخرى في «إبناين». وكان بالإمكان أن يرتقى مقدم بلدة ما إلى رئاسة الجبل كله مثلما حدث مع مقدم بني زمر. وما يجب الإشارة إليه هو أن سكان الجبل حافظوا على مبدأ الوراثة في تداول السلطة في أغلب الأحيان. وفي الأخير نقول بأن النفوسيين اكتفوا في هذه المرحلة بحكم خاص بهم حيث يجتمع أهل الحل والعقد فيختارون أكفأهم. وتكون صلاحيات رئيس أهل الدعوة سارية على جميع إباضية الجبل والمناطق التابعة له. وقد مر بنا أن الوالي سير الجيوش. وحارب الآفات الاجتماعية وحبس الجناة. وفض النزاعات. واتخذ مساعدين له من العلماء والأعيان. ولا نعلم إن كان هناك بيت للمال ؟ فالمصادر لا تعطينا معلومات عن مؤسسات الولاية. وإذا كنا قد ذكرنا سابقا بأن المصادر أوردت لنا مجموعة من المصطلحات مثل (حاكم). (إمام). (مقدم). (أمير) فإن الوسياني يردد كثيرا عبارة «رئيس أهل الدعوة»⁵⁴⁷ وإذا كان أهل الدعوة كذلك قد سهروا طيلة حياتهم على

545- المصدر نفسه. ص275: معمر: المرجع السابق. ص169-170.

546- Les hakims, p105106: ينظر - 546

547 - ينظر: السير. ج2. و31.

سليمان الدرقي. ولكن نفوسة رفضت الأول لبعد منزله. ورفضت الثاني لأنها تأبى أن تتقدم قبيلته. فعين لهم ابنه أبا موسى عيسى بشرط أن ينال تزكية أبي داود سليمان الدرقي. مقدم بني زمر. أهم قبيلة إباضية وهبية في الجزء الشرقي من الجبل. وعندما علم أبو داود بالوصية عمل كل ما في وسعه لتنفيذها⁵⁴⁰.

ولما كان أبو زكريا يحتضر أراد المشائخ نقله على محمل إلى «تندميرة»⁵⁴¹ مسقط رأسه ليُدفن هناك. ولكنه توفي في الطريق في موقع يسمى «تمزدة» فدفن فيه⁵⁴² وتولى الولاية بعده ابنه موسى عيسى باتفاق أولي الأمر. ولا نعرف الكثير عن فترة ولايته. ويبدو أنها كانت قصيرة إذ آلت إلى أبي سليمان التندميرتي. ومنه إلى أبي عمرو ميمون بن محمد الشروسي. الذي تصنفه المصادر ضمن الطبقة الثامنة (350-400هـ) (961-1009م). فقد كان هذا الأخير معاصرا للأمير المعز بن باديس (406-453هـ) (1015-1061م). اتخذ مدينة شروس - مسقط رأسه - مقرا للولاية. عرف بشدته في الأمر والنهي. وبمحاربة الآفات الاجتماعية. فقد انتقل إلى «الفحص وهو موضع يبعد عن شروس بستة أميال ليقيم الحد على جماعة بلغه أنهم يشربون الخمر. فلما أمسك بهم كسر آنياتهم وأراق شرابهم. وأحضر أحدهم موثقا فحبسه في منزله حتى يبت المشائخ في أمره. وقد حاول الجاني اغتياله لكن المحاولة باءت بالفشل⁵⁴³. وتجدر الإشارة إلى أنه يفهم من حديث الشماخي بأن الوالي وقتئذ كان غيره. لأنه عندما حمل المشائخ الجاني إلى الوالي قال هذا الأخير لأبي عمر: «كدت أن تعمي الإسلام»⁵⁴⁴.

وتولى ولاية الجبل بعد أبي عمرو ميمون أبو الفضل سهل. أحد علماء الطبقة الثامنة حسب تصنيف الدرجيني (350-400هـ) ولا نعرف تاريخ توليته. بل كل ما نعرف انه تولى الرئاسة في ظروف صعبة تتمثل في كثرة الغارات. هذه الغارات التي هددت أمن الجبل واستقراره مما أجبره على تعيين حاميات في كل نواحي الجبل لتحسس الأخبار. كما تذكر المصادر أنه جهز حملة عسكرية توجهت إلى «غدامس» لوقوع فساد فيها. ورغم بعدها

540 - الشماخي: المصدر السابق. ص321: معمر: المرجع السابق. ص185: T. Lewicki : Les Hakims, p102.

541 - هي إحدى المدن المشهورة في الجبل. ينتسب إليها العديد من العلماء والزعماء مثل أبي منصور إلياس وأبي زكريا وغيرهم. عرفت كذلك باسم «تندميرت» و«تندميرت» تقع في الجزء الغربي من الجبل في بلاد الحراية. ينظر: معمر: المرجع نفسه. ص187.

T. Lewicki : Tasmiya Suyuks Nafusa, p103..

542 - الشماخي: المصدر السابق. ص321: معمر: المرجع نفسه. ص185.

543 - الشماخي: المصدر نفسه. ص273: معمر: المرجع نفسه. ص165.

T. Lewicki, Les hakims, p105. R. Basset : Les sanctuaires, p386.

544 - ينظر: المصدر. ص274.

ضرورة الحفاظ على وحدة سكان الجبل تحت رئاسة واحدة. وظلوا ينصبون رؤساء عامين عليهم. فإنهم قد نصبوا كذلك مقدمين على القبائل والمدن.

ب - مقدمي النواحي:

يبدو أن الهدف من تنصيب هؤلاء «المقدمين» هو تخفيف العبء على الوالي العام، ولكنهم كانوا تابعين للسلطة المركزية في جادو أو شروس. وكان هؤلاء تأثير قوي ونفوذ كبير. وقد مر بنا أن أبا زكريا بن أبي عبد الله رشح ابنه عيسى لتولي السلطة بعده بشرط موافقة أبي داود سليمان الدرفي حاكم بني زمرور⁵⁴⁸ وهذا يدل على مدى تأثير زعماء القبائل في القرار الصادر في مركز الرئاسة. كما جدر الإشارة إلى أن «رئيس أهل الدعوة» قد يعين هو شخصيا مقدما لقبيلة من القبائل. فقد روي أن رجلا من بني زمرور طلب من أبي الربيع بن هارون تعيين مقدم منهم⁵⁴⁹.

وتذكر المصادر أن أول مقدم على بني زمرور هو أبو عبد الله محمد بن أبي يعقوب الدرفي، وهو ابن لأبي يحيى يوسف بن أبي محمد زيد بن أفصيت الدرفي مقدم جادو. تولى رئاسة القبيلة مع نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وبداية القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي). وكانت فترة حكمه قصيرة حيث عزل وألت الرئاسة لأخيه أبي داود وتصف المصادر فترة رئاسته بأنها من الفترات الزاهية. وهي الفترة التي تعاصر تولية أبي زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي⁵⁵⁰.

وجاء في المصادر أن نفوسة قد ترفض تولي شخص ما السلطة. فقد حدث ذلك عندما أبا أبو زكريا التندميرتي تعيين أو حتى ترشيح أبي يعقوب البغطوري. بحجة أن نفوسة تأبى أن تتقدم قبيلته⁵⁵¹ ويفهم من ذلك أن الاعتبارات القبلية كانت ضمن المقاييس الهامة في اختيار المقدمين. وكانت نفوسة تميز بين القبائل ذات النفوذ والقوة، والسعة، والسلطان. منذ قيام الدولة الرستمية وما زيارة الإمام عبد الوهاب لمدينتهم «ميري» واستقراره فيها عدة أيام لدليل على ذلك، وخشية المشاكل كانت نفوسة تتجنب الدخول في صدام مع القبائل الكبرى مثل قبيلة مزاتة، التي ينسب إليها أبو 548- بنو زمرور هم أحد فروع قبيلة نفوسة. كانوا يستوطنون جزء من منطقة الرجبان الحالية والتي تقع شرق فساطو.

T. Lewicki, Les hakims, p122.

549 - البغطوري: سير نفوسة، و14.

550 - الشماخي: السير، ص287-288. -T Lewicki, op. cit, p112-113

551- قال له ابن ومار (أي لأبي زكريا) من ترى لنا ولنفسوسة بعدك. قال: ما جراً أن يسألني عن هذا أحد غيرك قال: قد فعلت فأخبرني. قال: أبو زكريا اللالوتي يبلغ مثل ما أبلغ أو أكثر ولكن منزله في الطرف. وأبو يعقوب البغطوري مثل ذلك لكن نفوسة يأبون أن تتقدم قبيلته. ينظر: الشماخي: المصدر نفسه، ص321.

يحي زكريا الأرجاني وأبو مرداس مهاصر. أو قبيلة هواره، ولواتة، وزناتة، وسدراتة، وزواغة. أما القبائل المستضعفة فنذكر منها تناوتة، وزنداجة، وبزمرت، وبعض العرب من معاير اليمن.

وقد يتولى شخص ما السلطة في جادو فقط. وفي بعض الأحيان جادو ونواحيها. حتى وإن كان الوالي العام قد اتخذ المدينة نفسها مقرا له. فقد تولى - مثلا - أبو محمد زيد بن أفصيت الدرفي. ومن بعده ابنه يحيى ولاية مدينة جادو. وقد كان أبو محمد معاصرا لأبي زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي. وهو غير أبو محمد ملي الأيدرفي الذي تحدث عنه الدرجني⁵⁵² لأن هذا الأخير ينتمي إلى الطبقة السادسة (250-300هـ) وكان معاصرا لعمرور بن فتح قاضي أبي منصور إلياس. عامل الإمام أبي القيطان محمد بن أفلح على الجبل⁵⁵³. ولذلك يرى الشماخي بأنه يحتمل أن يكون «ملي» لقباً له. وإما اسماً لشيوخ آخر⁵⁵⁴. وكان أبو محمد الدرفي يملك داراً في سوق جادو تسمى «دار بني عبد الله». وقد اشتهرت هذه الدار حتى إنه دفن أمامها بطلب منه. لأن الشيوخ حملوه وهو مريض يبتغون منزله حتى بلغوا «ماطس» فلما أفاق من غيبوبته طلب منهم إعادته إلى موضع الرباط والجهاد⁵⁵⁵.

وكان لويغو مقدمون محليون منهم أبو عبد الله الويغوي الكبير. وأبو عبد الله الويغوي الصغير. تزعموا البلدة في نهاية القرن الرابع الهجري (10م) أو في بداية القرن الخامس الهجري (11م)⁵⁵⁶. وفي شروس عين أبو الشعثاء بن البغطوري مقدما عليها في زمن رئاسة أبي زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي على الجبل⁵⁵⁷. وكان لفساطو هي الأخرى مقدم يسمى نصر بن أكت. ولي في أواخر القرن 4هـ (10م) أو بداية القرن 5هـ (11م) كان معاصرا لأبي محمد الدرفي مقدم جادو⁵⁵⁸. وفي لالوت (نالوت) تولت مجموعة من الشيوخ أمور أهل الدعوة منهم: أبو عبد الله محمد بن جلداسن اللالوتي النفوسي (الطبقة السابعة 300-350هـ). وإذا كان على يحيى معمر قد ذكر بأنه كان واليا عاما على الجبل⁵⁵⁹ فإن ليفيسكي، وباسيه Basset يريان بأنه كان مقدما على (لالوت) دون

552 - ينظر: طبقات المشائخ، ج2، ص332.

553 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص145.

554 - ينظر: السير، ص284.

555 - المصدر نفسه، ص286. T. Lewicki, les hakims, p110

556 - المرجع السابق: ص326. T. Lewicki, les hakims, p110

557 - نفسه، ص326. Ibid, p110

558 - نفسه، ص2285. Ibid, p11

559 - ينظر: الإباضية في ليبيا، ص177.

غيرها. في إمامة أفلح بن عبد الوهاب (211-258هـ) (823-871م)، وبذلك يصنفانه ضمن طبقة علماء القرن 3هـ (9م)⁵⁶⁰. وهذا ما يؤكده الشماخي ولكنه لا يذكر أنه كان مقدما على لالوت⁵⁶¹. وخلف أبي عبد الله تلميذه أبو زكريا يحيى بن سفيان اللالوتي. وإذ كنا جُهل التاريخ الذي ولي فيه، إلا أننا نعرف أنه عاش في القرن 4هـ (10م) وهذا يسمح لنا كذلك بتحديد فترة حكم سابقه، وهي إما نهاية القرن الثالث الهجري (9م)، أو بداية القرن الرابع الهجري (10م).

وفي «تغرويت»⁵⁶² تداول على تسيير شؤون أهل الدعوة شيوخ منهم: أبو ويسجمن (أبو ويسجيممان) الذي ولي في منتصف القرن 4هـ (10م)⁵⁶³. أما عاصمة الجبل الغربية «شروس» فقد تولى السلطة فيها بعد موقعة مانو أبو يحيى سليمان بن ماطوس الذي يصنف ضمن علماء الطبقة السابعة (300-350هـ). وقد كان هذا الأخير معاصرا لأبي عبد الله محمد بن جلداسن اللالوتي. أما في تغرمين⁵⁶⁴ فلا نعرف أكثر من مقدمين هما أبو محمد عبدة بن زارود التغرميني، وأبو يعقوب التغرميني. اشتهر الأول بالعلم والورع. أما الثاني فهو الذي كلفته نفوسة بحمل ما يدارون به عن الجبل من ضرائب إلى عامل بني زيري. وكان ذلك في فترة رئاسة أبي زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي. ويبدو أن أبا يعقوب كان في البداية مقدما على تغرمين وبني زمرور أيضا. لأن هؤلاء طلبوا منه أن يعين عليهم مقدما منهم فتم لهم ذلك⁵⁶⁵.

ومهما يكن من أمر فإن إياضية جبل نفوسة حافظوا على وحدتهم بتعيين شيوخ على ولاية الجبل لرعاية مصالح أهل الدعوة. وظلت الرئاسة في العديد من المرات تنتقل من الأب إلى الابن، ومحصورة في طبقة معينة من الناس⁵⁶⁶ مع مراعاة مجموعة من

560 - T. Lewicki, op. cit, p109. R. Basset: Les sanctuaires, p373.

561 - ينظر: السير، ص289.

562 - تقع هذه البلدة غرب «لالوت» كانت أهلة بالسكان عرفت بثقلها العلمي حيث كانت من أهم المراكز العلمية بالجبل. فقد عاش فيها سبعون عالما من أصحاب القلنسوات. وكان جل سكانها من قبيلة زناتة. وقد غادروها إلى وارجلان. ينظر: الشماخي: المصدر نفسه، ص296.

563 - المصدر نفس، ص296. T. Lewicki, les hakims, p109.

564 - تعرف كذلك بـ «تاغرمين» تقع على الضفة الشرقية لوادي الآخرة وهي التي أصبحت تعرف اليوم بـ «الزنتان» ينسب إليها أبي يعقوب التغرميني. ينظر: معمر: الإياضية في ليبيا، ص212.

565 - الشماخي: المصدر السابق، ص248-251. T. Lewicki, op.cit, p112.

566 - نلاحظ سيطرة بعض الأسر على الرئاسة في الجبل. فقد انتقلت السلطة من أبي الخطاب عبد الأعلى إلى ابنه السمع. كما انتقلت من أبي منصور إلياس إلى ابنه أبي زكريا ثم إلى حفيده أبي موسى عيسى. وانتقلت السلطة في جادومن أبي محمد الدرفي إلى ابنه يحيى ثم إلى حفيده محمد بن أبي يعقوب. وفي ويغو ظلت السلطة بيد أسرة أبي عبد الله الويغوي.

المقاييس كالكفاءة، والعلم، والعدل، والشدة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بالإضافة إلى ضرورة إجماع القبائل. وما يجب الإشارة إليه في الأخير هو أن الولاة اتخذوا كتابا يساعدونهم في أعمالهم. فالمصادر تذكر أن أبا عبد الله محمد بن جنون كان كتابا لأبي زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي⁵⁶⁷.

2 - الحروب الأهلية:

كان المذهب الإباضي القاسم المشترك بين القبائل. ورغم ذلك نشبت خلافات عديدة بينها. وقد أدت في بعض الأحيان إلى وقوع حروب أهلية عانى الشيوخ الكثير من أجل إخمادها. ورغم أن مصادرنا لا توضح الدوافع الحقيقية التي تقف وراءها، إلا أننا نعتقد بأن الخلافات المذهبية والصراع القبلي كانا السبب المباشر في حدوثها. فالشماخي تحدث عن حرب وقعت بين أهل ويغو وأهل شروس. في زمن أبي عبد الله الويغوي، وأبي الشعثاء بن البغطوري في نهاية القرن 4هـ (10م) أو في بداية القرن الخامس الهجري (10م). كما حدثت حرب أخرى في زمن وارسفلاس بن مهدي⁵⁶⁸ دامت سبع سنوات، وأشار الشماخي إلى اقتتال حدث بين «شروس» و«تندميرت». في زمن ماطوس بن هارون. وماطوس بن ماطوس أي في نهاية القرن الثالث الهجري (9م). لأن ماطوس بن هارون قتل في موقعة مانو سنة 283هـ. وباشتعال الفتنة خرجا من شروس خشية ما يلحقهما من إثم⁵⁶⁹.

كما نشب قتال في زمن أبي خزر (الطبقة السابعة 300-350هـ) بين بني واسين وبني يفرن. انتهى بانتهزام بني واسين. وتمكن أبو خزر من إقامة الصلح بينهما⁵⁷⁰. وما يؤكد هذا الصراع القبلي أن أبا يحيى زكريا الأرجاني خص كلا من بني زمرور وطرميسة بسوق واحدة في الأسبوع في جادو. لا يجوز للفريق الآخر حضورها حتى لا يقع الشغب الذي طال مداه. فكان لبني زمرور يوم الخميس، ولطرميسة يوم الأحد⁵⁷¹.

وإلى جانب هذا التطاحن الداخلي تعرض الجبل لغارات قبيلة زناتة، الظاعنة بمنطقة طرابلس. ففي زمن أبي يحيى بن أبي محمد زيد بن أفصيت الدرفي - حاكم جادو - (النصف

567- الشماخي: المصدر السابق، ص323.

568 - يدعى كذلك «وارسفلاس بن مهدي» وهو عالم مشهور مثل أبيه. اهتم بمطالعة الكتب ودراساتها. فقد مكث في خزانة نفوسة إثني عشر سنة يستفيد من كتبها. ولما وقعت الحرب اعتزل الفتنة. وظل في داره المدة كلها لا يخرج من بيته إلا للحاجة. ينظر: الشماخي: المصدر نفسه، ص327. T. Lewicki, Tasmiya. Suyuks Nafusa, p103.

569 - الشماخي: المصدر نفسه، ص266.

570 - المصدر نفسه، ص355-356: أبو زكريا: كتاب السيرة، ص218.

571 - البغطوري: سير نفوسة، و64: معمر: الإياضية في ليبيا، ص153.

الثاني من القرن 4هـ (10م) هجمت زناتة بجيش على قصر «أدرف»⁵⁷² فخربوه. تزعم زناتة رجل يدعى «مجدول بن يوسف الطرميسي»⁵⁷³.

وخلاصة القول نقول إنه إذا كانت المصادر الإباضية الوهيبية خاشرت الحديث بإسهاب عن هذه الحروب الأهلية. وشحت في ذكر دوافعها. إلا أنه يمكننا إرجاعها إلى مجموعة من الأسباب منها الصراع القبلي الذي أشرنا إليه سابقا خاصة وأن الوازع الديني والرابطة المذهبية تقلص مفعولهما. وأصبحت القبائل الكبيرة هي المهيمنة على الجبل من حيث الجاه والنفوذ والسلطة. وقد سبق الذكر أن صراعا حادا نشب بين بني زمر. وطرميسة. إن الخلافات المذهبية كانت سببا في انقسام المجتمع النفوسي إلى شيع متناحرة حتى اضطر المشائخ إلى إشراك مختلف الطوائف في أمور المسلمين. فقد روى الشماخي أن أبا الربيع سليمان بن زرقون النفوسي (الطبقة السابعة 300-350هـ) عندما مر في طريقه على بلدة «ريصو» بجزيرة جربة جعل القضاء والأحكام لأبي الخطاب. وسيل بن سنتين الزواغي. والفتيا للنكار. وإمامة رمضان للخلفية. والأذان للنفاثية⁵⁷⁴.

وقد استفحل هذا الصراع واشتد بين أتباع هذه الطوائف. خاصة وأن بعض القبائل القوية أخذت بمذاهبها. فقد انضم مثلا بنو يفرن إلى حركة النكارية. وكان لهم دور كبير في محاربة الإمام عبد الوهاب. وفي مؤازرة أبي يزيد مخلد بن كيداد. ولذلك فغير مستبعد أن يستمر هذا العداء التاريخي بين الوهيبية وبين النكارية وسواء من بني يفرن أو من لواتة. وما زاد في تدهور العلاقات بين الوهيبية والنكارية والخلفية والنفاثية والسكاكية مسألة البراءة. ذلك أن الوهيبية تبرأوا من كل مخالف لمذهبهم. مما أدى إلى تفشي الأحقاد بين الأخوة الأعداء. وأصبحوا كالتبوس إذا اجتمعوا تناطحوا وإذا افترقوا تصايحوا. مثلما قال أبو عبد الله محمد بن بكر. ولا يستبعد أن يكون تحول بعض القبائل من المذهب الإباضي إلى المذاهب الأخرى سببا في الحروب التي وقعت في الجبل. وكمثال على ذلك أن سكان مدينة ميري المشهورة في التاريخ تحولوا لاحقا إلى المذهب المالكي⁵⁷⁵.

وعلى العموم فإن المجتمع الإباضي في بلاد المغرب - ومع مرور الزمن - لم يحافظ على روح الجماعة والتكتل بل حتى على روح المذهب. فسرعان ما انتشر الفساد كشراب الخمر والزنا. وقد عبر عن ذلك أبو نوح عندما زار وارجلان بقوله: «إني رأيت فيكم ثلاث خصال

572 - يقع هذا القصر جنوب مدينة ميري بنحو ميلين تقريبا وهي إحدى مدن بني زمر. ينظر: معمر: المرجع نفسه. ص212.

573 - الشماخي: السير. ص287-288: معمر: المرجع نفسه. ص171-172.

574 - ينظر: السير. ص281-282.

575 - الباروني: الأذهار. ص192.

غير مرضية ولا ناهيا عنها. إحداها أن نكاح السر فيكم فاش. فإذا مر أحدكم برجل وامرأة مجتمعين في موضع التهمة اشمأز قلبه. فإن زجرهما عن الاجتماع في موضع الريبة قالا إنا متناكحان فكادت أن تظهر فيكم الفاحشة بل ظهرت. والثانية أن أحدكم يطلق عبده فلا يعولوه. ولا يموههم. ولا يكفيهم طلب معاشهم. فينطلقون في أموال الناس على غير رضى أصحاب الأموال. وعلى غير إذنهم فيكاد أحدكم يكون سارقا وهو في محرابه جالس. والثالثة أنكم أظهرتم فيما بينكم التحزب. والتفرق. فطائفة منهم يقولون مسجدا ومسجدكم. وطائفة يقولون حضيرنا وحضيركم. ويهودينا ويهوديكم»⁵⁷⁶.

3 - الهجرة النفوسية إلى إفريقية والمغرب الأوسط:

عرف جبل نفوسة حركة هجرة تعددت وجهاتها. فمن النفوسيين من انتقل إلى تاهرت واستقر في العدو المعروفة باسمهم. ومنهم من اتجه إلى بعض مدن إفريقية وصحراء المغرب الأوسط. أما عن دوافع هذه الهجرة فهي متعددة. فمنها القحط. وحدث مجاعات في الجبل. ومنها فترات عدم الاستقرار التي مر بها. أضف إلى ذلك أن ضرورة استمرار حركة الدعوة تتطلب من الشيوخ وتلاميذهم الاستقرار في بعض مدن إفريقية والمغرب الأوسط.

من المجاعات التي حلت بالجبل واضطر خلالها السكان إلى أكل الميتة تلك التي حدثت في عصر أبي ميمون الجيطالي (ط 5) (200-250هـ)⁵⁷⁷ وفي زمن أبي الخطاب وسيل بن سنتين (ط 7) (300-350هـ) وفدت إلى أبي أيوب بن كلابة الزواغي المقيم بـ «ريضة» قرب جربة جماعة من سكان الجبل بسبب القحط فاستضافهم لمدة شهر⁵⁷⁸. وعرفت مدينة طرابلس وضواحيها سنة 430هـ (1038م) جفافا أجبر السكان على التفرق والاتجاه إلى المناطق الخصبة التي يتوفر فيها الغذاء. وقد عرفت هذه السنة في المصادر باسم (فرورار) أو (فرور)⁵⁷⁹. وهناك العديد من الشواهد وردت في سير الشماخي تؤكد بأن هجرة كثيفة حدثت بسبب القحط والجذب⁵⁸⁰.

وكانت أكبر مجموعة قد اتجهت إلى إفريقية واستقرت في الساحل منذ إمامة

576 - الدرجيني: طبقات المشائخ. ج1. ص154-155.

577 - الوسياني: السير. ج2 و8: الدرجيني: المصدر نفسه. ج2. ص295-296.

578 - الشماخي: السير. ص282-284: أبو زكريا: كتاب السيرة. ص189.

579 - الشماخي: المصدر نفسه. ص400: أبو زكريا: المصدر نفسه. ص305.

580 - ينظر: ص232-256-300.

عبد الوهاب (171-211هـ) (787-826م). ذلك أن هذا الأخير أقطع نفوسة أرضا في هذه المنطقة ووضع لها حدودا. وقد أورد الوسياني (ت ق 6هـ/12م) نص الرسالة التي بعثها الإمام إلى نفوسة.⁵⁸¹ والتي بين فيها حدود هذا الإقطاع حيث تبدأ من «ورد قلورية» إلى «تنوجدت» إلى «قبر الصياد» إلى «فج المصباح» إلى «زيتونة العصافير». وقد ذكر الوسياني نقلا عن أبي يحيى بن ويجمن (ط 9) (400-450هـ) أن الساحل كله يدخل ضمن هذه الحدود.⁵⁸²

وقد قام ليفيسكي بتحليل محتوى هذه الرسالة ودراستها. واستنتج بأن الساحل - حسب الرسالة - هو كل المنطقة الممتدة من «هرقلة» في الشمال إلى غاية «راس قبودية»⁵⁸³ في الجنوب الشرقي لإفريقية. وكانت هذه المنطقة في السابق تشمل كل البلاد الممتدة بين صفاقس وقابس⁵⁸⁴. ويرى اليعقوبي أن بلدة «قبيشة» التي تبعد عن صفاقس بمرحلتين فقط هي آخر بلد الساحل⁵⁸⁵. ونرجح أن الموضع الوارد في الرسالة باسم «زيتونة الصعافير» (العصافير) هو نفسه المكان المسمى بـ «عين الزيتونة» الذي أشار إليه كل من اليعقوبي والبكري والذي يقع على الطريق الرابط بين قابس وصفاقس. أضف إلى ذلك أن الموضع المعروف بـ «تاورقي» الذي لا يبعد كثيرا عن عين الزيتونة هو في طرف ساحل الزيتون⁵⁸⁶. والملاحظ أن هذه المناطق كانت مواطن لقبائل لواتة، ولماية، ونفوسة، ومزاتة، وزواغة، وغيرها⁵⁸⁷. ونحن نعلم أن هذه القبائل كانت إباضية المذهب وتابعة للدولة الرستمية في عهد عبد الوهاب. ولما توجه هذا الأخير إلى طرابلس في طريقه إلى الحج، أرسل قطفان بن سلمة وحاصرها ثم استولى عليها، وانتقل بعدها إلى ما يليها من القرى والجبال. مثل مواطن مطماطة، وزنزفة، ثم جزيرة جربة، فاستولى

581- قال الوسياني: «ذكر عن الإمام عبد الوهاب رضي الله عنه «كتب إلى نفوسة الراحلين من الجبل كتابا وهم الخارجون عنه وكانوا في ألف رجل، وخاف ما يعتريهم من التغيير والتبديل فكتب إليهم كتابا مع عامله عليهم، وقطع لهم أرضا كثيرة وهي هذه الحدود التي نذكر «ورد قلورية» إلى «تنوجدت» إلى «قبر الصياد» إلى «فج المصباح» إلى «زيتونة العصافير» لنا وللمسلمين أغرسوا فيه بأمرنا وأحرقوا فيه بإذننا». ينظر: السير ج 2، و 29.

582 - ينظر: المصدر نفسه الجزء والورقة ذاتهما.

583 - ذكر البكري أن مرسى «هرقلة» يقع بالقرب من مدينة متوسة، وأن مرسى «قبودية» لا يبعد كثيرا عن المهديّة. ينظر: المغرب، ص 84-85.

584 - T. Lewicki, Un document ibadite inédit sur l'émigration des Nafusa du Gabal dans le sahil tunisien au VII/IX S Folio Orientalia, T2, 1959, p185186-.

585- ينظر: صفة المغرب، ص 11.

586 - اليعقوبي: المصدر نفسه، ص 8: البكري: المغرب، ص 19.

587 - البكري: المصدر نفسه، ص 18.

عليها ورتب فيها العمال⁵⁸⁸. ويرى ليفيسكي أن النفوذ الرستمي في هذه المناطق ظل متواجدا بقوة خاصة في عهد الإمام عبد الوهاب. فالأغالبية كانوا منشغلين بالثورات الداخلية ولم يتمكنوا من حماية حدودهم الجنوبية. وقد انتهى هذا النفوذ بعد سنة 224هـ (838م) عندما سحق الأغالبية خالف القبائل الإباضية من لواتة وزواغة ومكناسة، بين مدينتي قسطيلية وقفصة⁵⁸⁹.

ومن المؤكد أن جالية كبيرة من النفوسيين كانت تعيش في الساحل الشرقي لإفريقية بين قابس وصفا قس. وقد حددت الرسالة عددهم بحوالي ألف رجل، مما يعني أن هذا العدد يشكل في الحقيقة أرباب الأسر. وبالتالي فإن عددهم يفوق العدد المذكور. وقد استمر تواجد هؤلاء في المنطقة إلى عصر أبي زكريا يحيى بن ويجمن الهواري (ط 9) (400-450هـ)⁵⁹⁰.

وقد أورد ابن سلام أسماء مجموعة من العلماء كانوا يسكنون في الساحل منهم «سعيد الحداي»، وأبو سعيد عربي. في موضع يقع في قبلة «المرج»، وحارث أبو الغدير مهرازي «بالسبخة» قبلة سوسة، وسليمان بن جاس بـ «قلوط» غرب سوسة، ويوسف الفتاح (ت 260هـ) كان يسكن في موضع غير معروف استوطنه حوالي خمسمائة رجل من أهل الدعوة، ورجل آخر يدعى أبو حبيب كان يسكن بقفصة الساحل قبلة سوسة.⁵⁹¹ ويرى ليفيسكي أن قفصة الساحل سميت لهذا الاسم تميزا لها عن قفصة بلاد الجريد، وربما هي الموضع نفسه الذي ذكره البكري باسم «رباط قفصة»، الواقع قرب المهديّة أو «قصر قفصة» الذي ذكره المالكي. وحسب هذا الأخير فإن «قصر قفصة» يعرف كذلك باسم «الديماس». وقد ذكر الإدريسي أنه يقع على بعد ثمانية أميال شمال المهديّة.⁵⁹² ويرى ليفيسكي أن تسمية «قفصة الساحل» هي نفسها «قبيشة» الواقعة على الساحل، والتي تبعد مسيرة يومين عن صفاقس⁵⁹³. ونحن نرى بأن بلاد الساحل تشمل كل المنطقة الممتدة من قبلة القيروان إلى غاية مدينة قبيشة التي تبعد عن صفاقس بمرحلتين، وليس كما ذهب إليه ليفيسكي، لأن اليعقوبي يقول: «وما يلي القبلة من القيروان بلد يقال له الساحل وليس بساحل بحر. كثير السواد من الزيتون والشجر والكروم، وهي قرى متصلة ببعضها في بعض، كثيرة ولهذا البلد مدينتان يقال لإحدهما

588 - الباروني: الأزهار، ص 199.

589 - T. Lewicki, Un document ibadite inédit, P185-589.

590 - T. Lewicki, ibid, P187.

591 - ينظر: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، ص 157-159.

592 - ينظر: القارة الإفريقية، ص 203.

593 - T. Lewicki, Un document ibadite inédit, P189190-.

(١) وللأخرى قبيلة. ومن بلد الساحل إلى مدينة يقال لها أسفاقس على مرحلتين⁵⁹⁴.

كما استوطنت جماعة أخرى ساحل المهدية منها الطاهر بن يوسف. وهو عالم فقيه. كان معاصرا للأمير المعز بن باديس (404-454هـ) (1013-1062م). ومنها أبو الخير توزين الزواغي. وأبو عبد الله محمد سودرين. وأبو سعيد يخلفتن النفوسي. وأبو زكريا فصيل الزواغي⁵⁹⁵.

وبالإضافة إلى الساحل أجهت مجموعة من المهاجرين إلى القيروان. وقد ذكر ابن سلام أسماء بعض العلماء الذين استقروا فيها أو في أرباضها منهم: أبو عبد الله الذي كان يسكن حارة بن محرز في وسط سوق الأحد غرب مدينة القيروان. وكان هذا الأخير يخرج كل سنة إلى مكان يسمى «منزل أبي الأزهر» ليجتمع بإخوانه من هواره وزناته. وضم «باطن المرج» ثاني تجمع إباضي بعد الساحل من حيث الكثافة إذا قدر ابن سلام عدد النفوسيين فيه بحوالي خمسمائة رجل أو أكثر. اشتهر منهم أبو عمر حفصون النفوسي بعلمه وورعه⁵⁹⁶.

كما هاجر النفوسيون إلى بلاد الجريد خاصة وأن إخوانهم في المذهب متواجدون بكثرة في قفصة، وتوزر، والحامة، وقسطيلية، ونفطة. وقد مر بنا أن الإمام عبد الوهاب عين وكيل بن درج النفوسي عاملا على قفصة. ويبدو أن هذه الأخيرة كانت كبيرة في القرن الثاني والثالث للهجرة (8-9م) إذ قام المهاجرون بالاستيلاء على مدينة قنطرة (قنطار، قنطارة) التي تقع قرب نفطة شرق درجين⁵⁹⁷. وأصبحت بذلك عاصمة لمقاطعات جديدة تابعة للدولة الرستمية. في إمارة أفلح (211-258هـ) (826-871م). وقد عين أفلح أبا يونس النفوسي حاكما على قنطار. ومن بعده ابنه سعد الذي عاصر موقعة مانو. وكان من المعارضين لنفوسة عندما قررت عدم السماح لابن الأغلب بالمرور. وظل سكان هذه المدينة مرتبطين ببلادهم الأصلية. فعندما اتهم سعد بأنه كان يخاف على قنطار أجابهم قائلا: «خشيت أن تذبح البقرة فيتبعها عجلها»⁵⁹⁸ يعني بالبقرة نفوسة

594 - ينظر: صفة المغرب، ص11.

595 - T. Lewicki, op.cit, p189190.

596 - ينظر: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، ص157-159.

597 - الباروني: الأزهار، ص253.

598 - كثيرا ما يضرب شيوخ الإباضية الأمثال بالجمال والأغنام والعجول والطبيعة والفلاحة. وقد احتوت المصادر جملة من هذه الأمثال مثل (لا يستتر الجمل خلف الغنم) (إنما مثل أهل هذا الزمان مثل السبخة التي بفنائها إذا ابتلت أزلقت وإن نضبت وتيبست خدشت وجرحت) (إن أهل هذا الزمان مثل الكرائيف في الشبكة إذا رفعت الشبكة اختلقت الرؤوس خارجها) (إن أهل زماننا هذا كالتبوس إذا اجتمعوا تناطحوا وإن افترقوا تصايحوا). ينظر: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص386؛ أبو زكريا: كتاب السيرة، ص179-324.

وبالعجل قنطار⁵⁹⁹. ويفهم من هذا أن قنطار كانت تابعة للجبل إقليميا.

وفي العصر الفاطمي أجهت مجموعة أخرى من المهاجرين إلى إفريقية. وكانت الأغلبية منهم من نفوسة. وهواره حتى إن الخليفة القائم أمر - حسب البكري - ببناء مدينة «قلمجنة» ليسكنها الوافدون الجدد. وتقع هذه البلدة في جبل زغوان القريب من تونس⁶⁰⁰.

كما انتقلت جماعات أخرى إلى بعض مدن المغرب الأوسط فسكان «تاغرويت» الزناتيين تركوا بلدتهم وأجهوا إلى مدينة وارجلان⁶⁰¹. وفي المقابل كانت هناك هجرات إلى الجبل. ومنطقة طرابلس، خاصة عندما تتعرض إفريقية لبعض النكبات الطبيعية. فقد ذكر الدرجيني أن مزانة إفريقية أجهوا إلى إخوانهم بنواحي طرابلس عندما ضربت الزلازل ببلادهم⁶⁰².

وتجدر الإشارة في الأخير إلى أننا لم نتناول الهجرات التي كان الغرض منها الالتحاق بحلقات العلم. وسنتحدث عنها في حينها.

4 - قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب وموقف الإباضية

منها:

قام الشيعة منذ تأسيس الدولة الأموية بمحاولات متعددة لإقامة خلافة يتزعمها آل البيت، وباءت كل هذه المحاولات بالفشل نتيجة انقسامهم إلى فرق متعددة تختلف فيما بينها في العديد من الفروع. لذلك صوبوا توجهاتهم إلى مناطق نائية عن مركز الخلافة في دمشق وأجهوا إلى بلاد اليمن التي أصبحت بمرور الوقت معقلا من معاقلهم. ومركزا هاما لدعوتهم. خاصة وأن اليمن قريبة من مكة والمدينة قبله الحجاج.

599 - الدرجيني: المصدر نفسه، ج1، ص77-78؛ أبو زكريا: المصدر نفسه، ص136-137؛ صالح باجبة: الإباضية بالجريد، ص12.

T. Lewicki, Tasmiya Suyuks Nafusa, p103104.

T. Lewicki, Un document ibadite inédit, P176177.

600 - البكري: المغرب، ص46.

601 - الشماخي: السير، ص296.

602 - ينظر: طبقات المشائخ، ج2، ص369.

* - نلاحظ أن أغلب الفرق تكتفي بداعية أو اثنين لتمهيد الطريق ثم ترسل دفعة ثانية. فالخوارج أرسلوا سلمة بن سعد وعكرمة مولى عباس إلى بلاد المغرب. والمعتزلة أرسلوا عبد الله بن الحارث إلى هذه المنطقة. والشيعة أرسلوا ابن حوشب إلى اليمن والخلواني وأبي سفيان إلى بلاد المغرب. وقدم حملة العلم المغاربة. وأبي عبد الله الشيعي وأولاد بشير الرحال.

وقد تولى الدعوة في هذه الربوع رجل كوفي يدعى أبو القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب. ويرجع إلى هذا الآخر الفضل في إرسال الدعاة إلى مختلف الأمصار الإسلامية. سواء إلى اليمامة، أو البحرين، أو عمان، أو مصر، أو بلاد المغرب. وكانت هذه البلدان - خاصة بلاد المغرب - مهياة سياسيا واجتماعيا لتقبل أفكارهم. وتشير المصادر إلى أن الإمام جعفر الصادق أرسل إلى هذه الجهة داعيين* هما: الحلواني، وأبو سفيان، وأمرهما أن ينشرا الدعوة قائلا لهما: «أذهبا إلى المغرب فإنكما تأتيا أرضا بورا فاحرثاها. وكرباها. وذللاها إلى أن يأتيها صاحب البذر مذلة فيبذر حبة فيها»⁶⁰³.

والجها سنة 145هـ (762م) إلى بلاد المغرب فنزل أحدهما في «مرمجة»⁶⁰⁴ في موضع يقال له «تالا». ونزل الثاني ببلد «سوجمار» (سوف جمار). وابتنى أبو سفيان مسجدا. اتخذ مركزا لترويج الفكر الشيعي. فكان سكان تلك الناحية يأتون إليه ليسمعهم فضائل أهل البيت. وتمكن من نشره بين أهل مرمجة. والإريس. ونفطة⁶⁰⁵.

أما الحلواني فقد توغل في أرض البربر بعيدا عن مرمجة. واستقر في سوجمار (سوف جمار) ببلاد الجريد. فالتفت حوله القبائل من كتامة. ونفزة. وسماتة. وتمكن من نشر الدعوة بينهم⁶⁰⁶. وكان رؤوس الدعاة في المشرق ومنهم ابن حوشب يتبعون أخبارهم. وينتظرون آثارهم في المنطقة. ويبدو أنه علم بنجاحهما وتمهيدهما للطريق. ولذلك فبمجرد أن علم بوفاتهما كلف داعية آخر ليخلفهما وهو أبو عبد الله الشيعي. وقد اختار هذا الأخير موسم الحج ليخرج فيه إلى مكة. وذلك سنة 280هـ (894م) وفيها التقى بمجموعة من زعماء قبيلة كتامة من حج تلك السنة منهم: موسى بن حريث الجميلي وموسى بن مكارمة⁶⁰⁷ وأبو القاسم الورفجومي. ومسعود بن عيسى بن ملال الساكتي⁶⁰⁸.

603 - القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة. تحقيق فرحات الدشراوي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. الشركة التونسية للتوزيع. ط2. تونس. 1986. ص29.
604 - تبعد عن القبروان بمرحلتين وعن مجانة بمرحلة وعن تيجس بستة مراحل. ينظر: ابن حوقل: صورة الأرض. ص84.

605 - القاضي النعمان: المصدر السابق. ص27: مولى أحمد عبد الفتاح: القوى السنية في المغرب من قيام الدولة الفاطمية إلى قيام الدولة الزيرية (296-361هـ): دار المعرفة الجامعية. ط1. الإسكندرية. 1985. ج1. ص116-117.

606 - القاضي النعمان: المصدر نفسه. ص29: مولى أحمد: المرجع نفسه والجزء ذاته. ص118-119: موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية. ص220.

607 - يسميه القاضي النعمان: «موسم بن مكارم» في حين يسميه ابن الأثير «موسى بن مكاد». ينظر: الكامل في التاريخ. ج8. ص32.

608 - ابن عذاري: البيان المغرب. ج1. ص124: القرشي: عيون الأخبار. السبع الخامس. ص45: القاضي النعمان: المصدر السابق. ص509: مولى أحمد: القوى السنية. ج1. ص123.

ويذكر ابن عذاري أنهم كانوا نحو عشرة رجال كلهم ملتفين حول شيخ منهم. فسألهم عن بلادهم. ومذهبهم. فعلم أن شيخهم يميل إلى مذهب النكارية⁶⁰⁹. ثم أخذ يستدرجهم خاصة وأنه كان فصيح اللسان. عالما ومجادلا فطنا وأنهم هم الذين سيقيمون دولتهم في هذه الربوع. واستبشر أبو عبد الله خيرا عندما أجابه قائلا: «أنا أرغب فيما رغبتني فيه. وأبذل فيه مهجتي ومالي أنا ومن اتبعني. وأنا أطوع إليك من يدك»⁶¹⁰.

وانتشر خبر هذا المشرقي ودعوته فانتقلت بذلك الدعوة من السر إلى الجهر والتزمت كتامة بالطاعة له. وظلت تنتظر وصول عبيد الله الإمام المعصوم من آل البيت⁶¹¹.

وفي فترة وجيزة استقامت له الأمور بكتامة. وعجيسة. وزاوعة. وكثر المعجبون بهذه الدعوة الجديدة من البربر. واستفحل خطره خاصة بعد أن ألزم أتباعه بالجندية. وقد شعر بهذا الخطر الأمير الأغلب إبراهيم بن أحمد فأخذ في ترتيب الأمور والسعي للقضاء على هذا السيل الجارف قبل أن يفسد رعيته بمبادئه. ويقضي على دولته فأرسل رسولا إلى أبي عبد الله يحذره وينذره. وفي الوقت نفسه يستميله ويستلطفه إن كان طالب دنيا. وبقدر ما كان خطابه قاسيا⁶¹² كان الرد أعنف. فقد رد عليه بقوله: «أما ما ذكرت من التهديد فما أنا من يروع بالإبعاد. وأما تخويفك أيادي رجال دولتك أبناء حطام الدنيا فإني في أنصار الدين حماة المؤمنين الذين لا تروعيهم كثرة أنصار الظالمين مع قول الله (كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)⁶¹³ وإما ما أطمع به من دنياه فلست من أهل الطمع فيما عنده»⁶¹⁴.

وللحيلولة دون نجاح الدعوة بين رعيته. والقضاء عليها في المهدي قام مجموعة من الإصلاحات لاستمالة قلوب العامة. والفوز برضاها كرده للمظالم وإعلانه التوبة⁶¹⁵. ولكن الدعوة الشيعية انتقلت إلى المرحلة الحاسمة وهي مرحلة الصدام المسلح. فقد

609 - يتفق القاضي النعمان والدرجيني في أنهم كانوا شيعة. تشيعوا بفضل الحلواني. ينظر: المصدر نفسه. ص34. وينظر: طبقات المشائخ. ج1. ص92.

610 - ابن عذاري: المصدر السابق. ج1. ص127: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج2. ص551.

611 - المصدر نفسه والجزء ذاته. ص128.

612 - ينظر ملحق 3.

613 - البقرة. الآية 249.

614 - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي. ص511.

615 - كما أسقط القبالات وأخذ العشر طعاما وترك لأهل الضياع خراج سنة وسمها العدل. وأعتق مالهيك وأعطي فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا ليوزعوها على الفقراء ولبس الصوف وأظهر النسك. ينظر: ابن عذاري: البيان المغرب. ج1. ص131-132: القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة. ص77.

شن أبو عبد الله غارة على طنبنة في الزاب، وهزم أبا عبد الله الأحول الذي سيره أبوه أبو العباس بن إبراهيم بن أحمد مرتين. وذلك فعندما تولى الإمارة زيادة الله بعد مقتل أبيه استدعى أخاه من طنبنة وانتقل إلى رقادة⁶¹⁶.

وفي هذه الأثناء كانت جيوش أبي عبد الله تتوسع في البلاد خاصة بعد موقعة كينونة (كبنونة) سنة 292هـ (904م)، التي هزم فيها الجيش الأغلبي الذي جهزه زيادة الله بقيادة إبراهيم بن حبسي، وهي المعركة التي غنم فيها الشيعة غنائم كثيرة، فلبسوا أثواب الحرير وتقلدوا السيوف المحلاة، وركبوا بسروج الفضة، وكثر عندهم السلاح⁶¹⁷. ولما أحس من نفسه قوة وأنه مهد الطريق لوصول الإمام المعصوم، كتب إلى عبيد الله المهدي بسلمية من أرض حمص يطلب منه القدوم عليه ليشهد مرحلة التأسيس لأول كيان سياسي شيعي. فخرج هذا الأخير من سلمية إلى مصر متنكرا في زي التجار، ومنها إلى القيروان فقسطنطينة. وقد اضطر إلى تجنب المناطق المراقبة خشية أن يقع في أيدي الأغالبة، الذين كانوا على علم برحلته⁶¹⁸ فآجّه إلى سجلماسة، مرورا بوارجلان لينزل ضيفا عند أميرها اليسع بن مدرار. وفي الوقت ذاته استمر أبو عبد الله في اجتياحه لمناطق النفوذ الأغلبي. وقد تمكن من الدخول إلى مدينة سطيف فخر بها وأمن أهلها. كما استولى على بلزمة، وطنبنة (293هـ/905م)، وباغاية، وقرطاجنة، وتيفاش، وتبسة، والقصرين (294هـ/908م)، وقسنطينة، وقسطيلية، وتيجيس، وقفصة (295هـ/907م)، والأريس، ورقادة، والقيروان (296هـ/908م)، وبهذه الانتصارات تمكن من القضاء على دولة الأغالبة⁶¹⁹.

واكتشف أمر عبيد الله في سجلماسة، فبعد أن كان مكرما في قصر اليسع بن مدرار أصبح هو وابنه أبو القاسم حبيسي زنزانته. ولما بلغ الخبر إلى أبي عبد الله عزم على المسير إلى سجلماسة لفك أسر سيده، وإمامه، فاستخلف على إفريقية أخاه أبا العباس، وأبا زكي تمام بن معارك⁶²⁰. وفي طريقه عرج على تاهرت التي كانت تمر بقلقل

616- القاضي النعمان: المصدر نفسه، ص173-174؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص512.

617- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص138.

618- أثناء مروره بطرابلس توقف فيها لنشر دعوته فأرسل زيادة الله إلى أخيه أحمد العامل بها يطلب منه القبض عليه لكنه أفلت منه. ويقال إنه رشاه بمال كثير ويقال كذلك بأن الرسول الذي بعثه عبيد الله إلى كتامة يبلغهم بوصوله هو الذي وقع في قبضة زيادة الله. ينظر: القاضي النعمان: المصدر السابق، ص163؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص238؛ روسي أتوري: ليبيا منذ الفتح العربي، ص85؛ ألفرد بل: الفرق الإسلامية، ص158.

619- لمزيد من التفاصيل: ينظر: ابن الأبار، الحلة السيرة، ج1، ص191؛ النويري: نهاية الإرب، ج24، ص146؛ القاضي النعمان: المصدر نفسه، ص165-173-178-182-188-198-203-222-227-233؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص513.

620- أبو عبد الله الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد، ص21؛ ابن الأثير: الكامل، مج8، ص39؛ مولى أحمد: القوى

كثيرة خاصة وأن «دوسر» ابنة الإمام يوسف بن محمد بن أفلح اتصلت به بعد مقتل أبيها تطلب جثته، ووعدهته بالزواج إن هو أخذ بثأرها، فلما وصل إلى المدينة خرج إليه الخالفون من غير الإباضية، من صفرية، ومالكية، وشيعة، ليشكون إليه إمارة الفرس ويعلنون له عن ولائهم وتقديم الأزر له. ولما قابل اليقظان وبنيه قتلهم، ثم دخل المدينة، ونهبها، وانتهك حرمتها، وأحرق خزانة الكتب الموجودة بها، بعد أن أخذ منها كل ما يصلح للملك والحساب⁶²¹.

ولما سمع يعقوب بن أفلح بقدوم أبي عبد الله غادر تاهرت متوجها إلى وارجلان، ويبدو أن العبيديين ظلوا يتخوفون من فرار هذا الرستمي فأنفذ إليه أبو عبد الله خيرة رجاله لملاحقته. ولاتقاء شر هذه الحملة اعتصم أصحابه بجبل «كرمة» القريب من وارجلان، ودام الحصار دون الحصول على نصر يذكر فدخلوا المدينة وخربوها⁶²².

ومهما يكن من أمر فقد استقبل يعقوب بن أفلح من قبل أبي صالح جنون بن مريان شيخ وارجلان، ومن قبل سكانها بالترحاب وطلبوا منه أن يتولى أمورهم بغية إحياء الإمامة المندثرة لكنه رفض قائلا لهم: «لا يستتر الجمل بالغنم» معبرا عن الضعف الذي حل بهم⁶²³. وبذلك يكون الإباضية قد طووا إمامة الظهور مؤقتا لينتقلوا إلى إمامة الكتمان، وتولى حكم عاصمة دولتهم تاهرت أبو محمد دواس بن صولات اللهيصي، وإبراهيم بن محمد اليماني - المعروف بالهوارى - وكان يلقب بالسيد الصغير⁶²⁴. أما عبد الله الشيعي فقد تابع سيره إلى سجلماسة، وفيها استطاع أن يخلص مولاه، وأقاما فيها أربعين يوما، ثم ارتحلا نحو القيروان بعد أن عين أبا عبد الله إبراهيم بن غالب المزاتي، وفي القيروان بويع للمهدي البيعة العامة (297هـ/910م)، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين، وضرب السكة باسمه ورتب الدواوين وبهذا تأسست أول دولة شيعية في بلاد المغرب⁶²⁵.

السنية، ج1، ص135

621- أبو زكريا: كتاب السيرة، ص163؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص94؛ لقبال: دور كتامة، ص340؛ الباروني: الأزهار، ص358؛ الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، مطبعة الإدارة، تونس، 1938، ص49؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص396-397؛ دبور: تاريخ المغرب، ج3، ص616.

André Nègre: La fin de l'état Rostemide, RHCM, Juillet, 1967, N° 67-, p18.

622- أبو زكريا: المصدر نفسه، ص164-165؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص95؛ الباروني: الأزهار، ص359؛ دبور: المرجع نفسه والجزء ذاته، ص606-607؛ André Nègre: Ibid, p16.

623- الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص105؛ الشماخي: السير، ص365-366؛ قطب الأئمة: الرسالة الموسعة، و108؛ لقبال: من قضايا التاريخ الرستمي، ص57.

624- ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص153.

625- ابن عذاري: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص154-155؛ ابن الأبار: الحلة السيرة، ج1، ص191؛ السيد عبد العزيز

وهكذا تمكن الشيعة من تصفية نظام الإمامة الرستمية بعد تاريخ طويل حافل بالأحداث دام 136 سنة، ونجحت في القضاء على قوة الإباضية، وأصبح هؤلاء دون كيان سياسي مما جعلهم يتفرقون في وارجلان ونواحيها، وجبل نفوسة، وبلاد الجريد، وجبل أوراس، وغيرها من المناطق. لكن المذهب الإباضي ظل متواجدا بعد أن حافظ عليه الخلق من أتباعه من العلماء والمشائخ.

ومن الطبيعي أن تتسم العلاقات الإباضية الفاطمية بالعداوة. فمن الوجهة السياسية فالشيعة هم الذين أسقطوا إمامة الظهور، ومن الوجهة الدينية المذهبية هناك خلاف كبير بينهما. فإذا كان هناك تقارب في العقيدة بينهما حيث يميلون إلى الفكر المعتزلي في الصفات، وخلق القرآن، والرؤية، فإنهما يتباينان في الفروع تباينا جوهريا خاصة في مسألة الخلافة، فقد بالغ الشيعة في تقديس الإمام، وحصر الإمامة في آل البيت باعتبارها وراثية، أما الإباضية فإنهم لا يقولون بالوراثة - رغم أنهم حصروها في آل رستم - ويرفضون حصرها في قريش عامة، وإنما يرونها انتخابا حرا، وحقا مشاعا بين المسلمين. لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، فالكفاءة هي المعيار الوحيد. كما أن الإباضية لا يقبلون بما أدخله الشيعة من تحريف في بعض الأمور الدينية كمنعهم صلاة التراويح.⁶²⁶

فلا غرابة إذن أن يصطدما ولو مؤقتا. لأن وجود الفاطميين في بلاد المغرب ما هو إلا مرحلي. فمصر كانت دوما حلمهم وهدفهم البعيد. وقد عزموا أن يجعلوها في يوم ما قاعدة لدولتهم للعبور إلى المشرق والسيطرة على الحجاز والقضاء على دولة بني العباس. وسيمكنهم ذلك في الأخير من بسط سيادتهم على حوض البحر الأبيض المتوسط.⁶²⁷ ورغم ذلك فإن سياسة الفاطميين تجاه المذاهب الدينية الأخرى كانت تجمع بين المسألة والاضطهاد. فبالنسبة للإباضية فقد عانوا الكثير من سياسة القمع التي سلكها معهم عبيد الله، والقائم، والمنصور. في حين كان المعز مسالما لهم حيث قربهم إليه مع أخذ الحيطة والحذر. وظل يداريهم ويستعين بعلمائهم ومجادليهم لمناظرة مخالفينهم من معتزلة وواصلية وغيرهم. ومهما يكن من أمر فإن هذا الاضطهاد كان أقل مما لحق بعلماء السنة عامة والمالكية خاصة.⁶²⁸

سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص 541-515.

626 - صالح باجية: الإباضية بالجريد، ص 106؛ معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص 356-357؛ عدون جهلان: الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش 1818-1914، نشر جمعية التراث القرارة، (د.ت)، ص 87-89.

627 - عارف تامر: القائم والمنصور الفاطميان أمام ثورة الخوارج، دار الآفاق الجديدة، ط 1، بيروت، 1982، ص 20-21.

628 - المجدوب: الصراع المذهبي، ص 215؛ صالح باجية: المرجع السابق، ص 107؛ محمد الصالح مرمول: السياسة

ولم تكن هذه الإدارة من جانب العبيديين فقط، بل حتى من الإباضية فقد قبلوا بالشيعة في شيء من المهادنة، وإن لم يعتنقوا مذهبهم، والدليل على ذلك أن بعض علماءهم تقربوا من المعز لدين الله الفاطمي والتحقوا بمجالسه العلمية رغم أن المشائخ قالوا: «إذا رأيتم العالم يمشي إلى أبواب السلطان فاتهموه على أمر دينكم»⁶²⁹.

وعلى الرغم من هذا التقارب فإن الإباضية عانوا الكثير خاصة في عهد أبي عبد الله فقد فرض عليهم الضرائب الباهضة، واستبد الجباة في جمعها استبدادا مبالغا فيه، ولولا صبرهم، وتحملهم للأذى، وحكمة شيوخهم لأبعدوا إبادة جماعية، وكان هؤلاء يجمعون أموال الضرائب ويسلمونها للعمال اتقاء لشهرهم، مثلما فعل أبو الخطاب وسيل بن سنتين الزواغي.⁶³⁰

5 - الانتفاضات الإباضية:

أ - ثورة طرابلس (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م):

من خلال ما مر بنا يتضح أنه من الطبيعي ألا يتعاطف الإباضية مع العبيديين لعنفهم وتعصبهم، بالإضافة إلى أنهم وافدون طارئون. ولذلك فبمجرد أن عين عبيد الله «ماكنون بن ضبارة اللحياني»⁶³¹ عاملا على طرابلس حتى استغل بربره ثورة الإباضية فترة عدم الاستقرار وبداية العهد الجديد وثاروا بزعامة أبي هارون الهواري، توارزهم قبائل زناتة، نفوسة، ولماية، وغيرها وحاصروا المدينة فأرغم ماكنون على التحصن داخل السور في انتظار وصول الإمدادات لفك الحصار عليه. وأرسل إليه عبيد الله المهدي فرقا من الجند يقودها أبو زاكي تمام بن معارك الأجاني. وتمكن هذا الأخير من تحقيق الانتصار عليهم، إذ قتل كثيرا منهم، وأرسل برؤوس عدد كبير من قتلاهم إلى المهدي بقرادة. ورغم ذلك فقد اتهم بالخيانة وأنه كان يتآمر عليه بتحريض الناس ضده، فأوعز إلى ابن أخيه ماكنون ليقطله، فتم له ذلك سنة (298 هـ / 910 م).⁶³²

ولما تمكن ماكنون من تأمين المنطقة وإعادة الاستقرار إليها تطاول في الحكم وبالع بنو

الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 140.

629 - الشماخي: السير، ص 384.

630 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 114؛ المجدوب: المرجع السابق، ص 215-216.

631 - يسميه ابن عذاري (ماقنون بن دبارة الأجاني) ينظر: البيان المغرب، ج 1، ص 168.

632 - ابن عذاري: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 164؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص 242؛ روسي أتوري: ليبيا منذ الفتح، ص 86؛ T Lewicki, La repartition, p325.

Ferhat Dachraoui: Le Califat Fatimide au Magherb 296362- H Imprimerie Officielle De La République Tunisienne, Tunis, 1981, p135.

استمرت في طرابلس وأرباضها. ولم تكن من طرف الإباضية فقط بل حتى من السنة. ورغم ضعف نفوسة إلا أنها اغتنمت هي الأخرى تردى الأوضاع الأمنية فأعلنت ثورتها سنة (310هـ / 922م).

ب- ثورة نفوسة 310هـ (922م)⁶³⁵:

ما أن انتهى العبيديون من القضاء على الاضطرابات التي وقعت في طرابلس حتى شق سكان جبل نفوسة الطاعة وقاموا بثورة يتزعمهم رجل تسميه المصادر «أبابطة». ورغم أن المصادر لا تعطينا الدوافع الحقيقية لهذه الثورة إلا أننا نعتقد أن الفاطميين أرادوا إخضاع الجبل لحكمهم خاصة وأنه أصبح ملاذا لثورات الإباضية. وأصبح سكانه يدعمون كل حركة عصيان تظهر في المنطقة، لأن أغلب قبائلها إباضية المذهب وبالتالي فهي تابعة لمشيخ الجبل. ضف إلى ذلك إحياءهم للإمامة الرستمية. أما فيما يخص زعيمهم أبو بطة فإن المصادر لا تزودنا بمعلومات وافية عنه إلا أن ليفيسكي، ومحمود إسماعيل يتفقان على أن اسمه ما هو إلا كنية لأبي يحيى زكريا الأرجاني الذي تولى قيادة جيش نفوسة⁶³⁶. وإذا كان ليفيسكي يرى بأن قيادته للجيش كانت بتكليف من رئيس أهل المذهب وقتها ألا وهو أبو محمد عبد الله بن الخير على أساس أن هذا الأخير كان شيخا مسنا⁶³⁷. إلا أن المصادر الإباضية تذكر بأن أبا يحيى بويج في هذه الفترة إمام دفاع لمحاربة المسودة⁶³⁸.

ومهما يكن من أمر فقد أنفذ إليهم عبيد الله المهدي جيشا بقيادة علي بن سليمان الداعي⁶³⁹ فشن هجوما على قرية «الجزيرة». لكنه هزم إذ تمكن النفوسيون من صدّه ومن قتل العديد من جنده فتفرق أصحابه مما جعله يولي الأدبار إلى طرابلس. وأرسل إلى عبيد الله يخبره بالهزيمة ويطلب منه ضرورة إرسال الإمدادات إليه. فكتب الخليفة لعامله على قابس علي بن لقمان يأمره بقتل كل من مر به من المنهزمين ففعل. جزاء تركهم لقائدهم وخذله في ميدان المعركة. وفي الوقت نفسه زوده بقوات إضافية ليتجه علي بن سليمان مرة أخرى إلى الجبل. وشن حملة على «تيركت» - وهي قرية تقع بين «نالوت»

ص517-518: 136-Ferhat Dachraoui: Le Califat Fatimide, p135.

635 - يرى ابن عذارى أن الثورة كانت في سنة 309هـ (921م) واستمرت إلى غاية 311هـ (923م). ينظر: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص187.

636 - T. Lewicki, Les hakims, p101 : محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص176-177.

638 - البغطوري: سير نفوسة، و65: الشماخي: السير، ص243: معمر: الإباضية في ليبيا، ص154.

639 - في رواية القرشي فإن القائد يسمى «سليمان بن كافي الأجنبي» ينظر: إدريس عماد الدين: التاريخ الخلفاء الفاطميين، ص214.

عمومته في سلب أموال العامة وانتهاك حرماهم. فأثارت هذه المعاملة السيئة التي سلكتها كتامة انتفاضة أخرى سنة (300هـ/914م). حيث قام سكان طرابلس بقتل أفراد من كتامة اضطر حينها ماكنون إلى ترك المدينة فارا إلى رقادة. عندئذ قام سكان المدينة بتقديم محمد بن إسحاق القرشي المعروف بابن القرلين. وفي هذه الأثناء أرسل عبيد الله خمسة عشر سفينة محملة بالجند لإخماد هذه الثورة. لكنها هوجمت وأضرمت النار فيها. وقدم جيش آخر يقود هذه المرة ابنه أبو القاسم على طريق البر في جمادى الأولى سنة 300هـ فاعترضته هوارة فأوقع بها الهزيمة. وحاصر طرابلس حصارا مشددا حتى اضطر أهلها إلى أكل الميتة نظرا لفراغ الأقوات والمؤن التي كانت تمدّها هوارة للسكان. ولم يصمد ابن إسحاق كثيرا إذ طلب سكان طرابلس الأمان من أبي القاسم. فآمنهم على أن يسلموا إليه محمد بن إسحاق. ومحمد بن نصر رجلا آخر يقال له «الحوحة». فقبلوا ذلك وسلموهم إليه. ودخلوا طرابلس وفرض على أهلها غرامة مقدارها ثلاثمائة ألف دينار. وقتل ما تبقى فيها من الأغلبية بتهمة تدبير هذا العصيان. وتولى جباية هذه المغارم رجل يقال له خليل بن إسحاق. وبعد أن استقرت الأمور. وعادت إلى حالتها الطبيعية. استخلف عليهم أبا مديني بن كناوة اللهيصي. وترك معه حباسة بن يوسف الملوسي. وعاد أبو القاسم إلى رقادة ومعه الرجال الثلاثة فقتلهم. وشهر بهم في شوارع القيروان⁶³³.

وظلت طرابلس لفترة زمنية وجيزة آمنة. وفضل أهلها مداراة الشيعة. حيث تقبلوا عمالهم. وجبايتهم. وقضاتهم. إلى أن حلت سنة (322هـ/933م) حيث استغلوا وفاة عبيد الله المهدي في منتصف ربيع الأول من تلك السنة. وتولى ابنه أبو القاسم (القائم بأمر الله) الخلافة. وقيام ثورات في العديد من المناطق فتثاروا بزعامة رجل عربي من العراق يدعى محمد بن طالوت. وقد ادعى هذا الأخير أنه ابن المهدي. وتمكن من استمالة الناس حوله فقاموا معه واتبعوه ثم زحف على طرابلس وحاصرها. لكن حامية من جندها وبمساعدة الأهالي تمكنت من التصدي له. وإلحاق الهزيمة به. خاصة وأن جماعة من أصحابه تبينوا أمره فقتلوه وأتوا برأسه إلى القائم⁶³⁴. وتجدر الإشارة إلى أن معارضة الشيعة قد

633 - ابن عذارى: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص168-169: ابن خلدون: العبر، مج4، ص78.

634 - ابن غلبون: تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار. تحقيق: الطاهر أحمد الزاوي. المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ. ص16-17: القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، ص325: القرشي: عيون الأخبار السبع الخامس، ص125: ابن الأثير: الكامل، مج8، ص77: لقبال: دور كتامة، ص404-405: إدريس عماد الدين: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار). تحقيق محمد اليعلاوي. دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985، ص192: مرمول: السياسة الداخلية، ص78-79: الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص243-244: روسي أنوري: ليبيا منذ الفتح، ص86-87: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب.

و«كباو» - وتمكن من إلحاق الهزيمة بنفوسة في 18 شعبان 310هـ. وهدم حصونهم. وقتل العديد من رجالهم. وسبي نساءهم وأطفالهم⁶⁴⁰.

ورغم ذلك، فالمصادر الإباضية تذكر بأن النفوسيين تمكنوا هذه المرة كذلك من إلحاق الهزيمة بعلي بن سلمان رغم مقتل قائدهم أبي يحيى. قتله رجل من أصحابه من «تين بكر»⁶⁴¹ أو من «تنكتر» من أهل «تمجدال»⁶⁴². والحقيقة كانت غير ذلك إذ أصبح النفوسيون منذ ذلك الحين يدفعون المغارم للجباة الفاطميين الذين كانوا يشتطون ويبالغون في تقديرها. وكانوا كل مرة يهددونهم إذا تأخر دفعها. يقول الشماخي: «لما تولى (أي أبو الفضل سهل) أدرك الناس في ذلك من المسودة، وزناتة، والعرب، وواحد من أولئك يقدم على عشرة من نفوسة، لما ملأوا قلوبهم من العرب، فلم يبرح حتى عكسها، وصار النفوسي يقدم على عشرة من أهل البادية، ورفع الجور على نفوسة»⁶⁴³.

ويبدو أن النفوسيين أرادوا الثأر من الفاطميين، فخرجوا مرة أخرى لقتالهم في عهد أبي زكريا بن أبي يحيى الأرجاني. لكنهم انهزموا شر هزيمة وقتل منهم خلق كثير. وتعرض أبو زكريا هو الآخر لمثل أبيه حيث قتله رجل من طرميسة من أصحابه⁶⁴⁴.

ويجب الإشارة في هذا السياق إلى أن المصادر الإباضية تسمي كل من الفاطميين وبني زيري بـ «المسودة» مما يصعب لنا في بعض الأحيان تحديد الدولة المقصودة، خاصة إذا تعذر وجود إشارة نستطيع من خلالها تحديد تاريخ الحادثة. وقد وقع علي يحيى معمر - وهو إباضي - في هذا الخطأ عندما ذكر بأن جيوش العباسيين هجموا على الجبل إبان حكم أبي زكريا بن أبي يحيى الأرجاني⁶⁴⁵.

ج - ثورة النكارية 322هـ (933م):

أطلقت تسمية «النكارية» على الجماعة التي أنكرت إمامة عبد الوهاب (171-211هـ) (787-826م). كما عرفوا بأسماء أخرى مثل «النجوية»، لأنهم أكثرها من النجوى

640 - البغطوري: المصدر السابق، و65: الشماخي: المصدر السابق، ص243؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص187؛ روسي أنوري: ليبيا منذ الفتح، ص87؛ محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص176-177؛ مرمول: السياسة الداخلية، ص83؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص248. R. Lewicki, Les hakims, p99-101.

641 - الشماخي: المصدر نفسه، ص243-244.

642 - البغطوري: المصدر السابق، و65.

643 - الشماخي: المصدر نفسه، ص275.

644 - البغطوري: المصدر السابق، و65: الشماخي: المصدر نفسه، ص244.

645 - ينظر: الإباضية في ليبيا، ص155.

في إبطال إمامة عبد الوهاب، و«الشغبية» لأكثرهم الشغب في تاهرت وأرياضها. و«النكات» لأنهم نكثوا ببيعة عبد الوهاب بعد مبايعته⁶⁴⁶.

وقد اتخذت معارضة هذه الجماعة طابعا سياسيا في البداية برفض زعيمها يزيد بن فندين إمامة عبد الوهاب، ثم ما لبث أن تحول هذا الصراع إلى طابع ديني وأصبحت لها عقائد مناوئة ومختلفة عن المذهب الإباضي، وعن الإسلام عموما. منها أنهم قالوا إن حجة الله لا تقوم إلا بسماع، وأنكروا عذاب القبر⁶⁴⁷. كما قالوا بأن ولاية الله تتقلب بالأحوال، وأن الإمامة غير مفترضة ومن لم تبلغه دعوة الإسلام ودعا إلى دين سماوي آخر لا يجوز له أن يجيب. وقالوا إن صلاة الجمعة غير جائزة خلف أئمة الجور. وإن عطايا الملوك لا يحل أخذها. وإن الله لم يأمر بالنوافل. كما قالوا بلزوم العمل بالفرائض دون لزوم العلم بها. ولا من معرفتها شيء. وأن الحرام المجهول حلال⁶⁴⁸. كما قالوا بشرب الخمر على التقية. وقالوا لا تجوز إمامة أحد المسلمين وفي المسلم أفضل منه. وهذا الشرط هو الذي خالفوا فيه الإمام عبد الوهاب ورفضوا الاعتراف بإمامته⁶⁴⁹.

وتجدر الإشارة إلى أنه بظهور هذا الخلاف انقسم المجتمع الإباضي إلى فريقين، فريق النكار، وفريق الوهبة، وهذا الأخير وقف إلى جانب الإمام عبد الوهاب فسمي باسمه⁶⁵⁰. ورغم وصول الفتاوي من المشرق ببطلان أقوال النكارية في الإمامة، إلا أن الخلاف استمر ونشبت حروب بين الفريقين، انتهت بانتصار الوهبة وتفرق أتباع يزيد في بعض مدن المغرب الإسلامي. ولم ينته هذا الخلاف السياسي المذهبي بوفاة عبد الوهاب بل استمر لزمان طويل حيث ظلت بقاياهم في جبل أوراس، وجبل نفوسة، وبلاد الجريد، وغيرها. وظل الصراع قائما بينهما خاصة الصراع الفكري المتمثل في المناظرات التي كانت تعقد بين الطرفين.

646 - الشماخي: المصدر السابق، ص148؛ أطفيش: رسالة شافية، و4: يحيى هويدي: تاريخ فلسفة الإسلام، ج1، ص45.

647 - المارغني: فرق الإباضية، ص45؛ الوارجلاني: الدليل والبرهان، تحقيق سالم بن أحمد الحارثي، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1983، مج2، ص318؛ معمر: الإباضية دراسة مركزية في أصولهم، ص75.

648 - المارغني: المصدر نفسه، ص55؛ صابر طعيمة: الإباضية عقيدة ومذهب، دار الجيل، بيروت، 1986، ص52؛ معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص263.

649 - المارغني: المصدر نفسه والصفحة ذاتها، طعيمة: المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

650 - يرى البعض أن نسبة الوهبة تعود إلى عبد الله بن وهب الراسبي لا إلى الإمام عبد الوهاب لأن (ها) الوهاب مشددة وبعدها ألف ليس ذلك في لفظ الوهبة اللهم إلا أن يقال من ترخيم النسب شذوذا والواقع أن هذه التسمية لم تظهر قبل تأسيس الدولة الرستمية. ينظر: أطفيش: رسالة شافية، و44-45؛ مجهول: كتاب كشف الغمة فيما تشاجرت به الأمة (كشف الغمة وبيان كل فرقة)، ورقة94.

أما أعنف ثورة قام بها النكارية فهي ثورة أبي يزيد مخلص بن كيداد ابتداء من سنة 322هـ (933م)⁶⁵¹. فعندما انتشرت أفكاره وكثر أتباعه «أخذ على نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر»⁶⁵². ولما بلغ خبره الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله (322-334هـ) (933-945م)، أرسل في طلبه من عامله على قسطنطينية وتم زجه في السجن بمدينة توزر ولكنه تمكن بعد فترة زمنية قصيرة من الفرار بمساعدة أصحابه الذين اقتحموا أبواب السجن، حينئذ وبعد فك أغلاله بالحامة شرع في الترحال بين القبائل يستنفر أتباعه والبربر عامة لمحاربة الفاطميين، فنزل في قلعة بني درجين وجبل أوراس، واتصل ببني واركلا، وبني برزال، وبني زنداك، وفي الوقت نفسه كان الخليفة القائم يترصد ويتحسس أخباره ويرسل إليه الجيوش، لكنه لم يتمكن من توقيفه لسرعة تحركاته. واستمرت الثورة إلى عهد خليفته المنصور. ولا نريد أن نتناول بالتفصيل أحداث هذه الثورة والأشواط التي قطعتها لأن المصادر والمراجع أفاضت في الحديث عنها، ولكننا نريد أن نركز فقط على مساهمات سكان جبل نفوسة فيها، هل كانت مجرد تعاطف وتأييد ومساندة؟ أم كانت مدعمة بالسلاح والكرام والمجاهدين. خاصة بالنسبة للوهبية الذين هم على غير رأي النكارية ؟

إن النصوص المتوفرة لدينا تفيد بأن الإباضية الوهبية سواء في جبل نفوسة أم في غيره من المناطق كانوا غير معنيين بهذه الثورة. وبالتالي لم يشاركوا فيها. إذ إن مسارة بن غني - أحد أصحاب أبي يزيد - قال له: «لا تظن أن الوهبية خرجوا معك فإنهم في مساجدهم»⁶⁵³. ومن خلال هذا النص يتبين لنا أن الوهبية لم يشاركوا في هذه الثورة. وحتى قبيل قيامها كان الوهبية لا يختلطون بالنكارية كنوع من المقاطعة. فقد روي الدرجيني أن عالما من علماء الإباضية يدعى «أبو الربيع» خرج برفقة أبي يزيد. وأثناء مرورهم بحي من أحياء الوهبية لم يكثرثوا بهما. وعندما مر بالنكارية أكرمهما وأحسنوا استقبالهما⁶⁵⁴.

651 - هو مخلص بن كيداد بن سعد بن مغيث بن كرمان بن مخلص بن عثمان بن وريث بن حونيفر بن سميدان بن يفر بن جانا، وكنيته أبو يزيد. وهو من بني واركو إخوة مرجيصة من بطون بني يفر الزناتية. ولد بمدينة كوكو السودانية. ولما عاد أبوه منها أصبح أبو يزيد يتردد بين توزر وبين تقيوس من بلاد الجريد فحفظ القرآن وخالط النكارية فتأثر بمذاهبهم ومال إلى اعتقاداتهم. ثم أنشأ مدرسة في توزر لتعليم الصبيان ثم انتقل إلى تاهرت ثم عاد إلى تقيوس. وظل يعلم بها إلى أن بدأ دعوته إلى الثورة ضد العبيديين. ينظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص216؛ ابن خلدون: العبر، مج7، ص26؛ ابن أبي دينار: المؤنس، ص57-58.

652 - ابن خلدون: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص84؛ ابن الأثير: الكامل، مج8، ص422.

653 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص105.

654 - المصدر نفسه والجزء ذاته، ص110-111.

وتضيف المصادر كذلك أن أبا يزيد عندما توجه إلى الحج بعد فراره من عبيد الله المهدي طوّل بمكس فاستعظمه. فلما عاد ووصل قرب جبل نفوسة فارقه من كان معه من أهل الجبل قاصدين منازلهم فقال لهم: «إقرأوا إخواننا السلام وقولوا لهم قد فاتنا منكم كثير وفاتكم منا كثير، وإنه ليس الله علينا أن نشترى حجة». يشير بهذا إلى المكس الذي طوّل به، ويريد بهذه الرسالة اختلاف القلوب⁶⁵⁵.

وقد استمر هذا الصراع والخلاف. فالمصادر تشير إلى نزاعات بين الفريقين بلغت درجة الحروب، وإلى مناظرات بينهما دعت إلى حمل السيوف، فقد ناظر وهبي نكاري من مدينة توزر، وجرى بينهما نقاش وجدل بلغ درجة الشتم ثم ما لبث أن تحول إلى حرب عندما اشتكى كل واحد منهما لحيه، وانهزم فيها النكارية وتبعهم الوهبية إلى غاية تقيوس وحاصروها، وانتهى القتال في الأخير بهزيمة الوهبية⁶⁵⁶.

كما حاصر الوهبية النكار علميا فضايقوهم في حلقاتهم العلمية بعقدتهم لخلقات موازية. فقد روي أن أبا صالح بكر بن قاسم اليراسني (اليهراسني) لما سمع بان النكار استولوا على جبل دمر بحلقة، فخرج من جربة وكابد صعود الجبال - لتقدمه في السن - إلى أن وصل إلى زيري بن كملين - رئيس أهل الجبل - فلامه وعاتبه⁶⁵⁷.

واختار بعض العلماء وسيلة أخرى لمحاربة الفكر النكاري وهي أنهم رفعوا الأعلام بدل السيوف والجنود للتأليف للرد على أباطيلهم. فقد وضع محمد بن أبي خالد إثني عشر كتابا يرد فيها على من أنكر إمامة عبد الوهاب⁶⁵⁸.

وكانت الرسائل تبعث من علماء الوهبية إلى كافة الوهبية أينما كانوا سواء في الجبل أم في غيره من المناطق تحذروهم من مغبة فسح المجال للنكار لكي ينشطوا علميا، ويكثرؤا من حلقات الدرس، وقد حفظت لنا المصادر نصوص رسائل منها رسالة أبي القاسم يونس بن أبي زكريا إلى أبي مكحول الزنزفي يقول له فيها: «أما بعد فإني سمعت أن جماعة من النكار طلّعوا قبلكم فإياكم ثم إياكم أن يردوا أرضكم، ولو للضيافة فإن القوم أذعن للأمة، وأنت من لا يحتاج إلى أن يوصى»⁶⁵⁹. ويروي كذلك أن أبا مسور يسجا بن يوجين اليراسني (اليهراسني) الساكن بجربة تعرض لأذى النكار فجاءته ثلاث رسائل

655 - نفسه، ص97.

656 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص227-228؛ الشماخي: السير، ص359.

657 - الوسياني: السير، ج2، و15؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص357؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص368.

658 - الوسياني: المصدر نفسه والجزء ذاته، و37؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص418.

659 - الشماخي: المصدر نفسه، ص408-49؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص420.

من وهبية نفوسة، وزواغة، وجبل دمر تتفق كلها في المحتوى. وما جاء فيها: «بلغنا أن النكار يسيئون إليك فإن صح نصرناك بعسكر أوله عندك وآخره عندنا»⁶⁶⁰. ورغم أن أبا مسور لم يشتك من أذاهم، إلا أن الرسائل جاءت تباعا، وكأنهم اتفقوا وتواعدوا مما جعل النكار يزدادون رعبا فأصبحوا يحترمونه ويوقرونه.

وقد انتقل هذا الصراع كذلك إلى المساجد حيث كانت الفرقتان تتنازعان حول إمامة الصلاة فيها⁶⁶¹ بل إن علماء الوهبة كانوا يرفضون الزواج منهم⁶⁶². وقد تعرض علماء الوهبة لمحاولات اغتيال من قبل النكار مثلما حدث لأبي القاسم يزيد بن مخلد⁶⁶³.

والآن وبعد كل هذه الشواهد التاريخية يبدو لنا من الوجهة الموضوعية والمنطقية أن وهبية الجبل لم يشاركوا في هذه الثورة بأي حال من الأحوال رغم أن العدو مشترك، ورغم وجود بعض الإشارات وهي قليلة يبدي فيها الوهبة تسامحا كبيرا مع مخالفهم من النكار. فالشماخي يذكر أنه لما جاز أبو الربيع سليمان بن زرقون⁶⁶⁴ على قرية «ريصو» فوجد⁶⁶⁵ بها أربع فرق من الإباضية: وهبية، وخلفية، ونكارية، ونفائية، فأمر القضاء والأحكام لأبي الخطاب وسيل بن سنتين الزواجي، والفتيا للنكار، وإمامة الصلاة في رمضان للنكارية، والأذان للنفائية.

وإذا كان ليفيسكي يرى بأن نفوسة قد زودت أبا يزيد بفرق من الجند سنة 333هـ (944م)⁶⁶⁶ فإن مؤرخي الإباضية الوهبية يجزمون بأنه لم يتلق أية مساعدة منهم. فأبو عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس - وهو أحد رؤساء أهل الدعوة في ذلك الوقت - لم يقم بأي تصرف يوحى بتقديم يد المساعدة. ذلك أن جرائمه تبرأ منها الوهبية. ولعل هذا الانقسام وهذا التباين هو الذي حال دون استفادة سكان الجبل - وهيبتهم على الأقل - من هذه الفرصة التي أتاحها لهم هذه الثورة للانتقام من قتلة الإمام يقظان. وعلى الرغم من استقلالهم المذهبي عن الفاطميين إلا أنهم استكانوا على عكس السنة

660 - الشماخي: المصدر نفسه، ص. 345.

١١١ - الوسياني: السير، ج ١، و ١٤.

662 - ذكر أن رجلا من أهل جربة أراد أن يزوج ابنته لرجل من النكار فكرهت ذلك ولم ترض فشكته إلى المشائخ فاستخلف أحدهما فزوجها للآخر ولما سمع والدها راح يصيح: «يا للوهبية لا نكاح إلا بولي». ينظر: الوسياني: المصدر نفسه، ج 2، و 63.

663 - الشماخي: السير، ص. 347.

664 - هو أحد علماء الإباضية الوهبية تصنفه المصادر ضمن علماء الطبقة السابعة (300-350هـ) ولد في قرية «تايدوت» بجبل تيرشوين بجبل نفوسة. ينظر: الدرجيني: طبقات المائخ، ج 1، ص 109.

665 - الشماخي: المصدر السابق، ص 281+282.

666 - T. Lewicki: Les hakims, p102.

الذين استغلوها وشاركوا فيها بدعوى من علمائهم بالقيروان. ومع ذلك فإننا نعتقد أن نكارية الجبل قد شاركوا فيها خاصة وأنها نعلم أنهم كانوا منتشرين في مجموعة من القرى مثل: يفرن، ككلة، بابل، تاكبال، وهو ما أشار إليه ابن خلدون في حديثه عن حصار أبي يزيد للمهدية حيث ذكر أن بربر قابس، وطرابلس، ونفوسة، شاركوا في هذا الحصار⁶⁶⁷. وإذا كان الشماخي يذكر تسمية أخرى للنكار وهي مستاوة⁶⁶⁸ فإن الباروني يوضح بأن مستاوة - وهي فرقة غير معروفة - تنسب إلى عالم يدعى عبد الله بن يزيد المستاوي، وإن الحسنية التي تنسب لأحمد بن الحسين وكلاتها تنكر إمامة عبد الوهاب⁶⁶⁹.

ويبدو أن مساهمة نكارية الجبل كانت محدودة لأن المصادر التاريخية الإباضية - وأغلبها وهبية - لم تتحدث عنها ولو بإشارة واحدة. وربما كان إهمالها مقصود. ضف إلى ذلك أن هذه المساعدات - إن كانت حقا - لم تؤد إلى تأزم الوضع في هذه الجهة. ولم نسمع عن قيام عصيان أو تمرد أو حتى عن حملات تأديبية فاطمية بعد فشل الثورة. ولا تتحدث المصادر المتوفرة عن مثل هذا منذ تعيين زيان الصقلي عاملا على طرابلس في خلافة المنصور حيث أحسن السيرة، وظل على ولايتها حتى خلافة المعز لدين الله⁶⁷⁰.

د - ثورة الوهبة 358هـ (968م):

يعد مقتل أبي القاسم يزيد بن مخلد⁶⁷¹ الشرارة الأولى التي أدت إلى ثوران الإباضية الوهبية ضد خلفاء بني عبيد. فقد عرف هذا الشيخ بعلمه وأدبه، واشتهر في القيروان في زمن المعز لدين الله حتى إنه «إذا دخلها اضطربت المدينة يسألونه عن المشكلات ويستفتونه، بل يدخرونها لوروده من موافق ومخالف»⁶⁷². فلا غرابة إذن أن يقول فيه المعز: «أما يزيد بن مخلد فلم تلد العرب مثله»⁶⁷³. ولذلك فقد قربه المعز وأشركه في مجالسه لمناظرة علماء النحل الأخرى. ورغم هذه الحظوة التي نالها أبو القاسم إلا أن المعز ظل

667 - ينظر: العبر، مج 7، ص 30.

668 - ينظر: السير، ص 282.

669 - ينظر: مختصر تاريخ الإباضية، ص 54.

670 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص 151.

671 - هو عالم من علماء الطبقة السابعة (300-350هـ) ولد في مدينة الحامة ببلاد الجريد، وفيها تتلمذ على كبار شيوخها مثل سحنون بن أيوب وأبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ثم انتقل إلى القيروان ومنها إلى سجلماسة ثم عاد في الأخير إلى القيروان وعكف على مطالعة الكتب ودراساتها رفقة أبي خزر يغلي بن زلتاف. ينظر: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 1، ص 119-120، معمر: الإباضية في ليبيا، ص 51-52، صالح باجبة: الإباضية بالجريد، ص 126.

672 - الشماخي: السير، ص 347.

673 - الدرجيني: المصدر السابق، ج 1، ص 132، المجدوب: الصراع المذهبي، ص 217.

يخشاه ويهابه نظرا لمكانته عند الإباضية، فكان دأبه مراقبة تحركاته وتحركات غيره من العلماء ذوي النفوذ والشهرة. وكثرت الروايات ضده خاصة من وزراء المعز يحذرونه من خروجه عليه خاصة وأنه كان كل ربيع يخرج رفقة المشائخ إلى مواطن قبيلة مزاتة الإباضية. وكانت هذه الأخيرة - كما سبق الذكر - قوة كبيرة قدرت بإثني عشر ألف فارس⁶⁷⁴.

ولما كثرت التحذيرات أرسل المعز إلى عامله على مدينة الحامة يأمره بقتله. وتذكر المصادر أن هذا العامل كان معجبا بشخصية أبي القاسم ولذلك لم ينفذ أمره بل نراه ناصحا له بالسفر إلى مصر أو إلى وارجلان للحيلولة دون الوقوع في أيدي جند المعز. ولما تباطأ أرسل المعز سرية من الجند لتتمكن في النهاية من قتله⁶⁷⁵.

وبلغ مقتله مبلغا عظيما في أهل الدعوة فاتفقوا على القيام بالثأر له. وبدأ شيوخ الوهبة يتصلون بإخوانهم في مختلف مواطن للتنسيق بينهم والإعداد للثورة. ومن الرسل الذين أرسلوا إلى الجبل لهذا الغرض أبو نوح سعيد بن زنگيل. جاء ليستشير أبا عبد الله بن أبي عمرو حاكم الجبل. وليطلع على ما يمكن أن تساهم به نفوسة. وقد وعده هذا الأخير بتقديم العون. رغم ضعفهم بعد مانو. ثم توجه أبو نوح إلى جزيرة جربة لاستنفار إباضيتها. ولكن شيخهم أبا صالح اليهراسني أبدى تخوفا من هذه المغامرة لأن العبيديين كانوا أكثر عددا وعدة وأجابه قائلا له: «ليس لكم في مزاتة ما تقومون به»⁶⁷⁶. وأخبر أبو نوح أبا خزر بنتائج اتصالاته. ويبدو أن هذه النتائج غير المشجعة هي التي جعلتهم يتصلون بأمويي الأندلس. ويطلبون منهم النصرة والعون خاصة وأن علاقاتهم مع العبيديين كانت متوترة جدا حيث قامت مراكب أندلسية بأعمال قرصنة ضد بعض السفن الفاطمية. وفي المقابل غزا الأسطول الفاطمي مدينة المرية وأحرق المراكب الراسية في مينائها مما جعل الناصر يستنجد بالروم⁶⁷⁷.

وتذكر المصادر أن المعز لدين الله اكتشف مراسلاتهم دون أن توضح كيفية بلوغها إليه. ولا نستبعد أن يكون للنكار يد في ذلك للانتقام من الوهبة الذين لم يؤازروهم في ثورتهم. وشعر المعز بالخطر الذي يحدق به فبعث إليهم يدعوهم إلى المسالمة. ويطلب

674 - الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص124.

675 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص139؛ المجدوب: المرجع السابق، ص217؛ سنوسي يوسف إبراهيم: زناتة والخلافة الفاطمية، شركة سعيد رأفت للطباعة، ط1، القاهرة، 1986، ص273.

676 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص202.

677 - لمزيد من الاطلاع على الصراع الفاطمي - الأموي في عصر المعز، ينظر: القاضي النعمان: كتاب المجالس والمسائرات، تحقيق: الحبيب الفقي - إبراهيم شيوخ - محمد اليعلاوي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1978، ص164 وما بعدها.

منهم أن يعودوا إلى بلادهم التي تولوها من تاهرت وبلاد الجريد. حينئذ أرسل المشائخ أبا محمد جمال إلى الزاب وأريغ ليستنفروا إباضيتها. وبويع أبا خزر إماما للدفاع على أمل أن يولوه إمامة الظهور إن كان النصر حليفهم⁶⁷⁸.

وبادر أبو خزر بالهجوم على باغاية قبل أن تلتحق فرق الزاب وأريغ ووارجلان. ورغم أن المواجهة المصيرية لن تبدأ بعد فجد أن فحذا من مزاتة (بنو يليان) انسحب من جيشه بعد أن أغراهم عرض سكان باغاية والمتمثل في حصولهم على مال كثير مقابل الانسحاب. وانهزم الجيش وفر أبو خزر إلى جبل نفوسة واختفى هناك في جبل «تلتماجرت». أما أبو نوح فقد تنكر بزي الرعاة. وأما إباضية المغرب الأوسط فقد عادوا من حيث أتوا لما علموا بما وقع لإخوانهم وكانوا على مقربة من باغاية إذ لم يبق لهم من المسير سوى نصف يوم⁶⁷⁹.

وأرسل المعز في طلبهما فألقى القبض على أبي نوح وزج به في السجن. لأنه كان يعتقد أنه هو الذي راسل بني أمية⁶⁸⁰. أما أبو خزر فقد أمنه الخليفة⁶⁸¹ فسار إليه إلى القيروان في الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة 359هـ (969م) حيث رفع مرة أخرى منزلته وأصبح مجلسه على سريرته دون بقية المجالس. كما بعث المعز إلى أقاليم الوهبة كلها بأمان⁶⁸².

ولما عزم المعز على الانتقال إلى مصر أراد أن يصحبهما معه ربما لتخوفه من بقائهما بين إخوانهم. فالمصادر تذكر أنه لما علم المعز بقدم أبي خزر من نفوسة أرسل أبا نوح ومعه ثمانون فارسا من مزاتة لاستقباله في قابس. طعن جلساؤه في تزويده بهذه القوة إذ قالوا له: «إن أبا نوح أصاب ثمانين فارسا - كما طلب - يمنع أبا خزر إن أراد ذلك» فتفطن المعز لذلك وأرسل وراءهم من يقلل عدد الفرسان⁶⁸³.

ومهما يكن من أمر فقد قبل أبو خزر الدعوة، ورفضها أبو نوح. وانتقل الأول إلى مصر وأقطع المعز أرضا رغم أن أهل الدعوة كانوا يحذون بقاؤه بينهم. وتذكر المصادر أن جماعة من الإباضية فرت من جيش المعز حينما خرج في طريقه إلى مصر. والتحققت

678 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص202؛ الشماخي: السير، ص350؛ مرمول: السياسة الداخلية، ص182.

679 - الشماخي: المصدر نفسه، ص351.

680 - دبر أحد يهود المعز حيلة للتأكد من كاتب الرسالة بأن أعطى أبا نوح ورقا ومحبرة لكي يكتب طلب عفو من المعز حتى يقارن بين الرسالتين ولكن هذا الأخير تفطن للحيلة فغير الخط. ينظر: أبو زكريا: المصدر السابق، ص207-208.

681 - يذكر ابن الأثير أن أبا خزر هو الذي طلب الدخول في الطاعة. ينظر: الكامل، مج8، ص599.

682 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص136؛ مرمول: السياسة الداخلية، ص183-184.

683 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص213-214.

بالجبل⁶⁸⁴ وبذلك تنتهي مرحلة من مراحل الصراع لتبدأ مرحلة أخرى مع بني زيري. وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن مصادرها لم تتحدث عن حجم القوات النفوسية التي شاركت في المعركة. هذا إن شاركت أصلاً. وربما لم تصل إلى باغاية مثل أهل أريغ ووارجلان. كما تشير بعض الروايات إلى مشاركة النكارية⁶⁸⁵ على الرغم من أن المصادر الوهبية لا تذكر ذلك.

الفصل الثاني

نفوسة الجبل والصراع الفاطمي - الزيري

- 1 - رحيل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر.
- 2 - علاقات إباضة الجبل ببني زيري.
 - أ - قيام الإمارة الزيرية.
 - ب - النفوسيون وبني زيري.
- 3 - استراتيجيات جديدة للفاطميين.
- 4 - جوغراف والهجرة إلى المجهول.



684 - ابن الأثير: الكامل، مج8، ص621؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص159؛ الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ص50؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص257.
685 - ابن الأثير: المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص598.

1 - رحيل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر:

سبقت الإشارة إلى أن الفاطميين منذ أن تمكنوا من الاستيلاء على بلاد المغرب، والقضاء على دولة بني مدرار بسجلماسة، ودولة بني رستم بتاهرت، والأغالبة بقرقادة، ظلوا يخططون ويمهدون للانتقال إلى مصر ليتخذوها قاعدة لهم ينطلقون منها إلى الحجاز. ذلك أن الدخول إلى مصر يسهل لهم السيطرة على الأماكن المقدسة - قبله المسلمين من مختلف أصقاع العالم الإسلامي - وعلى أهم الحواضر الإسلامية كدمشق، وبغداد عاصمة العباسيين. فلا غرو إذن أن أولى بنو عبيد عناية خاصة لهذا المشروع منذ تأسيس دولتهم بالمغرب سنة 296هـ (909م). ومبايعة عبيد الله المهدي بالخلافة، على الرغم من أن البربر لم يخضعوا نهائياً لسلطانهم خاصة بربر زناتة.

فقد جهز عبيد الله المهدي ثلاث حملات عسكرية لفتح مصر كانت الأولى سنة 301هـ (913م)، والثانية سنة 306هـ (918م) أو سنة 307هـ (919م).⁶⁸⁶ والثالثة سنة 322هـ أو 323هـ (933م) و(934م).⁶⁸⁷ ففي الحملة الأولى سير ابنه أبا القاسم محمد فأستولى على الإسكندرية والفيوم، وتمكن من جباية خراجها وخراج بعض أعمال الصعيد، لكنه أرغم على الجلاء والعودة إلى بلاد المغرب بعد أن انهزم أمام الجيش الذي أرسله الخليفة العباسي المقتدر (295-320هـ) (907-932م) بقيادة مؤنس الخادم.⁶⁸⁸ أما الحملة الثانية فقد فشلت فشلاً ذريعاً لأن المقتدر وجه لمواجهة مؤنس الخادم مرة أخرى حيث اشتبك مع حباسة بن يوسف الكتامي - أحد قواد كتامة - وهزمه.⁶⁸⁹ ولم تكن هذه الحملات برية فقط بل كانت بحرية كذلك إذ أن الأسطول كان يبحر على الساحل بجوار المشاة. ففي الحملة الثانية وصل ثمانون مركباً من المغرب لنجدة أبي القاسم لتواجه خمسة وعشرين مركباً أرسلها المقتدر من طرسوس.⁶⁹⁰

686 - الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد، ص23؛ محمد بن عميرة: دور زناتة، ص238؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج3، ص145.

687 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص209؛ أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، ص247. أرسل هذه الحملة في أواخر أيامه، ذلك أنه توفي يوم الإثنين الرابع عشر من ربيع الأول من هذه السنة.

688 - الصنهاجي: المصدر السابق، ص23؛ الوزير السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970، ج1، ص896.

689 - الصنهاجي: المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

690 - الوزير السراج: المصدر السابق، ج1، ص897؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج3، ص145.

وقد استغرقت كل حملة سنتين على الأقل. وكان مصيرها الفشل الذريع. وحتى الحملة التي سيرها عبيد الله سنة 322هـ لم تحقق له ما كان يصبو إليه. إذ تمكن الأمير الإخشيد العباس بن محمد بن طفج الإخشيد من صدها⁶⁹¹.

وتجدر الإشارة في هذا المضمار إلى أن الخلافة العباسية كانت متفطنة لهذا الخطر الفاطمي خاصة وأنها كانت من القوة بحيث تمكنت من صد هذه الحملات. وتوقفت الحملات نتيجة انشغال الخليفين القائم بأمر الله (322-334هـ) (933-945م) والمنصور (334-341هـ) (945-952م) بإخماد ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى. ورغم ذلك لم يحل دون قيام الفاطميين بمحاولات أخرى ولكنها ليست عسكرية. فقد اتصل القائم بمحمد الإخشيد عدة مرات محاولاً كسبه واستمالته ليقطع الخطبة لبني العباس. وكاد أن ينجح خاصة عندما ساءت العلاقات بينه وبين الخليفة العباسي الرازي (322-329هـ) (933-940م). لولا أن تراجع الإخشيد عن هذه الفكرة لأن عواقبها غير محمود⁶⁹².

وبعد القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد، بعثت فكرة إعادة المحاولة من جديد إبان خلافة المعز لدين الله (341-362هـ) (952-972م). حيث أمر بحفر الآبار وبناء الحصون والقصور على طول الطريق المؤدي إلى مصر. ونعتقد أن هذه الحصون هي نفسها التي أشار إليها المراكشي في قوله: «ما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب خمسة وأربعون مرحلة. وكانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان تمتشي فيها القوافل ليلاً ونهاراً. وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة جداً، فإذا ظهر في البحر عدو ونور كل حصن للحصن الذي يليه، واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية، أو من الإسكندرية على طرابلس في ثلاث... أو ربع ساعات من الليل فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم»⁶⁹³.

ولما بلغته الأخبار بوفاة كافور الإخشيد حاكم مصر أواخر جمادى الآخرة سنة 355هـ (955-956م). واضطراب الأمن في ولايته، وانشغال العباسيين بمشاكلهم الداخلية. خاصة وأن قيام دولة معادية لهم مثل الحمدانيين في الشمال، والقرامطة في

691 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 209.
العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص 248.
692 - العبّادي: المرجع نفسه والصفحة ذاتها.
693 - ينظر: تاريخ الأندلس المسمى، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الطبعة الجمالية، ط 1، القاهرة، 1914، ص 196.

الجنوب، حال دون وصول جيوشهم إلى مصر لصد الخطر الشيعي كما كانوا يفعلون في السابق⁶⁹⁴. وفي هذه الأثناء كان جوهر قد خرج على رأس حملة إلى المغرب. ولما عاد في أواخر محرم سنة 358هـ (969م) ومعه الرجال والأموال أمره المعز بالخروج إلى مصر⁶⁹⁵. ويمكننا أن نشير هنا إلى أن عاملاً مهماً شجع الخليفة الفاطمي على إنفاذ هذا الجيش، وهو أن جماعة من مصر كتبت إلى المعز تستدعيه وتطلب منه التعجيل في إرسال العساكر إليهم⁶⁹⁶. ولاشك أن هذه الجماعة هي من بعثهم المعز إلى مصر لتحسس الأخبار ونشر الدعوة الشيعية وإطلاعه عن الأوضاع هناك.

حشد المعز الجيوش وجمع الأموال اللازمة، فأنفق في العسكر الخارج مع جوهر أموالاً كثيرة، وغمرهم بالعطاء لشراء جميع ما يحتاجونه ورحلوا ومعهم ألف حمل من المال والسلاح⁶⁹⁷. وخرج الجيش من القيروان في 14 ربيع الأول سنة 358هـ (5 فبراير 969م) تصحبه بعض القطع البحرية من المهديّة. وأمر المعز أولاده وأخوته الأمراء وسائر رجال الدولة أن يترجلوا مشاة في أثناء تشييع جوهر وهو راكب إجلالاً وتقديراً له. وأرسل لسائر عماله يأمرهم أن يترجلوا مشاة حين مروره. ولما وصل برقة أنف «أفلح بن ناشب الكتامي» - عامله عليها - من الترجل فأعطى لجوهر خمسين ألف دينار ذهباً مقابل إعفائه، ولكن جوهر ردها إليه وفرض عليه الترجل كسائر العمال والقواد⁶⁹⁸.

وكان المعز واثقاً من أن هذا الجيش سيحقق له الحلم الذي ظل يراوده ويراد جده عبيد الله. ولذلك قال المشائخ المتوجهين مع جوهر: «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر. ولتدخلن مصر بالأردية من غير حرب»⁶⁹⁹. وبعد مسير خمسة أشهر دخل جوهر مصر يوم الثلاثاء 17 من شعبان سنة 358هـ. ولم يعان كثيراً في فتحها إذ كانت الظروف مواتية. وتمكن من القضاء على المقاومة الإخشيدية بسهولة خاصة وأن أغلب أعيان الإخشيد كانوا قد فروا من مصر إلى الشام قبل وصول جوهر⁷⁰⁰. ضف إلى ذلك

694 - حسن إبراهيم حسن: تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله، مطبعة السعادة، ط 2، القاهرة، 1963، ص 23-24؛ العبّادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص 248-249؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص 253؛ بن عميرة: دور زناتة، ص 238.
695 - ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت)، مج 5، ص 266؛ حسن إبراهيم حسن: المرجع نفسه، ص 29.
696 - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج 4، ص 24.
697 - ابن خلكان: المصدر السابق، مج 5، ص 226؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ جوهر الصقلي، ص 29.
698 - ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 4، ص 28-29؛ ابن الضياف: أخاف أهل الزمان، ج 1، ص 160؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص 254.
699 - ابن أبي الضياف: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 160.
700 - الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد، ص 50؛ العبّادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص 250.

أنه في هذه السنة انتشر الوباء ف قضى على حياة الآلاف من الناس. وحدث غلاء عظيم بالبلاد⁷⁰¹.

وأرسل جوهر إلى مولاه يبشره بالفتح ودخوله إلى الديار المصرية ويحثه على المسير إليه. ثم سير إليه من يخبره بانتظام الأمور في مصر والشام والحجاز، وإقامة الدعوة له في هذه البقاع فسر المعز بذلك⁷⁰². ولم يبق للمعز إذن إلا الرحيل فخرج في 22 شوال سنة 361هـ (971م) من المنصورة إلى سردانية، وأقام بها لكي يلتحق بها رجاله وعماله وأهل بيته، وكل ما كان له في قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك⁷⁰³.

وقبل أن يرحل إلى مصر نظر فيمن يوليه أمر إفريقية والمغرب من له مقدرة في الرئاسة وصدق في التشيع، فوقع اختياره على بلكين بن زيري بن مناد. ويمكننا أن نشير هنا إلى أن المعز استقدم في البداية جعفر بن علي بن حمدون وعرض عليه أن يكون نائبه في هذه البلاد، ولكن هذا الأخير اشترط شروطاً جعله شبه مستقل عن مصر، إذ قال له: «أترك معي أحد أولادك أو اخوتك يجلس في القصر، وأنا أدبر ولا تسأل عن شيء من الأموال، لأن ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه، وإذا أردت أمراً فعلته دون انتظار ورود أمرك فيه، لبعد ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلى»⁷⁰⁴ فقبلت شروطه هذه بالرفض وغضب المعز لذلك حتى إنه قال له: «يا جعفر عزلتني عن ملكي وأردت أن تجعل لي فيه شريكا في أمري، واستبددت بالأعمال والأموال دوني، قم فقد أخطأت حظك»⁷⁰⁵.

ورست في الأخير نيابة الفاطميين في بلاد المغرب على بلكين بن زيري، وكان حينئذ متوغلا في المغرب منشغلا بإخماد الاضطرابات، وتمكن المعز من إقناع بلكين بعد ترده، وقلص من اختصاصاته، فلم يجعل له الحكم على صقلية، وطرابلس، وأجدابية، وسرت، فقد عين على صقلية حسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي، وعلى طرابلس عبد الله

بن ي خلف الكتامي⁷⁰⁶. وجعل على جباية أموال إفريقية زيادة الله بالانقياد لبلكين⁷⁰⁷. ونلاحظ أن المعز عينه واليا للحرب فقط، إذ جرده من ولاية القضاء، وجباية الضرائب، وأوصاه بأن لا يرفع السيف عن البربر، والجباية عن أهل البادية، ولا يولي أحد من أهله. وعهد إليه غزو المغرب وإخضاعه واستئصال النفوذ الأموي فيه⁷⁰⁸.

وفي يوم الأربعاء العاشر من ربيع الأول سنة 362هـ (972م) خرج المعز من قابس - بعد أن ودعه بلكين في نواحي صفاقس - في طريقه إلى مصر، فدخل طرابلس يوم الأربعاء 24 من الشهر المذكور. وفي أثناء مسيره من طرابلس إلى برقة فرت جماعة من الإياضية لتلتحق بإخوانها من أهل الدعوة في الجبل، وقد طاردهم المعز لكنه لم يتمكن من إعادتهم إلى جنده⁷⁰⁹. بينما ارحل أبو خزر - أحد علماء المذهب البارزين - رفقة المعز رغم استياء إخوانه من قبيلة «لماية». في حين تمارض أبو نوح حتى لا يفارق أهل مذهبه. وكان المعز يهدف من وراء استصحابهما معه إلى مصر للحيلولة دون خروجهما مرة أخرى على نوابه في بلاد المغرب⁷¹⁰. ووصل المعز إلى مصر يوم السبت الثاني من رمضان سنة 362هـ (972م).

ويستشف مما سبق ذكره أن خلافا حدث بين أبي خزر وأبي نوح فيما يخص تأييد أو مواصلة معارضة الفاطميين. ويبدو أن الإياضية الذين التحقوا بالجبل كانوا عرضة للضغوط التي مارسها عليهم الشيوخ المناوئون لتطبيع العلاقات مع الفاطميين.

2 - علاقات إياضية الجبل ببني زيري:

أ - قيام الإمارة الزيرية:

ظل بنو زيري يحكمون إفريقية باسم الفاطميين. وكان أول عمل قام به بلكين هو غزو المغرب الأقصى - كما أوصاه المعز لدين الله - للقضاء على النفوذ الأموي فيه، وإعادة السكينة والاستقرار إلى بلاد المغرب، خاصة وأن توليته الإمارة قد أثارت حفيظة

706 - ابن خلدون: العبر، مج6، ص318؛ النويري: نهاية الإرب، ج24، ص169؛ Farhat Dachraoui: Le Califat Fatimide, p274.

707 - ابن الأثير: الكامل، مج6، ص620-621.

708 - ابن خلدون: المصدر السابق، مج6، ص318؛ النويري: المصدر السابق، ج24، ص170؛ الوزير السراج: الحلل السندسية، ج1، ص937؛ محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1976، ص225؛ محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، (د.ت)، القاهرة، 1970، ص188؛ بن عميرة: دور زناتة، ص239-240.

709 - الباروني: مختصر تاريخ الإياضية، ص50؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص159.

710 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص138.

701 - ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج5، ص226.

702 - المصدر نفسه والمجلد والصفحة ذاتهما.

703 - ابن أبي دينا: المؤنس، ص65؛ النويري: نهاية الإرب، ج24، ص155؛ ابن خلكان: المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص227؛ القرشي: تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص717؛ الوزير السراج: الحلل السندسية، ج1، ص916؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص159؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص256؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج3، ص150.

704 - ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان، ج1، ص162؛ العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص315.

705 - المصدر نفسه والجزء والصفحة ذاتهما؛ المرجع نفسه والصفحة ذاتها؛ إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر (تكوينها الإسلامي والعربي)، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، 1970، ص267.

منافسه جعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب، حيث شق عصا الطاعة للفاطميين، والتحق بالأمويين في الاندلس طالبا اللجوء في بلاط الخليفة المستنصر (350-366هـ) (961-976م). كما خرجت عليه قبيلة زناتة، وثار عليه سكان تاهرت⁷¹¹.

ولما توفي أبو الفتوح سنة 373هـ (1080م) في طريق عودته إلى إفريقية بين سجلماصة وتلمسان خلفه ابنه أبو الفتوح المنصور بن بلكين في أوائل سنة 374هـ (1081م). وجاءه التقليد من الخليفة الفاطمي العزيز بالله (365-386هـ) (975-996م). فواصل سياسة أبيه في محاربة زناتة المغرب الأقصى، واستمالة بعض بطونهم لتفتيت صفوفهم. وقد انضم فعلا فريق منهم إلى المنصور بن بلكين، ومنهم سعيد بن خزون الذي وفد إليه سنة 379هـ (1086م). فولاه على مدينة طنجة، وتزوج ابنه وروا من ابنة أبي الفتوح. وفي عهد المنصور بدأت الخلافات تتوتر بين الإمارة والفاطميين في مصر. حيث برزت نزعة الاستقلالية إلى السطح، فعندما تسلم المنصور كتاب الولاية قال للذين جاءوا لتنهئته بأشير عندما كان واليا عليها: «إن أبي وجدي أخذنا الناس بالسيف قهرا، وأنا لا أخذهم إلا بالإحسان. وما أنا في هذا الملك من يولى بكتاب ويعزل بكتاب لأني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير»⁷¹².

ويتضح من كلام المنصور أنه كان يميل إلى الاستقلال عن مصر، وأن الخليفة الفاطمي لا يحق له عزله، فهو ليس من يولى بكتاب ويعزل بجرة قلم. وقد أحس العزيز باشتداد بأسه وقوته فبدأ يخطط ويعمل على إضعافه وزعزعة استقرار إمارته ببث الفوضى والعصيان بين القبائل خاصة كتامة التي ظلت وفية للدعوة الفاطمية. وأرسل العزيز داعية إلى قبيلة كتامة يدعى «أبو الفهم» واسمه «حسن بن نصر» يدعوهم إلى طاعته والوقوف إلى جانبه لحمايته إن حدث له مكروه. وكان الهدف من ذلك هو استمالة كتامة ليتمكن من محاربة المنصور وبالتالي استخلاص إفريقية منه. وقد وصل هذا الداعية إلى كتامة، وتمكن من تحقيق نجاح معتبر حيث كثر أتباعه واشتد بأسه وعظمت شوكته. وقد أزعج هذا التصرف المنصور، فأرسل إلى العزيز يخبره بأمر هذا الداعية، فكان رده أن أوفد إليه رسولين يحملان رسالة منه يمنعه فيها من التعرض لأبي الفهم وكتامة

711 - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص556.

712 - ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص240؛ النويري: نهاية الإرب، ج24، ص177-178؛ ابن الأثير: الكامل، مج9، ص34؛ جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص225؛ العبادي: في التاريخ العباسي، ص317؛ إسماعيل العربي: دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية (ش و ن ت)، الجزائر، 1980، ص75-76.

George Marcais: La Berberie Musulmane et l'orient au moyen age Imprimerie Typolithom Edition 160-Montaigne, Alger 1946, p159.

وأمره أن يتركه وشأنه⁷¹³. وقد استقبلهما المنصور استقبالا فاترا أغلظ فيه الكلام لهما وللعزيز، ثم جهز جيشا واجه به إلى بلاد كتامة للقضاء على هذا الداعية قبل أن يتفاقم خطره. وتمكن من إلحاق الهزيمة بأتباعه، في حين فر هو لائذا بجبل صعب المسالك يقع في منازل كتامة، ونزل عند أناس يقال لهم «بنو إبراهيم» وبعد تهديد هؤلاء بالقتال أرسل المنصور سرية فأمسكت بأبي الفهم وعذبتة ثم قتل في الأخير. كما قتل المنصور جماعة من الدعاة ووجوه كتامة. وعاد الرسولان إلى العزيز وأخبراه بفشل المحاولة⁷¹⁴.

وعقب هذا الإخفاق اتبع العزيز سياسة اللين والمهادنة، وأثر سياسة التودد والملاطفة مع المنصور، فأرسل إليه هدية ثمينة مرفقة برسالة مودة، دون أن ترد فيها أدنى إشارة عن أبي الفهم رغم أن العزيز لم يهضم تلك الهزيمة التي منيت بها كتامة، حيث كرر المحاولة مرة أخرى فآثار كتامة من جديد سنة 379هـ (1086م) بقيادة رجل يسمى «أبو الفرج الخراساني» فقد اتخذ هذا الأخير البنود وضرب السكة، وتمكن المنصور في النهاية وبعد قتال شديد من التخلص منه هو الآخر⁷¹⁵.

وفي عهد باديس بن أبي الفتوح المنصور (386-406هـ) (996-1015م)⁷¹⁶ استمرت العلاقات الودية بين الفاطميين وبين بني زيري، رغم ما تخفيه هذه العلاقات من خلافات بين الحاكم وباديس. وعكف الحاكم بأمر الله (386-411هـ) (996-1020م) على تدبير المؤامرات استمرار السياسة سابعيه. وكان مركز الصراع هذه المرة إقليم طرابلس حيث أمر الحاكم بأمر الله يانس العزيزي - واليه على برقة - بالاجتاه إلى طرابلس والاستيلاء عليها وكان ذلك سنة 390هـ (999م). وبما أن طرابلس أصبحت تابعة للإمارة اعتبر باديس ذلك اعتداء سافرا على سلطته، ولذلك لم يتوان في قتال يانس والنيل منه، فقد أنفذ له جيشا يقوده جعفر بن حبيب ليصده عن المدينة، تمكن في آخر المطاف من قتله. والتحق بطرابلس قائد من قواده يدعى فتوح بن علي فحاصره جعفر مدة زمنية. وبينما هو كذلك إذ وصله كتاب من عامل قابس يوسف بن عامر يخبره أن فلفل بن سعيد

713 - ابن الأثير: المصدر نفسه والمجلد ذاته، ص53؛ جمال الدين سرور: المرجع نفسه، ص225-226.

G. Marcais: Ibid, 160.

714 - ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص241-243-244؛ العبادي: المرجع السابق، ص318؛ G. Marcais: Ibid, 161.

715 - ابن الأثير: المصدر السابق، ص67؛ العبادي: المرجع السابق، ص318-319؛ إسماعيل العربي: دولة بني حماد، ص84-85.

G. Marcais: Ibid, 161.

716 - هو أبو مناد باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد والد المعز بن باديس كانت ولايته بعد أبيه المنصور المتوفى سنة 386هـ. ينظر: ابن خلكان: وفیات الأعيان، مج1، ص265.

وصل قابس في طريقه إلى طرابلس فتنحى جعفر عن المدينة إلى ناحية الجبل - ربما جبل نفوسة - ولما حل فلفل بمكانه وضاعت الحال بجعفر وجنده ارتحل إلى قابس تاركا فلفل (فلفل) يدخل المدينة خاصة وأنه استقبل من أهلها استقبالا حارا وفتحت له الأبواب⁷¹⁷.

وفي هذه الأثناء سير الحاكم جيشا آخر يقوده يحيى بن علي بن حمدون الذي لجأ إلى مصر بعد مقتل أبيه جعفر. وبعد انضمامه إلى عسكر فلفل بن سعيد تراجع في الأخير خشية الاصطدام مع باديس خاصة وأن حاله قد اختل. ففضل العودة أدراجه إلى مصر بدل المواجهة⁷¹⁸.

وبعد فشل هذه المحاولة لجأ الحاكم بأمر الله إلى حث قبيلة زناتة على الاستيلاء على مدينة طرابلس. ونجح في ذلك إذ تمكن فلفل - زعيم زناتة - من السيطرة عليها. أما عن القطيعة الحقيقية عن الخلافة الفاطمية فتبدأ منذ تولي المعز بن باديس الإمارة سنة 406هـ (1015م). ذلك أن هذا الأخير انحرف عن المذهب الشيعي وأخذ بالمذهب السني. وحمل أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك. ورغم انحرافه عنه علنية فإن الخليفة الحاكم بأمر الله لم يبد اعتراضه على سياسته المذهبية بل عمل على ملاطفته واستمالته بأن أضاف إليه لقبا آخر وهو «شرف الدولة» في رسالة بعثها إليه سنة (407هـ/1016م). كما بعث إليه هدايا مع رسول أوفده إليه سنة 411هـ (1020م). وقد اتبع السياسة نفسها خليفته من بعده ابنه الظاهر للإعزاز دين الله (411-427هـ) (1020-1035م) حيث أضاف إليه لقبا آخر سنة 414هـ (1023م) وأصبح يدعى «شرف الدولة وعصدها». ورغم هذه الألقاب التشريفية إلا أن العلاقات الودية لم تعمر طويلا إذ أعلن المعز بن باديس سنة 440هـ (1048م) في خلافة المستنصر بالله (427-487هـ) (1035-1094م) خروجه عن الطاعة فأمر بحذف اسم الخليفة من الخطبة والسكة والطرز. وأعلن ولاءه للخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ) (1030-1074م). كما أمر بلبس السواد شعار العباسيين واستقل بنو زيري نهائيا عن الخلافة في مصر. وانقطعت بذلك الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب⁷¹⁹.

717 - ابن خلدون: العبر، مج 7، ص 85.

718 - ابن الأثير: الكامل، مج 9، ص 154؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 256؛ جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص 226-227؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص 265-266؛ العبادي: في التاريخ العباسي، ص 319-320.

719 - ابن خلدون: المصدر السابق، مج 6، ص 325؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 50؛ الداوداري: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1961، ج 6، ص 331؛ النويري: نهاية الإرب، ج 24، ص 209؛ ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان، ج 1، ص 172؛ الزهري: كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، المركز الإسلامي للطباعة، القاهرة (د.ت)، ص 109-111؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ

ب - النفوسيون وبني زيري:

تأرجحت العلاقات النفوسية - الزيرية بين العداء تارة وبين المسالمة تارة أخرى. ويمكن لنا أن نقسم هذه العلاقات إلى مرحلتين أساسيتين: مرحلة تميزت بالتسامح المذهبي، ومرحلة اتسمت بالعداء والقتال ومضايقة أهل المذهب. ليس في الجبل فقط بل في إفريقية والمغرب الأوسط كذلك، خاصة بعد أن تم القضاء على أتباع المذهب الشيعي، وأضحى المذهب المالكي هو المذهب الرسمي - إن صح التعبير - ويمكن أن نحدد بداية المرحلة الأولى بأواخر خلافة المعز لدين الله الفاطمي في بلاد المغرب وتنتهي في أوائل القرن الخامس الهجري (11م). ففي هذه المرحلة كانت العلاقات حسنة بين الطرفين حيث كان أمراء بني زيري - ومن قبلهم المعز لدين الله - يفتحون أبواب قصورهم لعلماء ومشائخ الإباضية لحضور المجالس العلمية، ومناظرة خصومهم أتباع المذاهب والفرق الأخرى. فالمصادر تذكر أن أبا نوح - وهو أحد مفجري ثورة الوهبة في خلافة المعز - كان مقربا وذا حظوة لدى المنصور الصنهاجي، وكان أبو نوح يسافر إليه إلى القيروان فيكرم مثواه، ويفضله على العديد من مجالسيه، ويمكنه من الرد على أصحاب الفرق. وكان المنصور يجيزه ويغدق عليه الأموال. رغم أن أبا نوح كان يرتاب من هذه الزيارات، حتى إنه استشار في إحداها مقدم بني درجين. يقول الدرجيني: «لما جاءه الرسول بهذا الخبر - أي خبر استدعاء المنصور له - قلق أبو نوح وتجددت عقابيل الخوف... فاستشار وحنين (وحنين بن وريغول) في المسير إليه، وهل هناك أمر يخافه عليه... فقال له وحنين: إن طاب على نفسك المسير فسر فإنني لا أخاف عليك، وإن كرهت المسير فأقم وأنا أمنعك وأخالف عليه من أجلك»⁷²⁰.

وسافر أبو نوح إلى القيروان فأحسن المنصور إليه وطمأنه بكلام ليزيل خوفه يقوله: «اعلم يا شيخ بأن رمحي وهبي وسيفي وهبي»⁷²¹. كما كان مقدم بني درجين في بلاد الجريد مقربا من المنصور. كثير الوفاة عليه، وذا مكانة مرموقة عنده⁷²². كما كان الإباضية يقدمون الهدايا لأمراء بني زيري رغبة في التقرب منهم واتقاء لشهرهم وغضبهم. منها

المغرب في العصر الإسلامي، ص 573؛ جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص 227-228؛ حسن أحمد محمود: محنة الشيعة في إفريقية في القرن الخامس الهجري، مجلة كلية الآداب، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1950، مج 12، ج 2، ص 93-94؛ محمد ولد دادة: مفهوم الملك، ص 89؛ George Marcais: La Berberie، 168-Musulmane، p166.

720 - ينظر: طبقات المشائخ، ج 1، ص 146-147.

721 - المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 147.

722 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 223؛ الشماخي: السير، ص 358.

الهدية التي قدمها رجل يقال له «أبو باديس» والمتمثلة في فرس ومهر⁷²³. وحتى في عهد المعز بن باديس (406-454هـ) (1015-1062م) كانت العلاقات طيبة بينهما. فقد ذكر الوسياني أن أم ماكسن بن الخير⁷²⁴ كانت تربطها علاقات حسنة بأم سوسو «زوجة المعز بن باديس»⁷²⁵.

وفي المقابل أهدى المعز بن باديس سيفاً لمشائخ الجبل رغم أن هذه الهدية اختلف في قبولها أو رفضها⁷²⁶. وهناك من الإباضية من تولى مناصب في دولة بني زيري، ومنهم من كان قائداً في الجيش. فقد ذكر الوسياني أن رجلاً يدعى «إبراهيم بن ونمو» كان قائداً من قواد المعز بن باديس وهو إباضي من مزانة القيروان⁷²⁷.

وهناك من الإباضية من كان يرفض التعامل مع صنهجة اتقاء شرهم. فإذا كان أبو صالح بكر بن قاسم - وهو أحد العلماء المشهورين - شديداً على العصاة، إلا أنه كان لا يضرب اللصوص من صنهجة متى أمسك بهم تقيّة لا مهادنة⁷²⁸. ومنهم من كان لا يتعامل تجارياً معهم «لتجبرهم وغضبهم للناس أموالهم»⁷²⁹ فقد روي أن رجلاً يقال له عبد السلام اشترى خرفانا من إفريقية، فلما علم أن بائعها صنهجي تصدق بها⁷³⁰.

أما المرحلة الثانية فقد اتسمت بالعداء، وقد تأثر الجبل كثيراً بالصراع الذي احتدم بين الفاطميين وبين بني زيري من جهة، وبين بني زيري وزناتة طرابلس من جهة أخرى. ورغم أن النفوسيين لم يكونوا طرفاً في هذا النزاع، إلا أن آثاره قد امتدت إلى الجبل فوجدوا أنفسهم مضطرين للدفاع عن أنفسهم ضد أي عدوان ومن أي طرف. ولعل الشرارة الأولى التي أدت إلى تدهور العلاقات - دفاعاً عن النفس والأرض - هو - كما ذكرنا - التنافس على إدارة إقليم طرابلس. فقد شهد هذا الإقليم أحداثاً كثيرة غزاها الفاطميون في

723 - الوسياني: السير، ج 1، و45-46: الشماخي: المصدر نفسه، ص383-384؛ معمر: الإباضية في الجزائر، ص156؛ محمد بن يوسف أطفيش: رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبي يا جزائري، طبعة حجرية، القاهرة، 1323هـ، ص59.

724 - هو أبو محمد ماكسن بن الخير أحد علماء الإباضية المشهورين توفي سنة 401هـ. ينظر: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص430.

725 - ينظر: المصدر السابق، ج2، و35.

726 - قال بعضهم: «ردوه أولى بالربة من وحل فيها». وقال بعضهم: لا تفعلوا فإن ذلك عون له على باطله وجوره. وقال آخرون: أكسروه وأدفنوه. وقال آخرون: أمسكوه فإن عطايا الملوك جائزة لمن يأخذها عند جمهور الأمة لمن يدخل أمورهم الفاسدة. ينظر: الوسياني: المصدر نفسه والجزء ذاته، و3-4.

727 - ينظر: المصدر نفسه والجزء ذاته، و18.

728 - نفسه، و14: الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص354.

729 - الشماخي: السير، ص400.

730 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص306-307: الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص408.

مصر بتقديم المال والسلاح لأعداء صنهجة التقليديين من أجل إضعافها. والوقوف ضد أطماعها الانفصالية. فعند فشل حملة يحيى بن علي بن حمدون وعودته إلى مصر ثور زناتة في إقليم طرابلس وتستولي على المدينة سنة 393هـ (1002م) بتشجيع من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. فقد استنجد بها وأطمعها في الاستقرار هناك لكي يشغلها للوقوف ضد أطماع بني زيري. وقد أدى إلى حدوث قلاقل واضطرابات، والعديد من المعارك الطاحنة التي راح ضحيتها خلق كثير من الزناتيين وامتدت هذه الاضطرابات إلى الجبل. ويبدو أن غارات كثيرة قامت بها زناتة ضد سكانه. وقد أشار الشماخي إلى ذلك - كما سبق الذكر - في حديثه عن ولاية أبي الفضل سهل على الجبل حيث عانى النفوسيون الكثير من هجومات المسودة (بنو زيري)، وزناتة، والعرب. وإذا كان الشماخي يذكر بأنه في زمن أبي الفضل سهل (ط 8) (350هـ-400م) خرجت نفوسة لقتال زناتة، ونزلت موضع قرب طرابلس يسمى «الأبراج» وأن المعركة انتهت بهزيمة زناتة⁷³¹. فإن الوسياني، والدرجيني يذكran أن موقعة الأبراج كانت بين زناتة وصنهجة⁷³². ويبدو أن هذا الموقع كان مركزاً لإمارة زناتة، وهو مركز شبيه إلى حد كبير بالموضع المسمى «قيطون زناتة» الذي كان موطناً لبني خزرون⁷³³.

أما أكبر هجوم تعرض له الجبل من لدن قبيلة زناتة طرابلس فقد حدث في زمن أبي الخطاب عبد السلام بن منصور بن أبي رجون (ط 8) (350-400هـ) ولم يتمكن النفوسيون من صدّه إلا بعد مدة طويلة⁷³⁴.

ويبدو أن هذا الهجوم كان سبباً في هجرة سكان «تاغرويت» إلى المغرب الأوسط⁷³⁵. ويعتقد ليفيسكي أن بني خزرون استولوا دون شك على جبل نفوسة، وأنه من خلال الحروب التي خاضتها زناتة ضد المعز بن باديس بين سنتي 430-440هـ (1038-1039م) و(1048-1049م) عانت نفوسة الويلات⁷³⁶.

ومن المعروف أن إمارة زناتية تأسست في هذه المنطقة أسسها بنو خزرون بقيادة زعيمهم فلفل بن سعيد بن خزرون سنة 391هـ (1000م). وأعلن هذا الأخير الطاعة للحاكم بأمر الله الفاطمي في السنة نفسها. وقبل الحاكم طاعته، ولكنه لم يعينه

731 - ينظر: المصدر السابق، ص275.

732 - ينظر: السير، ج2، و56؛ وينظر: المصدر السابق، ج1، ص169.

733 - T. Lewicki: Les hakims, p105.

734 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص304.

735 - الشماخي: السير، ص296.

736 - T. Lewicki: Les hakims, p105.

حاكما على طرابلس بل عين يحيى بن حمدون الأندلسي. ولكن هذا الأخير لم يتولى المنصب. ذلك أن فلفل أعرض عن ذلك واستولى على العديد من خيله مما أجبره على العودة إلى مصر. واستقل فلفل بطرابلس سواء عن الفاطميين أو عن بني زيري. وبعث بطاعته إلى المهدي محمد بن هشام حاكم قرطبة. وتوفي فلفل قبل أن يصله الرد⁷³⁷.

ولما توفي فلفل تولى أخوه «ورو» الولاية على طرابلس. وفي ولايته هاجمه باديس واضطر إلى التسليم بعد أن خذله جنده وانضموا إلى جيش باديس. وطلبت زناتة الأمان فأمّنهم بشرط أن يغادروا طرابلس. وأقطعهم إقليم نفزاوة وقسطيلية⁷³⁸.

وقبل أن يغادر باديس المنطقة عين عاملا على طرابلس يدعى «محمد بن حسن». ولم يستقر هذا الأخير طويلا في منصبه. إذ جمع ورو زناتة وهاجمه مرتين بعد أن انضم إليه أخوه خزرون. ويبدو أنه فشل في الاستيلاء عليها لما أبداه عاملها من بلاء حسن في الدفاع عنها. إذ اضطر إلى تقديم الطاعة مرة أخرى إلى باديس. ولما توفي ورو في شوال سنة 405هـ (1015م) حدث نزاع وصراع على الزعامة بين ابنه «خليفة» وأخيه «خزرون». مما تسبب في انقسام زناتة إلى فريقين. انضم القسم الأكبر إلى خليفة وحارب هذا الأخير عمه خزرون حتى تغلب عليه وبعث بطاعته إلى باديس معاهدا إياه على المحافظة على الأمن وعلى عهده بطرابلس فقبل ذلك⁷³⁹.

وهكذا نلاحظ أن إقليم طرابلس لم يعرف الاستقرار طيلة حكم بني زيري. ولا ندري بالتدقيق هل حافظ الجبل على استقلاله أم أصبح تابعا لإمارة بني زيري أو لبني خزرون ؟ فإذا عدنا إلى المصادر الإباضية فإنها تتحدث عن شيوخ تولوا الرئاسة في الجبل في هذه الفترة. وفي المقابل نلاحظ بأن هؤلاء كانوا يجمعون الضرائب ويقدمونها لبني زيري. وهذا يعني ولو نسبيا أن سكان الجبل دخلوا في الطاعة. ولعل تأسيس نظام العزابة في هذا الوقت يرجع إلى هذه الظروف المستجدة التي تستدعي التستر والتكتم. وقد ذكرت المصادر أن جابيا من القيروان قدم إلى الجبل وطلب من سكانه مبلغ ألف دينار. وقد تولى أبو زكريا بن أبي عبد الله التندميرتي جمع هذا المبلغ⁷⁴⁰. وكما سبق الذكر فإن أبا زكريا هذا دامت رئاسته إلى غاية سنة 418هـ (1027-1028م) أو 428هـ (1036-1037م).

737 - ابن خلدون: العبر. مج7. ص85-86: ابن عذاري: البيان المغرب. ج1. ص256: الزاوي: تاريخ الفتح العربي. ص270-271.

738 - ابن خلدون: المصدر نفسه والمجلد ذاته. ص86: ابن عذاري: المصدر نفسه والجزء ذاته. ص258: الزاوي: المرجع نفسه. ص274-276.

739 - ابن خلدون: المصدر نفسه والمجلد ذاته. ص87.

740 - البغطوري: سير نفوسة. و31: الشماخي: السير. ص320.

1037م). وإبان رئاسته أرسل أمراء إفريقية إلى نفوسة يأمرهم بالدخول في الطاعة والاعتراف بهم. فرفض أبو زكريا ما جعل الزيريين يجهزون حملة عسكرية على الجبل. ويحاصرونه مدة اثني عشر سنة. ومن النتائج التي تمخضت عنها هذه الحملة أن سكان الجبل أصبحوا يدفعون الضرائب⁷⁴¹. وظل النفوسيون يجمعون المال ليداروا به عن الجبل ويكلفون أحدهم بحمله إلى الجابي المعين في هذه الجهة مثلما حدث مع أبي يعقوب مقدم «تغرمين»⁷⁴².

واتخذت العلاقات النفوسية - الزيرية منعرجا خطيرا في عهد المعز بن باديس (406-454هـ) (1015-1062م). ويبدو أنه عندما تخلص هذا الأخير من المذهب الشيعي وأتباعه وجه اهتمامه إلى الإباضية. وأصبح سكان نفوسة يتلقون التهديدات من القيروان⁷⁴³ ربما لخروجهم عن الطاعة. أو رفضهم لتسديد الضرائب. ولذلك شنوا عليهم حملات عسكرية فقد حاصر أمير من بني زيري - لا تذكر المصادر اسمه - الجبل وخندق على نفسه وخصن. ولما لم يبق له إلا عمل يوم واحد قام أحد الإباضية من كانوا ضمن جيش المعز بن باديس وأخبر إخوانه بالجبل بالثغرة الموجودة بالخندق فقام رجال نفوسة بالهجوم ليلا فقتلوا جند المعز قتلا ذريعا. وجمعوا أموالهم وأحرقوها. وعقروا الدواب حتى ماتت. وأضرموا فيها النيران حتى إن لهيبها رآه سكان قابس⁷⁴⁴.

وفي زمن أبي عمرو ميمون بن محمد الشروسي (ط8) (350-400هـ). أغارت صنهاجة على الجبل. ولا نعرف الكثير عن نتائج هذه الغارة. لأن المصادر تذكر أن أعضاء هذه الحملة انصرفوا عندما علموا أن أخبارهم سبقتهم إلى رئيس أهل المذهب أبي عمرو ميمون⁷⁴⁵.

كما أغارت صنهاجة على قرية «تغرمين» في زمن أبي عبد الله بن أبي محمد عبدة بن زارود (زارور) التغرميني. هذه الغارة التي فقد فيها اثنين من أبنائه. وتعد هذه الحملة العسكرية حلقة أخرى من الحرب التي دامت قرابة اثني عشر سنة بين النفوسيين والزيريين. والتي ابتدأت منذ سنة 406هـ (1015-1016م)⁷⁴⁶.

741 - T. Lewicki: Les hakims, p103 - 741.

742 - الشماخي: المصدر السابق. ص253: T. Lewicki: Ibid, p114.

743 - « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » (الآية) فأجابهم أبو عبد الله محمد بن جنون الشروسي بكتاب تضمن قوله تعالى: « أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْجَرَمِينَ » (الآية). ينظر: الشماخي: المصدر نفسه. ص323-324: البغطوري: سير نفوسة. و42.

744 - الوسياني: السير. ج2. و12.

745 - الشماخي: المصدر السابق. ص274: معمر: الإباضية في ليبيا. ص166.

746 - المصدر نفسه. ص252.

ونشير في هذا المضمار إلى أن إباضية جبل نفوسة لم يكونوا الوحيدين الذين استهدفهم بطش بني زيري. بل تعرض إباضية إفريقية للمعاملة نفسها⁷⁴⁷. ولذلك نلاحظ أن أعدادا كبيرة من الأسر الإباضية انتقلت من إفريقية إلى المغرب الأوسط. خاصة وأنه في هذه الفترة قد شرع إخوانهم في هذه المنطقة في تأسيس المدن في وادي ميزاب. فمن الوافدين على مدينة «أسوف» بالمغرب الأوسط مزاتة قلعة درجين ببلاد الجريد بعد تخريبها من قبل عساكر صنهاجة سنة 440هـ (1048م)⁷⁴⁸. كما انتقلت مزاتة إفريقية إلى نواحي طرابلس بسبب الزلازل التي ضربت المنطقة ويبدو أن هذه الزلازل قد حدثت في عام الأبراج⁷⁴⁹. وقد حدث ابن عذارى عن هذه الزلازل في أحداث سنة 395هـ (1004م) حين قال: «كانت بإفريقية شدة عظيمة انكشف فيها المستور. وهلك فيها الفقير. وذهب مال الغني. وغلغلت الأسعار. وعمدت الأقوات. وجلى أهل البادية عن أوطانهم. وخلت أكثر المنازل. فلم يبق لها وارث ومع هذه الشدة وباء وطاعون هلك فيه أكثر الناس من غني ومحتاج»⁷⁵⁰.

ومهما يكن من أمر فقد مر سكان الجبل بظروف صعبة عانوا فيها الكثير. مما دعاهم إلى التفكير في وضع استراتيجية جديدة تحمي مذهبهم فكان ميلاد نظام العزابة الذي أسسه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر النفوسي مع بداية القرن الخامس الهجري (11م). كما أن هذه الظروف المستجدة وما تبعها من عدم استقرار إفريقية والمغرب الأوسط هي نتيجة كثرة الحروب بين زناتة وصنهاجة. وبين بني زيري وبني عمومهم الحماديين. بالإضافة إلى هجرة بني هلال إلى المغرب وما نجم عنها من تخريب ونهب وانقطاع السبل. وإذا كانت المصادر الإباضية قد تناولت علاقات النفوسيين. فإنها لم تعطنا معلومات وافية عن علاقاتهم ببني خزرون أو ببني حماد.

3 - استراتيجية جديدة للفاطميين:

تتفق المصادر على أن قطع الخطبة الفاطمية في بلاد المغرب من قبل المعز بن باديس. والدعوة للخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ) (1030-1074م) ولبس السواد شعاع العباسيين كان السبب المباشر في إرسال بني هلال إلى بلاد المغرب. ونلاحظ

747 - تذكر المصادر أن قوات المعز هاجمت جزيرة جربة وقتلت العديد من الشيوخ منهم: أبو عمرو النميلي وأبو محمد كموس وغيرهم. وفرضت عليهم الضرائب الباهضة. للمزيد من التفاصيل ينظر: الشماخي: المصدر نفسه. ص 336-337-400؛ باجية: الإباضية بالجريد. ص 147؛ معمر: المرجع السابق. ص 207-209.

748 - الدرجيني: طبقات المشائخ. ج 2. ص 407.

749 - المصدر نفسه والجزء ذاته. ص 368.

750 - ينظر: البيان المغرب. ج 1. ص 256-257.

أن الفاطميين سلكوا استراتيجية جديدة في التعامل مع بلاد المغرب. والمتمثلة في التخلص من شغب الهلاليين في صعيد مصر. وفي الوقت نفسه الانتقام من بني زيري. فلما بلغ الخبر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي قامت قيامته. وأرسل إلى المعز يرغبه ويرهبه ويتوعده بإرسال الجيوش إليه. ولكن هذا الأخير كتب إليه كتابا عنيفا قائلا له: «إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقدير. ولو أخروهم لتقدموا بأسيا ففهم»⁷⁵¹. حينئذ استشار المستنصر وزيره أبا محمد الحسن بن اليازوري فأشار عليه بإرسال بني سليم وبني هلال إلى إفريقية وتوليتهم أعمالها وبذلك تحقق هدفان أساسيان: أولهما التخلص منهم إذ كانوا يغيرون على الأراضي في صعيد مصر ويفسدون فيها. وثانيهما الانتقام من صنهاجة خاصة وأن الدولة كانت عاجزة عن اتخاذ أي إجراء آخر ضده. ويبدو أن أسبابا أخرى كان لها باع طويل في بلورة هذه الفكرة وتنفيذها ميدانيا وهي أن العلاقات كانت متوترة بين اليازوري والمعز.

ومن المعروف أن اليازوري لم يكن من أهل الوزارة ولا من الكتاب. وإنما كان من أهل الزراعة والفلاحة حين كان بالشام. وجرت العادة أن أمراء الأمصار كانوا يخاطبونه في رسائلهم على عادة الوزراء إلا المعز فإنه رفض ذلك. وكان يكتبه بصنيعته مما أغضبه. وللنيل منه أقنع الخليفة بالفكرة حتى إن هذا الأخير أرسله إلى أحيائهم لإقناعهم وإغرائهم بالسير إلى إفريقية بأن وعدهم بتقديم المال والمدد والسلاح. وأعطى لكل فرد منهم دينارا وبعيرا. وأخبرهم بأن الخليفة المستنصر قد أقطعهم إفريقية. وهكذا انطلقت أول موجة هلالية إلى بلاد المغرب. وكان ذلك سنة 442هـ (1050م)⁷⁵² وأنفذ اليازوري كتابا إلى المعز يقول فيه: «أما بعد فقد أنفذنا إليك خيولا. فحولا. وأرسلنا عليها رجالا. كهولا. ليقتضي الله أمرا كان مفعولا»⁷⁵³.

وجاءت هذه القبائل البدوية إلى مدينة برقة فوجدوها خالية تقريبا من السكان. ذلك أن المعز بن باديس أباد أهلها من الزناتيين. فتوقفوا بها. وكتبوا إخوانهم بشرق النيل يرغبونهم في اللحاق بهم فأجازوا إليهم. وخربوا المدينة الحمراء. وأجدابية. وأسمرا. وسرت. ويمكننا أن نشير إلى أن القبائل التي نزلت برقة هي من بني سليم. في حين تقدم بنو هلال إلى إفريقية فوصلوها سنة 443هـ (1050م)⁷⁵⁴.

751 - النويري: نهاية الإرب. ج 24. ص 209-210.

752 - ابن خلدون: العبر. مج 6. ص 30-31؛ رايح بونان: المغرب العربي. ص 193؛ المناوي: الوزارة والوزراء. ص 189-190؛ الأنصاري: كتاب المنهل العذب. ص 116؛ George Marcais: La Berberie Musulmane, p193-194.

753 - ابن خلدون: المصدر نفسه والمجلد ذاته. ص 31.

754 - نفسه. ص 31؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي. ص 581-582؛ أتوري روسي:

أما القبائل التي استقرت في إقليم طرابلس فهي: زغبة ورياح. ولا شك أن هذه القبائل هي التي سببت متاعب لسكان الجبل. يقول البكري: «بين طرابلس ومدينة شروس حصن لبدة يسكن هذا الحصن قوم من العرب... وهم محاربون لجميع من يجاورهم من قبائل البربر»⁷⁵⁵.

وتشير المصادر الإباضية إلى غارات شنّها العرب على إباضية المنطقة. ولكننا لم نتمكن من تحديد تاريخها بدقة. مثل الغارة التي أغارها بعض عرب «معقل» على «بني واشية». واغتصبوا بنات أحد شيوخ المذهب⁷⁵⁶. ومن جهة أخرى تعامل النفوسيون مرغمين مع الوافدين الجدد. فقد أرسل نفوسي يدعى «أبو محمد عبدة التلاتي النفوسي» ناقته ترعى وديعة عند العرب⁷⁵⁷.

وتذكر بعض الروايات أن القبائل العربية النازلة بطرابلس وضواحيها ضربت خيامها في منطقة «الجفارة» الواقعة في سفح الجبل من جهة الساحل. وربما حتى داخل الجبل نفسه. وقد أدى إلى مغادرة العديد من النفوسيين للمنطقة متجهين إلى الغرب. وإلى الشمال الغربي من الجبل. وإلى إفريقية وقد استولى العرب على هذه الأماكن المهجورة⁷⁵⁸.

ويبدو أن الهجرة كانت كثيفة فيما بعد أي بعد سنة 442هـ (1053م) - وهي فترة خارجة عن البحث - خاصة بعد وصول الموجات الهلالية الأخرى القادمة من مصر. فقد هددوا الطرق فعملوا الحج والتجارة والرحلة. وقد أثر ذلك تأثيرا سلبيا على الحياة الاقتصادية في المنطقة. بما حصل من خراب ودمار للعمران والزرع. يقول ابن غلبون: «ضاق الناس بالأمر وساءت أحوالهم وانقطعت أسفارهم. ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط»⁷⁵⁹.

4 - جوغراف والهجرة إلى المجهول:

نعتقد أن فكرة الهجرة إلى «جوغراف» التي انتشرت بين أهل الدعوة قد ظهرت في هذه الفترة. وهي فكرة إن لم نقل أسطورة تدور حول نهاية العالم. ووفق المصادر

ليبيا منذ الفتح. ص 96-97: حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب. ص 148.

755- ينظر: المغرب. ص 9.

756- الوسياني: السير. ج 2. و 29.

757- الشماخي: السير. ص 300.

758- Jean Despois: Le djebel Nafusa, p294.

759- ينظر: تاريخ طرابلس الغرب. ص 25-26.

الإباضية فإن أهل الدعوة الذين حافظوا على دينهم سيجتمعون في هذا المكان قبيل آخر الزمان. ذلك أنهم سيضطرون إلى الخروج إلى جوغراف لكثرة الزلازل والحروب فيهربون بدينهم وأنفسهم⁷⁶⁰.

ويقع موضع «جوغراف» في الرمال. يمتاز بكثرة المياه الجارية يجتمع فيه بقايا الإباضية. ويظلون به إلى غاية نهاية العالم. ولن يدوم البقاء فيه أكثر من ثلاثين سنة.⁷⁶¹ ويحكمهم في هذه المدة «ملك جوغراف» وقد أوردت المصادر روايات كثيرة حاول أصحابها تحديد تاريخ هذه الهجرة منها رواية رجل يدعى يونس بن مائل نقلًا عن أبي صالح اليهراسني (اليراسني) حيث قال: «إذا انتقل بنو درجين من قنطرار إلى أسوف. وانتقل أهل أسوف إلى أريغ وانتقل أهل أريغ إلى وارجلان. فإذا اجتمعوا في وارجلان ارتحلوا إلى جوغراف»⁷⁶².

ويبدو جليا من خلال هذه الرواية أن فكرة الهجرة إلى جوغراف ظهرت في الفترة العصبية التي مر بها الإباضية وهي فترة إمارة المعز بن باديس. وهجرة بني هلال. والحروب الدامية التي دامت بين بني زيري وأبناء عمومته بني حماد. وبين بني زيري العرب وبين الهلاليين. ولذلك لا يستبعد أن تكون هذه الأسطورة محلية. ظهرت فقط في الشريط الذي يمتد من بلاد الجريد إلى وارجلان. ولم تكن منتشرة بين الجماعات الإباضية في جنوب شرق إفريقية ومنطقة طرابلس. ولكن هناك من كان له إيمان قوي بها حتى من العلماء. منهم على سبيل المثال لا الحصر: أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي - مؤسس نظام العزابة - فقد كان كثيرا الحديث عن «جوغراف» رغبة منه في التعرف على موقعه. وقد حاول الوصول إليه رفقة جماعة من رفقائه عندما خرجوا من وارجلان في اتجاه القبلة. وقد لحق بهم مشائخ وارجلان لردهم. فأدركوهم في مكان يسمى «أزلج».

وتضيف الرواية أن أبا عبد الله سيتوفى في «جوغراف» في المصادر الإباضية. إلا أنها اختلفت في تحديد موقعه جغرافيا. فهناك روايات جعلت وارجلان هي «جوغراف». وأخرى حددت موقعه بموقع «أريغ» وهي رواية رجل يدعى «زيري بن لقمان الخارجي». في حين ذكر أبو نوح صالح بن إبراهيم بن يوسف المزاتي أن قرية «أجلوا وتين يسلي» الواقعة قرب وارجلان تقعان في بلد جوغراف. أما أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني اعتبر «أجلوا الغرب» التي لا تبعد كثيرا عن أريغ هي جوغراف. وهناك إشارة في المصادر تفيد

760 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 381.

761- المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

T. Lewicki: Une Croyance Des Ibadites Nord-Africains Sur La Fin Du Monde: Le Pays De Gugraf, Ve Congress International D' Rabisantd et D' Islamisations, Bruxelles, 1970, N11, p321.

762- المصدر نفسه. ص 377.

بأن موضع جوغراف يبعد عن وارجلان مسير ستة عشر يوما فقط.

وإذا رحنا نبحت عن هذا الموضع في الصحراء جنوب وارجلان. فإننا نجد موقعا يحمل الاسم نفسه. يقع في سلسلة جبال «مويدير (ايميدير) الواقع غرب الهقار. وكان يشق الجبل مسلك تجاري يتجه إلى وارجلان مروروا بالقليلة وعين صالح الحالية. وتتفرع إلى مجموعة من المسالك منها مسلك يؤدي إلى مدينة أغاديس Agadis وجاو Gao. أما عن الطريق التي تربط الهقار بـ «جاو» فإنها تمر بـ «سيلات». و«تين زواتن». و«كيدال». و«بورام». ففي العصور الوسطى كانت هذه الطريق تمر بتادمكة. ذلك المركز التجاري الهام. والمعروف أن لهذه المدينة علاقات تجارية مكثفة مع الجماعات الإباضية في منطقة طرابلس ووارجلان. ونلاحظ أن قبائل البدو من الطوارق المقيمين في هذه الصحاري يتداولون اسم جوغراف (زغراف) (جقراف) وهو عبارة عن واحة صغيرة تقع فوق هضبة توجد بها آثار لثقافات الأولين. كما أن هناك عينا جارية تسمى «عين جوغراف». وهي غير العين الموجودة في الواحة التي ذكرناها. ويبدو أن هضبة جوغراف كانت تمر عليها القوافل التجارية. وكانت هذه الطريق مستعملة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (9م) من قبل التجار الإباضية المتجهين إلى «تادمكت». أو «جاو». ومادام أن هذا الموضع وهذا المسلك معروف لدى التجار الإباضية فلاشك أن أبا عبد الله محمد بن بكر النفوسي كان يرغب في الوصول إلى هذه الواحة. والأرجح إما أن يكون الإباضية قد نسوا مسالك هذا الطريق وظلت ذاكرتهم تحتفظ فقط باسم «جوغراف». وإما أن يكون هذا الموقع سرا بين الإباضية حتى لا يعلمه أعداؤهم. وبمرور الزمن تعرض للنسيان وإما أن يكون الإباضية يبحثون على وادي ميزاب غصوا النظر عن جوغراف خاصة وأن هذه الأخيرة تقع وسط القفار.

ومهما يكن من أمر فإن انتشار هذا الاعتقاد قد أدى إلى هجرة جماعات كثيرة من إباضية إفريقية ومنطقة طرابلس إلى صحراء المغرب الأوسط واستقروا في قراها ومدنها مثل وارجلان. أريغ. أسوف. تين يسلي. أجلو. وقرى وادي ميزاب.

الباب الرابع

الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية

الفصل الأول

الحياة الاقتصادية في الجبل

1 - الأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب عامة.

2 - الزراعة.

3 - الثروة الحيوانية.

4 - الصناعة.

5 - التجارة.

أ - الطرق التجارية.

1 - الطرق البرية.

2 - الطرق البحرية.

ب - الأسواق.

ج - السلع الصادرة والواردة.

د - تجارة السودان.

6 - المكايل والموازين.

7 - العملة.

8 - الحسبة.

9 - مستوى المعيشة.

1 - الأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب عامة

شهدت بلاد المغرب الإسلامي تقلبات سياسية أثرت إيجابا وسلبا على الأوضاع الاقتصادية. فإبان الفتح الإسلامي لم تعرف البلاد الاستقرار نتيجة انشغال العرب بالفتوحات، والبربر بالمقاومة، وما نجم عن ذلك من تخريب الكاهنة للمدن، وإحراق للغابات، وقطع للشجر وتهديم للحصون.⁷⁶³ وازداد الوضع الاقتصادي تدهورا عندما اشتط عمال بني أمية في جباية الضرائب، وما تبع ذلك من ثورات البربر بإيعاز من الإباضية والصفورية، وما خلفته من تخريب للبلاد إذ تحولت البلاد إلى ميدان للقتال والتناحر بين البربر وبين الجيوش الأموية والعباسية.⁷⁶⁴

ومع تأسيس الدول المستقلة واتسام هذه الفترة بالتعايش السلمي رغم الاختلافات المذهبية، وعدم انتهاج أي دولة لسياسة التوسع، عرفت البلاد فترة استقرار سياسي مكنت أئمة وأمراء هذه الدول من الاهتمام بالبناء الاقتصادي، فأمنت السبل، ونشطت حركة التبادل التجاري، وازدهرت الصناعة والزراعة، فاهتم الأغلبية بتنشيط الآلة الاقتصادية وتعميم الرخاء في البلاد. ولم تشهد إفريقية إلا بعض الأزمات الاقتصادية كالتي حدثت سنة 260هـ في عهد أبي الغرانيق حيث انتشرت المجاعة والأوبئة، والتي حدثت سنة 266هـ في عهد إبراهيم بن أحمد حيث كان القحط والغلاء المفرط.⁷⁶⁵

ويرجع الفضل في انتعاش الحياة الاقتصادية في إفريقية إلى الإصلاحات المالية التي قام بها أمراء بني الأغلب كتحديد وتنظيم الضرائب وتحسين العملة. وأضحت القيروان في عهدهم من أهم المراكز التجارية حيث كانت «أعظم مدن المغرب قطرا، وأكثرها بشرا، وأيسرها أموالا، وأوسعها أحوالا... وأربحها تجارة، وأكثرها جباية، وأنفقها سلعة».⁷⁶⁶

وشهد المغرب الأوسط تحت حكم بني رستم ازدهارا اقتصاديا كبيرا، خاصة وأن الأئمة وثقوا الصلة بدولة بني مدرار، ودولة الأدارسة، والدولة الأموية في الأندلس، وأقاموا علاقات تجارية وطيدة مع بلاد السودان.

763 - الرقيق: تاريخ إفريقية والمغرب، ص31؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص36؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص198-199.

764 - الحبيب الجناحاني: المغرب الإسلامي، ص20-21؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص321.

765 - ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص116-117؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع نفسه، ص322.

766 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص185.

ولما أسس الشيعة دولتهم. اهتم ملوكهم بالحياة الاقتصادية فشجعوا الزراعة والتجارة على الرغم من أن سياستهم كانت تقوم على جمع المال قدر الإمكان بغية تحقيق الحلم الذي ظل يراودهم وهو الانتقال إلى المشرق والسيطرة على الحجاز. فكانوا يجلبون الأموال الطائلة ويصادرونها ظلماً. وقد عاشت الدولة بعض السنوات العجاف. ففي سنة 317هـ عم إفريقية وباء عظيم. وغلاء في الأسعار.⁷⁶⁷ ولما اندلعت ثورة أبي يزيد بن مخلد بن كيداد سنة 331هـ (942م). أصاب البلاد الخراب حتى إنه «لم يبق بإفريقية منزل عامر».⁷⁶⁸

وتأرجحت فترة حكم بني زيري بين الرخاء تارة والقحط والجذب تارة أخرى. فقد عرفت في سنوات 396هـ و430هـ رخاء وأمان.⁷⁶⁹ في حين عرفت سنة 395هـ غلاء فاحشاً حيث «ذهب مال الغني. وغلت الأسعار. وعمدت الأقوات. وجلي أهل البادية عن أوطانهم... ومع هذه الشدة وباء وطاعون هلك فيه أكثر الناس».⁷⁷⁰ وقد تأثر جبل نفوسة كغيره من مناطق بلاد المغرب بالأحداث السياسية التي حدثت في بلاد المغرب. فمر هو الآخر بالظروف نفسها.

2 - الزراعة:

تعتمد الزراعة في جبل نفوسة على مياه الوديان التي تشق الجبل. وارتبطت حياة السكان فيه بالأمطار. فالمنطقة تتميز بأنها تجمع بين مناخ البلدان البحرية. والسهوب التابعة لمناخ البحر الأبيض المتوسط. وبين الأراضي الصحراوية القاحلة. وبالرغم من قساوة الطبيعة وتفاوتها من منطقة إلى أخرى فقد تعلم النفوسيون كيف يستغلون ويستثمرون كل قطرة من المياه التي تتجمع من سقوط الأمطار في وديان الجبل. كوادي لالوت. وواد إكرين. ووادي شروس. ووادي أمسين. ووادي الزرقاء. ووادي الآخرة... وغيرها.⁷⁷¹ وقد أقام النفوسيون السدود الصغيرة. والأحواض لجمع المياه. كما أقاموا الجسور في بساتينهم لسقيها من مياه الأمطار. فقد ذكر الدرجيني أن مهدي النفوسي - أحد علماء القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي - كانت له سدود كثيرة في أرضه قد خربت. ولم يتمكن من إعادة بنائها لوحده. مما جعله يتزوج بإمرأة أخرى لتساعده في إصلاحها.⁷⁷²

767 - ابن عذاري: المصدر السابق. ج 1. ص 194.

768 - ابن أبي دينار: المؤنس. ص 59.

769 - ابن عذاري: المصدر السابق. ج 1. ص 257-258.

770 - المصدر نفسه والجزء ذاته. ص 256-257.

771 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي. ص 21: علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا. ص 170 وما بعدها.

772 - أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 114: بحاز: الدولة الرستمية. ص 148.

ويضيف الدرجيني بأن الجبل قد أصابه القحط في سنة من السنين فدعا «بائمان» ربه فنزلت المطر حتى فاضت جسور بستانه.⁷⁷³

وكان الهدف إذن من بناء هذه الحواجز حول البساتين هو حجز مياه الأمطار لسقي وحماية التربة من الانجراف. وقد اعتمدت حياة السكان في الجبل على زراعة الأشجار المثمرة. وتعد زراعة أشجار الزيتون العمود الفقري للحياة الزراعية في الجبل. فقد روى الشماخي أن عين قرية «إجناون» وحدها كانت تسقي إثني عشرة ألف زيتونة⁷⁷⁴ فما بالك ببقيّة القرى الأخرى. فقد روي أن زيتون قرية «تغرمين» كان مشهوراً حيث كان الناس يتمنون رؤيته لمذاقه وجماله وكثرته.⁷⁷⁵ وقد تحدث الباروني عن مدينة تيجي فقال بأنها تنتج ثماراً متنوعة. وأن أشجارها كثيرة. وعيونها تسيل على وجه الأرض لارتفاع كثير من منابعها.⁷⁷⁶

وكان جني الزيتون يتم في وقت محدد معلوم. ففي السير أن أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني منع أهل «إجناون» من خرب زيتونهم إلى وقت معلوم. وقد عاقب من كسر هذا الحجر.⁷⁷⁷ ونظراً لكثرة إنتاج الجبل من الزيتون فقد أقيمت له معاصر يشتغل فيها العبيد المجلوب من بلاد السودان. وكانت هذه المعاصر تبنى في باطن الأرض وهي معاصر بدائية تستخدم الخشب والطواحين من الحجر.⁷⁷⁸

ويعد زيت الزيتون من أكثر السلع التي يصدرها النفوسيون إلى المدن. خاصة في المواسم الجيدة. حيث يكثر الإنتاج. وقد يقل ذلك نتيجة قحط أو جذب. فقد ذكر الشماخي أن النفوسيين في زمن أبي محمد الدرفي كانوا يجعلون الزيت على المغرف لقلته.⁷⁷⁹ وقد كانت القوافل تأتي إلى مدن الجبل كمدينة «درج» لشراء الزيت.⁷⁸⁰

كما اهتم النفوسيون بزراعة أشجار النخيل والتين. فقد روي أن أبا محمد عبيدة التلاتي النفوسي غرس ثلاثمائة كرمة بيده. ويبدو أنه كان من كبار المزارعين في الجبل. ذلك أنه عندما وقع قحط أخذ ينفق على أهل قريته مدة طويلة حتى إنه قال لهم: «من

773 - الدرجيني: طبقات المشايخ. ج 2. ص 309.

774 - الشماخي: السير. ص 189.

775 - الشماخي: المصدر نفسه. ص 260: بحاز: الدولة الرستمية. ص 148.

776 - الأزهار. ج 2. ص 253.

777 - الشماخي: المصدر السابق. ص 197.

778 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي. ص 67: 283: Jean Depois: Le djebel Nefussa, p283-284.

779 - الشماخي: المصدر السابق. ص 287.

780 - المصدر نفسه. ص 315.

أراد أن يأخذ نصف صاع لغذائه ونصف صاع لعشائه من أي نوع شاء من شعير أو تمر أو تين»⁷⁸¹ وذكر أن أبا هارون الجلالى كان غراسا للشجر. حيث جنى من أشجار التين وحدها ثلاثمائة مديا. أو مائة وخمسون وسقا.⁷⁸² وروي في السير أن أبا الربيع بن أبي هارون كان يصيب في السنة ثلاثمائة مج تينا. فينفق مائة على عياله. ومائة لتلاميذه. ومائة يطعمها للضياف.⁷⁸³

وبالإضافة إلى التين والزيتون والخضر والفواكه فقد اهتم النفوسيون بزراعة الحبوب خاصة الشعير. فقد كان أغلب النفوسيين من المزارعين المرتبطين بفلاحة الأرض وغرسها. فإذا عدنا إلى تراجم الشيوخ نلاحظ أن أغلبهم كان يشتغل بالزراعة. فلا غرو إذن أن ينسحب العديد من أفراد الجيش الذي سيره أبو الخطاب لقتال ابن الأشعث سنة 144هـ (761م) والعودة إلى الجبل لأن الموسم كان موسم حصاد.⁷⁸⁴ وما يدل على كثرة إنتاج القمح والشعير أن أبا أيوب صنو أبي الخطاب إذ جمع زرعه في الأندر لدرسها بريضة (ريزو. ريصوا) رآه من كان بجزيرة جربة لكثرت. ⁷⁸⁵ وما يدل كذلك على وفرة إنتاج الحبوب قول أبي يوسف المجدولي النفوسي: «لو تمادت الشدة عشرين سنة أو ثلاثين سنة لم أبال فيها لعيالي ولا لحيواني. لما أدخر لكل نوع ما يليق به».⁷⁸⁶ وكانت لأبي عثمان المزاتي غرفة يملأها شعيرا. وقد تصدق بها كلها في مجاعة وقعت بالجبل.⁷⁸⁷ وقد أقام النفوسيون المخازن الكبيرة لخنز الغلال. وهي عبارة عن غرف محصنة لازالت بعض أطلالها شامخة في مدينتي نالوت وكباو.⁷⁸⁸

واشتهرت مدينة شروس بكرومها. وأعنانها. وتينها. وحبوبها خاصة الشعير. الذي كان أكل سكانها الأساسى. فإذا خبز كان أطيب طعاما من خبز الحنطة. وقد انفرد خبزهم بلذة لا توجد في خبز آخر.⁷⁸⁹ فلا غرابة إذن أن يذكر الشماخي في سيره أن أبا مرداس مهاصر السدراتي الساكن بقرية «تبرست» بالجبل كان يجلس على طريق رجوع الخدم من الاحتطاب فيعطيهن قبضة من دقيق مبلول يسمى «الصميت» (البسيسة).⁷⁹⁰

781 - نفسه ، ص300-301.

782 - نفسه، 278.

783 - البغطوري: سير نفوسة، (مخ)، 14.

784 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص73؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص149.

785 - أبو زكريا: المصدر نفسه، ص188-189؛ الشماخي: السير، ص283.

786 - الشماخي: المصدر نفسه، ص331.

787 - نفسه، ص203؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص149-150.

788 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي، ص36-65.

789 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص92؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج5، ص296.

790 - ينظر: ص173.

ورغم هذا الإنتاج الوفير من الحبوب إلا أن الجبل مر بفترات قحط وجذب عانى فيها النفوسيون الكثير. فقد روي أن السنة التي خرج فيها أبو الخطاب إلى القيروان لطرد قبيلة ورفجومة منها كانت سنة قحط. حتى إنهم أكلوا الجراد.⁷⁹¹ وقد اضطر السكان في بعض الأحيان إلى السفر إلى المدن المجاورة لشراء ما يكفيهم من مؤونة. وقد منعهم أبا أيوب صنو أبي الخطاب في مرة من المرات عندما أرادوا النزول إلى جربة. فأنزلهم عنده وأنفق عليهم.⁷⁹² وتضيف الروايات أن أبا مرداس مهاصر السدراتي عندما جاز على أهل قرية «إكراين» وهو في طريقه إلى أرضه ليحرثها وجددهم في حالة من الفقر والحاجة نتيجة قحط أصابهم فتصدق عليهم بالزريعة ثم عاد أدراجه.⁷⁹³

أما عن نظام غراسه الأرض في الجبل فإن المصادر لا تمدنا بمعلومات وافية عنه عكس ما كان معروفا عند الإباضية بلاد الجريد حيث كان سكان مدينة «تقيوس» يعمرون غاباتهم بالمناصفة فيكون لهم النصف عن غلالها. وللسلطان النصف. بالإضافة إلى تأديتهم العشر من النصف.⁷⁹⁴ وبما أن المناطق الزراعية محدودة في الجبل فقد كان لكل عائلة قطعة من الأرض تستغلها. وقد لجأ النفوسيون كذلك إلى الخروج من الجبل لاستصلاح الأراضي في الجفارة. فقد روي الدرجيني أن أبا محمد علي حرث ذات سنة أرضا ولما حصد زرعه ودرسه وقف عليه رجل وقال له: «اللهم إنك تعلم أنني لم آذن في حرث أرضي. ولا بعث. ولا وهبت. وإنها لأرضي لم تخرج عن ملكي» فقال الشيخ لابنه: «أفرغ الطعام.. ومضى تاركا له كل الغلة».⁷⁹⁵

ويبدو أن نظام ملكية الأراضي في الجبل يعتمد على الملكية الخاصة أو العائلية فالمصادر الإباضية لا تشير إلى تعاون جماعي في استغلال قطعة من الأرض. وهذا يعود إلى الطبيعة الوعرة للجبل والتي لا تسمح بوجود شراكة في استغلال أراضي صالحة للزراعة.⁷⁹⁶ ولعل مشاركة التلاميذ إلى جانب شيوخهم في الحصاد تدخل فقط في إطار التعاون المعمول به إلى أيامنا هذه.⁷⁹⁷ وبما أن الأراضي الصالحة للزراعة محدودة في الجبل فقد مر بنا أن الإمام عبد الوهاب اقطع النفوسيين النازحين من الجبل أرضا لاستصلاحها.

791 - المصدر السابق، ص127.

792 - المصدر نفسه، ص175.

793 - نفسه، ص175.

794 - الشماخي: السير، ص459؛ صالح باجية: الإباضية بالجريد، ص148.

795 - الدرجيني: المصدر نفسه، ج2، ص334.

796 - بحاز: الدولة الرستمية، ص155.

797 - الشماخي: السير، ص239.

وقد استعان النفوسيون في زراعة الأراضي بالعبيد المجلوب من السودان، وحتى بالروم واستعملوهم كذلك في معاصر الزيتون. وما يوحى بتشغيل العبيد في الحقول والمزارع بعض الإشارات المتناثرة في المصادر. فقد ذكر الوسياني أنه كان عند يوسف بن زيري خادم رومي يشتغل في جنانه.⁷⁹⁸ وقد اهتم تجار نفوسة بجلب الخدم من بلاد السودان لاستخدامهم في التجارة والزراعة، واشتهرت قرية «ويغو» بتجارة الرقيق.⁷⁹⁹ وقد مر بنا أن أبا مرداس مهاصر السدراتي كان يجلس على طريق رجوع الخدم ليتصدق عليهم، كما كان يبيب بن زلغين - وهو أحد أثرياء الجبل - يستخدم العبيد في رعي الأغنام.⁸⁰⁰

3 - الثروة الحيوانية:

تحدث المصادر الإباضية كثيرا عن وفرة الأغنام بالجبل، فإذا كان ابن حوقل قد وصف تاهرت بأنها أحد معادن الدواب، والماشية، والغنم.⁸⁰¹ فإن هذا الوصف ينطبق كذلك على الجبل. فقد كان يبيب بن زلغين يملك ثلاثين ألف ناقة، وثلاثمائة ألف شاة، واثنى عشر ألف حمار. ورغم مبالغة المصادر - على ما يبدو - في هذا العدد إلا أن شهادة الإمام عبد الوهاب تؤكد على أن يبيبا كان من كبار ملاك الأنعام. فقد قال: «لولا أنا ومحمد بن جرنى، ويبيب بن زلغين لخرب بيت مال المسلمين، أنا بالذهب ومحمد بن جرنى بالحرث، وابن زلغين بالأنعام».⁸⁰² كما أن أبا منصور إلياس ورغم أنه كان عاملا للإمام على الجبل إلا أن ذلك لم يمنعه من تربية الماشية، فقد كانت غنمه كثيرة التناسل.⁸⁰³

وما يدل على كثرة الأغنام في الجبل واهتمام النفوسيين بتربيتها أن أبا علي النفوسي عندما وقعت شدة في الجبل نزل إليه بعض المشائخ ولبثوا عنده مدة طويلة، وكان يذبح لهم كل يوم شاتين، ثم زادهما إلى أربعة، وهذا لكثرة ماله من الحيوان.⁸⁰⁴ وينطبق الكلام نفسه على أبي نوح سعيد بن يخلف، حيث وصفه الدرجيني قائلا: «كان كثير المال كثير الأضياف... فإذا نظرت إلى خيامه رأيت جلود الشياه منشورة عليها لفائف قطن لكثرة

798 - ينظر: السير، و44.

799 - الشماخي: السير، ص218.

800 - المصدر نفسه، ص204، س.

801 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص86.

802 - الشماخي: المصدر السابق، ص204-205؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص161؛ الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ص41.

803 - الدرجيني: الطبقات، ج2، ص329-330؛ بحاز: المرجع نفسه، ص161؛ يقول الدرجيني: «ولم ينقطع من بيت أبي منصور وذريته ثلاثة أشياء ولم تتبدل منذ فارقوا النصرانية... وهي الصلاحية، وزريعة القمح وتناسل الغنم».

804 - الشماخي: المصدر السابق، ص336.

ما يغشاه من الأضياف، فيكثر الذبائح».⁸⁰⁵ ولم تقتصر تربية الماشية على العامة فقط بل مارسها الشيوخ من العزابة. فأبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي مؤسس نظام الحلقة كان له قطيع من الغنم يرعاه. فقد روى الوسياني أن غنمه استولى عليها بنوغمرة في غارة أغاروها في أودية «أندرار» بالجبل.⁸⁰⁶

وبالإضافة إلى الأغنام اهتم النفوسيون بتربية الإبل، فكثرت حتى أصبح يعرف أهل الجبل أنهم ينتجونها ويركبون أسرعها، ويعود اهتمام النفوسيين بالإبل إلى اشتغالهم بالتجارة خاصة التجارة الصحراوية، إذ كانوا يتوغلون إلى بلاد السودان.⁸⁰⁷

وإلى جانب الأغنام والإبل اهتموا بتربية الخيل لإعدادها للظهور باعتبارها وسيلة من الوسائل المستعملة في المعارك ضد الأعداء.⁸⁰⁸ فقد كان أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي يكثر من اقتنائها لما كان «يأمله من الخير في نصرة الدين ومدافعة المعتدين»⁸⁰⁹ كما اهتم النفوسيون بتربية الأبقار، ويبدو أن أعدادها كانت هي الأخرى كثيرة، إذ لم يتجاوز سعر الثور في الجبل أربعة دنانير لكثرة العرض.⁸¹⁰

4 - الصناعة:

تعد الصناعة في جبل نفوسة ذات أثر محدود، فهي عبارة عن صناعة بسيطة تعتمد على المنتجات الزراعية والحيوانية. فكانت الصناعة تشمل العسل، والتين المجفف، والتمور، ومختلف المواد الغذائية مثل صناعة عصر الزيتون، وصناعة طحن الحبوب، وصناعة الكحل، المعروفة بالكحل النفوسية، وصناعة الزبيب.⁸¹¹ ولعل أهم صناعة برزت في الجبل هي صناعة النسيج لما يتوفر عليه من مادة خام لكثرة الأغنام. فكان الجبل ينتج أنواعا من الملابس الصوفية. وقد أشارت المصادر إلى اشتغال النساء بالغزل والنسيج حتى إنهن يحضرن مغازلهن إلى المجالس العلمية.⁸¹² وكانت تقوم بهذه الأعمال في الغالب الجوارى.⁸¹³ وانتشرت في الجبل كذلك صناعة الأصباغ حيث

805 - المصدر نفسه، ج2، ص368.

806 - ينظر: سير مشائخ المغرب، ص49.

807 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص207.

808 - ذكر أن أبا باديس أبخت بن باديس - وهو من شيوخ الإباضية بفحص بونة بالمغرب الأوسط - كانت له خيل كثيرة يعدها ويجهزها لإمامة الدفاع أو الظهور. ينظر: الشماخي: السير، ص382-383.

809 - الشماخي: المصدر نفسه، ص374؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص368.

810 - الشماخي: المصدر نفسه، ص306.

811 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص209؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص232.

812 - الشماخي: المصدر السابق، ص309.

813 - نفسه، ص247؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص167.

كانت الجالية اليهودية في «جادو» وغيرها مختصة في هذا النوع من الصناعة. حتى إن النساء كانت تعدن الوضوء لأنه نجس. فرخص لهن أبو ذر إبان بن وسيم بأن يغسلن أيديهن فقط. وليس عليهن إعادة الوضوء.⁸¹⁴ وما يؤكد اشتهاار جبل نفوسة بصناعاته النسيجية المتنوعة الألوان ما ذكره ابن حوقل في وصف جودته حيث قال: «وطبقات الأكسية الفاخرة الزرق. والكحل النفوسية. والسود. والبيض الثمين».⁸¹⁵

كما عرف الجبل صناعة الأواني الفخارية. والخزف. خاصة الأواني التي تستعمل كمواقد للجمر. المستخدمة في الطبخ أو في التدفئة. وقد اشتهرت بهذه الصناعة في العصر الرستمي قرية ويغو.⁸¹⁶ يقول الباروني: «تعجب القوم من استحضر فرج ابن خالة مهدي في أقرب وقت على حين غفلة تلك الكوانين كلها. ويقال إنها مجالس فخار كان أعدها للغرس».⁸¹⁷ وهذا إبان زيارة الإمام عبد الوهاب للجبل. وهذا يدل على أن النفوسيين كانوا يستعملون الأواني الفخارية لغرسها بالأزهار لتزيين بيوتهم.

وهكذا نلاحظ أن أغلب الصناعات في الجبل كانت عبارة عن صناعات بسيطة تقوم على الثروة الزراعية والحيوانية. لتلبي حاجيات السكان من ملابس. وزينة. وأواني منزلية. ولا تشير المصادر إلى وجود صناعات حديدية على الرغم من أن جبال طرابلس بها معادن كثيرة. من فضة. وحديد. وفحم. وكبريت. وغيره.⁸¹⁸ أما الصناعات الجلدية فنعتقد أنها كانت متطورة بالجبل. لارتباطها بالثروة الحيوانية. وتوفر المادة الخام. وإن كانت لم تشتهر مثل نظيرتها في غدامس.

5 - التجارة:

أ - الطرق التجارية:

1 - الطرق البرية: كانت تربط الجبل عدة طرق تجارية بمختلف المدن المغربية. وبلاد السودان خاصة وأن موقعه الجغرافي ساعده على توسط شبكة من المسالك التي تربط المشرق الإسلامي بمغربه. ولا جدال في أن للطرق والمسالك دورا هاما في إنعاش الحركة

814 - الدرجيني: طبقات المشائخ ج2، ص303؛ بحاز: المرجع نفسه، ص168؛ الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1986، ص200.

815 - ينظر: صورة الأرض، ص71-72.

816 - الباروني: الأزهار، ج2، ص191؛ الحبري: الدولة الرستمية، ص232-233.

817 - الباروني: المرجع نفسه، والصفحة ذاتها.

818 - ابن غلبون: المنهل العذب، ص21.

التجارية وازدهارها. خاصة وأن الجبل لا يبعد سوى مسيرة ثلاثة أيام عن طرابلس. وستة أيام عن القيروان.⁸¹⁹

والمعروف أن طرابلس الغرب ترتبط بمجموعة من المسالك التجارية البرية والبحرية. بالإضافة إلى المسالك الداخلية التي تتوغل إلى أسواق المدن الصحراوية. وبما أن الجبل يقع على مسافة قصيرة من هذه الحاضرة فقد استفاد سكانه من هذه المسالك.

أ - جبل نفوسة - وارجلان:

لعل أهم طريق صحراوي يربط الجبل بالمدن الصحراوية في المغرب الأوسط هو الطريق المؤدي إلى مدن أريغ. آجلو. أسوف. ووارجلان. ونحن نعلم أن هذه المدن كانت مكتظة بالإباضة خاصة بعد أن نزح إليها التاهريون بعد سقوط الدولة الرستمية. ويبدو أن لإباضية جبل نفوسة علاقات تجارية منذ فترة مبكرة مع سكان هذه المدن. فأول إشارة لهذا الطريق أوردها الإدريسي. حين ذكر بأن هناك طريقا يربط الجبل بوارجلان مسيرته اثنتا عشر مرحلة. لكنه لا يشير إلى مراحل. ⁸²⁰ ويرى ليفيسكي بأنه يمر بنفزاوة ثم أسوف ثم إلى وارجلان.⁸²¹ وهذا ما أكده أبو زكريا حين ذكر أن أبا يعقوب يوسف بن الوالي - أحد علماء الإباضية - عندما أراد مغادرة «تين يسلي» إلى نفزاوة. سار إلى أسوف صحبة قافلة. وفيها وجد أخرى اعتزمت السفر إلى نفزاوة فاصطحبها.⁸²²

وأسوف هذه لا تبعد كثيرا عن مدينة نفطة الواقعة في بلاد الجريد بإفريقية. ومنها يتجه الطريق إلى نفزاوة. فالإدريسي يصف مراحل طريق قفصة - نفزاوة بقوله: «من مدينة قفصة إلى نفطة مرحلتان صغيرتان... ومن قفصة إلى نفزاوة جنوبا يومان وبعض يوم. ومن توزر إلى نفزاوة يوم ونصف يوم. ومن وارجلان إلى قفصة ثلاثة عشر مرحلة».⁸²³ أما مجموع المراحل بين واجلان وبلاد الجريد فهي أربعة وعشرون يوما من السير.⁸²⁴

ب - جبل نفوسة - نفزاوة:

وهناك طريق آخر يربط جبل نفوسة بنفزاوة. مروراً بمدينة لوحقة. التي تتصل بها

819 - البكري: المغرب، ص9؛ البغدادي: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1955، مج3، ص1382.

820 - ينظر: القارة الإفريقية، ص180.

821 - T. Lewicki: Etudes Maghrebines- Soudanaises, Editions Scientifique de Pologne, Varsovie, 1976, p29.

822 - ينظر: كتاب السيرة، ص330.

823 - ينظر: القارة الإفريقية، ص179-197.

824 - الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 1984، ص6.

غربا مدينة بسكرة. وباديس في الزاب.⁸²⁵ ولا يعرف موقع مدينة لوحقة هذه ولكنها تقع على ما يبدو بين جبل نفوسة ونفزاوة. فالطريق يبدأ من قابس متجها إلى الجبل إلى الجنوب الشرقي مروراً بمدينة «يغمراسن» التي تقع شمال غرب «تطاوين» ثم يتجه الطريق شرقاً إلى «زغاوة». كما يمر بمدينة «تاللت» التي ذكرتها المصادر الإباضية.⁸²⁶ فقد كان فيها مصلى للإمام عبد الوهاب عندما زار منطقة طرابلس في القرن 3هـ.⁸²⁷

ويحتمل أن هذا الطريق يمر بمدينة شروس. فقد كانت هذه المدينة تمثل مرحلة من مراحل القوافل التي تسلك طريق وارجلان. وطريق التكرور (السودان الغربي). وغاية هذه القوافل الوصول إلى طرابلس التي تبعد مسيرة خمسة أيام عن شروس.⁸²⁸ كما أن هناك طريقاً آخر يربط الجبل بفزان وبلاد كاتم في السودان الأوسط. ومدينة غدامس التي تقع على الطريق الذي يمر ببلاد كاتم. وهي ليست بعيدة عن جبل نفوسة إذ يحدد البكري المسافة بسبعة أيام في الصحراء.⁸²⁹ أي سبع أو ثمانية مراحل.⁸³⁰ وربما كانت غدامس المحطة الرئيسية بين جبل نفوسة وتادمكت. لأنه يوجد طريق بين هذه الأخيرة وغدامس مسيرته خمسة وعشرين يوماً.⁸³¹ ويؤدي هذا الطريق كذلك إلى بلاد كوكو التي تبعد نحو تسع مراحل عن تادمكت.⁸³² ولاشك أن التجار النفوسيين قد استعملوا هذه الطريق. خاصة ونحن نعرف بأن سكان مدينة غدامس إباضية. وكانت تربطهم علاقات تجارية متميزة مع إخوانهم في الجبل.⁸³³ أضف إلى ذلك إلى أن هناك طريقاً يربط غدامس بمدينة وارجلان مسافته نحو عشرين يوماً في صحراء قليلة المياه.⁸³⁴ فعبر هذا الطريق وصل جمار نفوسة إلى تادمكت. منهم أبو الربيع بن أبي هارون الذي كان يسافر كثيراً إلى هذه المدينة للتجارة. وقد عرف بثرائه.⁸³⁵ وتحدثت المصادر الإباضية كذلك عن سفر أبي نوح سعيد بن زنگيل إلى هذه المدينة.⁸³⁶

825- الإدريسي: المصدر السابق، ص180.

826 - T. Lewicki: Etudes Maghrebines, p30.

827 - الشماخي: السير، ص159.

828 - البكري: المغرب، ص9.

829 - البكري: المصدر نفسه، ص182.

830 - الشماخي: المصدر السابق، ص275.

831 - البكري: المصدر السابق، ص182؛ Henri Lhote: La saline d'amador et le geographe, El Bekri, 55-Bulletin de liaison Saharienne n°14, 1953, p54.

832 - نفسه، ص182-183.

833 - T. Lewicki: Tasmiya Suyuh Nefoussa, p100.

834 - مجهول: الاستبصار، ص224.

835 - البغطوري: سير نفوسة، و14.

836 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص367.

ج - جبل نفوسة - زويلة - ودان:

أما الطريق من نفوسة إلى زويلة فإنه ينطلق من مدينة «جادو» حاضرة الجبل إلى موضع يسمى «تيري» في الصحراء. والذي يبعد عنه مسيرة ثلاثة أيام. ويقع هذا الموضع في سفح جبل يمتاز بكثرة العيون الجارية والنخيل. ثم يشق الطريق الجبل. ومنه إلى صحراء لا ماء فيها نحو أربعة أيام من السير. وأول بئر يجده المسافر على هذا الطريق بئر يسمى «أودرف». ثم يجد جبلاً شامخة تسمى «تارغين». وبعد مسيرة ثلاثة أيام يصل إلى بلد «تامرما» ومنه إلى موضع يسمى «سباب» مسير يومين. ومن سباب إلى زويلة مسير يوم.⁸³⁷

والمعروف أن مدينة زويلة بحكم موقعها الجغرافي عرفت حركة تجارية نشيطة. فقد كان يجلب إليها الرقيق من الميريين، والزغاويين، والمرويين لقربهم منهم. ومنها يخرج الرقيق إلى بلاد إفريقية وغيرها من البلاد.⁸³⁸ فلا غرابة إذن أن تكون هذه المدينة مجمع الرفاق. يسكنها أخلاط من التجار من خراسان، والبصرة، والكوفة. وبما أن سكانها إباضية فلاشك أن تعاملهم التجاري مع إباضية جبل نفوسة كان كثيفاً.⁸³⁹

ومن أراد الاتجاه إلى تاجرقت فإنه يخرج من زويلة إلى مدينة سبها مسيرة خمسة أيام. ثم إلى مدينة «هل» المسافة نفسها. وهي مدينة عامرة كثيرة النخل. من «هل» إلى «ودان» مسيرة يومين. ومن «ودان» إلى «تاجرقت» ثلاثة أيام. ومنها إلى مدينة «سرت». وبين سرت وزويلة اثنا عشر مرحلة. وبينها وبين ودان المسافة نفسها. وهناك طريق آخر غير هذا يربط زويلة بتاجرقت. فمن زويلة إلى مدينة «تمسى». ومنها إلى مدينة «زلهي» ثم الفاروج. فسرت ثم إلى أجدابية. ثم إلى قصر زيدان الفتى فأوجلة. ومن أوجلة إلى تاجرقت. وتبلغ المسافة بين زويلة وتاجرقت مسير ثلاث وعشرين يوماً وخمس مراحل.⁸⁴⁰

وهناك طريق آخر غير هذا. يربط زويلة بتاجرقت. فمن زويلة إلى مدينة «تمسى». ومنها إلى مدينة «زلهي». ثم الفاروج. فسرت. ثم إلى أجدابية. ثم إلى قصر زيدان الفتى. فأوجلة. ومن أوجلة إلى تاجرقت. وتبلغ المسافة بين زويلة وتاجرقت مسيرة ثلاث وعشرين يوماً وخمس مراحل.

837 - البكري: المغرب، ص10؛ صالح مصطفى مفتاح: ليبيا منذ الفتح، ص216.

838 - البعقوبي: صفة المغرب، ص3؛ مجهول: الاستبصار، ص146.

839 - البعقوبي: المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

840 - البكري: المغرب، ص11-12؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص21؛ محمد سليمان أيوب: مختصر تاريخ فزان، ص87-88.

وهناك طريق يربط جبل نفوسة بـ «ودان» عبر طرابلس. فمن الجبل إلى طرابلس مسيرة ثلاثة أيام. ومن طرابلس يسير المسافر في بلد هواره. نحو الجنوب إلى أن يصل قصر ابن ميمون. ثم من هذا القصر ثلاثة أيام إلى صنم من حجارة مبني على ربوة عالية يسمى كرز. ومن كرزة إلى ودان مسير ثلاثة أيام.⁸⁴¹

د - جبل نفوسة - كوكو:

أما الطريق الذي يربط جبل نفوسة بكوكو مروراً بغدامس وتادمكة، فإنه ينطلق من مدينة شروس ليصل المسافر إلى غدامس بعد مسيرة سبعة أيام في الصحراء⁸⁴² وغدامس هذه كانت محطة لقوافل الحجاج المتجهين إلى البقاع المقدسة، وللتجار المتجهين إلى بلاد السودان ومصر. وقد كانت هذه المدينة منذ العصر الفينيقي، والروماني، حصناً تجارياً وحربياً لروما على طريق جرمة جنوباً. وفي العصر الإسلامي لعبت دوراً هاماً في العلاقات التجارية عبر الصحراء. فقد ربطها التجار الإيباضية بنشاطهم التجاري الواسع. وظلت تحتفظ بمكانتها التجارية حتى عصر محمد بن الحسن الوزان المعروف بـ «ليون الإفريقي» الذي وصف أهلها بالثراء الناجم عن تجارتهم الكثيفة مع بلاد السودان. وأشهرها ما تنتجه هذه المدينة الجلود المصنوعة.⁸⁴³

ويخرج الطريق من غدامس في اتجاه الغرب ليتصل بالطريق الذي يربط تاهرت عاصمة الدولة الرستمية بكوكو، بين وارجلان وتادمكة، ثم يتجه جنوباً نحو تادمكة. وتقدر المسافة بين غدامس وتادمكة خمسة وعشرين مرحلة، ومن تادمكة إلى كوكو تسعة مراحل.⁸⁴⁴ أما المسافة بين تاهرت وكوكو فتقدر بمسير ثلاثة أشهر.⁸⁴⁵

وهناك طريق آخر يربط غدامس بتادمكة لا يذكر البكري مراحلها، ولا يستبعد أن يكون جدار جبل نفوسة الذين وصلوا إلى اودغست قد سلكوا هذا الطريق قاصدين كوكو ثم غانة بعد عبور نهر النيجر، ومنها جنحوا نحو اودغست.⁸⁴⁶

841 - البكري: المصدر نفسه، ص12؛ صالح مصطفى: المرجع نفسه، ص217؛ محمد سليمان أيوب: المرجع نفسه، ص88-89.

842 - مجهول: الاستبصار، ص145؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص218-219.

843 - أحمد إلياس حسين: الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر، كما عرفها الجغرافيون العرب، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1977، ص89-90.

844 - البكري: المغرب، ص182-183.

845 - الباروني: الأزهار الرياضية، ج2، ص239.

846 - بحاز: الدولة الرستمية، ص218-219.

هـ - جبل نفوسة - الكاتم:

وهناك طريق صحراوي آخر ساهم في ازدهار التجارة مع بلاد السودان هو الطريق الذي يربط جبل نفوسة بكوار بالكاتم. فقد كانت القوافل التجارية التي كانت تخرج من جادو تتجه إلى مدينة زويلة جنوباً، لتصلها بعد مسير ثلاثة عشر يوماً. ويمتاز هذا الطريق بأنه يشق قفارا لا ماء فيها. ومن مدينة زويلة إلى مدينة كوار مسيرة خمسة عشر يوماً.⁸⁴⁷ وهي مدينة بها قوم من المسلمين أغلبهم بربر يتاجرون بالرقيق.⁸⁴⁸ وتقع كوار هذه في إقليم كاتم شمال بحيرة تشاد. ويبدو أن هذا الطريق هو أقصر المسالك المؤدية إلى بلاد السودان، إذ لا تتعدى مسافته أكثر من مسير شهر. كما أنه اختص بجلب الرقيق وبيعهم في الأسواق، أو لتشغيلهم في الزراعة، والصناعة.⁸⁴⁹

أما الطريق الذي يخرج من غدامس إلى «غات» و«إيري» ومالك الهوسا، فإنه يتجه من غدامس إلى فزان وطرابلس، أو إلى مصر سواء عن طريق بحيرة تشاد، أو عن الطريق الذي أشار إليه البكري، والذي يربط بين الواحات الليبية والواحات المصرية. ويمتاز هذا الطريق بكثرة خطورته ومشقته يصفه صاحب الاستبصار بقوله: «لولا قلة الماء في هذه الصحراء لكان الطريق من إفريقية إلى مصر على الواحات أقرب».⁸⁵⁰ ويبدو أن هذا المسلك هو الذي هلك فيه قافلة من أهل الجبل ماتوا من العطش، ولم ينج منهم إلا عبد حبشي أخبر نفوسة بموتهم.⁸⁵¹ وكان هذا الطريق أي طريق الواحات يمر بالواحات الخارجة من صحراء مصر الغربية، ومنها إلى الواحات الداخلة إلى أن يصل إلى أوجلة. وقد ذكر البكري مفصلاً مراحل هذا الطريق. فمن أوجلة إلى بلد سنترية عشر مراحل، وهي مدينة كثيرة العيون والثمار والحصون يسكنها قوم من البربر، ومن سنترية إلى بهنسي عشر مراحل، ومن بهنسي إلى أريش ثماني مراحل، ومن أريش إلى الفرفرون ثلاثة أيام، ومن الفرفرون إلى الواح الداخل أربع مراحل في صحراء لا ماء فيها ولا عمارة. وفي هذه الجهة توجد حصون منها حصن يسمى بالقصر، ثم يسير المسافر في قرى متصلة إلى حصن يسمى قلمون، ثم إلى قرية كبيرة تسمى «القصبه». ومن هذا الواح إلى الواحين الخارجين ثلاث مراحل، وهو آخر بلاد الإسلام، وبينه وبلاد النوبة في صحراء ست مراحل.⁸⁵² ومن المحتمل أن يعبر هذا الطريق الواحات إلى أن يصل إلى غدامس.

847 - البكري: المغرب، ص10.

848 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص6.

849 - بحاز: الدولة الرستمية، ص219-220.

850 - ينظر: ص147.

851 - الوسياني: السير، (مخ)، ورقة 10.

852 - البكري: المغرب، ص14-15.

وغات، ثم يتجه إلى سجلماسة في أقصى بلاد المغرب، وغرب إفريقية حيث تقع مناجم الذهب.⁸⁵³

أما الطريق الذي يمتد من طرابلس ولبة إلى غاية فزان، وكوار، وبرنو، وبحيرة تشاد، فإنه يعد شريانا حيويا ساهم في انتعاش التجارة، وتنوع السلع الصادرة والواردة، ويرجع تاريخ وجود هذا المسلك إلى العصر الروماني، ذلك أن الرومان أدركوا أهمية مدينتي جرمة، وفزان خاصة هذه الأخيرة التي تقع على الطريق الرابط بين مصر وشمال إفريقيا. وقد استعمل الفاتحون العرب هذا الطريق إبان فتحهم لبلاد المغرب.⁸⁵⁴

وقد تحدث «بوفيل» عن تجارة الرقيق بين برنو وطرابلس فقال: «وعلى الرغم من أن طريق فزان - كوار حمل كمية هائلة من الملح فمما لاشك فيه أنه كان طريقا للرقيق. سجل كل أوروبي سافر عن هذا الطريق فزعه من آلاف الهياكل البشرية التي انتشرت على جانبيه».⁸⁵⁵

و - جبل نفوسة - مصر:

من بين الطرق التي تربط جبل نفوسة بمصر، الطريق الساحلي وهو الطريق الذي يوفر سبل الأمن والراحة للتجار لكثرة الحصون المنتشرة فيه، ووجود نظام أبراج المراقبة على طول الساحل، يقول المراكشي: «كانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان تمشي فيها القوافل ليلا ونهارا، وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة جدا فإذا ظهر في البحر عدو نور كل حصن للحصن الذي يليه، واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية».⁸⁵⁶ وقد ذكر اليعقوبي مجموعة من الحصون مثل حصن «وادي مخيل»، «أجبة»، «الجبل الشرقي»، و«الجبل الغربي»، ببرقة، «أجدابية»، «لبدة»، وغيرها.⁸⁵⁷

يخرج هذا الطريق من جبل نفوسة إلى طرابلس مسير ثلاثة أيام، ومن طرابلس إلى وادي الرمل عشرون ميلا، ومن وادي الرمل إلى المجتني المسافة نفسها، ومن المجتني إلى ورداسة إثنان وعشرين ميلا، ومن ورداسة إلى دغوغا ثمانية عشر ميلا، ومن دغوغا إلى تاورغا عشرون ميلا، ومن تاورغا إلى المنصف أربعة وعشرين ميلا، ومن المنصف إلى

853 - صالح مصطفى مفتاح: ليبيا منذ الفتح، ص 227-228.

854 - المرجع السابق، ص 219.

855 - المرجع نفسه، ص 219.

856 - المراكشي: المعجب، ص 196.

857 - صفة المغرب، ص 2.

مغمداس أربعين ميلا، ومن مغمداس إلى القرنين عشرين ميلا، ومن القرنين إلى سرت ثمانية عشر ميلا، ومن سرت إلى قبر العبادي أربعة وثلاثون ميلا، ومن قبر العبادي إلى اليهوديتين أربعة وثلاثين ميلا، ومن اليهوديتين إلى قصر العطش أربعة وعشرين ميلا، ومن قصر العطش إلى منهوشة أربعة وثلاثين ميلا، ومن منهوشة إلى حي جوة ثلاثون ميلا، ومن حي جوة إلى أجدابية عشرون ميلا، ومن أجدابية يتجه الطريق إلى سلوق، ومن سلوق إلى أوبران ثم إلى قصر العسل فالبرقة.⁸⁵⁸

ومن أراد أن يسلك من برقة إلى مصر اتجه إلى وادي مخيل والذي يبعد عن برقة بثلاث مراحل، ومنه إلى جب الرمل، ثم إلى قصور الروم، ثم إلى مغاير رقيم، ثم إلى القصر الأبيض، ثم العقبة، ثم الرمادة - وهي آخر منازل البربر يسكنها قوم من مزانة والعجم والعرب - من بللى وجهينة وبني مدلج وغيرهم، ومن الرمادة إلى قصر الشماس أو خربة القوم ثم إلى منزل «معن»، ثم إلى منازل بني مدلج، ثم إلى ذات الحمام، ثم إلى بومينا، ومن إلى «المنى»، ثم إلى ترنوط، ومنه إلى مدينة الفسفاط.⁸⁵⁹

ز - جبل نفوسة - تاهرت - فاس:

أما عن الطريق الذي يربط جبل نفوسة بتاهرت عاصمة الرستميين فإنه يمر ببلاد الجريد، فالنفوسي إذا أراد السفر إلى تاهرت فإنه يتجه إلى مدينة قفصة، وهناك يجد ثلاثة مسالك: مسلك يتجه إلى القيروان مسافته مسيرة سبع مراحل، ومسلك يتجه إلى تاهرت عبر سطيف، هذه المدينة التي تبعد عن تاهرت بعشرين مرحلة، وعن القيروان بعشرة مراحل، ومسلك ثالث كان مستعملا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يمر بمدينة مجانة والمسيلة وأشير مسيرته أربعة عشر يوما، وهو أقصر الطرق، أما الطريق الذي يربط بين مدينتي قفصة والمسيلة، فقد عدد لنا ابن حوقل مراحل، فمن قفصة إلى قسطيلية، ومن قسطيلية إلى نفطة بعض مرحلة، ومن نفطة إلى مدالة مرحلة، ومن مدالة إلى تادميت مرحلتان، ومن تادميت إلى باديس مرحلة، ومن باديس إلى تهودا مرحلة، ومن تهودا إلى بسكرة - قاعدة الزاب - مرحلة، ومن بسكرة إلى طينة مرحلتان، ومن طينة إلى مقرة، ومن مقرة إلى المسيلة.⁸⁶⁰

وإذا رغب المسافر أن ينتقل من تاهرت إلى عاصمة الأدارسة فاس فإنه يسير خمسة وعشرين يوما إلى مدينة تلمسان، ومنها إلى فاس أربعة وعشرين ليلة، وبالتالي فإن

858 - البكري: المغرب، ص 4-6؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص 225-227.

859 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص 2-3.

860 - صورة الأرض، ص 87.

المسافة لا تتعدى الخمسين يوماً.⁸⁶¹ وإذا أراد الخروج من تاهرت إلى سجلماسة فإنه يسلك الطريق التي تمر بـ «أوزكا» وهي مدينة تبعد بثلاثة مراحل عن تاهرت. ومن أوزكا إلى سجلماسة سبع مراحل.⁸⁶²

ج - جبل نفوسة - غانه:

وهناك مسلك صحراوي آخر يربط جبل نفوسة بغانة مروراً بوارجلان. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن أقدم مسلك يؤدي إلى غانة كان ينطلق من مدينة طرقله حاضرة السوس الأقصى. قبل تأسيس مدينة سجلماسة سنة 140 هـ (757 م). وتشير المصادر الإباضية إلى أن التجار الإباضية قد سافروا إلى غانة مروراً بوارجلان. ولا يستبعد أن يكون هؤلاء قد جاؤوا من إفريقية إلى أودغست. عبر المسلك الذي يمر ببلاد الجريد. ووارجلان. ومسيرته أربعة عشرة يوماً.⁸⁶³ وعلى الرغم من أن المصادر لا تعطينا معلومات وافية عن مراحل هذا الطريق ومحطاته إلا أن ليفيسكي يرجح أنه كان يمر بمدينة القليعة وقرارة (حاليا).⁸⁶⁴ أما عن المراحل التي يقطعها المسافر بين سجلماسة وغانة فقد ذكرها البكري بدقة. وحدد المسافة بينهما بمسير شهرين في صحراء غير عامرة.⁸⁶⁵ أما محطاته الرئيسية فهي: تامدلت، إيزل وأودغست. فأودغست تبعد عن سجلماسة بإحدى وخمسين مرحلة. وفي موضع آخر يذكر البكري أن المسافة بينهما مسيرة شهرين.⁸⁶⁶ أما المسافة بين أودغست وغانة فقد قدرت بإثني عشر مرحلة. وبين أودغست ووارجلان إحدى وثلاثين مرحلة.⁸⁶⁷ وتبقى بعض المحطات غير معروفة. فـ «إيزل» مثلاً هي كدية إيجيل، التي ظهر على مقربة منها في فترة متأخرة موضع يسمى «حصن الملح». وهو الحصن الذي كان التجار يأخذون منه الملح لبيعه في بلاد السودان.⁸⁶⁸ أما تامدلت فهي إحدى قرى بني درعة وسكانها بنو ترجا من البربر.⁸⁶⁹ وقد وصفها صاحب الاستبصار بأنها مدينة كبيرة حافلة بالأسواق. كثيرة العمارة. تبعد عن درعة مسيرة ستة أيام.⁸⁷⁰

861 - جودت عبد الكريم: العلاقات الخارجية، ص205؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص189.

862 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص20-21؛ جودت: المرجع نفسه، ص224-225؛ بحاز: المرجع نفسه، ص190.

863 - الحميري: الروض المعطار، ص60.

864 - T. Lewicki: Etudes Maghrebines, p45.

865 - ينظر: المغرب، ص149.

866 - المصدر نفسه، ص159-164-168.

867 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص89.

868 - ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص113؛ T. Lewicki: Etudes Maghrebines, p45.

869 - اليعقوبي: صفة المغرب، ص27.

870 - ينظر: ص213.

وقد اكتفى اليعقوبي بذكر محطتين فقط بين سجلماسة وبلاد السودان، فالمحطة الأولى هي مواطن قبائل أنبية من صنهاجة والتي تبعد بخمسين مرحلة عن سجلماسة. أما المحطة الثانية فهي غسسط وهي مدينة تقع في واد عامر كثير المنازل.⁸⁷¹ وتوجد محطة أخرى ذكرها ابن سعيد وهي «أزقي»، التي تبعد مسير سبعة أيام عن حصن الملح.⁸⁷² ويبدو أن الطريق إلى غانة يبدأ من هذه المحطة. يقول الحميري: «هي أول مراقي الصحراء، ومنها إلى سجلماسة ثلاثة عشر مرحلة، ومنها إلى نول لمطة سبعة مراحل... ولا بد من الدخول على هذه المدينة لمن أراد تكرور وغانة من بلاد السودان».⁸⁷³

ظلت غانة لحقبة طويلة ملتقى للقوافل التجارية، ففيها كان يجتمع التجار. ومنها ينتقلون إلى بلاد التبر. ومنه كانوا يتزودون بالمؤن.⁸⁷⁴

وهناك طريق آخر يربط بلاد «جدالة» بغانة. فجدة تقع شمال مجرى نهر السينغال الأدنى. فهي أقرب بلاد الإسلام إلى بلاد السودان. وأقرب مدينة من مدن السودان إليهم مدينة صغانة التي تبعد عن جدالة مسير ستة أيام، وتلي مدينة صغانة مدينة تكرور.⁸⁷⁵ وهناك مسلك يربط غانة بمدينة تادمكة مسيرته خمسين يوماً. والطريق بين غانة وبين سفنقو آخر عمل غانة مسيرته ثلاث مراحل، ثم إلى بوغارت، ومنها إلى مدينة تيرقي، ثم إلى تادمكة.⁸⁷⁶ فأما تيرقي فهي مدينة عامرة أهلة، بها أسواق حافلة يجتمع فيها التجار من مختلف الأمم. وتبعد تادمكة عن غانة بحوالي خمسين مرحلة.⁸⁷⁷

كما يربط غانة طريق آخر بمصر يمر على كوكو، ومرندة، وزويلة، وأجدابية، فمن غانة إلى كوة مسير شهر، وهي مدينة أهلة يتجهز إليها بالملح، والودع، والنحاس المسبوك. واشتهرت بوفرة الذهب لكثرة معادن التبر به. ومن كوة إلى سامة أقل من شهر. ومن سامة إلى كزم شهر كذلك، ومن مرندة إلى زويلة شهران، ثم إلى أجدابية شهر. ومن زويلة إلى فزان خمسة مراحل، ومن فزان إلى زغاوة شهران. وقد أهمل هذا الطريق وتركه التجار لصعوبته، وذلك في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، فقد ذكر ابن حوقل أن العديد من القوافل التي سلكت هذا الطريق قد هلكت بسبب تعرضها للعواصف

871 - المصدر السابق، ص22.

872 - كتاب الجغرافيا، ص113.

873 - الروض المعطار، ص28.

874 - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص184.

875 - مجهول: الاستبصار، ص217.

876 - البكري: المغرب، ص181.

877 - مجهول: المصدر السابق، ص222.

وبفضل تجار نفوسة توغل الإسلام وانتشر في مدينة غانة وما جاورها من بلاد السودان فالفضل يرجع إلى العالم التاجر علي بن يخلف النفوسي التميمي⁸⁸⁷.

وفي المقابل جاءت قوافل التجار من التكرور إلى جبل نفوسة في زمن أبي عمرو ميمون بن محمد الشروسي. وقد جمعوا له أربعمئة دينار لكن أبا عمرو رفضها وأمر بإغلاق الأسواق والبروز إلى التكرور من أجل الانتفاع بالبيع والشراء⁸⁸⁸.

ط - جبل نفوسة - مدن إفريقية:

كما ارتبط جبل نفوسة بمجموعة من المسالك مع مدن إفريقية. فمن الجبل إلى طرابلس ثلاثة أيام، ومن طرابلس إلى قابس ست مراحل إلى جهة القيروان. وهي جادة الطريق⁸⁸⁹. وقيل خمس مراحل⁸⁹⁰. وقيل عشر مراحل⁸⁹¹. ومن قابس إلى مدينة سفاقس سبعون ميلاً. ومن سفاقس إلى قفصة ثلاثة أيام، ومن سفاقس إلى المهدية مرحلتان. وهي مدينة أهلة عامرة كانت مرفأً للسفن التجارية القادمة من بلاد المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم⁸⁹². كما اشتهرت مدينة سفاقس هي الأخرى بكثرة حماماتها. وفنادقها. كما أنها كانت محطة للسفن، يقصدها التجار من مختلف الآفاق بالأموال الكثيرة لشراء السلع الواردة إليها، من الإسكندرية والشام وبرقة⁸⁹³.

ومن أراد المسير إلى القيروان فإن المسافر يخرج من سفاقس إلى «طرفي» وهو بلد عامر بالسكان، ومنه إلى قصر رباح ثم إلى القيروان⁸⁹⁴. ومن القيروان إلى رقادة أربعة أميال⁸⁹⁵. وقيل ثمانية أميال. ومن القيروان إلى سوسة مرحلة. ومن القيروان إلى الجزيرة مرحلة. ومن القيروان إلى باجة ثلاثة مراحل. ومن القيروان إلى الأريس مرحلتان. ومن القيروان إلى مجانة أربع مراحل. ومن القيروان إلى بلاد الزاب عشرة مراحل⁸⁹⁶. ومن مدينة القيروان إلى تونس مرحلتان⁸⁹⁷.

887 - عبد الله بن يحيى الباروني: رسالة سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين. مطبعة النجاح، القاهرة. 1324هـ: ص21-22.

888 - الشماخي: السير، ص273؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص167.

889 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص72.

890 - يعقوبي: صفة المغرب، ص8.

891 - المراكشي: المعجب، ص197.

892 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص182.

893 - البكري: المغرب، ص20.

894 - المصدر نفسه، ص20-21.

895 - نفسه، ص27.

896 - يعقوبي: صفة المغرب، ص8-11.

897 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص186.

الرملية. ولقطاع الطرق. وأصبحت القوافل تجتاز بالمغرب إلى سجلماسة⁸⁷⁸.

ورغم وجود هذا الطريق الذي يربط فزان بغانة إلا أن التجار الإباضية قد سلكوا الطريق المار بوارجلان. فقد عرج أبو موسى هارون بن أبي عمران الوسياني - أحد شيوخ المذهب - على وارجلان في أثناء سفره إلى غانة وغيارو⁸⁷⁹ التي تقع في السودان الغرب. وهي من الأماكن التي يوجد فيها أفضل أنواع التبر. تبعد عن غانة عاصمة المملكة بسبعة أيام⁸⁸⁰. كما أن تاجراً إباضياً آخر يدعى عمران بن محمد بن رستم سافر إلى غانة انطلاقاً من وارجلان⁸⁸¹. كما قدم الشيخ إسماعيل بن علي النفزاوي من «تين بمر» الواقعة قرب «نفزاوة» قاصداً غانة. وفي طريقه بات في قرية «توات» إحدى قرى مدينة وارجلان في ضيافة أبي العباس أحمد بن محمد بن علي (النصف الثاني من القرن الخامس الهجري)⁸⁸².

وهكذا نلاحظ بأن التجار الإباضية وصلوا إلى المدن النائية لشراء السلع التي تدر عليهم أرباحاً طائلة. رغم مخاطر الطريق وبعد المسافة إذ أن في أغلبه مفازة. يقول ابن خلدون: «(إن) نقل السلع من البلد البعيدة المسافة أو شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار أو أعظم أرباحاً... ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس. وأكثرهم أموالاً. لبعدهم طريقهم. ومشقته. واعتراض المفازة الصعبة. المخطرة بالخوف. والعطش»⁸⁸³. فلا غرابة إذن أن يبعث تلميذ الوسياني من تادمكة ستة عشر كيساً. كل كيس فيه خمسمئة دينار إلى أبي عمران موسى بن سدرين ليوزعها على الفقراء والمحتاجين⁸⁸⁴. وقيل ستة عشر كيساً مملوءة ذهباً⁸⁸⁵. كما أن الشيخ عبد الحميد الفزاني وهو عالم كبير من علماء أهل الدعوة يسافر إلى بلاد السودان. ولا نعرف الطريق الذي سلكه. فالوسياني يذكر أن المسافة بين جبل نفوسة وبلاد السودان مسير شهر⁸⁸⁶.

878 - المصدر نفسه، ص65.

879 - الشماخي: السير، ص372-373.

880 - البكري: المغرب، ص177.

881 - الشماخي: المصدر السابق، ص516؛ T. Lewicki: Etudes Maghrebines, p43.

T. Lewicki: Quelques Extraits Inedites Relatifs Aux Voyages Des Commerçants Et Des Missionnaires. 20-Ibadites Nord-Africains Au Pays De Soudan Occidentale F.O, 1960, T2, p19.

882 - T. Lewicki: Etudes Maghrebines, p43.

883 - ينظر: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968، ص706-707.

884 - الشماخي: السير، ص411.

885 - مجهول: كتاب المعلقات، مخطوط بمكتبة العطف غرداية، و9-10.

886 - السير، ج2، و4.

تاهرت⁹⁰³ وانتشرت

القبائل حول المدينة، وكثرت الأموال بأيديهم. ويرجع سبب هذا الرخاء كما ذكرنا إلى الاهتمام بطرق القوافل، وتوفير الأمن لها، وتأديب قطاع الطرق. رغم صعوبة تحقيق مثل هذا الأمر. فقد خرج الإمام أبي حاتم على رأس حاميته لحماية قوافل قدمت من المشرق فيها أموال لا تحصى خشية أن ينالها قطاع الطرق من قبائل زناتة.⁹⁰⁴

كما اهتم الأغلبية هم الآخرون بالطرق التجارية، فاعتنوا بها، وأقروا الأمن فيها بإقامة محارس ومخافز على طول الساحل. وقد أدى هذا إلى ارتباط المدن المغربية بقوافل التجارة. فكان التجار الإباضية في الحدود الشرقية للدولة الرستمية يقومون بدور كبير في نقل السلع القادمة من مصر إلى المدن الرستمية بالمغرب الأوسط.⁹⁰⁵

ولم يهمل خلفاء بني عبيد كذلك هذه الطرق، بل أعطوها عناية كبيرة، حيث أنشأوا أماكن الاستراحة على طول الطرق، وحفروا الآبار، وأنشأوا الأساطيل لحماية سواحلهم من أعمال القرصنة. ولعل أهم طريق حظي باهتماماتهم هو الطريق المؤدي إلى مصر. فقد أمر الخليفة المعز لدين الله سنة 355هـ (965م) عمال برقة بحفر الآبار، لتوفير المياه على طول الطريق. كما وضعوا الحاميات العسكرية في الحصون والقلاع الممتدة على طول الساحل.⁹⁰⁶ وقد سبقت الإشارة إلى أن المراكشي قد ذكر أن العمارة كانت متصلة من الإسكندرية إلى القيروان، وأن القوافل كانت تمشي ليلاً ونهاراً في هذا الطريق في مأمن، وأن حصونا كثيرة متقاربة موجودة بين الإسكندرية وطرابلس.⁹⁰⁷ وقد ذكر اليعقوبي بعض أسماء هذه الحصون مثل: حصن وادي مخيل، وحصن بلبدة، وحصن بأجدابية، ومحارس بمدينة يقال لها أجية.⁹⁰⁸ وانتشرت الأربطة، والحصون، والقصور، فقد بلغ عدد القصور الموجودة بين قابس وطرابلس خمسة وعشرون قصراً.⁹⁰⁹ وبين طرابلس وسلوق ثمانية وثلاثون قصراً. فلا مندوحة إذن أن يقول القاضي النعمان في وصف الأمن والاستقرار والطمأنينة على هذا الطريق: «إن التجار يسافرون بالأموال الصامتة، والنعم الظاهرة، يمر بها الواحد والإثنان في الجبال، والشعاري، بالفلوات، والبراري، فيبيت حيث

903 - ابن الصغير: المصدر السابق، ص 61-62؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص 196.

904 - ابن الصغير: المصدر نفسه، ص 104؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج 2، ص 500.

905 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص 222.

906 - صالح مصطفى: المرجع نفسه، ص 223.

907 - المعجب، ص 196.

908 - صفة المغرب، ص 2-3-4-6.

909 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص 224.

وهناك طريق مباشر يربط الجبل بمدن بلاد الجريد، فمن قفصة إلى الجبل في جهة الجنوب نحو مسير ستة أيام، ومن قفصة إلى نفطة مرحلتان ومن نفطة إلى قابس ثلاثة مراحل وبعض مرحلة.⁸⁹⁸ وعلى العموم فإن أغلب المسافات التي تربط الجبل بالمدن الإفريقية قصيرة فمن الجبل إلى سفاقس تسع مراحل، ومن الجبل إلى قسطنطينية ست مراحل، ومنه إلى جبل دمر ثلاث مراحل.⁸⁹⁹ وبين الجبل ومدينة القيروان مسيرة ستة أيام.⁹⁰⁰

ونظراً لقرب المسافة فقد كانت هذه المدن تعج بالتجار الإباضية خاصة وأن جاليات منهم تسكن في جزيرة جربة، قابس، القيروان وأغلب مدن بلاد الجريد. فمن هذه المدن كان النفوسي يشتري السلع القادمة من مختلف الأمصار البعيدة التي تأتي بها السفن وعن طريق موانئ طرابلس، قابس، المهدية، جربة، كان يصدر منتجاته التي اشتهر بها الجبل.

ونظراً للدور الذي تلعبه الطرق التجارية في ازدهار حركة التجارة فقد اهتمت بها الدول الإسلامية في بلاد المغرب، فعملت على صيانتها وحمايتها، وبناء المحطات والحصون على طول الطرق الهامة حتى توفر الأمن للتجار. ومنذ أن فتح العرب هذه البلاد واستقروا فيها أولوا عناية كبيرة للطرق فمهدوها، وأنشأوا المحطات المزودة بالخيول على مسافات متقاربة، فلما قامت الدولة الرستمية في المغرب الأوسط (160-296هـ) ساهم أئمتها مساهمة فعالة في تنشيط حركة التجار، فمهدوا السبل إلى مختلف الأصقاع. كما كانت للأئمة قوافلهم الخاصة التي كانوا يرسلونها إلى بلاد المشرق للتجارة، مثل القافلة التي رحل رفقتها الإمام أبو اليقظان في طريقه إلى الحج، يقول ابن الصغير: «استعملت السبل إلى بلاد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب، بالتجارة وضروب الأمتعة... والعمارة زائدة، والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون».⁹⁰¹ فجاء التجار إلى تاهرت من كل الأمصار واستوطنوها، وما شجع التجارة وأنعش الحياة الاقتصادية في الدولة الرستمية هو أن بعض أئمتها مارسوا التجارة. فقد كان الإمام عبد الوهاب تاجراً أيام أبيه.⁹⁰² وقد تزايدت أهمية التجارة في عهد أفلح، فكثرت الأموال، وجاءت الوفود من كل الأمصار والأفاق بمختلف أنواع السلع، فازدادت رفاهية الناس، فأبتنوا القصور، والضياغ خارج

898 - الإدريسي: المصدر نفسه، ص 179-180.

899 - نفسه، ص 199-200.

900 - مجهول: الاستبصار، ص 144.

901 - أخبار الأئمة الرستميين، ص 36-37.

902 - الباروني: الأذهار، ص 189.

أمسى. ويسير حيث أحب واشتهى. كأنما في سوقه يبيت آمنا ويصبح سالما».⁹¹⁰

ورغم حدوث ثورات وحروب كثيرة في العهد الفاطمي، إلا أن ذلك لم يكن عائقا يشل حركة التجارة إذ ظل الخلفاء حريصين على تأمين الطرق لأنهم كانوا في أمس الحاجة لذهب السودان. ورقيقه ليتمكنوا من تحقيق أغراضهم السياسية البعيدة المدى.⁹¹¹

وظلت أوضاع هذه الطرق على هذه الحال حتى بعد انتقال الفاطميين إلى مصر. وقيام الدولة الزيرية، ولكن بعد الغزو الهلالي أضحت المسالك التجارية صعبة وخطيرة خاصة الطريق الساحلي الذي يربط بين إفريقية والإسكندرية. فقد كانت المدن الليبية مثل برقة، أجداية، سرت، وطرابلس، أول متضرر من هذا النزوح حيث عمت الفوضى، وانتشرت أعمال السلب، والنهب، لكثرة قطاع الطرق. وقد تضرر جبل نفوسة هو الآخر من انتشار البدو الهلاليين حوله.⁹¹²

وقد حرص إياضية جبل نفوسة قبل قدوم الهلاليين على حماية الطرق التجارية والضرب بقوة قطاع الطرق. وقد مر بنا أن أبا الفضل سهل جهز حملة عسكرية إلى غدامس لوقوع فساد فيها.

كما رتب على جهة من الجهات المعرضة للسلب والنهب حامية لضرب اللصوص.⁹¹³ كما حافظوا على صيانتها دوريا. فالشماخي يخبرنا بأن أبا محمد القنطاري - وهو أحد مستجابي الدعاء - كان عندما ينتقل إلى جادو يصلح طريق جبل تالكيت بقنطرة، والمسافة بين قنطرة وجادو أربعة وعشرين ميلا.⁹¹⁴

ي - مسالك الجبل:

ومن نافلة القول أن نتعرض للمسالك التي تربط بين المدن والقرى النفوسية. بعد أن تناولنا الطرق التجارية المعروفة التي تربط الجبل بمختلف المدن المغربية ومصر وبلاد السودان. لقد ارتبطت هذه القرى بشبكة من الطرقات سهلت السفر للتجار وللعلماء والطلبة، خاصة الطرق المؤدية إلى حواضر الجبل المشهورة مثل جادو، شروس، ميري، إجانا، وغيرها. فحاضرة شروس وحدها توجد في أرياضها حوالي ثلاثمائة قرية. وقد امتدت هذه الطرق إلى سفح الجبل، وهي المنطقة المعروفة بالجفارة المحاذية لإقليم

910 - جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية، ص 195.

911 - جودت عبد الكريم: المرجع نفسه، ص 195.

912 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص 225.

913 - علي يحيى معمر: الإياضية في ليبيا، ص 169-170.

914 - ينظر: السير، ص 255.

طرابلس. وتعد هذه الطرق طرقا محلية حيث لم نجد في مصدر من المصادر الجغرافية ذكرا لأي جادة تعبر الجبل. فالطريق الساحلي الذي يربط المشرق بالمغرب يمر شمال الجبل، والطريق الصحراوي يسلك إلى جنوبه. وهكذا نلاحظ أن موقع الجبل يتوسط الجادتين. أما عن الطرق الداخلية فهناك طريق يربط مدينتي شروس وجادو بلالوت الواقعة على ضفاف الوادي الذي تحمل اسمه وهو وادي عميق، غزير المياه كثير الأشجار حتى إن البساتين الموجودة على طرفيه تمتد إلى مسافة أربعين ميلا تقريبا نحو الغرب، حتى تتصل بقرية تسمى «وازن» والتي تبعد بمرحلة عن لالوت.⁹¹⁵ أما المسافة بين «ويغو» وتنورزير فهي نيف وعشرون ميلا.⁹¹⁶ وبين كباو وقنطرة خمسة عشرة ميلا.⁹¹⁷ وبين إجانا و «أوملن» أربعين ميلا.⁹¹⁸ وبين قنطرة وجادو عن طريق جبل «تالكيت» أربعة وعشرون ميلا.⁹¹⁹ وإلى الجنوب من جادو تقع قرية «أرجان»، وإلى شمالها تقع مجموعة من القرى مثل: القصير، اشباري، ويوجلين. وإلى الشمال الشرقي من هذه القرى تقع قرية «طرميسة» التي تبعد عنها نحو أربعة أميال.⁹²⁰ أما الطريق بين جادو وميري فمسافته مسير نصف ميل.⁹²¹ وإلى الجنوب من ميري بنحو ميلين تقع أدرف.⁹²² والتي تبعد عن جادو مسير ساعتين.⁹²³ ومن أرجان إلى إيجيطة ستة أميال. فمن أرجان إلى إيمرساون ثم تيمجار ثم إدونا، ومن هذه الأخيرة إلى إيجيطة.⁹²⁴ أما المسافة بين «سنتوت» و«تدينة» فتزيد عن أربعة وعشرين ميلا.⁹²⁵ والمسافة بين «تندوزيغ» وإجانا عشرة أميال.⁹²⁶ ونلاحظ أن المسافة بين مدن وقرى الجبل غير بعيدة، تربطها مسالك جبلية وعرة. وقد صعب على الباحث معرفة المسافات لأن المصادر الجغرافية - كما قلنا - لم تفصل لنا ذلك وحتى المصادر الإياضية أهملت هذا الجانب.

915 - الباروني: رسالة سلم العامة، ص 33؛ علي يحيى معمر: الإياضية في ليبيا، ص 171-172.

916 - الشماخي: السير، ص 218.

917 - علي يحيى معمر: المرجع السابق، ص 180.

918 - الشماخي: المصدر السابق، ص 319.

919 - المصدر نفسه، ص 255.

920 - علي يحيى معمر: الإياضية في ليبيا، ص 201-202.

921 - الباروني: الأزهار، ج 2، ص 192.

922 - علي يحيى معمر: المرجع السابق، ص 211-213.

923 - الباروني: رسالة سلم العامة، هامش ص 34.

924 - الشماخي: السير، ص 241.

925 - المصدر نفسه، ص 247.

926 - نفسه، ص 317.

2 - الطرق البحرية:

كانت هناك بعض الخطوط المنتظمة بين الموانئ المصرية والموانئ المغربية. ومن أهم هذه الخطوط الخط الذي يربط مدينة الإسكندرية بمدينة سبتة. ونظرا لأهمية النقل البحري اهتم الأغالبه والرستميون والفاطميون والأدارسة بالموانئ وبصناعة السفن. فأقاموا المراسي، وبنوا السفن بها. ولا نريد أن نتناول كل الموانئ المغربية وإنما سنكتفي بالحديث عن الموانئ القريبة من جبل نفوسة والتي كان النفوسيون يصدرون منها منتجاتهم.

ولعل أكبر ميناء في المنطقة هو ميناء طرابلس. ففي عصر ابن حوقل (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) كانت ترسو به المراكب ليلا ونهارا قادمة من بلد الروم والمدن الساحلية المغربية بمختلف أنواع السلع.⁹²⁷ فلا غرابة إذن أن يكون أكثر سكانها تجار يسافرون برا وبحرا.⁹²⁸ أما ميناء صبراتة فقد كان هو الآخر مركزا تجاريا كبيرا إذ يعد منفذا إلى الجبل ودواخل إفريقيا، مما ساعد المدينة على التبادل التجاري. وما يدل على أهمية المدينة أن اسم طرابلس القديمة لازال يطلق عليها إلى يومنا هذا. ولا يستبعد أن يكون التجار الإيطاليون هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم.⁹²⁹ كما كانت ترد على ميناء أجدابية المراكب محملة بالمتاع وتبحر منه مثقلة بضروب الأمتعة من أكسية وغيرها.⁹³⁰ وكان يصدر من ميناء سرت الشب السرتي، والصوف، ولحوم المعز.⁹³¹ أما ميناء طبرقة فقد اشتهر بورود مراكب الأندلسيين.⁹³² ومنه يحمل الخشب، والقصب الفارسي الجيد إلى تونس.⁹³³

كما عرفت موانئ إفريقية القريبة من الجبل نشاطا تجاريا كثيفا. فقد ذكر البكري أن مراكب جزيرة جربة كانت تخرج إلى مرسى الأندلسيين.⁹³⁴ كما ذكر ابن حوقل والبكري أن الزيت المصدر إلى مصر يجلب منها.⁹³⁵ ويضيف صاحب الاستبصار أن المراكب المحملة بالزيت تخرج منها إلى بلاد الروم لتموين سكان صقلية، وإيطاليا، وانكبودة، وقلورية.

927 ينظر: صورة الأرض، ص. 72.

928 - مجهول: الاستبصار، ص. 110.

929 - روسي أتوري: ليبيا منذ الفتح، ص. 70.

930 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص. 70.

931 - المصدر نفسه، ص. 71.

932 - نفسه، ص. 76؛ الإدريسي: القارة الإفريقية، ص. 190.

933 - ابن سعيد: كتاب الجغرافية، ص. 143.

934 - ينظر: المغرب، ص. 85.

935 - ينظر: صورة الأرض، ص. 73؛ والبكري: المصدر نفسه، ص. 20.

وغيرها.⁹³⁶ أما سوسة فقد عرفت بكثرة الأمتعة، وجودة الثياب. فالثياب السوسية مشهورة وكان التجار يحملونها إلى جميع البلاد.⁹³⁷ وأما ميناء المهدية فقد كان هو الآخر محطة للسفن التجارية القادمة من بلاد المشرق والمغرب، والأندلس والروم.⁹³⁸ ولكنه فقد مكانته عندما انتقل الفاطميون عن المدينة.⁹³⁹

ولاشك أن تجار نفوسة قد استغلوا قرب هذه الموانئ من الجبل لتصدير منتجاتهم والسلع التي يجلبونها من بلاد السودان. ولا يستبعد أن يكون ليهود جادو دور كبير في التجارة البحرية خاصة عبر ميناء طرابلس. فقد ذكرت الوثائق أن أربع سفن أبحرت من الإسكندرية إلى ميناء طرابلس في يوم واحد. وأن العديد من تجار الشمال الإفريقي اهتموا بتجارة الشرق. وامتألت الموانئ في جنوب الجزيرة العربية، والهند، وسيلان (سرلانكا)، بالتجار القادمين إليها من هذه الجهة سواء من برقة أم من طرابلس أم من جبل نفوسة. ولا يستبعد أن تكون هجرة اليهود من هذه المنطقة إلى الشرق كان بدافع التجارة حيث استقر العديد منهم في مصر، واليمن، والهند. وقد ازدادت هذه الهجرة خاصة مع انتقال الفاطمين إلى مصر.⁹⁴⁰ وفي المقابل جاءت وفود التجار الآسيويين من نيسابور وسمرقند وغيرها إلى بلاد المغرب بغية الثراء نظرا لتدفق الذهب إلى هذه البلاد من السودان.⁹⁴¹

ب - الأسواق:

قامت الأسواق في جبل نفوسة في المدن الكبرى نظرا لتوسعها العمراني ووجود جماعات سكانية كبيرة فكانت لمدينة جادو مثلا أسواق كثيرة. كما كانت بمدينة شروس أسواق يقصدها التجار من كل ناحية مما يصعب إيجاد مسكن بها. فقد روت السير أن أبا يحيى الفرستائي قدم إلى شروس ليتعلم عند ابن ماطوس فلم يجد له بيتا يسكن فيه فقال: «ما أوسع شروس وما أضيق شروس».⁹⁴²

وقد اشتهرت أسواق الجبل بسلع معينة نظرا لوجود فائض كبير في إنتاج بعض المواد

936 - ينظر: ص. 116.

937 - نفسه، ص. 119.

938 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص. 182؛ البكري: المغرب، ص. 30؛ محمود إبراهيم عبد الله عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية في ظل السيادة الفاطمية، (296-442هـ) (909-1058م)، رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة القاهرة، 1977، ص. 158.

939 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص. 73.

940 - صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص. 230-231.

941 - المرجع نفسه، ص. 231.

942 - البغطوري: سير نفوسة، و. 24.

الغذائية كالحبوب، والشعير، والتين، والزيتون، والعنب، والتمر، فكانت القوافل تقصدها من قريب ومن بعيد خاصة وأن حكام الجبل قد وفروا الأمن في هذه الأسواق وأشرفوا على تنظيمها. فقد استعمل أبو الربيع سليمان بن هارون أناسا مخصوصين لرقابة الأسواق لمنع ما لا يحل من الأموال فيها بهدف الحيلولة دون دخول الحرام إلى الجبل.⁹⁴³ وكان الإشراف على سوق جادو موكلا لأبي يوسف وجدليش حيث كان يأذن لمن شاء أن يبيع ويمنع من في ماله شبهة. وقد استحدث نظام مراقبة الأسواق نظرا لدخول الربة إلى إقليم طرابلس.⁹⁴⁴ كما كان الشيوخ يتدخلون في تحديد أسعار السلع. فقد روي أن وكيل يتيم باع زيتونة بأربعة دنانير لرجل مجاملة ومحابة له، فلما بلغ الخبر الشيخ أبي المهاصر أنكر ذلك.⁹⁴⁵ هذا وتجدر الإشارة إلى أن وظيفة المحتسب لم تكن حكرا على شخص ما بل كان يقوم بها العزابة والشيوخ فكلما رأوا منكرا غيروه.

وحفاظا على الأمن في أسواق جادو قام أبو يحيى زكريا الأرجاني بتنظيمها بين القبائل. وقد مر بنا أن سوء تفاهم حدث بين بني زمر وطرميسة أدى في العديد من المرات إلى الاقتتال عندما يلتقون في جادو. فخص أبو زكريا لأهل زمر يوم الخميس من كل أسبوع، ولطرميسة يوم الأحد.⁹⁴⁶

ويبدو أن أسعار المواد الغذائية التي كان ينتجها الجبل كانت رخيصة الثمن لكثرة العرض، فقد كانت القوافل تأتي إلى سوق «درج» لشراء الزيت بأرخص الأثمان.⁹⁴⁷ وقد بيعت شجرة زيتون في مدينة شروس بأربعين دينارا.⁹⁴⁸ وبيع شجرة تين بثلاثة أرباع دينار.⁹⁴⁹ ويبدو من خلال ذلك أن النفوسيين عرفوا طريقة غرس الأشجار المثمرة. كما عرفت الأغنام أسعارا رخيصة، فقد بيعت الشاة بأربعة دراهم،⁹⁵⁰ وبيع جلدوها لاستخدامه في المصنوعات الجلدية بخمسة دراهم، وبيع الثور في سوق جادو بأربعة دنانير. ويلاحظ في هذا المضمار أن بعض المزارعين كانوا يلجأون إلى قطف غلاتهم من الثمار قبل أوانها ليكسبوا غلاء الأسعار. وقد مر بنا أن أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني قد منع أهل اجناون من خرط زيتونهم قبل نضجه. وتجدر الإشارة إلى أن التعامل في الأسواق كان وفق المذهب الإباضي.

943 - الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ص 53.

944 - الشماخي: السير، ص 334.

945 - المصدر نفسه، ص 201.

946 - البغطوري: سير نفوسة، و 64؛ الشماخي: السير، ص 243؛ علي يحيى معمر: الإباضية في ليبيا، ص 153.

947 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 315.

948 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 2، ص 418.

949 - البغطوري: سير نفوسة، و 4-5.

950 - الوسياني: السير، و 21.

فقد ورد سؤال من

نفوسة إلى الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عن شخص ما يقوم بشراء الطعام من الأندر لبيعه، هل يعد هذا احتكارا أم لا ؟ وقد أجابهم الإمام بقوله: «إن الاحتكار لا يحل ولا يسع لأحد أن يطلب الضرر للمسلمين».⁹⁵¹

كانت أسواق جبل نفوسة أهلة بالتجار. قدموا إليها من كل مكان. فقد أشارت المصادر إلى قدوم قوافل مثقلة بأموال التجارة السودانية من التكرور، وأراد أصحابها تقديم أربعمئة دينار لرئيس الجبل أبي عمرو ميمون بن محمد الشروسي فأبى أخذها.⁹⁵² ويبدو أن هؤلاء التجار قد تعودوا على دفع الضرائب مقابل السماح لهم بدخول الأسواق للبيع والشراء. ولا نعرف بالضبط هل هذا النظام كان معمولا به أم لا ؟ رغم أن الرواية صريحة. ويبدو أن الضرائب في الجبل لم تخرج عن حد الضرائب الشرعية لأنه لا توجد لدينا معلومات وافية عن ذلك.

وما يدل على كثرة التبادل التجاري بين بلاد السودان والجبل، وتعامل النفوسيين مع تجار الكايم والتكرور، أنهم كانوا يتقنون اللغة الكائمية، فقد أشارت المصادر إلى أن أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني كان يتقن عدة لغات منها اللغة الكائمية.⁹⁵³

ويرجع الفضل في ازدهار الأسواق في جبل نفوسة، وازدهار التجار فيها إلى وجود اليهود بكثرة في العديد من المدن خاصة في جادو وفي «تمنكرت». والمعروف أن احتراف اليهود للتجارة قام منذ بدايته على الجماعات اليهودية التي انتشرت في مختلف أنحاء العالم، فكونوا شبكة من العلاقات التجارية تعمل وفق الطرق التقنية المعروفة والشائعة في العالم الإسلامي القديم، خاصة وأنهم كانوا يتقنون بعض الحرف دون غيرهم، مثل صناعة المعادن الثمينة، والدباغة، والزجاج، وغيرها.⁹⁵⁴ وكان هؤلاء اليهود المعروفون بـ «الراذانية» يسافرون من المشرق إلى المغرب، ويستوردون من هذه الأخيرة الخدم، والجواري، والديباج، وجلود الخنز، وغيرها.⁹⁵⁵

951 - عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم: كتاب مسائل نفوسة، تحقيق: إبراهيم طلاي، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1991، ص 131.

952 - الشماخي: السير، ص 273-274؛ الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، ص 51-52.

953 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 18؛ T.Lewicki: traits d'histoire du commerce transaharienne marchands et missionnaires ibadites en soudan occidental et central au cours des VIII-XII, Ethnographia Polska Varsovie 1946, vol 8, p309

954 - مويريس لومب: الإسلام في مجده الأول، ص 309.

955 - Hadj Sadok Mohamed: Description du Maghreb et de l'europe, au 3e S, editions carbonel, alger, 1949, p20.

وقد لاقت هذه السلع التي تمتاز بقابليتها للتخزين مدة زمنية طويلة رواجاً كبيراً في الحركة التجارية. فقد كان التين المجفف والزبيب والحبوب من أهم الصادرات، بالإضافة إلى بعض المصنوعات اليدوية، كالأواني الفخارية والتي اشتهرت بها قرية ويغو، والملابس الصوفية، والأحذية، ومواد الزينة كالكلحل النفوسية، التي أشادت بجودتها المصادر.

وقد استفاد النفوسيون من موقع موطنهم الاستراتيجي فهو من جهة قريب من الطريق الساحلي الذي يربط المغرب بالمشرق، وقريب من الموانئ التجارية كميناء طرابلس، وصبراتة، وقابس والتي كانت تغص بالسفن التجارية، ومن جهة أخرى قريب من الطرق الصحراوية المؤدية إلى بلاد السودان، أو إلى صحراء المغرب الأوسط، مروا ببلاد الجريد والزاب. ولهذا فإننا نعتقد أن التبادل التجاري لم يكن مقتصرًا على السلع التي ذكرناها سابقاً، وأن تجار نفوسة كانوا يقومون بدور الوسيط، خاصة وأن اليهود قد كونوا طبقة من التجار ربطوا بلاد المشرق بالمغرب. ولم يتخصصوا في سلعة واحدة، بل كانوا يتاجرون في مختلف أنواع السلع التي تعود عليهم بالأرباح الطائلة. وتأتي في المرتبة الأولى الأقمشة، ومنتجات الحرير في العالم الإسلامي، والنسيج المقصب، والديباج المجلوب من بيزنطة، وفي المرتبة الثانية تجارة الحبوب.⁹⁶²

ولاشك أن الجالية اليهودية الكبيرة التي كانت تقيم في مدينة «جادو» كانت لها علاقات تجارية وطيدة مع اليهود المقيمين في المدن المغربية، فمدينة «فاس» مثلاً كانت: «أكثر بلاد المغرب يهوداً يختلفون منها إلى جميع الآفاق».⁹⁶³

وقد تحدث ابن خرداذبة عن اليهود الراذنية فقال: «إنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق براً، وبحراً، يجلبون من المغرب الخدم، والجواري، والغلمان، والديباج، وجلود الخنزير، والفراء، والسمور، والسيوف، ويركبون من فرجة في البحر الغربي، فيخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم... ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة، ثم يمضون إلى السند، والهند، والصين، فيحملون من الصين المسك، والعود، والكافور، والدارصيني وغير ذلك».⁹⁶⁴

وقد كان تجار جبل نفوسة يتاجرون في العديد من السلع ويتجولون في مختلف الأسواق المغربية خاصة في المدن التي يتواجد بها إخوانهم في المذهب، فقد كانوا

ونظراً لكثرة اليهود في جادو فقد كان لهم نشاط تجاري كبير في أسواقها، إذ كانت لهم حوانيت كثيرة يمارسون فيها أعمالهم التجارية، إما كمخازن يكسبون فيها مختلف السلع القادمة من المشرق، أو من المغرب، أو من أوروبا، وإما كمحلات يمارسون فيها بعض الأعمال الصناعية كالدباغة، والصياغة، وغيرها. وكان هؤلاء اليهود أثرياء مياسير حاولوا التقرب من شيوخ الجبل للحفاظ على مصالحهم. فقد أهدوا أربعين ديناراً لأبي يحيى الأرجاني عندما علموا بازدياد صبي له، ولكنه أبى من أخذه.⁹⁵⁶

ولم تقتصر أسواق المدن النفوسية على منتجات الجبل فقط بل كانت تباع فيها السلع المجلوبة من مختلف مدن إفريقية وبلاد السودان ومصر وفزان وجرمة وسجلماسة، فقد قامت - مثلاً - تجارة العبيد في مدينة ويغو.⁹⁵⁷ ولم تقم الأسواق من أجل بيع السلع فقط بل كانت تؤدي وظيفة ثقافية كذلك. ففيها كانت تعقد حلقات الدروس والمناظرة، وفيها يلتقي العلماء والمشائخ لفض النزاعات بين القبائل. كما كانت للسوق وظيفة أخرى تتمثل في البحث عن المسروقات. فقد ذكر الدرجيني أن يتيما جاء إلى أبي معروف بدران بن جواد وأخبره بأنه رأى سيف أبيه معروضاً للبيع في يد دلال في السوق، وأن زوج أخته هو الذي سلمه له، وحقه في السيف باق، فاستحضر أبو معروف الدلال وقال له: «أشهر نصيب الابنة دون نصيب أخيها».⁹⁵⁸

ج - السلع الصادرة والوارد:

مر بنا أن معيشة سكان الجبل كانت تعتمد على ما ينتجونه من غلات، ومحاصيل زراعية كالقمح والشعير وزيت الزيتون والتين والزبيب، والمواد المصنعة كالمنسوجات والأواني الفخارية وغيرها من المواد. وكانت هذه المواد - ونظراً للفائض الكبير في الإنتاج - تشكل أهم صادرات الجبل إلى مختلف الأصقاع سواء إلى مدن المغرب أو إلى أسواق المشرق وأوروبا وبلاد السودان. فقد كانت قوافل نفوسة تخرج من جادو وشروس وغيرها من المدن محملة بالقمح والشعير وزيت الزيتون والتين. فقد رويت السير أن أبا زكريا يحيى بن سفيان اللالوتي حاكم الجبل كان يرسل حمارة محملاً بالزيت إلى إفريقية لبيعه.⁹⁵⁹ كما كانت القوافل تخرج مثقلة بالثمار لبيعها عند أهل البوادي.⁹⁶⁰ وأسواق القيروان.⁹⁶¹

956 - البغطوري: سير نفوسة، و64.

957 - الشماخي: السير، ص218.

958 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص326: جودت عيد الكرم: الأوضاع، ص137.

959 - البغطوري: سير نفوسة (مخ)، و6.

960 - الوسياني: السير، ص32.

961 - مجهول: كتاب المعلقات، (مخ)، و18.

962 - موريس لومبار: الإسلام في مجده الأول، ص314-315.

963 - البكري: المغرب، ص115.

964 - Hadj Sadok Mohamed: Description du Maghreb, p20.

يشتررون اللباس ومواد الزينة من طرابلس ويبيعونها في سوق الخميس بجزيرة. كما كانوا ينتقلون إلى تاهرت وهي عاصمة دولتهم لشراء مختلف السلع القادمة من الأندلس. ومن سجل ماسة بالمغرب الأقصى. ومن بلاد السودان. فقد أشادت المصادر بكثافة النشاط التجاري فيها. يقول ابن الصغر: «وأنتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار... واستعملت السبل إلى بلد السودان. وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة. فأقاموا على ذلك سنتين. أو أقل من ذلك. أو أكثر. والعمارة زائدة. والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون». ⁹⁶⁶ فلا مندوحة إذن أن تكون أسواق تاهرت مكدسة بالسلع خاصة وأن علاقات بني رستم مع الأندلس ومع بني مدرار كانت تتسم بالحمية والمودة وحسن الجوار. فهي أحد معادن الدواب والبغال والبراذين والأغنام. ويكثر عند سكانها العسل والسمن. ⁹⁶⁷ وبها المصنوعات النسيجية بمختلف أنواعها من وصفية وكتانية وحريرية. وبها من المعادن الحديد والزئبق وغيرها. ⁹⁶⁸ وكان تجار نفوسة يسافرون دوماً إلى عاصمة دولتهم. خاصة وأن جالية كبيرة من النفوسيين كانت تقيم فيها. وقد تحدثت المصادر كثيراً عن تلك الأسفار. يقول الوسياني: «إذا أراد الزيارة للولادة (يقصد أبا مرداس مهاضر) أخذ الوصايا من أهل الدعوة أهل الجبل... فيرفعها لتاهرت لنفع بيت مال المسلمين. ولنفع أرباب الوصايا بالرخص. فإذا وصلها وهياها ويجمعها جميعاً في موضع عرمة واحدة يؤذن للمساكين فيرفعون ما قدر لهم وهن مختلطات بغير دليل». ⁹⁶⁹

ولا شك أن تجار نفوسة كانوا يحملون إلى تاهرت بعض السلع القادمة من المشرق أو من بلاد السودان عن طريق زويلة وغدامس. ذلك أن زويلة وغدامس اشتهرتا بغزارة ثروتهما الحيوانية. وبصناعة الجلود التي فاقت غيرها في الجودة. كأنها ثياب الخنزير في النعومة والإشراق. ⁹⁷⁰ كما انتفع تجار نفوسة من السلع التي تنفرد بها مثل القطران وما

965 - الوسياني: السير. (مخ). و55.

966 ينظر: أخبار الأئمة الرستميين. ص36-37.

967 - ابن حوقل: صورة الأرض. ص86: الإدريسي: القارة الإفريقية. ص157.

968 - محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي. ص206: الحريري: الدولة الرستمية. ص232.

969 - السير (مخ) ورقة 7

970 - ياقوت الحموي: معجم البلدان. مج4. ص187: أبو الفدا: كتاب تقويم البلدان. صححه رينود والبارون ماك كوكين دوسلان. دار الطباعة السلطانية. باريس 1830. ص137: مجهول: كتاب الإستبصار. ص145: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا. عرض وتلخيص عبد اللطيف حمزة. المؤسسة العامة للطباعة والنشر القاهرة (د.ت). ج5. ص105: محمد سليمان أيوب: تاريخ مختصر قرآن. ص85-86: صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح. ص CH: solvet: description des pays du maghreb, p130 208

يباع في أسواقها من صوف وفلفل وعسل وشمع. ومختلف السلع. خاصة وأن أسعارها رخيصة. ويبيعونها في الأسواق البعيدة التي تفتقر لمثل هذه السلع. ⁹⁷¹

ومن المحتمل أن تكون لنفوسة علاقات تجارية كثيفة مع بلاد الجريد نظراً لوجود أعداد هائلة من الإبل تربيها بالبحر. كما اشتهرت بدهن البنفسج. وخل العنصل الذي يجلب منها إلى مختلف الأمصار. ⁹⁷² وإنتاج التفاح المسمى بـ «السدسي». وبالرمان. والأترج. والموز. والتمر المسمى بـ «الكسبا». وبصناعة الأردية. والعمايم الصوفية. والأواني الخزفية. والزجاج. ⁹⁷³ أما درجين فقد عرفت بصناعة الكسبي المعروف باسمها. وهو شبيه بالكسبي السجلماسي. ولكنه أقل جودة. ⁹⁷⁴ واشتهرت قابس بكثرة الثمار. فالوز الذي تنتجه حقولها ليس له شبيه بإفريقية. كما عرفت بإنتاجها الوفير من الحرير. ⁹⁷⁵ وبصناعة دبغ الجلود بالقرظ والذي صدرته إلى مختلف المدن المغربية. ⁹⁷⁶ وكان تجار نفوسة يسافرون إلى القيروان للانتفاع بضروب الأمتعة المتوفرة في أسواقها. وقد روى أبو زكرياء أن أبا القاسم يزيد بن مخلد كان له عشرون جملاً يسافر بها إلى القيروان. ⁹⁷⁷ ولا شك أن هذه الجمال كانت محملة بالسلع. كما أشار صاحب كتاب المعلقات إلى خروج قافلة من الجبل محملة بالتمر يريد بها صاحبها القيروان. ⁹⁷⁸

كما اتصل تجار نفوسة بأسواق ريفية. ووارجلان في المغرب الأوسط. خاصة وأن هذه الأخيرة كانت بوابة لولوج كل مسافر إلى بلاد السودان. ففي ريفية (أريغ) أسواق عامرة بالتجار. منها سوق تعقد يوم الجمعة يقصدها التجار. ⁹⁷⁹ أما وارجلان فقد تخصص سكانها في قيادة القوافل التجارية إلى بلاد السودان. وقد حافظت على نشاطها التجاري حتى بعد سقوط الدولة الرستمية. فمن وارجلان يدخل العبيد إلى المغرب

971 - ابن حوقل: صورة الأرض ص86

972 - ابن سعيد: كتاب الجغرافية. ص126: نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة. منشورات الجامعة التونسية. تونس. 1976. ص60.

973 - مجهول: كتاب الاستبصار. ص157-158.

974 - المصدر نفسه. ص159.

975 - نفسه. ص113

976 - الإدريسي: القارة الإفريقية. ص180: الحريري: الدولة الرستمية. ص232: مرمول: السياسة الداخلية. ص256.

977 - ينظر: كتاب السيرة. ص196.

978 - ينظر: ورقة 9.

979 - الإدريسي: القارة الإفريقية. ص155.

والذهب، والعسل، وزيت الزيتون، والخدم المجلوبين من السودان، والدرق اللمطية، وغيرها من السلع.⁹⁸⁶

وقد ساهم التجار الإباضية بدور كبير في نقل هذه السلع إلى مصر، ومنها إلى مختلف الحواضر الإسلامية، فكانت قوافل هواره تخرج من نفوسة وطرابلس مثقلة بالسلع المغربية وتعود محملة بالسلع المصرية.⁹⁸⁷ وكانت القوافل تحمل المنسوجات القطنية والصوفية والجلود الغدامسية والعبيد من زويلة، والقطران والعسل والشمع من برقة.⁹⁸⁸ ويبدو أن القوافل النفوسية كانت تسلك طريق الواحات الذي يربط بلاد المغرب بمصر بالإضافة إلى الطريق الساحلي. فقد أشار الوسياني إلى قافلة خرجت من الجبل ومات أفرادها عطشا في طريق القبلة، فلم ينج منهم إلا عبد حبشي.⁹⁸⁹ ذلك أن هذا الطريق محفوف بالمخاطر كما أشرنا سابقا.

وكان موسم الحج فرصة إضافية للتبادل التجاري، خاصة وأن النفوسيين كانوا يحجون بأعداد هائلة. فقد كانوا أكثر الناس حجا، يحجون بنسائهم وأولادهم، حتى إنه ولد لهم في قافلة واحدة ثلاثمائة مولود ذكر عدا البنات.⁹⁹⁰ وكان الحجاج يجتمعون بعد عودتهم في مكان يدعى «تمصرون»، حتى يتفقوا على السير إلى الحج في الموسم القادم. ولما سقطت الإمامة الرستمية أصبح «أهل الدعوة والاستقامة» من طرابلس وجربة وإفريقية يجتمعون في موضع يقال له «اماسن».⁹⁹¹ ذلك أنه من عادة نفوسة إذا خرجوا مسافرين أمروا عليهم رجلا يشاورونه في مصالح سفرهم يدعى «النقيب».⁹⁹²

د - تجارة السودان:

اتصلت الدولة الرستمية اتصالا تجاريا كثيفا بالسودان. فقد أولى الأئمة الرستميون عناية فائقة بتجارة السودان حتى أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب كاد يسافر إلى «كوكو»⁹⁹³

986 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص 94-95؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية، ص 220-221؛ تجارة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي، ص 60.

987 - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص 486.

988 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب، ص 132-162.

989 - الوسياني: السير (مخ)، ج 2، و 10.

990 - الوسياني: المصدر نفسه، و 3؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 2، ص 325.

991 - البغطوري: مشائخ نفوسة (مخ)، ورقة 2-3.

992 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 332؛ الوسياني: سير مشائخ المغرب، ص 48.

993 - هي مدينة من مدن السودان، تقع على ضفة نهر، تبعد عن غانة مسير شهر ونصف وعن مدينة تلمة شرقا أربع عشرة مرحلة، وعن تمبكتو مسافة أربع مائة وخمسين كلم. وقد أصبحت كوكو عاصمة لإمبراطورية صنغاي في القرن الحادي عشر الميلادي. ينظر: الإدريسي: القارة الإفريقية، ص 44-45 وهامش ص 44.

الأوسط وإفريقية، ومنها تصدر مختلف أنواع السلع إلى بلاد السودان، وقد كان لتجار نفوسة علاقات تجارية ودينية مع سكان وارجلان. فإذا عدنا إلى كتب السير فإننا نجد أنها تتحدث كثيرا عن تنقل التجار والعلماء من الجبل إلى وارجلان. وما يدل على كثرة الوافدين إلى هذه الأخيرة ما رواه أبو الربيع سليمان بن يخلف حيث قال: «طلعنا مع أبي عبد الله (أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي) إلى وارجلان زائرين في جماعة كثيرة، وفيها قبائل أهل الدعوة بأجمالهم حتى جعل ببعض الطريق أبو عبد الله على كل قبيلة منهم عريفا وسفيرا يرعاهم ويتفقدهم».⁹⁸⁰

وتجدر الإشارة إلى أن هناك من التجار من يتوقف في وارجلان، ومنهم من يواصل الطريق إلى سجلماسة، أو إلى بلاد السودان بتجارته، والعودة بالتبر. يروي الشماخي في سيره أن أبا يحيى زكريا بن صالح اليراسني وصل ذات مرة من سجلماسة إلى وارجلان وخرج يريد جربة رفقة أصحابه ومعهم نحو مائتي ألف وخمسين ألفا ذهبا تبرا.⁹⁸¹ ويحتمل أن هذه القافلة جاءت من غانة مروراً بأودغست وسجلماسة.

وفي مقابل السلع التي كان تجار نفوسة يصدرونها، كانوا يستوردون العديد من ضروب الأمتعة لسد احتياجاتهم، ولإعادة بيعها. فقد كانوا يستوردون الكسوة من أسواق سجلماسة.⁹⁸² كما كانوا يستوردون التمر من فزان، لجودته وشهرته بالمنطقة، حيث كان الإقبال عليه من مختلف مدن إفريقية رغم أن بلاد الجريد والزاب معروفة بإنتاجها للتمر. وقد ذكر الدرجيني أن أبا زكريا بن أبي مسور اليراسني الساكن بجربة أرسله أبوه إلى قرى «يزمرتين» بنفزاوة لشراء التمر.⁹⁸³ كما تجار نفوسة يستوردون التمر من جرمة.⁹⁸⁴ لأن أشجار النخيل في الجبل لا تنتج أنواعا جيدة. ورغم أن النفوسيين اهتموا بتربية الماشية إلا أن المصادر تذكر بأنهم كانوا يشترون الخرفان من إفريقية، ربما لرخص أسعارها.⁹⁸⁵

أما عن السلع الصادرة إلى المشرق الإسلامي فهي كثيرة ومتنوعة، منها الأكسية الصوفية الرفيعة، والحرير، والعنبر، والزئبق، والرصاص، والموليدات الحسان، والغلمان، والزيت، والفسق، والزعفران، واللوز، والبرقوق، واللبود المغربية، والبغال، والمرجان،

980 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 321-322.

981 - الشماخي: السير، ص 449.

982 - المصدر السابق، ص 334.

983 - طبقات المشائخ، ج 1، ص 160.

984 - الشماخي: المصدر السابق، ص 288 و 335.

985 - الوسياني: سير مشائخ المغرب، ص 27.

للتجارة لولا أن منعه والده لعجزه عن إيجاد إجابة لمسألة من مسائل الريا.⁹⁹⁴ ولما تولى الإمامة أقام علاقات حسنة مع ملك «كوكو» الذي لا تذكر المصادر اسمه. حيث أرسل هذا الأخير هدية نفيسة لتوثيق الصداقة والاعتراف له بالجميل. لما كان يلقاه التجار الإباضية في مملكته من معاملة حسنة.⁹⁹⁵ وما يدل كذلك على اهتمام النفوسيين بالتجارة. أن أبا معروف ويدران بن جواد - وكان ضريرا - كان يمارس التجارة.⁹⁹⁶

وهكذا نلاحظ أن العلاقات التجارية بين الدولة الرستمية وبلاد السودان كانت متينة. وكان من نتيجة ذلك أن أضحت وارجلان أهم قاعدة تجارية جنوب العاصمة تاهرت. فمنها كانت تخرج القوافل المتجهة إلى بلاد السودان. كما يمكن للتجار السفر إلى غانة مرورا بسجلماسة وأودغست. أما تجار نفوسة فكانوا يبرون بمدينة زويلة للوصول إلى بلاد كانم، والتي تبعد عنها بأربعين مرحلة. وزويلة هذه هي أول حد بلاد السودان. بها أسواق يجتمع فيها الرفاق من كل جهة ومنها يفترقون.⁹⁹⁷ ونعتقد أن القافلة التي قدمت إلى الجبل من التكرور قد سلكت هذا الطريق.

ويبدو أن الطريق الذي يربط طرابلس بفزان يمر بجادو أهم مركز تجاري في الجبل. وهو الطريق الذي استعمله تجار نفوسة وفزان بدليل أن طبيبا من فزان يدعى عبد الحميد الفزاني عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أقام مدة في بلاد السودان الذي يبعد مسير شهرين عن الجبل.⁹⁹⁸ كما أن المصادر أشارت إلى خروج قافلة من فزان في اتجاه بلاد السودان قدرت ركاب أصحابها باثنتي عشر ألف راحلة.⁹⁹⁹

ومهما يكن من أمر فإن تجار نفوسة أولوا عناية كبيرة للتجار السودانية. وقد وردت العديد من الإشارات في المصادر والتي توحى بأن حجم المبادلات التجارية بين بلاد السودان (غانة - كانم - كوار - التكرور - تادمكت - غياروا) وبين جبل نفوسة ووارجلان كان كبيرا. والدليل على ذلك وجود جالية كبيرة من الإباضية تقيم في تادمكت وإليها يعود الفضل

994 - الوسياني: السير (مخ)، ج2، و24؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص320؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص487؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص210؛ T. Lewicki: etudes maghrebines, p13.

T. Lewicki: Traits d>histoire, p303

995 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص71؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص499؛ دبو: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص346؛ محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص21؛ T. Lewicki: Traits d>histoire, p302؛ الحارثي: العقود الفضية، ص244.

996 - الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص328؛ بحاز: المرجع السابق، ص177.

997 - البكري: المغرب، ص10-11؛ عفيفي: أحوال بلاد المغرب، ص165.

998 - T. Lewicki: Traits d>histoire, p310.

999 - ابن خلدون: كتاب العبر، مج7، ص108؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص223.

في نشر الإسلام هناك. وفي المقابل نلاحظ وجود جالية سودانية بالجبل في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) بحجة أن الكثيرين من سكانه أجادوا لغة الكانم.¹⁰⁰⁰

أما عن السلع التي كان يصدرها التجار فهي كثيرة ومتنوعة. وعلى الرغم من عدم إشارة المصادر إلى سلع معينة تصدرها الدولة الرستمية. إلا أن المصادر الجغرافية أشارت إلى مختلف أنواع السلع التي يحتاجها السودان. يقول الإدريسي: «وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو من بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل وارجلان».¹⁰⁰¹ وقد لعب تجار نفوسة وهوارة دورا كبيرا في تجارة السودان. فلاشك أنهم كانوا يزودون السودان بالحبوب فابن حوقل يذكر أن القبائل الساكنة بين سجلماسة وأودغست لا يعرفون القمح والشعير.¹⁰⁰² وعند حديثه عن أودغست ذكر البكري بأنه يجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام. وأشار إلى أن سكانها من أهل إفريقية. وبرقجانة. ونفوسة. ولواتة. ونفزاوة. وقد كان أحد رواة تاجر نفوسي يدعى «أبو رستم النفوسي».¹⁰⁰³

كما كان التجار يصدرون إلى بلاد السودان زيت الزيتون. والفواكه الجففة. كالزبيب. والتين. وعسل التمر. وقد عثر في بلاد السودان على بعض القل التي كانت تستعمل في جمع العسل.¹⁰⁰⁴ وتعد المنسوجات والألبسة بمختلف أنواعها. والمصنوعات الجلدية. وربما حتى الأواني الزجاجية إلى جانب الأواني الفخارية من أهم الصادرات. وقد أكدت المصادر تصدير الثياب. فذكرت أن أبا صالح الياجراني (ق 3هـ/9م) من بني غريست ساق جمالا له من القبلية لبييعهم في وارجلان. فاشترى منها رجلا نجل. وعندما طلب منه ثمنه قال له: «ثمن جملك في تادمكت». وعندما جهز أبو صالح جمالا ليركبه قال له رجل آخر: «أحمل لي على جملك حمل ثياب».¹⁰⁰⁵ ومن السلع الصادرة كذلك التوابل والعطور الواردة من المشرق الإسلامي. والنحاس الأحمر والملون. والأصداف والأحجار.¹⁰⁰⁶

1000 - محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص211.

1001 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص34.

1002 - ينظر: صورة الأرض، ص98.

1003 - البكري: المغرب، ص158-159.

1004 - Jean Lethilleux: Ouargla cite saharienne des origines, au début du XX, Paul Geuthner, Paris, 1983, p54.

1005 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص313؛ الوسياني: سير مشائخ المغرب، ص30؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية، ص218؛ ص274.

1006 - الباروني: الأزهار، ص241؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص224؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص234؛ دبو: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص346-347؛ عفيفي: أحوال بلاد المغرب، ص177؛ جودت عبد الكريم: العلاقات، ص274؛ إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة 1970، ص65.

كما كان التجار يصدرون إلى بلاد السودان الإبل. وكانت بمدينة تادمكة سوقا رائجة لبيع الجمال. فأبو زكريا يذكر بأنه تباع فيها بكثرة واندھش عن عدم تمكن تاجر من بيع جماله قائلا: «ما سمعنا بجمال رجوع من تادمكت قط إلى وارجلان».¹⁰⁰⁷

ولا يستبعد أن يكون التجار الإباضية قد حملوا معهم الحجارة الشبيهة بالعقيق من معدن يقع بين وارجلان وغدامس نظرا لغلاء سعره في السودان. يقول الحميري: «وفي هذه الصحراء معدن حجارة يشبه العقيق وربما كان في الحجر الواحد منها ألوان من الحمرة. والصفرة. والبياض. وهو أنفق شيء ببلاد السودان عامة. وغيرها. وهو عندهم أجَلُّ من الياقوت».¹⁰⁰⁸

ويعد الملح من أهم صادرات بلاد المغرب إلى بلاد السودان. إذ كان يكثر عليه الطلب حتى إن أهل كوكو جعلوه نقدهم.¹⁰⁰⁹ ونعتقد أن تجار نفوسة استغلوا غلاء هذه المادة فصدروا منها الكثير خاصة وأن السبخة الكبيرة موجودة قرب طرابلس. قال عنها البكري بأنه يرفع منها الملح الكثير.¹⁰¹⁰ كما أن هذه المادة متوفرة بكثرة في أوليل. فمنها يحمل الملح إلى التكرور. وبريسى. وغانة. وسائر بلاد ونقارة. وكوغة. وعامة السودان.¹⁰¹¹ وتوجد كذلك في «توتك» الواقعة في الطريق الأوسط. ولا يستبعد أن يكون تجار نفوسة يسافرون إلى سجلماسة مثقلون بمختلف ضروب الأمتعة. فيبيعونها هناك. ثم يشترون الملح. ويتوغلون إلى بلاد السودان.¹⁰¹²

وقد عادت تجارة الملح بالثراء الواسع على التجار. ذلك أن العبد كان يباع بحذائه أي نعله. ذلك أنه يجعل تحت قدم العبد منه مقدار نعل فيكون ثمنه له.¹⁰¹³ كما أن حمل الملح كان يباع بحوالي مائتين إلى ثلاثمائة دينار.¹⁰¹⁴ وكان التجار يبادلونه بوزن أو وزن من الذهب. ويذكر جودت عبد الكريم - نقلا عن Devisse - أن حمل الجمل الذي يتراوح بين 125

1007 - ينظر: كتاب السيرة. ص313؛ والرواية نفسها أوردها الوسياني. ص30.

1008 - ينظر: الروض المعطار. ص600؛ والرواية نفسها أوردها صاحب الاستبصار. ص224.

1009 - البكري: المغرب. ص183.

1010 - المصدر السابق. ص8.

1011 - الإدريسي: القارة الإفريقية. ص32.

1012 - بحاز: الدولة الرستمية. ص225.

1013 - جودت عبد الكريم: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية. ص273؛ أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدياء شنقيط. مطبعة السنة المحمدية. ط2. القاهرة. 1958. ص521-522.

1014 - ابن حوقل: صورة الأرض. ص98؛ جودت عبد الكريم: المرجع نفسه. ص273؛ إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة. ص636؛ الحبيب الجناحاني: المغرب الإسلامي. ص183.

و150 كلف يعود بكمية من الذهب يتراوح وزنها بين 760 و1140غ من الذهب على أساس أن القيمة المتوسطة للدينار تعادل 3.8غرام ذهب.¹⁰¹⁵

وتجدر الإشارة إلى أن سعر الملح قد انخفض فيما بعد لكثرة العرض. وأصبح حمل جمل يعادل ثمن عبد. وقد فرضت غانة الضرائب على هذه التجارة الرباحة قدرها ديناران ذهب على كل حمولة حمار من الملح يدخل البلاد. وديناران على كل حمولة تخرج من ملكته. كما قرر ملوك غانة ضريبة مقدارها خمسة مثاقيل على حمل من النحاس وعشرة مثاقيل على حمل من المتاع.¹⁰¹⁶

وتعد مدينة «تادمكة» إحدى الحواضر السودانية التي كانت تضم جالية كبيرة من التجار الإباضية. فقد أشارت المصادر إلى أسماء تجار كانوا يدخلون كثيرا إلى بلاد السودان منهم: أبو نوح الصغير. وأبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي. وأبو القاسم يونس الفرستائي. وأبو موسى هارون بن أبي عمران.¹⁰¹⁷ وأغلب هؤلاء عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).¹⁰¹⁸ ومنهم من توغل إلى «غياروا» أمثال: هارون بن أبي عمران وموسى بن سدرين.¹⁰¹⁹ وأبي الربيع بن أبي هارون.¹⁰²⁰ وأبي طاهر إسماعيل بن علي النفاوي الذي وصل إلى غانة.¹⁰²¹ وفلحون بن إسحاق النفوسي (ق 4هـ/10م).¹⁰²²

ولعل أشهر أثرياء التجار الإباضية هو تملى الوسياني. فقد كان هذا الأخير يسافر كثيرا إلى تادمكت مما مكنه من جمع ثروة هائلة حتى إنه كان يرسل كل سنة ستة عشر كيس. كل كيس فيه خمسمائة دينار. وقيل ذهباً إلى أبي عمران موسى بن سدرين ليوزعها على الفقراء والمحتاجين.¹⁰²³

1015 - جودت عبد الكريم: المرجع نفسه. ص273.

1016 - البكري: المغرب. ص176؛ إبراهيم طرخان: المرجع السابق. ص67.

1017 - تذكر المصادر أن أبا موسى خرج إلى وارجلان فطلب منه سكانها الجلوس للحلقة فأبى وعزم على السفر إلى غانة. ينظر: الشماخي: السير. ص472. T. Lewicki: Etudes Maghrébines et soudanaises, p43. 472-20. T. Lewicki: Quelques extraits, p19.

1018 - جودت عبد الكريم: المرجع السابق. ص282-283.

1019 - الشماخي: المصدر نفسه. ص472-473.

1020 - البغطوري: سير نفوسة. (مخ). و14.

1021 - الشماخي: المصدر السابق. ص484.

1022 - T. Lewicki: Traits d'histoire, p304.

1023 - الوسياني: السير. (مخ). ج2. و22؛ مجهول: كتاب المعلقات. (مخ). و9؛ الشماخي: المصدر السابق. ص411؛ أحمد إلياس: الطرق التجارية عبر الصحراء. ص176.

T. Lewicki: Quelques extraits, p18. T. Lewicki: Les origines et l'islamisation de Tadmekka, d'après les P440. T. Lewicki: op. cit, p308, 6-sources arabes, bibliothèque d'outre mer, Paris, 1981, N° 5.

أما عن السلع الواردة من بلاد السودان فأهمها على الإطلاق الذهب الذي اشتهرت به بلاد غانة، خاصة ذهب منطقة ونقارة. فبلاد ونقارة هذه هي «بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة».¹⁰²⁴ كما يوجد الذهب في مدينة «غياروا» التي تبعد عن غانة مسير عشرين يوما.¹⁰²⁵ فقد كان نهر النيجر يجرف معه أثناء فيضانه المعادن. وعند وصوله إلى جاو وتمبكتو يتسع مجراه. وبعد أن تنحصر المياه بانتهاء موسم الفيضانات تترسب المعادن على جانبي النهر فيبقى الذهب من دونها مميّزا بلمعانه فيجمعونه ويبيعونه.¹⁰²⁶

وتتفق المصادر على أن غانة كانت أكثر بلاد السودان ذهباً. فقد روى البكري هو الآخر أن أجود أنواعه بغانة هو ذهب غياروا.¹⁰²⁷ أضف إلى ذلك معادن التبر الموجودة قرب مدينة كوغه.¹⁰²⁸ ويضيف أبو حامد الغرناطي أنه يظهر في رمال غانة الذهب والتبر وهو متوفر عندهم بكثرة.¹⁰²⁹

أما السلعة التي تأتي في المقام الثاني فهي العبيد المجلوبون من بلاد «الملم». حيث كان أهل سلى. وتكرور. يغيرون عليها فيسلبون أهلها. ويبيعونهم للتجار الداخلين إليهم.¹⁰³⁰ وبلاد الملم هذه تبعد عن غيارو (غياره) بثلاثة عشر مرحلة. ومن غيارو إلى غانة إحدى عشر مرحلة.¹⁰³¹

وقد اهتم التجار الإباضية بتسويق هذه السلعة في بلاد المغرب. فقد كانت تجارة العبيد تجارة رائجة خاصة في العصر الفاطمي. حيث كانوا يستخدمون في الجيش والأعمال الأخرى. فقد ذكر المراكشي بأن الفاطميين عندما بنو مدينة زويلة أستوطنوها سائر الناس من الرعية والسودان.¹⁰³² كما استخدم بنو زيري العبيد في الجيش.¹⁰³³ ومربنا أن النفوسيين استعملوهم في الزراعة والعمل في المنازل. وكانت مدينة وارجلان وزويلة وسجلماصة من أكبر المراكز الموردة للعبيد. كما كان يجلب الرقيق من أودغست. فقد

1024 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص 39.

1025 - مجهول: الاستبصار، ص 221.

1026 - الإدريسي: المصدر السابق، ص 39؛ ديري عبد القادر نوري: ازدهار الصناعة والزراعة في بلاد السودان الغربي بعد القرن 5هـ - 11م كما وصفته المراجع العربية الإسلامية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت 1986، مج 6 عدد 21، ص 26.

1027 - ينظر: المغرب، ص 176-177.

1028 - البكري: المصدر نفسه، ص 179.

1029 - أبو حامد الغرناطي: كتاب خفة الألباب، نشر ضمن Journal asiatique, TCC XII, p41.

1030 - الحميري: الروض المعطار، ص 511؛ إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة، ص 72.

1031 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص 41.

1032 - المراكشي: المعجب، ص 197.

1033 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 238؛ إسماعيل العربي: عواصم بن زيري، بيروت، 1984، ص 141.

حدث البكري عن سودانيات أودغست، ووصفهن بأنهن طباحات تحسن عمل الأطعمة الطيبة، وأصناف الحلويات، وغير ذلك.¹⁰³⁴

وبما أن أسعار العبيد كانت زهيدة فقد اشترى التجار أعدادا كبيرة منهم لتصديرهم إلى مختلف الأصقاع. وقد ذكر ابن حوقل أن من بين ما يصدر إلى المشرق الخدم المجلوبون من السودان.¹⁰³⁵ وقد اهتم الإباضية بهذه التجارة التي تعود عليهم بالأرباح الطائلة. فقد روى الشماخي أن أبا محمد عبد الله بن محمد السدراتي سافر رفقة حضري إلى بلاد السودان جعل تجارته عبدا.¹⁰³⁶ وتحدث المصادر عن جارية سودانية اشتراها رجل من أهل ويغو تسمى غزالة. أخذت بالمذهب الإباضي وأصبحت من العالقات الشهيرات في الجبل. فقد كانت في كل ليلة بعد نهاية العمل تقطع مسافة عشرين ميلا لكي تحضر مجلس الشيخ عبد الله محمد بن الخير في «تنور زيرف». فإذا انقضى المجلس تعود فتأتي مصلى لها في كهف معلوم فتصلي. كما تذكر المصادر أن أم عبد الله بن الأمير كانت أمة سوداء.¹⁰³⁷ وأن أم الخطاب - وهي إحدى العالقات بالجبل - كانت تملك ثلاثة عشر جارية.¹⁰³⁸ كما أن الشماخي استعمل في العديد من المرات عبارة «جالب الخدم».¹⁰³⁹

وإلى جانب الذهب والعبيد، استورد التجار العاج، وريش النعام، وجلود الحيوانات، خاصة جلود النمرور، والسباع.¹⁰⁴⁰ وقد ذكرت المصادر أن لباس سكان كوكو من الجلود.¹⁰⁴¹ ولباس سكان غانة من جلود النمرور.¹⁰⁴² مما يدل على أن إنتاجها كان وفيرا عندهم. كما استوردوا الدرق اللمطية، التي تصنع من جلد حيوان اللمط، وميزتها أنها خفيفة لينة لا ينفذ منها النشاب ولا يؤثر فيها السيف.¹⁰⁴³ ولاشك أن تجار نفوسة قد استوردوها لحاجتهم إليها في معاركهم. كما كان يجلب من كوار الشب وربما اشتره من وارجلان.¹⁰⁴⁴

1034 - البكري: المغرب، ص 158؛ وينظر كذلك: الجنحاني: المغرب الإسلامي، ص 186.

1035 - ينظر: صورة الأرض، ص 95.

1036 - ينظر: السير، ص 509.

- المصدر نفسه، ص 218؛ R. Basset: Les Sanctuaires Du Djebel Nafussa, p391.

1037 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 405.

1038 - علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص 210.

1039 - ينظر: السير، ص 295.

1040 - الحريري: الدولة الرستمية، ص 234؛ دبو: تاريخ المغرب الكبير، ج 3، ص 347؛ جودت عبد الكريم: العلاقات

الخارجية، ص 267؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص 225-226.

1041 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص 45.

1042 - Solvet: Description du Maghreb, p50.

1043 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص 59؛ أبو حامد الغرناطي: خفة الألباب، ص 43؛ جودت عبد الكريم: العلاقات

الخارجية، ص 280؛ الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي، ص 210-211.

1044 - الإدريسي: المصدر نفسه، ص 39-40.

فالإدريسي يذكر أن جَار مدينة «أنكلاس» الواقعة قرب كوار كانوا يصلون إلى وارجلان. كما كان جَار نفوسة يستوردون بعض الأدوية. فالمصادر تذكر أنه لما أصيب أبو معروف ويدرن بن جواد في بصره أرسل كتابا إلى الشيخ عبد الحميد الفزاني المقيم بالسودان يطلب منه تزويده بدواء للعيون.¹⁰⁴⁵

ولم يكتف التجار الإباضية بعمليات التصدير والاستيراد. بل ساهموا في نشر الإسلام كذلك. فالشماخي يذكر أن أبا يحيى زكريا بن أبي القاسم يونس الفرسطائي تمكن بفضل دعوته أن يعتنق ملك السودان الإسلام.¹⁰⁴⁶ وهي الرواية نفسها التي أشار إليها البكري دون أن يذكر اسم الداعية.¹⁰⁴⁷ وقد أثبتت الدراسات المعمارية من خلال مقارنة الطراز المعماري للمساجد في بلاد المغرب والسودان وجود تشابه كبير في المآذن المستطيلة.¹⁰⁴⁸ كما أن الباروني يذكر أن أقواما في بلاد السودان كانوا لا يرفعون أيديهم في الصلاة عند تكبيرة الإحرام كالإباضية.¹⁰⁴⁹

6 - المكايل والموازين:

لا تعطينا المصادر التي عنيت بالحياة الاقتصادية في بلاد المغرب معلومات وافية عن المكايل المستعملة في جبل نفوسة. غير ما ذكره الدرجيني في حديثه عن أبي معروف ويدران بن جواد الذي كان له دكان في الجبل حيث قال إن هذا الأخير كان «إذا وزن لأحد من الناس زاده من نفسه خروبة. وإذا أراد أن يأخذ لنفسه من أحد نقص خروبة».¹⁰⁵⁰ ويضيف الشماخي في سيره أن أبا هارون الجلالى كان يجني من أشجار التين ثلاثمائة مديا. أي مائة وخمسون وسقا. والد بالجبل ثلثي الوسق.¹⁰⁵¹ أما في يفرن فإن المد كان يعرف بـ «يفرن» إثنا عشر وبة.¹⁰⁵² والوابة هي وحدة لكيل الحبوب تسوي أربعة أثمان - أي 24 مدا

1045 - الوسياني: السير. (مخ). ج. 2، و4: الدرجيني: الطبقات. ج. 2، ص 327.

1046 - الشماخي: السير. (مخ). ص 312؛ وينظر كذلك: J. Schacht: Sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le Sahara, Travaux de l'institut de recherches sahariennes, T 11, 1954, p73.

1047 - ينظر: المغرب. ص 178.

1048 - Marcel Mercier: Notes sur une architecture berbère saharienne Hesperis, T8, 1928, P422-424.

1049 - ينظر: رسالة سلم العامة. ص 23.

1050 - الدرجيني: طبقات المشائخ. ج. 2، ص 328؛ وينظر كذلك: الوسياني: السير. (مخ). ج. 2، و4: الشماخي: السير. ص 264؛ بحاز: الدولة الرستمية. ص 177.

1051 - الشماخي: المصدر نفسه. ص 278.

1052 - نفسه. ص 323.

قرويا - وتساوي 25.5 مدا بمد النبي.¹⁰⁵³ والكر عند أهل الجبل مثل مد النبي وهو المن عند أهل عمان.¹⁰⁵⁴ ويبدو أنه مكيال لكيل الحبوب مقداره ستين قفيزا.¹⁰⁵⁵ وإذا كان الأستاذ بحاز يرى بأن الاختلاف في المكايل والموازين بين المدن الرستمية اختلاف في الكم والعدد وليس في الأسماء.¹⁰⁵⁶ إلا أنه يبدو أن هناك اختلافا حتى في الأسماء فالمد مثلا يسمى في الجبل «المودي».¹⁰⁵⁷

ومهما يكن من أمر فإن المقدسي قد تحدث بإسهاب عن مكايل وموازين بلاد المغرب. فذكر أن أوطاله كانت بغدادية. ماعدا الذي يوزن به الفلفل فإنه ينقص على البغدادي بعشرة دراهم. وأن القفيز في القيروان كان يساوي إثنان وثلاثون ثمنا أي 192 مدا بمد النبي. وأما الدوار - وهو مكيال فاطمي - فهي التي تشف على وبة مصر بشيء بسيط قد أجم رأسها بعارضة من حديد وأقيم عمود من قاعها إلى العارضة فوقه حديد يدور على رأس الوبة فإذا أترعها أدار الحديد فمسحت الوبة وصح الكيل.¹⁰⁵⁸ وكان هذا الكيل يستخدم فقط في كيل الخنطة.¹⁰⁵⁹

وبالإضافة إلى المكايل التي ذكرناها هناك المد. والمطر. والصحفة. والقادوس. والعمورة. والقليلة. واللوح. والقنفل. والزلاقة. وتجدر الإشارة في هذا المضمار إلى أن هذه المكايل لم تكن موحدة القيمة في سائر بلاد المغرب. فلذلك فهي تختلف من موضع إلى آخر. فأما مكايل سكان تاهرت فهي حسب المكايل القرطبية. فمدهم الذي يكتالون به يساوي خمسة أقفزة ونصف قرطبية. أما قنطار الزيت وغيره فإنه يساوي عندهم خمسة أوطال.¹⁰⁶⁰ وأما المد فهو كيل مدينة «مليلة». وهو خمسة وعشرون مدا بمد النبي. ورطلهم إثنان وعشرون أوقية. والأوقية خمسة عشر درهما. وقنطارهم من جميع الأشياء بهذا الرطل.¹⁰⁶¹ وأما المطر فهو كيل يسع خمسة أقفزة من الزيت.¹⁰⁶² في حين أن الصحفة تساوي ثمانية وأربعين قادوسا. والقادوس ثلاثة أمداد

1053 - البكري: المغرب. ص 26؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية. ص 187.

1054 - الوسياني: السير. (مخ). ج. 2، و24.

1055 - جودت عبد الكريم: المرجع السابق. ص 189.

1056 - ينظر: الدولة الرستمية. ص 181.

1057 - الشماخي: السير. ص 313.

1058 - المقدسي: أحسن التقاسيم. ص 220؛ وينظر كذلك: Golvin: Le Maghreb central, p83.

1059 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية. ص 152.

1060 - البكري: المغرب. ص 69؛ الحريري: الدولة الرستمية. ص 235؛ الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي. ص 135.

1061 - البكري: المرجع نفسه. ص 89.

1062 - البكري: المرجع نفسه. ص 27؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية. ص 189؛ الجنحاني: المغرب الإسلامي. ص 69.

7 - العملة:

لم تذكر المصادر المتوفرة لدينا عن عملة معينة كان يتعامل بها سكان الجبل، في حين تذكر المراجع أنه كانت للبرستمييين عملة تعاملوا بها. وقد أكد ذلك الأثريان الفرنسيان D. Lammart و G. Marcais اللذان قاما بتنقيبات في تاهرت وعثرا على مجموعة من النقود البرستمية. ولا يستبعد الأستاذ بحاز أن تكون دنانير ذهبية وفضية ذلك أن البرستمييين يكونون قد ضربوا سكتهم منذ إمامة عبد الرحمن بن رستم على القيروان. فقد سك فلوسا من النحاس كتب على أحد وجهيها: «ضرب هذا الفلاس بإفريقية (كذا)». وفي الوجه الثاني كتب: «سنة إثنين وأربعين ومائة».¹⁰⁷³ كما أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب قد ضرب دنانير ودرهم تعامل بها الناس في سائر المغرب، وهي مدورة الكتابة.¹⁰⁷⁴ فأما الدرهم فكان له نصف يسمى «القيراط» وربع ثمن يسمى «الخرنوبة».¹⁰⁷⁵

ويبدو أن هناك قيراطا من الذهب. فقد ذكر الدرجيني والشمأخي أن رجلين اختصما إلى أبي بكر صالح بن بكر بن قاسم - وهو أحد علماء جزيرة جربة - باع أحدهما للآخر سلعة بستين قيراطا. ولم يبين له من أي جنس. فقال المشتري بأنه اشتراها بقراريط الحندوس. وقال البائع إنما له عليه بالذهب. وكان المشتري لا يعرف الذهب. فطلب أبو صالح من البائع أن يأخذ منه ما ذكر لأن أهل جربة - وهم إباضية - كانوا يتعاملون بالهندوس. ولا يعرفون الذهب.¹⁰⁷⁶ ولذلك أفتى سليمان بن ماطوس - وهو أحد العلماء المعروفين - «من باع شيئا بقراريط وهو يعني دراهم الهندوس (الحندوس)، إن ذلك جائز لأن القيراط في أوزان الذهب. والدرهم من أوزان الفضة».¹⁰⁷⁷

ومهما يكن من أمر، فمما لا شك فيه أنه كانت للبرستمييين عملة خاصة بهم. وعلى الأرجح أنها ذهبية. نظرا للتدفق الهائل للذهب القادم إليها من بلاد السودان. ففي حديثه عن سكان وارجلان ذكر الإدريسي بأنهم كانوا يشترون الذهب من بلاد ونقارة. ويخرجوه إلى دور ضرب السكة في بلادهم «فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع».¹⁰⁷⁸ والشئ نفسه بالنسبة لإمارة بني الخطاب الإباضية بزويلة. فقد ضربت

بمد النبي وهو كيل مدينة تنس.¹⁰⁶³ أما العمورة فهي كيل مدينة أرشقول وتسايو ستين مدا بمد النبي.¹⁰⁶⁴ في حين أن القليلة هي مكيال للزيت في مدينة أصيلة يسايو مائة وإثنتا عشرة أوقية. وفي القنطار عشرون قليلة.¹⁰⁶⁵ واللوح هو مد مدينة «فاس» يسع ثمانين أوقية من الطعام.¹⁰⁶⁶ أما القنفل فيسايو ثمانين زلاقات. والزلاقة تسايو ثمانية أمداد بمد النبي.¹⁰⁶⁷ كما عرفت الصاع كأداة للكيل. فقد أجاب الإمام عبد الوهاب ردا على سؤال رجل نفوسي حول العشر قائلا: «إن العشر يجب من ثلاثمائة صاع. وهي خمسة أوساق. والوسق ستون صاعا. فيجب فيه نصف الوسق».¹⁰⁶⁸

أما الموازين في بلاد المغرب فهي القنطار. والرطل. والأوقية. والدرهم. أما الرطل فإن قيمته تختلف من سلعة إلى أخرى. فالرطل المستعمل في وزن الفلفل. يختلف عن الرطل المستعمل في وزن اللحم. وذلك يعود إلى سعر السلعة نفسها. كما أن هذه الأوزان تختلف من مكان إلى آخر. ومن الأمثلة على ذلك أن رطل مدينة تونس يسايو 12 أوقية. في حين أن رطل مدينة تنس مثلا يسايو 67 أوقية. وهو رطل خاص بوزن اللحم. وقد نجم عن ذلك أن اختلفت قيمة القنطار من منطقة إلى أخرى. فقنطار مدينة مليلة مثلا يسايو 100 رطل. أي 2200 أوقية. في حين أن قنطار مدينة أصيلة يسايو 2240 أوقية.¹⁰⁶⁹ ونلاحظ هذا الاختلاف في حاضرة البرستمييين تاهرت حيث إن قنطار الزيت فيها كان قنطارين وثلاثا. أما الفلفل وغيره من السلع فقنطار عدل. أما الرطل فكان رطلا بغداديا.¹⁰⁷⁰ كما استعمل المغاربة أوزانا أخرى منها الأوقية. الدرهم. القيراط. والمن.¹⁰⁷¹ كما استعمل المغاربة في العصر الفاطمي وزنا يسمى «الصنوج». وهو قطعة مستديرة مصنوعة من زجاج مطبوع رسم على أحد وجهيها مقدار ما تساويه كتابة. وكانت تضرب في دار الضرب مثل السكة وتوزع على التجار والصيارفة حتى يتأكدوا من وزن النقد.¹⁰⁷²

1063 - البكري: المرجع نفسه، ص 69؛ جودت: المرجع نفسه، ص 188؛ Golvin: le Maghreb, p83.

1064 - نفسه، ص 78؛ Golvin: ibid, p84.

1065 - المرجع نفسه، ص 112.

1066 - البكري: المرجع نفسه، ص 117.

1067 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية، ص 1.

1068 - عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم: كتاب مسائل نفوسة، ص 73.

1069 - البكري: المغرب، ص 62-89-113؛ عفيفي: المرجع السابق، ص 147-148.

1070 - البكري: المرجع نفسه، ص 69؛ جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية، ص 179-183؛ الحريري: الدولة البرستمية، ص 235.

1071 - للمزيد من التفاصيل ينظر: جودت عبد الكريم: المرجع نفسه، ص 181-182.

1072 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية، ص 149.

1073 - ينظر: الدولة البرستمية، ص 183.

1074 - الحريري: الدولة البرستمية، ص 235.

1075 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية، ص 153؛ Golvin: Le Maghreb central, p84.

1076 - الدرجيني: الطبقات، ج 2، ص 354-355؛ الشمأخي: السير، ص 367.

1077 - الوسياني: السير (مخ)، ورقة 16؛ الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 358؛ الشمأخي: المصدر نفسه، ص 369؛ بحاز: الدولة البرستمية، ص 187.

1078 - الإدريسي: القارة الإفريقية، ص 39.

دنانير ذهبية عثر مؤخرا على عدد منها في الحفريات التي أجريت بالمدينة.¹⁰⁷⁹ وقد مر بنا أن جَار زويلة كانوا من الأثرياء يمتلكون قوافل كبيرة من الجمال لعبت دورا كبيرا في تجارة السودان.

وبعد سقوط الدولة الرستمية وقيام الدولة الفاطمية ضرب الفاطميون الدينار الذهبي، واشتهرت النقود التي ضربها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة 342هـ (954م). حيث تعامل بها الناس في كافة أرجاء بلاد المغرب. وقد ضرب هذا الدينار في صقلية ونقش عليه:

«ضرب هذا الدينار بصقلية سنة ثلث وأربعين وثلثمائة

لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلى أفضل الوصيين

المعز لدين الله أمير المؤمنين.

دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد».¹⁰⁸⁰

وظل التعامل بهذا الدينار إلى أن أعلن المعز بن باديس الانفصال عن الفاطميين وضرب السكة باسمه سنة 441هـ. فنقش على الوجه الأول: « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (الآية) » وعلى الوجه الثاني « لا إله إلا الله محمد رسول الله ».¹⁰⁸¹

ولا ندري إذا كان النفوسيون قد تعاملوا بالدينار الذي ضربه أبو يزيد مخلد بن كيداد بعد استلائه على القيروان سنة 333هـ. فقد أصدر هذا التأثير عملة نقدية مكتوب على أحد وجهيها: «ربنا الله لا حكم إلا الله. لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحق المبين» وعلى الهامش: «بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالقيروان سنة ثلث وثلثين وثلثمائة» أما عن الظاهر ففي المركز: «العزة لله محمد رسول الله خاتم النبيين» والهامش الداخلي: «الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون» أما الهامش الخارجي: «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».¹⁰⁸²

1079 - محمد سليمان أيوب: مختصر تاريخ فزان، ص 90.

1080 - Henri la voix: Catalogue des monnaies musulmanes de la bibliothèque nationale de Paris, V2, (Espagne et Afrique) Paris, 1891, p40.

1081 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 278.

1082 - محمد باقر الحسيني: دراسات عن نقود الثوار والشعارات والمناسبات المضروبة في إفريقية، مجلة المسكوكات، عدد 7، بغداد، 1976، ص 36.

وبالإضافة إلى الدينار الذهبي، والدرهم، تعامل المغاربة بالسفناج وهي عبارة عن أوراق مالية تعوض التسديد نقدا، فهي بمثابة خطابات يتعامل بها التجار خوفا من قطاع الطرق.¹⁰⁸³ كما استعملت الصكوك كذلك في المعاملات فقد ذكر ابن حوقل أنه رأى صكا بأودغست بإثنين وأربعين ألف دينار.¹⁰⁸⁴ كما كانت المقايضة وسيلة هي الأخرى في المعاملات التجارية، فقد روى البكري أن جَار زويلة كانت مبيعاتهم بثياب قصر حمر.¹⁰⁸⁵

8 - الحسبة:

تعد الحسبة من الوظائف الدينية التي أولى لها العلماء والفقهاء أهمية قصوى لأن المحتسب يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك كان لزاما على من يتولى هذه المهمة أن تتوفر فيه شروط معينة ليكون أهلا لها. منها أن يكون فقيها عارفا بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به وينهي، وأن يكون مسلما، ذكرا، بالغاً، عدلاً، لا يخاف في الله لومة لائم. وأن يكون ورعا، عفيفا، غنيا حتى لا يأكل أموال الناس بالباطل.¹⁰⁸⁶

وقد أولى شيوخ الإباضية اهتماما كبيرا للحسبة، فأول من خرج محتسبا هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السَّمح المعافري، عندما بلغته أخبار المناكر التي اقترفتها قبيلة ورفجومة بالقيروان.¹⁰⁸⁷ وعندما قامت الدولة الرستمية كانت نفوسة في تاهرت هي التي تلي عقد تقديم القضاة وإنكار المنكر في الأسواق، والاحتساب على الفساد.¹⁰⁸⁸ وكان النفوسيون في عهد الإمام أبي اليقظان إذا رأوا قصابا ينفخ في شاة عاقبوه، وإن رأوا دابة تحمل فوق طاقتها أمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن لاحظوا تراكم الأوساخ في الطرقات أمروا سكان الموضع بكنسها.¹⁰⁸⁹

1083 - عفيفي: أحوال بلاد المغرب الاقتصادية، ص 154؛ مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص 242.

1084 - ينظر: صورة الأرض، ص 65.

1085 - المغرب، ص 11.

1086 - للمزيد من التفاصيل حول شروط القيام بالحسبة ينظر: عبد الرحمن بن نصر الشيزري: كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة، ط 2، بيروت، 1981، ص 6 وما بعدها؛ ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، نشرها ليفي برونسفال ضمن Journal Asiatique, Avril- Juin 1934, p18؛ أحمد سعيد الجيلدي: كتاب التيسير في أحكام التسعير، تحقيق: موسى لقبال، ش و ن، ط 2، الجزائر، 1981، ص 42-43؛ عبد الرحمن الفاسي: خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين، دار الثقافة، ط 1، الدار البيضاء، 1984، ص 46-47؛ موسى لقبال: المغرب الإسلامي، ص 182 وما بعدها.

1087 - الشماخي: السير، ص 127-129.

1088 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 63؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص 192؛ الحارثي: العقود الفضية، ص 243.

1089 - ابن الصغير: المصدر نفسه، ص 8؛ البرادي: الجواهر المنتقاة، ص 177؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص 230؛ الحارثي: المرجع نفسه، ص 244-245.

ولا تعطينا المصادر المعلومات الكافية حول ولاية الحسبة في الجبل، إلا ما ورد من إشارات متناثرة. فقد ذكر الشماخي مثلاً أن أبا يوسف وجدليش الذي كان يشرف على سوق جادو كان «يأذن لمن شاء أن يبيع، ويمنع من في ماله شبهة» فقد منع رجلاً من قرية «أغل» الدخول إلى سوق جادو قائلاً له: «أفي سوق جادو تبيع حرام أبيك».¹⁰⁹⁰ وحسب المصادر فإن ولاية الحسبة لم يكن مكلفاً بها شخص ما - باستثناء الإشراف على سوق جادو - بل كان يقوم بها كل الشيوخ المشهود لهم بالعلم والورع. فقد عرف كل من ابن مغطير النفوسي وأبي مرداس مهاصر السدراتي بأنهما كانا شديدي الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.¹⁰⁹¹ ورويت المصادر أن أبا عمر وميمون بن محمد الشروسي لما سمع بمجلس خمر في الفحص. وهو موقع يبعد عن شروس ستة أميال. انتقل إليهم، وكسر أنيتهم، وأراق خمرهم.¹⁰⁹²

ولما وقع فساد بمدينة غدامس خرج إليهم أبو الفضل سهل لتأديبهم.¹⁰⁹³ وعندما رأى أبو محمد جمال المزاتي تاجراً يطفف الكيل لطمه، وأمره بأن يفي الكيل.¹⁰⁹⁴ كما حارب الشيوخ كل عمل مخل بالآداب العامة، فقد خرج أبو هارون التملوشائي إلى «تندميرت» - إحدى قرى الجبل - عندما علم بأن أهلها يلعبون بالدف في عرس فأنزلهم السجن.¹⁰⁹⁵

كما كان الشيوخ يأمرهم الناس بالحفاظة على الطرقات العامة، فعندما أضاف أبناء الشيخ ماكسن أرضاً من الطريق إلى عتبة الباب أرغمهم على هدم ما بنوه.¹⁰⁹⁶ وإذا وجدت أغصان أشجار تعيق المارة فإنها تكسر.¹⁰⁹⁷ وكان أبو المنيب محمد بن يانس يتفقد المزارع والحقول والطرقات محتسباً، فمتى وجد شخصاً أفسد شيئاً ما، وأقام بعمل يضر الآخرين منعه.¹⁰⁹⁸

وكانت العقوبة تتفاوت بين الجلد بالسياط، أو بالحبس في المسجد، أو في منزل الحاكم، أو العزابي. فالشماخي يذكر أبا محمد التغرميني سجن شخصاً يسمى «أبازكار»

1090 - الشماخي: المصدر السابق، ص 334.

1091 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 144-173.

1092 - نفسه، ص 273.

1093 - نفسه، ص 275؛ علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص 169.

1094 - نفسه، ص 291.

1095 - نفسه، ص 305.

1096 - الوسياني: سير المشائخ، (مخ)، ج 2، و 37.

1097 - المصدر نفسه والجزء ذاته، و 4.

1098 - الشماخي: السير، ص 248.

من «أغرم اينان» بمسجد «إيسراتن» تأديباً له عن رعي غنمه في مكان غير مخصص للرعي.

ويروي البغطوري أن أبا مسور كان يضرب رجلاً مغلولاً بالسياط أمام مسجد منزله، ولما رأى رجلاً يمشي في المقبرة قال: «لا أخرج حق الأحياء حتى أخرج حق الأموات».¹⁰⁹⁹ فأمسك عن الأول وطلب إحضار الثاني فأدبه.

وظل الاحتساب في جبل نفوسة يقوم به ولاية الجبل وشيوخه من العلماء وفقهاء المذهب، إلى أن قام نظام العزابة، فأصبح لهؤلاء دور كبير في الأمر بالمعروف والنهي عن أي منكر يظهر في قرى الجبل ومدنه.

9 - مستوى المعيشة:

عم الرخاء جبل نفوسة مثل سائر المدن والمناطق التابعة للدولة الرستمية خاصة قبل موقعة مانو سنة 283هـ. إذ كان ذهب السودان يتدفق باستمرار على الدولة. وعادت التجارة بالثراء على سكان الجبل خاصة الذين كانوا يسافرون إلى بلاد السودان. وقد مر بنا أن تملى الوسياني اجتمع عنده ستة عشرة كيساً مملوؤة بالذهب، وأضحت بذلك مظاهر الثراء من ترف وبذخ تظهر في الجبل، فقد كان أبو القاسم يزيد بن مخلد يركب دابة لها سرج محلى بالذهب.¹¹⁰⁰ حتى إن رجلاً من نفوسة لما رآه قال له: «يا شيخ ليس هذا من سيرة أهل الدعوة».¹¹⁰¹ كما توصف المصادر أبا ذر إبان بن وسيم النفوسي بأنه كان ذا سعة في المال والعلم.¹¹⁰² وتذكر المصادر كذلك أنه لما انتقل الإمام عبد الوهاب إلى الجبل في طريقه إلى الحج، نزل ضيفاً عند مهدي النفوسي الويغوي فوجد داره «دار مترف في نعمة قد انبسطت عليه الدنيا».¹¹⁰³ وأخرج مهدي للإمام ورفقائه ثياباً جديدة وفراشاً وأوسع عليهم في الخير.¹¹⁰⁴

واهتم سكان الجبل بالدنيا وبترفها إلى درجة تعاطي الخمر في «الفحص».¹¹⁰⁵ ورغم هذا الرخاء إلا أن الجبل شهد - كما سبق الذكر - في العديد من المرات مجاعات اضطر

1099 - ينظر: سير مشائخ نفوسة، (مخ)، و 57.

1100 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 196.

1101 - الدرجيني: الطبقات، ج 1، ص 122.

1102 - المصدر نفسه، ج 2، ص 301-302.

1103 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 114.

1104 - المصدر نفسه والصفحة ذاتها، ديون: تاريخ المغرب الكبير، ج 3، ص 503.

1105 - الشماخي: السير، ص 273؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص 257.

فيها السكان إلى الهجرة إلى إفريقية. ويمكن القول في الأخير ومن خلال النصوص، أنه كان هناك ثراء واسع، يقابله زهد بعض الشيوخ والعلماء، الذي لم تغوهم الدنيا وملذاتها.

الفصل الثاني

الحياة الفكرية والاجتماعية في جبل نفوسة.

أولا - الحياة الفكرية:

- 1 - تاهرت عاصمة الإشعاع الفكري.
- 2 - النهضة العلمية بالجبل.
 - أ - حلقات العلم.
 - ب - تمويل طلبة العلم والإنفاق عليهم.
 - ج - التنافس العلمي.
 - د - إرساء تقاليد الحلقة.
- 3 - العلوم والعلماء.
 - أ - العلوم.
 - ب - العلماء.
- 4 - حركة التأليف.
- 5 - المكتبات.
- 6 - العلاقات الثقافية بين جبل نفوسة وإباضية المشرق والمغرب.
 - أ - مع إباضية المشرق.
 - ب - مع إباضية المغرب.



ثانيا - الحياة الاجتماعية.

- 1 - نظام العزابة.
- 2 - التنظيم الطبقي في المجتمع النفوسي.
- 3 - المرأة.

أولا - الحياة الفكرية:

تعد الحياة الفكرية والثقافية من الجوانب التي أولاها النفوسيون والإباضية عامة اهتماما بالغاً. ولا نبالغ إذا قلنا إن علماءهم أبدعوا في هذا الميدان خاصة في العلوم الدينية. وما يدعم كلامنا ذلك التراث الضخم الموزع بين المكتبات والذي يعد نشره والتعريف به فريضة على كل باحث. وسنقتصر الحديث في هذا المجال عن دور الأئمة الرستميين في النهضة العلمية. وعن الحركة العلمية بالجليل بما في ذلك حلقات الدرس والعلوم والعلماء. وحركة التأليف والمكتبات وعن العلاقات الثقافية بين إباضية جبل نفوسة وإباضية المشرق والمغرب.

1 - تاهرت عاصمة الإشعاع الفكري:

كان الأئمة الرستميون تواقين إلى العلوم والمعرفة فكرسوا حياتهم لدراسة الكتب والتأليف. وتشجيع الناس على طلب العلم بمختلف فنونه. وإقامة الحلقات العلمية في المساجد والبيوت. وكانت للأئمة أنفسهم حلقات علمية أقاموها في المساجد أمها الطلبة من كل حذب وصوب. ومن مختلف المذاهب والنحل خاصة وأنهم كانوا متسامحين مع مختلف الآراء. فلا غرابة إذن أن يعبر الباروني عن ذلك بقوله: «بلغت هذه الأمة بمدينة تاهرت من العلم والأدب والفضل والعدل المقام السامي حتى قال البعض منهم: «معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعرف القمر في أية منزلة هو في كل ليلة»¹¹⁰⁶ وقد اشتهر مؤسس الدولة الإمام عبد الرحمن بن رستم (160-171هـ) (776-787م) ببراعته في علوم الدين واللغة والفلك مما جعله يقبل على تأليف كتاب يفسر فيه القرآن الكريم.¹¹⁰⁷ كما أنه ترك ديوانا يحتوي على خطب ورسائل وأجوبة كثيرة في مختلف فنون العلم.¹¹⁰⁸ ويبدو أن ابن الصغير لم يطلع على هذه المؤلفات إذ قال في حديثه عن عبد الوهاب: «لم يكن لأبيه عبد الرحمن كتاب معروف من تأليفه».¹¹⁰⁹

ولم يختلف عنه ابنه وخليفته من بعده الإمام عبد الوهاب (171-211هـ) (787-826م). فقد كان له هو الآخر باع طويل في دفع الحركة الثقافية في تاهرت إذ ألف كتابا

1106 - الباروني: رسالة سلم العامة، ص15؛ وينظر كذلك: الشماخي: السير، ص162.

1107 - الشماخي: المصدر نفسه، ص193؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص488.

1108 - الباروني: الأذهار، ج2، ص147.

1109 - ينظر: أخبار الأئمة الرستميين، ص45.

يعرف بـ «مسائل نفوسة» عبارة عن أجوبة لأسئلة بعثت بها إلى الإمام فأجاب عنها.¹¹¹⁰

وبغية تعميم الثقافة والاستفادة من مؤلفات علماء المذهب المشاركة أرسل الإمام عبد الوهاب ألف دينار إلى إخوانه ليشتروا بها الكتب. ولما وصلهم المال اشتروا بها ورقا ونسخوا له الكتب مقدار أربعين حملا وأرسلوها إليه. فلما وصلته عكف على قراءتها حتى ختمها.¹¹¹¹ ونظرا لاتساع معارفه في فنون العلم وقوة فهمه قال: «الحمد لله إذ وجدت جميع ما فيها محفوظا عندي. ولم أستفد منها إلا مسألتين، ولو سئلت عنها أجبت فيها قياسا».¹¹¹² ولاشك أن هذه الكتب كانت النواة الأولى التي تشكلت منها مكتبة المعصومة الشهيرة التي أشادت بها المصادر، والتي كانت تضم نحو من ثلاثمائة ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم والفنون من رياضيات وفلك وهندسة وطب وغيرها.¹¹¹³

وما يدل على اهتمام البيت الرستمي بالعلم وتضلعه فيه أن الإمام عبد الوهاب بات مع أخته يقرآن مسائل الفرائض حتى تعلمها جميعا قبل طلوع الفجر.¹¹¹⁴ وقد حرص الإمام على تحصيل أبنائه العلوم خاصة العلوم الدينية حتى يكونوا قدوة لغيرهم فقد مر بنا أنه منع ابنه أفلاح من السفر إلى كوكو ببلاد السودان للتجارة عندما عجز هذا الأخير عن الإجابة عن مسألة من مسائل الربا.¹¹¹⁵

وتتحدث المصادر كثيرا عن الإمام أفلاح (211-258هـ) (826-871م) وما اشتهر به من شجاعة وإطلاع كبير على فنون العلم من فقه ونحو وأصول وغير ذلك. وذكرت كتب السير أنه تولى شخصيا التدريس في مساجد تاهرت. فقد كانت جلس بين يديه سبع حلقات.¹¹¹⁶ وقيل أربع حلقات من الطلبة يأخذون عنه العلوم التي برز فيها كعلم الغبار

1110 - ابن الصغير: المصدر نفسه، ص45-46؛ الباروني: المرجع السابق، ص218؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص237.

1111 - الشماخي: السير، ص162؛ الحارثي: العقود الفضية، ص275.
عثر الباحث أثناء زيارته للمكتبة البارونية بجزيرة جربة التونسية على مخطوط يحتوي على مراسلات تمت بين الإمام عبد الوهاب وبين نفاث بن نصر.

1112 - الشماخي: المصدر نفسه، والصفحة ذاتها؛ الباروني: الأزهار، ج2، ص219؛ الباروني: رسالة سلم العامة، ص15.

1113 - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص490؛ الحريري: الدولة الرستمية، ص237.

1114 - الشماخي: المصدر السابق، ص162.

1115 - الوسياني: السير، (مخ)، ج2، و24؛ الدرجيني: الطبقات، ج2، ص320؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص526.

1116 - الباروني: رسالة سلم العامة، ص16.

والنجماء وعلم الكلام واللغة والفقه.¹¹¹⁷ كما كان أديبا شاعرا ينظم الشعر. وقد حفظت لنا المصادر قصيدة بحث فيها الطلبة على العلم واستهلها بقوله:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا وليلهم بشموس العلم قد نارا
يحي به ذكرهم طول الزمان وقد يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
حتى وإن مات ذو علم وذو ورع إن كان في منهج الأبرار ما مارا¹

ومن نبغ في العلوم في البيت الرستمي أخت الإمام أفلاح التي عرفت ببراعتها في علم الحساب والفلك والتنجيم.¹¹¹⁸ كما كان الإمام أبو بكر بن أفلاح (258-261هـ) (871-874م) محبا للأدب والأشعار وأخبار الأولين.¹¹¹⁹ كما بلغ الإمام أبو اليقظان محمد بن أفلاح (261-281هـ) (874-894م) مبلغا عظيما في العلم حتى إن نفوسة الساكنة بتاهرت كانت تجعل باب داره كالمسجد منهم من يقرأ القرآن، ومنهم من يصلي، ومنهم من كان يتحدث في فنون العلم. وقد ألف هذا الإمام العديد من الكتب منها موسوعة في «الاستطاعة» تتكون من أربعين كتابا، بالإضافة إلى كتب أخرى ألفها في الرد على المخالفين.¹¹²⁰

وقد انعكس تشجيع الأئمة للنشاط الفكري والعلمي على الجهة الشرقية للإمامة حيث عرف جبل نفوسة نشاطا علميا وفكريا مزدهرا، فانتشرت حلقات الدرس في مختلف قرى الجبل، وبرز العديد من العلماء الذين ذاع صيتهم في المشرق والمغرب فألفوا الكتب خاصة في العلوم الشرعية يقول الشماخي: «إن جبل نفوسة احتوى على الكرامات وعلى كثرة الصالحين والعلماء ما لا يوجد بغيره، وذكر أن بعض الأئمة لا تحتاج فيه قرية إلى قرية للفتيا إلا «إجناون» و«ويغو» و«تندميرة» لا تحتاج دار إلى دار».¹¹²¹

2 - النهضة العلمية بالجبل:

أ - حلقات العلم:

يرجع تاريخ الحركة العلمية في جبل نفوسة إلى العقد الأول من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) حين قدم سلمة بن سعد إلى بلاد المغرب داعيا سكانه إلى

1117 - الشماخي: السير، ص193 و222.

عثرنا بالمكتبة البارونية بجربة على مخطوط عنوانه «جوابات الإمام أفلاح» يجيب فيها عن أسئلة وردت إليه، منها جواب مرسل لشخص يدعى «البشير بن محمد».

1118 - الباروني: رسالة سلم العامة، ص16؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، ص489.

1119 - ابن الصغير: أخبار الأئمة، ص1؛ الحارثي: العقود الفضية، ص244.

1120 - الشماخي: السير، ص222؛ الباروني: المرجع السابق، ص14-15.

1121 - ينظر: المصدر السابق، ص545.

الأخذ بالمذهب الإباضي. وقد مر بنا أن سلمة هذا أرسل محمد بن عبد الحميد مغطير النفوسي الجناوني إلى البصرة لأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة. ولما عاد أصبح مفتيا. ويقال إنه أول من جمع القرآن كله في الجبل وحفظه.¹¹²² ثم أرسل سلمة بعثة علمية أخرى تكونت من: عبد الرحمن بن رستم. وأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري. وعاصم السدراتي. وأبي داود القبلي النفزاوي وإسماعيل بن درار الغدامسي. وهي البعثة التي أصبح أصحابها يعرفون بـ «حملة العلم المغاربة». ولم تمض مدة زمنية طويلة بعد عودتها حتى برز العديد من العلماء الذين تلقوا عنهم العلم مثل أبي خليل الدركلي. عبد الوهاب بن عبد الرحمن. محمد بن يانس. وعمرو بن يكتن. وتذكر المصادر أن هذا الأخير يعد أول من أسس حلقة الدرس في منطقة طرابلس حيث كان يمر القادمون من المشرق فكان يكتب عنهم لوحة من القرآن. ويعود إلى أهله فإذا حفظها عاد مرة أخرى إلى قارة الطريق ليكتب غيرها. وظل على هذه الحال إلى أن حفظ القرآن كله.¹¹²³ ويعود هذا الفضل في تكوين أول مدرسة لتعليم القرآن ومبادئ المذهب الإباضي في قرية «إيفاطمان» بالجبل.¹¹²⁴ ولاشك أن هذه المدرسة التي كانت ملتقى للعلماء والطلبة وفاحة لخلقات أخرى نظمت في مناطق متعددة بالجبل. مما كان لها الفضل الكبير في نشر المذهب الإباضي في هذه الربوع.¹¹²⁵

ولما قامت الدولة الرستمية في تاهرت (160-296هـ) انتقل العديد من رجال نفوسة إلى عاصمة الإمامة للتعليم على يدي الأئمة الذين نبغوا في مختلف فنون العلوم. فقد سافر كل من سعد بن أبي يونس. ووسيم بن سعيد. ونفاث بن نصر النفوسي إلى تاهرت للتعليم عند الإمام أفلح بن عبد الوهاب (211-258هـ) (826-871م). ولما بلغا من العلوم مبلغا عظيما عادا إلى بلدهما.¹¹²⁶

وبدأت الحلقات العلمية تنتشر تدريجيا وفي كل قرى الجبل مثل «جادو. شروس. لالت. تندميرة. إجانوان. إبدلان. قطرس. إيفطمان ونويرف. تميجار. إحيطال ويغو. وميري» وغيرها. ولاقت هذه الحلقات إقبالا كبيرا من التلاميذ والطلبة. فمنها تخرج أشهر العلماء النفوسيين وغير النفوسيين. فلا غرابة أن يتعجب الإمام عبد الوهاب عندما قدمت إليه

1122 - نفسه، ص143؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص251.
1123 - ابن سلام: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، ص149؛ الشماخي: السير، ص142-143؛ عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص137؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص277؛ موسى لقبال: المغرب الإسلامي، ص166.
1124 - الشماخي: المصدر نفسه، ص142؛ لقبال: المرجع نفسه والصفحة ذاتها؛ بحاز: المرجع نفسه، ص278.
1125 - بحاز: المرجع نفسه، ص277؛ عوض خليفات: المرجع السابق، ص137.
1126 - الشماخي: المصدر السابق، ص214.

جماعة منهم «لكثرة علمهم، وشدة ورعهم، ورزانة أحلامهم».¹¹²⁷ واستنجد بهم في حربه مع الواصلية في أحواز تاهرت.

وقد شجع العلماء القائمون على شؤون الحلقة التلاميذ للالتحاق بحلقاتهم، فكثرت أعدادهم حتى إن حلقة علمية انتظمت ببلاد «أدرج» بالجبل بلغ تعداد تلاميذها نحو ثلاثمائة تلميذ يقرؤون العلوم والسير.¹¹²⁸ كما أن مدينة «شروس» أم قرى الجبل شهدت العديد من حلقات الدرس. فقد كان شيوخ أهل «تمنكرت» يجتمعون بشيخ من أهل شروس لا تذكر المصادر اسمه كل يوم جمعة في مسجد «أجلمم» يتذكرون ويتناقشون في أمور دينهم.¹¹²⁹ كما كانت للعالم «عبود الكزيني» حلقة علمية أمها التلاميذ من مختلف الجهات.¹¹³⁰ ويبدو أن هذه الحلقات العلمية كانت تضم مختلف المذاهب. فقد ذكرت المصادر أن جماعة اجتمعت في مكان يسمى «تنين أودرشل» (تنين إن دركل) لطلب العلم منهم أبو نصر التميمي، نفاث بن نصر، عمرو بن فتح ومهدي النفوسي.¹¹³¹

وكانت أغلب هذه الحلقات تتم في المساجد المنتشرة في الجبل. وقد حرص العلماء والمشائخ على بناء المساجد وتعميرها إذ كان أغلب العلماء يتخذون مصليات خاصة لهم يتعبدون فيها.¹¹³² وقد ذكرت السير أن أبا المنيب محمد بن يانس كان له سبعة مساجد، بعضها في الجبل، وبعضها في السهل. كان ينتقل إليها يوميا للصلاة.¹¹³³ ومن المحتمل أن دروسا كانت تنظم في هذه المساجد حرص أبو المنيب على حضورها. ويرى الأستاذ بحاز أنه من المحتمل أن تكون ملحقات لهذه المساجد استعملت لتعليم المبتدئين.¹¹³⁴ ولما أقام الإمام عبد الوهاب (171-211هـ) (787-826م) بجبل نفوسة ينتظر قدوم موفده بالفتوى من المشرق فيما يخص حجه ظل لمدة سبع سنوات بمسجده بقرية «ميري» ببني زمرور يعلم النفوسيين مسائل الصلاة. وانقضت هذه المدة دون أن يكمل هذه المسائل لتعمقه فيها. ويحتمل أن عبد الوهاب ألقى دروسا أخرى في المسجد المعروف باسمه

1127 - الشماخي: المصدر نفسه، ص171.
1128 - الوسياني: سير مشائخ المغرب، (تحقيق: إسماعيل العربي)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص29؛ الدرجيني: الطبقات، ج2، ص373.
1129 - الشماخي: السير، ص326.
1130 - المصدر نفسه والصفحة ذاتها.
1131 - نفسه، ص170-328.
1132 - عن أسماء هذه المصليات والمساجد وأمكناتها ينظر: الشماخي: المصدر نفسه، ص598 وما بعدها؛ R.: 365-Basset: Les Sanctuaires dudjebel Neffussa, p361.
1133 - الشماخي: المصدر نفسه، ص170؛ الدرجيني: الطبقات، ج2، ص298.
1134 - ينظر: الدولة الرستمية، ص278.

شجرتين. أما تلاميذ أبي الربيع سليمان بن يخلف بالجزيرة فقد بنوا عريشا عند عيون «تمولسة» يجتمعون فيه مع شيخهم.¹¹⁴⁷

وتشير الروايات إلى أن العلماء كانوا في ترحال دائم ينتقلون بين مواطن إخوانهم في الجبل وغيرها من المواطن للحفاظ على سير أهل الدعوة. فكانوا يعلمون التلاميذ والطلبة خاصة يوم الجمعة حيث كانوا «يختلفون بين سائر وراجع مثل النمل. وتبيض الجبال من كثرتهم».¹¹⁴⁸

ولعل أول عالم سن هذه السنة الحميدة عاصم السدراتي - أحد حملة العلم المغاربة - حيث كان يركب ناقته ويتجول بين الأحياء يعلم الناس في مواطنهم. ويبين لهم أحكام الدين. فكان يتوجه إلى قرية «تيفيت» قرب نالوت فيقيم بها أياما ثم يمر على «تيفست» وأدرج (درج) ثم غدامس. ومنها يتوجه إلى مواطن سدراتة في جبل أوراس. وقد اتخذ في طريقه العديد من المصليات. كان يلقي فيها دروس الوعظ والإرشاد والنصح. وتذكر الروايات أنه من كثرة ترحاله وجواله بين مواطن الإباضية نسجت حول ناقته العديد من الأقاصيص. ويرجع الفضل إلى عاصم في تكوين أول طبقة من العلماء الذين اشتهروا فيما بعد في الجبل كأيوب بن العباس وأبي مرداس مهاصر وأبي الحسن الأبدلاني وغيرهم كثير.¹¹⁴⁹

وقد اشتهر مشايخ بعض القرى. دون الأخرى بكثرة الاجتماع والتزاور مثل مشايخ قرية «ولون».¹¹⁵⁰ وكان هؤلاء المشايخ يحثون الطلبة على التعلم والتفقه في الدين. ففي السير أن أبا خليل صال الدركلي أحد علماء الطبقة الخامسة (٢٠٠-٢٥٠م) كان يحرض تلاميذه على المواظبة على حضور حلقات الدرس بقوله: «سيروا إلى الحلقة واقصدها حيثما كانت يا كسالى فإن رجلا قد سار من الجبل إلى فزان وإلى غدامس وإلى الساحل رغبة في الحلقة وفيما يستفيده».¹¹⁵¹ ولذلك انتظمت حلقات عديدة ما بين فزان وقابس وبين الجبل وتاهرت، التحق بها الطلبة من مختلف الأصقاع للتفقه في الأصول، والفروع، والسير، وعلوم الشريعة، واللغة العربية، وآراء الفرق والمذاهب الأخرى.¹¹⁵²

ولم يستقر العلماء في مكان محدد بل كانوا ينتقلون من المغرب الأوسط إلى إفريقية.

1147 - الدرجيني: المصدر السابق، ج 1، ص 193.

1148 - الشماخي: السير، ص 301.

1149 - علي يحي معمر: الإباضية في الجزائر، ص 130-131؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص 283-284.

1150 - الشماخي: المصدر السابق، ص 301.

1151 - الدرجيني: الطبقات، ج 2، ص 299-301.

1152 - بحاز: الدولة الرستمية، ص 285.

الذي بني في جبل دمر. ومصلاه بقرية «تيطاوين» ومصلاه بقرية «تلات».¹¹³⁵

كما كانت لأبي هارون التملوشائي حلقة علمية في قرية «إجناون» ثم انتقل إلى «إبناين» عندما ولي الأمور فبنى مسجدا أصبح «كهفا ومأوى لأهل الإسلام».¹¹³⁶ وبالإضافة إلى المساجد كانت الحلقات العلمية تقام في المنازل مثل «دار بني عبد الله» وهي دار أبي محمد الدرفي الذي كان حاكما للجبل.¹¹³⁷ وكان يحضر مجلسه ليلا العلامة أبو يوسف وجدليش.¹¹³⁸ كما كان منزل أبي ذر أبان وسيم قبلة لطالبي العلم من الرجال والنساء.¹¹³⁹ ومنزل أبي هارون الجلالي الذي يعد من مشاهير المشايخ بالجبل، وأغزرهم علما. إذ ظل ثلاثين سنة يتعلم على يدي أبي القاسم الأصول والحجة والمناظرة. فهو الذي قال فيه ابن ماطوس: «لو علم الناس ما ينفعهم لآزدهموا عند باب داره كما يزدحمون عند دار أبي عبدة بالبصرة».¹¹⁴⁰ كما اتخذ عمر بن مكتن داره في إفاطمان مدرسة لتعليم الصبيان القرآن الكريم.¹¹⁴¹

وقد اتخذ العلماء الغيران¹¹⁴² كمراكز خاصة بعد أن دخل أتباع المذهب الإباضي في السرية بالعودة مرة أخرى إلى إمامة الكتمان بعد إنقراض الإمامة الرستمية سنة 296هـ (909/908م). مثل غار «أجلو» الشرقية بالمغرب الأوسط.¹¹⁴³ وغار «تين يسلى».¹¹⁴⁴ وغيران «بني أجاج» بجرية.¹¹⁴⁵ ونظمت الحلقات العلمية بالخير لأنه من عادة العزابة إذا انتقلوا إلى البادية يطوفون بين الأحياء يتفقدون أحوال أهل الدعوة الدينية والدينية «بنو لهم خيمة فيكونون في عزهم مجتهدين».¹¹⁴⁶ وكانت الحلقات تقام في الهواء الطلق خاصة في الربيع. ففي جربة مثلا كانت حلقتان في موضع يسمى «يأتيجان» تحت

1135 - الشماخي: السير، ص 158-159؛ الباروني: الأزهار، ج 2، ص 190 وما بعدها.

1136 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 301.

1137 - نفسه، ص 305.

1138 - نفسه، ص 333.

1139 - الدرجيني: الطبقات، ج 2، ص 301-303؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص 215-217؛ علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص 113-116؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص 286.

1140 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 278؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص 161.

1141 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 142؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص 278؛ لقبال: المغرب الإسلامي، ص 166.

1142 - جرت العادة أن يتخذ الإباضية الغيران كمراكز للتدريس. فقد كان إمام المذهب أبو عبدة مسلم يعلم تلاميذه وطلبته في سرداب في مدينة البصرة. وقد سبق الذكر أن حملة العلم المغاربة تخرجوا من حلقاته. ينظر: أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 36.

1143 - الشماخي: المصدر السابق، ص 391.

1144 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 255.

1145 - الدرجيني: طبقات المشايخ، ج 2، ص 289.

1146 - الوسياني: السير (مخ)، ج 2، و 77.

أو إلى الجبل والعكس صحيح. فالعالم أبو نوح مثلاً أنشأ حلقة في وارجلان. ثم انتقل إلى أماكن أخرى في بلاد المغرب. واستقر به المقام أخيراً في زويلة.¹¹⁵³ وهذا عالم نفوسي يدعى أبا يـخلف استقر بجربة. وكان متقناً لمسائل الحيض فمتى وردت مسألة من هذه المسائل على عالم جربة أبي صالح بكر بن قاسم رفعها إلى أبي يـخلف ليتكلم فيها.¹¹⁵⁴ كما كانت عادة أبي الخير توزيع الزواحي التردد بين الجبل وبين زواغة طالعا نازلاً.¹¹⁵⁵

وكان في أغلب الأحيان يرافق التلاميذ والطلبة شيوخهم أينما حركوا. فقد كانت لأبي ميمون الإيجطالي (من علماء الطبقة الخامسة) (200-250هـ) حلقة من الطلبة ترافقه من مكان إلى آخر.¹¹⁵⁶ كما كان جليدين البغطوري يرحل بتلاميذه إلى قرية «إتلجام» قاصدا العلامة أبا يعقوب فيمكنون عنده شهراً.¹¹⁵⁷ وقد سن علماء المذهب سنة حافظ عليها أتباع المذهب منذ القدم وتمثل في خروجهم إلى البادية خاصة في فصل الربيع للترويح عن النفس ونشر العلم والفضيلة بين سكانها. فقد خرج أبو القاسم وأبو خزر في سنة من السنين إلى البادية ليعلمها سكانها «ما جهلوا من فهم أمور دينهم».¹¹⁵⁸ ويذكرانهم ما نسوا. ويتفقون أحوالهم لئلا يضلوا عن طريق السلف الصالح. ومن أجل ذلك انتشر إثنان وثلاثون عالماً من علماء المذهب بالبادية ليكتفوا بالحلقات العلمية.¹¹⁵⁹

وتجدر الإشارة إلى أن هناك حلقات علمية تنظم في الجبل يحضرها المشايخ والعلماء فقط للنظر في أمور أهل الدعوة. فقد روت السير أن العالم أبا القاسم سدرات بن الحسن البغطوري النفوسي - وهو من الناجين من موقعة مانو - كان يسير في كل ليلة من بغطورة¹¹⁶⁰ إلى «ويغو» التي اشتهرت بحلقاتها رغم بعد المسافة فيحضر المجلس ثم يعود بعد انقضائه. ويعد أبو القاسم هذا من العلماء الذين أنقذوا المذهب بعد «مانو» إذ أباد الأغالبة حوالي أربع مائة عالم من نفوسة. فجلس يفتي ثلاثة أيام بلياليها. وقيل يوم وليلة نظراً لقلّة العلماء. وظل يعلم بعد الموقعة ثلاثين سنة إلى أن توفي عن عمر يناهز مائة وعشرين سنة.¹¹⁶¹

1153 - الشماخي: السير، ص361؛ عوض خليفات: النظم، ص24.

1154 - الوسياني: السير (مخ)، ج2، و16؛ الدرجيني: طبقات المشايخ، ج2، ص358.

1155 - الشماخي: المصدر السابق، ص377؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص150.

1156 - الوسياني: المصدر السابق، ج2، و14؛ الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص294-296؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص284.

1157 - الشماخي: المصدر السابق، ص329.

1158 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص121؛ خليفات: النظم، ص23.

1159 - الشماخي: المصدر السابق، ص381.

1160 - تسمى كذلك «بقطورة» لأن الغين تنطق قافاً لدى بعض قبائل الجبل.

1161 - الشماخي: المصدر السابق، ص235.

وكان أبو حسان خيران بن ملال الفرسطائي ينتقل بين المنازل لإحياء الدين وتعليم الجهال. فكان يغيب مدة طويلة عن أهله. وكانت مجالسه تؤمها العجائز والنساء والطلبة.¹¹⁶² ولم تقتصر المجالس على الحواضر الكبرى بل انتشرت في كل قرية وفي كل حي. ففي قرية «فرسطا» كان يجلس لأبي الخير الأرجاني. وأبي يحيى الفرسطائي. وأبي محمد الكباوي.¹¹⁶³ وفي «تاغرويت» اجتمع سبعون شيخاً من أصحاب القلنسوات حسب تعبیر الشماخي.¹¹⁶⁴ ومن الحلقات التي كانت تعقد في «تنين» و«تماوطت» تخرج العديد من العلماء منهم أبو سعيد يخلفتن النفوسي.¹¹⁶⁵

ب - تمويل طلبة العلم والانفاق عليهم:

ما شجع العلماء وطلبتهم على التجوال بين أهل المذهب هو أن المشايخ كانوا يتبرعون للانفاق على الطلبة وعلى العزابة الذين كرسوا حياتهم لنشر الدعوة وإحياء الدين. ففي زمن أبي نوح سعيد بن زنگيل (الطبقة الثامنة 350-400هـ) أحضر المشايخ سراويل مملوءة بالدرهم لتوزع على سائر العزابة على قدر ما يرون لكل واحد منهم.¹¹⁶⁶ كما كان العلماء ينفقون على الطلبة من مالهم الخاص. فقد كان أبو عبد الله محمد سليمان النفوسي (من علماء الطبقة التاسعة 400-450هـ) من وسع الله عليه في العلم والمال. فكان يعلم التلاميذ ويطعمهم ويكسيهم من ماله الخاص. فإذا أقبل الشتاء اشترى لهم أكسية جديدة فيها دفاء. وإذا أقبل الصيف اشترى لهم ما يخف لبسه.¹¹⁶⁷ وكان أبو القاسم يزيد بن مخلد هو الآخر ينفق على طلبته تشجيعاً لهم على الاستمرار في ملازمة الحلقة فهو القائل: «لو علمت مكان مسألة أستفيدها من فائتي بها لشددت إليها رحلي في مشرق أو مغرب ولا أخشى أن يعذبني الله إلا على الجهل».¹¹⁶⁸ كما كانت قبائل «زنزفة» ولماية، ومزاتة، وما يحيط بهم من القبائل يبذلون الجهد في مساعدة الطلبة بتقديم المعونة والهدايا لهم.¹¹⁶⁹ ولذلك نلاحظ أن الطلبة وحتى المشايخ كانوا يرحلون إلى حواضر أخرى للاستفادة من حلقاتها. فهذا أبو يحيى بن أبي القاسم الفرسطائي انتقل من فرسطاء إلى شروس للالتحاق بحلقة ابن

1162 - نفسه، ص309.

1163 - نفسه، ص165.

1164 - نفسه، ص296.

1165 - نفسه، ص480.

1166 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص357؛ الوسياني: سير مشايخ المغرب، ص66.

1167 - الدرجيني: طبقات المشايخ، ج2، ص418؛ الشماخي: المصدر السابق، ص406.

1168 - خليفات: النظم، ص22.

1169 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص193.

ماطوس (ط-7-300-350هـ) فلم يجد مسكنا يأويه حتى أنه قال: «ما أوسع شروس وما أضيقتها».¹¹⁷⁰

ج - التنافس العلمي:

ما يمكن ملاحظته من خلال النصوص أن حلقات الدرس لم تكن للوهبية فقط، بل حتى لإتباع الفرق الأخرى التي تخالفها في بعض المسائل الفقهية. فقد ذكرت السير أن نفاث بن نصر الذي خرج عن طاعة الإمام عبد الوهاب كانت له حلقة في «تنين إن دركل».¹¹⁷¹ ونعتقد أنه كانت للخلفية إتباع خلف بن السمع حلقات علمية يبينون فيها للناس آراءهم. وقد ساهم هذا الصراع الفكري في ازدهار الحركة الثقافية في الجبل. فألف الشيوخ العديد من الأسفار للرد على آراء مخالفيهم.

وتجدر الإشارة في هذا المضمار إلى أنه بعد ازدهار الحركة الثقافية وكثرة العلماء تخصص البعض منهم في مستوى معين من التدريس. فقد كان أبو يعقوب بن محمد بن بدر الدرفي (الطبقة العاشرة 450-500 هجري) يجلب العزابة إلى «أمسنان»، فيبتدئون عنده فيعلمهم السير والآداب. ثم ينتقلون إلى الشيخ محمد بن سدرين الوسياني فيقرؤون عنه الإعراب والنحو. ثم ينتقلون إلى أبي عبد الله محمد بن بكر فيعلمهم العلم والكلام والأصول والفقه.¹¹⁷²

3 - إرساء تقاليد الحلقة:

كانت الدروس التي تلقى في المساجد أغلبها دروس الوعظ والإرشاد وتعليم ما لا يسع المسلم جهله من أمور الدين. أما دروس المجالس فكانت كثيرة ومتنوعة منها: التفسير والحديث والفقه والأخلاق وعلوم العربية وسير السلف الصالح.¹¹⁷³ كما كانت كتب متداولة في هذه المجالس يقرؤها الطلبة خاصة كتب الفقه. وقد أبدى أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي رأيه في بعض هذه الكتب فقال: «من يدرس كتب اللقط كمن يهيل أنواع الثمر إلى غارته. وأن كتاب أبي غانم (مدونة أبي غانم الصفري) قد أوضح قول

1170 - الشماخي: السير، ص310.

1171 - الشماخي: المصدر نفسه، ص170.

1172 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص397؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص517؛ عمرو خليفة النامي: ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان، الأصالة، عدد42-43، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1977، ص22.

1173 - الدرجيني: المصدر نفسه، ج1، ص119؛ خليفات: النظم، ص22.

كل عالم من مشائخه.¹¹⁷⁴ وقد كانت أكثر مجالس أبي عبد الله محمد بن بكر في التحذير والتخويف».¹¹⁷⁵

وبعد العالم الجليل أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي من الأوائل الذين اهتموا بإقامة الحلقات العلمية بعد انقراض الإمامة الرستمية. وقد وضع تقاليد جديدة لنظام الحلقة لم تكن معروفة في السابق مثل استعماله «الخطبة والهجران» لأحد تلاميذه المدعو أبو عبدة وشق بسبب مسألة أفتى فيها.¹¹⁷⁶ وتعد الخطبة من أهم قواعد الحلقة التي أسسها مؤسس نظام العزابة في بداية القرن الخامس الهجري العالم أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي. والخطبة والهجران إذن هي عقوبة يعاقب بها التلميذ أو الطالب متى أجرم في قول أو عمل وأن الصلاح من الإباضية يهجره ولا يكلمونه ولا يحق له العودة إلى المجلس إلا إذا أعلن التوبة واستغفر. فإذا قبلت توبته عاد إلى الجماعة.¹¹⁷⁷ وتعد هذه الإجراءات الجديدة التي أدخلها على نظام الحلقة هي مقدمة لكل التنظيمات والتقاليد التي أسسها من جاء بعده. وقد ساهم كذلك تلميذاه أبو القاسم يزيد بن مخلد وأبو خزر يغلى بن زلتاف الوسيانيان اللذان عاشا في النصف الأول من القرن الرابع الهجري في تطوير نظام الحلقة. بحيث أصبحت لها سمات وملامح مميزة وقواعد ثابتة. حيث أجبر أبو القاسم تلامذته الحضور إلى الحلقة في أوقات معينة. وتناول الطعام جماعيا في وقت محدد. خاصة وأنه كان ينفق على تلامذته من ماله الخاص. ونجد أن أبا القاسم منع على طلبته الزواج فكان يقول لهم: «لأن يبلغني موت أحدكم أهون علي من أن يبلغني أنه تزوج». والغرض من ذلك رغبته في تفرغ التلاميذ للتحصيل العلمي والمعرفة. ومن التنظيمات الأخرى التي استحدثها أبو القاسم نوم الهجرة حيث كان يلزم تلاميذته النوم في أوقات معينة.¹¹⁷⁸

وبعد رحيل أبي القاسم إلى مصر صحبة المعز لدين الله الفاطمي قام أبو نوح بإدخال بعض الإضافات على التقاليد السابقة. وظهرت مصطلحات لم تكن مستعملة في السابق منها «ختمة الغداة وختمة العشاء». وظل الإباضية طيلة القرن الرابع الهجري «العاشر الميلادي» يقيمون الحلقات العلمية ويجتهدون في خلق نظام دقيق يحافظ على استمرار المذهب في مرحلة الكتمان. ولكنهم لم يتوصلوا إلى وضع نظام متكامل

1174 - الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص389.

1175 - الوسياني: سير مشائخ المغرب: (تحقيق: إسماعيل العربي)، ص47.

1176 - الشماخي: السير، ص382؛ عرض خليفات: النظم، ص20-21.

1177 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص177؛ صالح باجبة: الإباضية بالجريد، ص186.

1178 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص174؛ عوض خليفات: المرجع السابق، ص22.

الجوانب يطبق في مختلف المناطق التي يتواجد بها الإباضية. واستمر الوضع على هذه الحال إلى بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). عندما تمكن أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي من وضع نظام الحلقة. فهو «أول من ألهم سلوك الطريقة التي حفظ بها هذا المذهب فرسم المهمل وقيد الشارد»¹¹⁷⁹ فبعد أن درس عن الشيخ أبي زكريا فصيل بن أبي ميسور بن وجين اليراسني بجزيرة. وأبي نوح سعيد بن زنگيل. انتقل إلى مدينة القيروان لدراسة اللغة العربية والنحو. وظل بالقيروان يحضر دروس اللغويين والنحويين والبلاغيين حتى تمكن من اللغة العربية وفنونها. وانتقل إلى الحامة ببلاد الجريد ليدرس علم الفروع على يدي الشيخ أبي عمران موسى بن زكرياء. وفي تقيوس طلب منه زكريا ويونس بن الشيخ فصيل أن يرتب الحلقة فرفض. واشترط عليهم أن يبقوا معه دون أن يسألوهم مدة أربعة أشهر. ثم وقع اختياره على بلاد أريغ في صحراء المغرب الأوسط وارحل إليها رفقة طلبته. وكان في انتظارهم أبا القاسم يونس بن ويزكن الوليلي الذي هباً لهم غار في «تين يسلي» قرب أريغ وأصبح هذا الغار أول مقر لحلقة العزابة التي كونها أبو عبد الله سنة 409هـ وسمي الغار بالتسعى نسبة إلى تلك السنة.¹¹⁸⁰ وفي الأخير نقول إن الحلقات العلمية في الجبل قد أُنِجَت علماء أجلاء عجب الإمام عبد الوهاب من كثرة علمهم وشدة ورعهم عندما زارته جماعة منهم إلى تاهرت.¹¹⁸¹ ولا غرو أن يستنجد بهم الإمام عبد الوهاب لمناظرة واصلية تاهرت. وقد مر بنا أن مهديا النفوسي تكفل بالجدال والمناظرة. وأيوب بن العباس بالمبارزة ومحمد بن يانس بتفسير القرآن. وأبو الحسن الأبدلاني بالخلال والحرام.¹¹⁸² كما كثر العلماء في الجبل حتى غدا في عصر واحد إثني عشر شيخاً مستجاب الدعاء وهم: أبو مرداس مهاصر التبرستي. وأبو المنيب محمد بن يانس الدركلي. وأبو عامر التصراوي. وأبو الحسن الأبدلاني. وماطوس بن ماتوس الشروسي. وأبو مهاصر موسى بن جعفر. وهؤلاء من الجهة الغربية من الجبل أما الجهة الشرقية ناحية جادو فهم: أبو زكريا التوكيتي. وأبو عبدة عبد الحميد الجناوني. وأبو زيد المصغوري. وأبو يحيى تسكينت التارديتي. وأبو الشعثاء السنتوتي. وأبو يحيى الأصغوي.

1179 - الدرجيني: المصدر نفسه والجز ذاته. ص 167.

1180 - أبو عبد الله محمد بن بكر: سير الحلقة. نشر ضمن Annali Instituto Universitario Di Napoli, Nuova Serix 10 Napoli 1960, p10. أبو زكريا: كتاب السيرة. ص 252 وما بعدها: الدرجيني: المصدر السابق. ج 1. ص 167؛ معمر: الإباضية في الجزائر. ص 177-178؛ خليفات: النظم. ص 24-26.

1181 - الشماخي: السير. ص 171.

1182 - المصد نفسه. ص 155.

3 - العلوم والعلماء:

أ - العلوم:

كانت العلوم التي يتعلمها الطلبة في الحلقات والمجالس العلمية في أغلبها دينية. كالتفسير. والحديث. والفقه. أما بالنسبة للمبتدئين فعندما يلتحقون لأول مرة بالحلقة كانوا يحفظون ما تيسر لهم من سور القرآن الكريم. ويتلقون مبادئ اللغة العربية. فإذا تمكن التلميذ من ذلك انتقل إلى مستوى أعلى فيتوغل في علوم الفقه وعلوم العربية وأسابيل المناظرة.¹¹⁸³

وقد تخصصت بعض الجهات في فن من فنون العلم. فعندما أنقن أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي علم الأصول في الجبل انتقل إلى جزيرة ليتعلم بها علوم الفروع على فقهاء بني يراسن (بهراسن). وبجزيرة كون هو الآخر حلقة في علم الكلام من طلبة الجزيرة وغيرهم.¹¹⁸⁴ ولما تعلم أبو محمد ويسلان بن يعقوب الدمجي المراتي القرآن وحفظه رجع إلى علم الأصول والحجة والكلام فمكث فيه ستة عشر سنة على يدي أبي القاسم يزيد بن مخلد. ولما تمكن من علم الكلام انتقل إلى الجبل ليتعلم الفقه على علمائها. ظل فيه مدة سبع سنوات حتى بلغ مبلغاً عظيماً في العلوم وجمع ديواناً كبيراً دون فيه ما درسه من معارف ثم عاد إلى بلاده.¹¹⁸⁵

وقد أولى إباضية الجبل عناية خاصة بالتفسير لحاجتهم الماسة إليه في فهم القرآن الكريم. وقد برع فيه أبو المنيب محمد بن يانس الذي تكفل بعلم التفسير في مناظرة الواصلية في تاهرت.¹¹⁸⁶ كما اهتم النفوسيون بالفقه فأُنِجَت الجبل العديد من الفقهاء الذين تولوا الفتوى. وقد مر بنا أن الجبل في عصر من العصور كانت لا تحتاج فيه دار إلى دار أخرى في الفتوى. ومن اشتهر بذلك عبد الحميد بن مغطير الجناوني. حتى إن الإمام عبد الوهاب أثناء زيارته للجبل لم يفت ثلاثة أيام. وظل ينتظر قدوم ابن مغطير.¹¹⁸⁷ ولما حدثت النكسة في موقعة مانو لم يبق من العلماء الذين تولوا الإفتاء سوى أبي القاسم البغطوري.¹¹⁸⁸

1183 - بحاز: الدولة الرستمية. ص 293-294.

1184 - الدرجيني: الطبقات. ج 1. ص 191-193.

1185 - الوسياني: سير مشائخ المغرب. (تحقيق إسماعيل العربي). ص 18-19.

1186 - الشماخي: السير. ص 166؛ بحاز: الدولة الرستمية. ص 298-299.

1187 - الشماخي: المصدر نفسه. ص 144.

1188 - البغطوري: سير نفوسة. و 49.

أما فيما يخص علوم الحديث فإن الإباضية ظلوا يعتمدون على مؤلفات المشاركة. كديوان جابر بن زيد الذي نسخه نفاث بن نصر في بغداد.¹¹⁸⁹ وكتاب مختصر ابن محبوب الذي وصل منه جزء واحد فقط إلى الجبل - وهو الجزء السادس - على الرغم من أن الديوان يتألف من سبعين جزءاً.¹¹⁹⁰ وكتاب الخليل الصالح لمؤلف مجهول والذي كان المصدر المعتمد عليه عند أهل «أمسين» بالجبل.¹¹⁹¹ وآثار الربيع عن ضمام عن جابر رواية أبي صفرة¹¹⁹² عبد الملك بن صفرة. ومدونة أبي غانم الصفري التي نسخها عمرو بن فتح عندما قدم أبو غانم من المشرق زائراً.¹¹⁹³ وقد حاول علماء المذهب في الجبل تأليف الكتب في علوم الحديث. مثل عمرو بن فتح الذي عزم على «أن يعلق تأليفاً في الفقه لم يسبق في طريقته عزم أن يفرق العلم إلى ثلاثة أوجه: التنزيل. والسنة. والرأي. وما يتعلق بكل واحد منها من المسائل فيرتب كل باب من أبوابه. ويبينه على القواعد الثلاثة».¹¹⁹⁴

كما أولى النفوسيون عناية خاصة بعلم الكلام. والتفنن في أساليب الرد والجواب نظراً لوجود خلافات وتباين في الآراء في بعض المسائل بين أتباع المذهب الواحد. فظهرت النكارية. والخلفية. والنفاثية. والفريضة. والنفوسية. أو التميزنية أصحاب أبي يونس وسيم النفوسي التميزني. بالإضافة إلى الواصية والشيعة. ولذلك فإن الحركة الثقافية امتازت بكثرة الجدل. والمناظرة. فتعددت مجالس المناظرة. وكثرت المؤلفات في هذا الصنف من العلوم. وأقبل الطلبة على حلقات علم الكلام. وتخصص العديد من العلماء فيه. كمهدي النفوسي. وأبي نوح سعيد بن زنگيل الذي يصفه الدرجيني بقوله: «كان عالماً بفنون المناظرات والرد على أصحاب المقالات».¹¹⁹⁵ كما كرس أبو نصر التميمي حياته لمناظرة النفاثية. فقد دار في الجبل أربعين مرة يحذر الناس من فتنة نفاث وقيل من فتنة خلف.¹¹⁹⁶ وتذكر السير أن أبا محمد عبد الله بن مانوح (من علماء الطبقة التاسعة 400-450هـ) قال: «ندمت على ثلاث فانتني من الدنيا قراءة كتاب الجهالات وهو كتاب في الكلام عظيم الشأن. وزيارة أهل الدعوة. وحضور مجالس أبي عمران موسى بن زكريا».¹¹⁹⁷

1189 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 141.

1190 - الوسياني: السير (مخ)، ج 2، و 16.

1191 - الشماخي: السير، ص 235.

1192 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 405.

1193 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 2، ص 323؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص 137-138.

1194 - الدرجيني: المصدر نفسه والجزء ذاته، ص 320-321.

1195 - المصدر السابق، ج 1، ص 147.

1196 - الشماخي: السير، ص 202.

1197 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 401.

وظل علماء الوهبة في الفترة التي نؤرخ لها يحتاجون الفرق المخالفة. فقد كان عمرو بن فتح من الذين تصدروا لنفاث بن نصر رفقة مهدي النفوسي الذي اشتهر أنه كان «أحد من صد مكاييد نفاث بن نصر النفوسي. ومنع انتشار بدعه في الآفاق».¹¹⁹⁸

أما في العلوم التطبيقية - كالطب مثلاً - لا تفيد مصادرها بأسماء أطباء نفوسيين. ويبدو أن عددهم كان ضئيلاً جداً اللهم ورود بعض لإشارات منها أن نفوسياً أرسل في طلب دواء العيون من السودان.¹¹⁹⁹ وآخر طلب دواء الريح.¹²⁰⁰ ويبدو - كما قال الأستاذ بحاز - أن أغلب الأطباء في الدولة الرستمية كانوا من اليهود والنصارى.¹²⁰¹ ونحن كذلك لا نستبعد ذلك خاصة وأن اليهود كانوا متواجدين بكثرة في الجبل.

وفيما يخص علم الحساب والفلك والتنجيم فقد برع عدد قليل من النفوسيين في هذا الميدان. فالمصادر تذكر مثلاً أن أبا يحيى بن أبي محمد الدرقي كان متفنناً في العلوم عارفاً بالنجوم.¹²⁰² وأن أبا أيوب التمكنرتي كان هو الآخر متضلعا في علم النجوم.¹²⁰³

وأما العلوم العربية فإن النفوسيين لم يضعوها ضمن أولوياتهم العلمية إذ صبوا كل اهتماماتهم - كما قلنا - على العلوم الدينية. وعلى الرغم من ذلك فقد ترك لنا شيوخ الجبل بعض الخطب والرسائل كالخطبة التي ألقاها أبو الخطاب المعافري على سكان طرابلس يحثهم فيها على الجهاد وقتال قبيلة «ورفجومة» وإخراجها من القيروان بسبب المناكر التي ارتكبتها بها. فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: «أطمع لمن مات في هذه الغزوة الجنة. إلا من فيه إحدى ثلاث خصال قاتل نفس ظلمها. وقاعد على فراش حرام. ومن في يده أرض مغصوبة. والمخرج منها أن يتبرأ من المرأة ويتوب إلى الله ويتبرأ من الأرض. وليشهد على تركها. ولتعد نفس القاتل لأولياء المقتول. فإن لم يجدهم فليدفع نفسه في سبيل الله».¹²⁰⁴

وفي فن الرسائل حفظت لنا المصادر نص رسالة بعث بها أبو منصور إلياس التميمي في عامل الإمام أبي اليقظان على الجبل إلى العباس بن طولون يقول له فيها: «أما أنك أقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي. فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعني التخلف

1198 - نفسه، ص 170.

1199 - الوسياني: السير (مخ)، ج 2، و 4؛ الدرجيني: طبقات المشائخ، ج 2، ص 327.

1200 - الشماخي: المصدر السابق، ص 190.

1201 - بحاز: الدولة الرستمية، ص 373.

1202 - الشماخي: المصدر السابق، ص 286.

1203 - نفسه، ص 326.

1204 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 128؛ صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح، ص 269.

معه عن جهادك. وأنا على إثر رسالتي (آت) إليك».¹²⁰⁵

وتؤكد المصادر على أن النفوسيين اهتموا بالأدب. فقد كان أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي من برع في الأدب وعلم اللسان.¹²⁰⁶ وكان أبو القاسم وأبو خزر يعلمان الطلبة علوم العربية بالإضافة إلى العلوم الأخرى.¹²⁰⁷ في حين أن محمد بن سدرين الوسياني كان يكثر في حلقاته من دروس النحو.¹²⁰⁸

واهتم النفوسيون كغيرهم من الإباضية بكتابة الأشعار باللغة البربرية. منها أشعار وضعها مهدي النفوسي باللسان البربري ليتناقلها البربر.¹²⁰⁹ ومواعظ كتبها أبو ميدول مصكداسن.¹²¹⁰ وأشعار في الحساب والقبر والموت أنشدتها امرأة صاحبة تدعى «زيدت بنت عبد الله الملوثنائي».¹²¹¹ وأشعار لمنزو بنت عثمان المزاتي.¹²¹² وتجدر الإشارة إلى أن البربرية كانت تستعمل بكثرة في المجالس خاصة مجالس الوعظ والإرشاد لأن عزلة الجبل جعلت سكانه لا يتقنون اللغة العربية. كما أن كتب السير احتوت على العديد من الفقرات المكتوبة بالبربرية. ورغم ذلك فإن العلماء كانوا يشجعون الناس دوماً على تعلم اللغة العربية. فقد رويت السير أن أبا عمران موسى بن زكريا - أحد العلماء الذين ألفوا ديوان الأشياخ - قال: «إن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من الفروع. وتعلم مسألة من الفروع كعبادة ستين سنة. ومن حمل كتاباً إلى بلده لم يكن فيه فكأنما تصدق بألف حمل دقيقاً على أهل البلد».¹²¹³

ب - العلماء:

لا نبالغ إذا قلنا إن الجبل امتلأ بالعلماء حتى إنه يصعب على الباحث أن يفهم حقهم من الدراسة. ذلك أن الحركة الثقافية التي عمته أثمرت في ميلاد العديد أو بالأحرى الآلاف من العلماء الذين ذاع صيتهم مشرقاً ومغرباً. وإذا كانت موقعة مانو يعدها أهل المذهب ضربة قاضية تعرضت لها نفوسة والثقافة عموماً. إلا أن إصرار من لجوا - وهم لا يتعدون أصابع اليد - على استمرار المذهب مكنهم من تكوين جيل آخر من العلماء.

1205 - الباروني: الأزهار، ج2، ص318؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج3، ص166-167.

1206 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج1، ص119.

1207 - المصدر السابق، ص120.

1208 - نفسه، ج2، ص397؛ الشماخي: السير، ص517.

1209 - الدرجيني: المصدر نفسه، ج2، ص314؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص343.

1210 - الشماخي: المصدر السابق، ص409.

1211 - المصدر نفسه، ص317؛ معجم أعلام الإباضية، ج3، ص335.

1212 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص310-311.

1213 - الشماخي: السير، ص402؛ دبور: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص397-398.

وذلك بتكثيف الحلقات العلمية حتى إننا لا نجد قرية أو مدينة أو بطن من بطون نفوسة لا ينتسب إليها مجموعة من العلماء. أضف إلى ذلك أن التنافس العلمي والثقافي بين القرى والمدن كان سبباً في إنعاش الحياة الثقافية، وما دام أنه من الصعب التعريف بجميع علماء المذهب. فإننا سنكتفي بالحديث عن أشهرهم خاصة الذين جمعوا بين العلم والحكم، والذين كانوا من مستجيبين الدعاء كما تقول المصادر.

ومن بين العلماء الذين عاشوا في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) أبو الحسن الأبدلاني، فهو أحد الإثنى عشر الذين اشتهروا بإجابة الدعاء¹²¹⁴ في عصر واحد بالجبل. وهو الذي سافر إلى تيهرت ضمن وفد نفوسة لنصرة الإمام في حربه مع الواصلية. وعرف أبو الحسن بقوته وشجاعته في الحروب. فقد شارك في المعركة التي دارت في الجبل في مكان يسمى «فاغيس». بين أفلح بن العباس - عامل الإمامة - وبين أتباع خلف بن السمح. وفيها قال أبو مرداس مهاضر: «لا أخاف على عسكر فيه أبو الحسن الأبدلاني».¹²¹⁵

وبعد أبو مرداس السدراتي من العلماء الذين بلغوا مبلغاً عظيماً في العلم. كان يسكن قرية «تبرست» بالجبل عرف بتعبده. حيث كان له كهف خصصه للعبادة. كما اشتهر بشدته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبكرمه حيث كان ينفق ماله على الضعفاء خاصة في الشدائد. وقد سبق الذكر أنه كان يجلس على طريق رجوع الخدم من أعمالهم ليتصدق عليهم بالأكل. عاش أبو مرداس في إمامة عبد الوهاب (171-211هـ) (787-826م). وعاصر أيوب بن العباس. وأبا عبيدة عبد الحميد الجناوني، والعباس بن أيوب. عمال الإمام على الجبل. عمّر أبو مرداس طويلاً حتى إنه كان يجر سيفه وهو منحني إذا مشى أمام الجيوش أثناء القتال. تولى الفتيا في الجبل وبلغت شهرته الآفاق. فقد رويت السير أن أهل المشرق عندما قدموا زائرين إلى تاهرت اختاروا من تاهرت الإمام ووزيره من أهل الجبل أبا مرداس. وأبا زكريا التوكيتي. والعباس بن أيوب. وكان الإمام عبد الوهاب يقدره ويحترمه حتى إنه إذا دخل عليه قام له إجلالاً وتقديراً له. وقد سبقت الإشارة أن أبا مرداس كان يسافر كثيراً إلى تاهرت بوصايا أهل الدعوة من الجبل لنفع بيت المال.¹²¹⁶

1214 - عدت المصادر هؤلاء فهم: أبو مرداس مهاضر. أبو عامر التصراري أبو المنيب محمد بن يانس. ماطوس بن ماطوس الشروسي. أبو مهاضر الفاطمي. أبو الشعثاء السنتوني. أبو يحيى الأصغوي. أبو يحيى تسكنيت. أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني. أبو زيد المصغوري (البصغوري). أبو زكريا التوكيتي. ينظر: الشماخي: السير، ص172.

1215 - المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

1216 - للمزيد من سيرته ينظر: الشماخي: السير، ص172-178؛ البغطوري: سير نفوسة، و17-18.

أما أبو زكريا يصلتن التوكيتي فهو أحد العلماء الأجلاء الذين أجبته نفوسة. قال فيه أحد المشاركة الذين مروا بالجبل في طريقهم إلى حاضرة الإمامة «تاهرت» بأن «الجبل هو أبو زكريا وأبو زكريا هو الجبل».¹²¹⁷ كان معاصرا لعامل الإمامة على الجبل العباس حيث خرج معه لقتال بني يفرن. كما كان يحضر رفقة أبي مهاصر مرداس مجلس الذكر عند أم الخطاب - إحدى العالمات المشهورات في الجبل - في «إغرم إينان» (أغرميمان).¹²¹⁸ واحتل أبو زكريا مكانة مرموقة حتى إنه عندما اعتذر أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني عن تولي الأمور بالجبل بسبب ضعفه أجابه الإمام عبد الوهاب بقوله: «إن كنت ضعيفا في البدن فأدخل في أمور المسلمين يقوي الله بدنك. وإن كنت ضعيفا في العلم فعليك بأبي زكريا يصلتن (يصلتن) التوكيتي».¹²¹⁹

ومن مشاهير الجبل العالم عمرو بن فتح فهو أعلم أهل زمانه فـ «لولا له لدر معلم المذهب وانظمس وعفر أثره واندرس».¹²²⁰ ينتمي عمرو إلى الطبقة السادسة (250-300هـ) ولد ونشأ في قرية «قطرس» الواقعة على ضفاف وادي «تالة» بالجبل. اهتم منذ صغره بدراسة الكتب حتى أصبح من كبار أئمة العلم والدين. فأقواله وفتاويه وآرائه تداولتها المصادر. وقد سبق الذكر أنه عزم على تأليف موسوعة علمية بين فيها الأحكام المستخرجة من القرآن والسنة والإجماع والقياس. ولكن موته حال دون إجازته لهذا العمل. وقد ذاع صيت هذا العالم بين الإباضية. فعندما طلب منه عبد الخالق الفزاني أن يؤلف له كتابا في الأصول أرسل إليه كتابه المعروف بـ «العمروسي». ولما درسه اعترف بأن عمرو أعز منه علما. ولما طلب منه العامل أبو منصور إلياس أن يتولى القضاء اشترط عليه عمرو قائلا: «إن لم تأذن لي بثلاثة يا إلياس فخذ خاتمك عني: قتل الطاعن في دين المسلمين. ومانع الحق. والدال على عورات المسلمين».¹²²¹ وتولى عمرو القضاء بعد قبول أبي منصور لهذا الشرط. ويعد عمرو أول من دون أقوال المتخاصمين. وهو ما نسميه اليوم بـ «محاضر التحقيق».¹²²² ذلك أن قافلة تجارية استولى عليها قطاع الطرق. فجاء أصحاب القافلة والقطاع إلى الجبل. ومثلا أمام عمرو لأن كليهما إدعى ملكية القافلة فعزل أصحاب القافلة على حدة وانفرد بكل واحد منهم ليسأله عن علامة متاعه. وكتب أقواله. وانفرد بالقطاع فسألهم الأسئلة نفسها. ثم أخرج

1217 - المصدر نفسه، ص178.

1218 - الشماخي: المصدر نفسه، ص178-179.

1219 - نفسه، ص182: أبو زكريا: كتاب السيرة، ص125.

1220 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص320.

1221 - الوسياني: السير (مخ)، ج2، ورقة 1.

1222 - علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص137-141.

ما في الأحمال. فوجد أقوال أصحاب القافلة تنطبق على ما كتبه حينئذ طلب من أبي منصور حبس القطاع.¹²²³

شارك عمرو في موقعة مانو الشهيرة. والتي أبلى فيها بلاء حسنا. إلى أن وقع في حيلة دبرها له جند الأغالبة. حيث ثبتوا له حبالا فتعثر فرسه. وأخذ أسيرا فعذب تعذبا شنيعا حيث قطعت يديه إلى المرفقين. رافضا ترك مذهبه وطلب العفو.¹²²⁴

ومن العلماء الذين نجوا من موقعة مانو أبو محمد عبد الله بن الخير التنوزيرفي. ولد في «تنوزيرف» بالجبل. تعلم على يدي العلامة أبي ذر أبان بن وسيم. حتى أصبح من العلماء الكبار الذين يضرب بهم المثل فقيل: «من ضيع كتاب كمن ضيع خمسة عشر عالما مثل عبد الله بن الخير». جلس بعد مانو للتدريس والفتوى كما تولى الأمور في الجبل. وقد عمر طويلا إذ توفي عن عمر يناهز مائة وعشرين سنة.¹²²⁵

أما أبان بن وسيم بن نصر الويغوي شيخ عبد الله بن الخير فقد تلقى العلم في كبره على يدي الشيخ أبي خليل صال الدركلي. تولى الحكم في الجبل بعد وفاة أفلح بن العباس في إمامة أفلح بن عبد الوهاب (211-258هـ) (826-871م). وكان إلى جانب تسيير دواليب الحكم يشتغل بالزراعة. وعرف عنه أنه كان فقيها حيث لا تخلو كتب الفقه من فتاويه. وقد فتح مدرسة في بيته لتعليم الفقه أقبل إليها الرجال والنساء. وتخرج على يديه مجموعة من العلماء منهم: أبو القاسم سدرات بن الحسن البغطوري. وأبو معروف ويدرن بن جواد. وابدين الفرسطائي. والعالمة زروغ الأرجانية.¹²²⁶

وعرف أبو ذر أبان بن وسيم بانتقاداته لسكان الجبل عن الحالة التي وصل إليها. فقد قال: «أدركنا الناس الذين همّ الناس. أحاديثهم ذكر الله. وزيارتهم في الله. ومعانقتهم بالمودة والصحبة والمحبة. وبقيت حتى صحبت أناسا أحاديثهم الدنيا. وزيارتهم الحوائج. ومعانقتهم بالنطاح».¹²²⁷ ولا يفوتنا أن نشير إلى أن لأبان مسائل كثيرة في الفقه.¹²²⁸

1223 - الوسياني: المصدر السابق. (مخ)، ج2، و1-2: الدرجيني: الطبقات، ج2، ص321-322: الشماخي: السير، ص226.

1224 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص153: الشماخي: المصدر نفسه، ص229: علي يحي معمر: الإباضية في ليبيا، ص142-143: الباروني: الأزهار، ج2، ص345: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص391.

1225 - الوسياني: السير (مخ)، ج2، و7: الشماخي: المصدر نفسه، ص236-237: علي يحي معمر: المرجع نفسه، ص147-150.

1226 - الدرجيني: الطبقات، ج2، ص301-303: الشماخي: المصدر نفسه، ص215-217: علي يحي معمر: المرجع نفسه، ص113-116: إبراهيم بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية (مخطوطة)، ج2، ص4.

1227 - الشماخي: المصدر نفسه، ص215.

1228 - نفسه، ص216.

ومن تلاميذ أبان نذكر أبا القاسم سدرات بن الحسن البغطوري الذي لجأ هو الآخر من موقعة مانو. لأنه كان شيخاً معمرًا فلم يشارك فيها. وتذكر المصادر أنه كان يسافر يومياً من بغطورة إلى ويغو ليصلي مع شيخه أبان. عاش أبو القاسم مائة وثلاثين سنة قضاها كلها في نشر العلم والفضيلة.¹²²⁹

وبالإضافة إلى هؤلاء نذكر أبا يحيى سليمان بن ماطوس الشروسي النفوسي الذي ينتمي إلى الطبقة السابعة. حسب تصنيف الدرجيني، أي من علماء النصف الأول للقرن الرابع الهجري (300-350هـ). كان أبو يحيى غزير العلم حيث وردت أقواله وفتاويه في مختلف المصادر. وانتشرت في مختلف مواطن الإباضية خاصة في زويلة. فتح هو الآخر مدرسة تخرج منها العديد من العلماء. رغم أنه تولى الحكم في الجبل باتفاق أهل الحل والعقد. وهو أحد الذين «انتعش بهم الدين وأحي بهم قلوب الجاهدين بعد مانو».¹²³⁰

ومن المعاصرين لأبي القاسم سدرات. نذكر أبا هارون موسى بن يونس الجلاملي. الذي اهتم هو الآخر بنشر العلم. وتشجيع الطلبة للإقبال على حلقات الدروس. فهو الذي قال فيه ابن ماطوس: «لو علم الناس ما ينفعهم لآزدهموا عند باب داره كما يزدحمون عند باب دار أبي عبيدة في البصرة».¹²³¹ تعلم أبو هارون على يدي أبي القاسم سدرات. فأتقن علوم الأصول والمنطق. أما الفقه فكان يسميه «علم العجائز». جمع أبو هارون بين العلم والمال فكان ينفق جزءاً من ماله على طلبته القادمين من كل مكان. ولا تخلو كتب الفقه و الأصول من فتاويه. وكتب علم الكلام من آرائه.¹²³²

أما أبو محمد خصيب بن إبراهيم التميمصي فقد عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). أخذ العلم عن أبي يحيى زكريا بن يونس الفرستائي. والربيع بن سليمان بن هارون اللالوتي. كانت له حلقة علمية في قريته «تمصص». تخرج فيها مجموعة من العلماء أمثال: أبي زكريا يحيى بن سفيان اللالوتي. وأبي هارون موسى بن هارون. أم ماطوس. وبعد وفاة أبي محمد الكباوي أصبحت الفتاوى توكل إليه.¹²³³

ومن العلماء الفطاحل الذين أحببتهم قرية «تملوشايت» بالجبل أبو الربيع سليمان بن موسى أبي هارون الملوثنائي الذي عاش في القرن الرابع الهجري. تعلم على يدي أبي زكريا يحيى بن سفيان اللالوتي. وأبي سهل البشر بن محمد التندميرتي. وأبي يوسف

1229 - الشماخي: المصدر نفسه، ص235؛ إبراهيم بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص343-344.

1230 - الشماخي: المصدر نفسه، ص276-278.

1231 - الشماخي: المصدر السابق، ص278.

1232 - نفسه، ص278؛ علي يحيى معمر: الإباضية من ليبيا، ص160-162.

1233 - الشماخي: المصدر نفسه، ص313-314؛ إبراهيم بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص271-272.

وجدليش. وغيرهم من العلماء الذين عاصروهم. كان أبو الربيع مفتياً. يلقي الدروس بمسجد «إينانين». ومن حلقاته تخرج كلا من: أبي زكريا يحيى بن الخير الجناوني. وأبي محمد وافي بن عمار الزواغي. وأبي محمد عبد الله المجدولي. ترك لنا أبو الربيع مجموعة من المراسلات التي تحتوي على فتاوى فقهية إلى مختلف العلماء نذكر منهم: أبا يعقوب تالوف بن أحمد. وأبا زكريا يحيى بن إبراهيم. الذي تولى الحكم في الجبل.¹²³⁴ جمع أبو الربيع بين الإمارة والقضاء والتدريس. فكان يفتح حلقة الدرس للطلاب بعد صلاة العشاء. ثم يذهب إلى داره ليقرأ الكتب رفقة محمد بن زكريا البغطوري. ومحمد بن يفون. ويستمرروا في القراءة إلى آخر الليل ثم يقوم إلى الصلاة إلى غاية الفجر. ثم يشتغل بالدراسة حتى شروق الشمس. ثم يفتح مرة أخرى حلقة العلم. فإذا انصرف الطلبة جلس للقضاء والحكم إلى الزوال. وقد احتار بعض رفاقه فقالوا: «لا ندري متى ينام». وهذا حرصاً منه على التعلم ونشر العلم وتسيير شؤون الجبل.¹²³⁵

ومن «لالوت» اشتهر زكريا يحيى بن سفيان اللالوتي الذي تصنفه المصادر ضمن علماء الطبقة السادسة (350-400هـ). عرف أبو زكريا بغزارة العلم واتساع المعارف. كانت له حلقة علمية التحق بها الطلبة من كل الجهات. أما شيوخه فهم: أبو محمد خصيب التميمصي وأبو عبد الله محمد بن جلداسن اللالوتي. وكان إلى جانب تقديم الدروس اليومية ينتحل الزراعة لكسب قوته.¹²³⁶

ومن «تابديوت» (تابديوت) - وهي قرية تقع قرب «تيرشوين» بالجبل - برز أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي كأحد أعلام عصره. تعلم في سبلماسة رفقة كيداد على يدي شيخهما ابن الجمعي. ولما حضرت هذا الأخير الوفاة سلم لأبي الربيع ديوانه الذي عاد به إلى قسطنطينية ببلاد الجريد. وقد اشتهر أبو الربيع - كما سبق ذكره - بأنه أول من سن بعض تنظيمات الحلقة خاصة وأنه أصبح من مشاهير العلماء في المنطقة. فعندما خالف النكارية الإمام عبد الوهاب ظل أبو الربيع يناظر ويحاجج النكار. إلى أن عاد الكثير منهم إلى الطريق السليم. وعلى يديه أخذ العلم أبو القاسم يزيد بن مخلد. وأبو خزر يغلي بن زلتاف. خاصة الفقه والإعراب واللغة. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن أبا الربيع ألف ديواناً يعرف باسمه هو فيحكم الضياع.¹²³⁷

1234 - بحاز: المرجع نفسه والجزء ذاته، ص427.

1235 - الشماخي: المصدر السابق، ص301-307.

1236 - البغطوري: سير نفوسة (مخ)، 5؛ الماحي: المصدر نفسه، ص296-298؛ علي يحيى معمر: المرجع نفسه، ص173-176.

1237 - الدرجيني: الطبقات، ج1، ص112 وما بعدها. معمر: الإباضية في ليبيا، ص162-163؛ بحاز: معجم أعلام

الإباضية، ج3، ص401-402.

ومن علماء القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) نذكر سعد بن ييافو النفوسي. فقد كرس حياته للتعليم حيث التحق الطلبة بحلقته التي نظمها في «أمسنان» بالجبل. كما عرف بمنظراته الكثيرة مع شيوخ «أمسنان» في بعض المسائل الفقهية. أما الطلبة الذين تتلمذوا عنده وأصبحوا بمرور الوقت في مرتبة العلماء منهم: حمو بن أفلاح، وعبد الرحيم بن عمرو، وأحمد بن أبي عبد الله، وأحمد بن ويجمن، وأخوه يحيى والمعز بن تاغرايت.¹²³⁸

وفي الأخير نكرر ما قلناه وهو أنه من الصعب جدا أن نتناول بالحديث في هذا الفصل جميع العلماء، فالجانب الثقافي يحتاج إلى دراسة مستقلة كاملة. وكان من نافلة القول أن نتحدث في هذا المضمار عن أبي محمد عبد الله بن بكر النفوسي باعتباره أشهر العلماء النفوسيين على الإطلاق، ولكننا قد تطرقنا إليه في حديثنا عن نظام الحلقة كما سنتناوله بالحديث في الحياة الاجتماعية بحكم أنه مؤسس نظام العزابة. وإذا كنا قد أغفلنا ذكر العديد من العلماء فهذا لا يعني أننا قلصنا من دورهم في الحياة الثقافية في الجبل.

4 - حركة التأليف:

اهتم النفوسيون كغيرهم من الإباضية بتأليف الكتب ونسخها والعمل على نشرها وتعميمها بين الناس لتكون الاستفادة أعم. فهذا عمرو بن فتح يستغل وفادة أبي غانم بشر بن غانم الخراساني إلى الجبل في طريقه إلى تاهرت وتركه لنسخة من مدونته الشهيرة المكونة من إثني عشرة جزءا عنده، فأسرع عمرو بن فتح في نسخها دون أن يطلب إذنا بذلك حتى إنه استعان بأخته. فما إن عاد من تاهرت إلا وقد أنهى نسخها، ولذلك سماه بشر «سارق العلم» عندما لاحظ نقطة حبر على إحدى ورقات المدونة. ولما أحرقت مكتبة «المعصومة» ظلت نسخة عمرو بن فتح هي المعتمد عليها، ولولاها لبقى أهل المذهب من غير ديوان.¹²³⁹

وذلك نفث بن نصر عندما طلب منه الأمير المشرقي في بغداد أن يسأل حاجته كمكافئة له لما حواه من العلم وتمكنه من الإجابة على المسألة التي عجز عنها علماء بغداد وفقهاؤها، طلب السماح له بنسخ ديوان جابر بن زيد. وحرصا منه على الظفر بنسخة منه اشترى الحبر والورق ودفع لكل ناسخ دينار وللملي نصف دينار. ورغم أن مدة

1238 - الشماخي: السير، ص376-377؛ بحاز: المرجع نفسه والجزء ذاته، ص349.

1239 - الشماخي: السير، ص228؛ الباروني: الأزهار، ج2، ص313-314.

النسخ كانت ضيقة، والمقررة وفق شروط الأمير بليلة ويوم فقط، إلا أنه ما إن طلع الفجر إلا وقد نسخ الديوان كله إلا كتابا واحدا تمكن من حفظه بعد قراءة واحدة.¹²⁴⁰

وتذكر المصادر أن السبب الذي عجل سفر أبي محمد عبد الله بن محمد اللواتي إلى قلعة بني حماد بالمغرب الأوسط هو أن رجلا يدعى سليمان بن مدرار النفوسي أخبره بأنه عثر على تفسير القرآن لعبد الرحمن بن رستم يباع في سوق القلعة، فسافر من أجل الظفر بهذا التفسير وإقتنائه ليستفيد منه.¹²⁴¹

إن هذه الصور التي أوردناها لدليل كاف على اهتمام الإباضية قديما وحديثا بالكتاب. ولا غرابة أن يترك لنا أتباع هذا المذهب الآلاف من الأسفار التي تغص بها المكتبات في مختلف فنون العلم، لأن انتشار الكتاب هو انتشار للعلم، وانتشار العلم يعني بقاء المذهب، واستمراره رغم كيد خصومهم وبطشهم خاصة في مرحلة الكتمان.

وبناء على ذلك فإن تنظيم الحلقات العلمية وتأليف الكتب كان الشغل الشاغل للعلماء. ويكفي أن نقول إن أحد علماء المذهب يدعى أبا مكحول مطكداسن ألف أحد عشرة كتابا في عشرة أيام.¹²⁴² على الرغم من المبالغة في العدد، فربما المقصود هنا كراسا أو مقالة. وقد سبقت الإشارة أن عمرو بن فتح قاضي أبي منصور إلياس عزم على تأليف كتاب يعالج فيه مسائل الفقه ولكنه توفي قبل إجازه. وذكرت المصادر أن له كتابا في الأصول والفقه.¹²⁴³ منها كتاب في الأصول يعرف بـ «العمروسي» في أربعة أسفار ألفه بطلب من أحد علماء الكلام بفزان.¹²⁴⁴ ويضيف إليه عبد الرحمن بكلي كتابا أخرى مثل «كتاب أعلام الملة»، و«كتاب الحكم والمعارف»، و«كتاب الدينونة».¹²⁴⁵ وألف يحيى الجناوني «كتاب الجناوني» في سفرين. وألف أبو زكريا يحيى الأبدلالي «كتاب الوضع» و«كتاب المناسك».¹²⁴⁶ وينسب إلى سعد بن ييافو. وكتاب يتضمن العديد من المسائل الفقهية.¹²⁴⁷ ذكر الشماخي أجوبة اطلع عليها لأبي حسن جناو بن فتي المديوني بعث

1240 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص140-141.

1241 - الشماخي: المصدر السابق، ص438.

1242 - الشماخي: المصدر نفسه، ص291؛ الدرجيني: طبقات المشايخ، ج2، ص348.

1243 - الشماخي: المصدر نفسه، ص225-229؛ الباروني: الأزهار، ج2، ص312؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص383.

1244 - البرادي: الجواهر المنتقاة، ص219؛ الباروني: المرجع نفسه، ص314؛ الحارثي: العقود الفضية، ص280.

1245 - بحاز: الدولة الرستمية، ص327.

1246 - بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص340.

1247 - ينظر: السير، ص190-192.

بها إلى عبد القاهر الفزاني، وأجوبة لأبي بكر أسدين وأجوبة لأبي زبون بن الحسن.¹²⁴⁸ كما دون سحنون بن أيوب - أحد علماء الطبقة السابعة (300-350هـ) مؤلفات تحتوي على مسائل وفتاوى كانت منتشرة في منطقة طرابلس. كما ألف أبو العباس بن أبي عبد الله بن بكر النفوسي أثناء إقامته بقرية «تمولست» كتباً عديدة منها «أصول الأراضي» في ستة أجزاء، والسيرة في في الدماء في عدة أجزاء، والجامع المسمى بأبي مسألة.¹²⁴⁹ و«كتاب القسمة»، و«كتاب «تبيين أفعال العباد» - في ثلاثة أجزاء - وكتاب الألواح. و ألف في آخر حياته كتاباً لا تذكر المصادر عنوانه يتكون من خمسة وعشرين جزءاً.¹²⁵⁰ وترك ابن ماطوس كتاباً في الشريعة.¹²⁵¹ وذكر أن مسألة الإنسان في الجهالات، ومسألة التفرقة بين الكفر والشرك، ومسألة الدلائل، ألفها أبو إسماعيل بن ملال البصير المكطودي.¹²⁵²

كما ألف أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ديواناً ومجموعة من الكتب لا تذكر المصادر عناوينها.¹²⁵³ وترك تبغورين بن عيسى - وهو معاصر لأبي العباس بن أبي عبد الله بن بكر - تأليف كثيرة في العقائد.¹²⁵⁴

كما ألقت العديد من الأسفار في الرد على النكار. فقد دون محمد بن أبي خالد إثني عشرة كتاباً في الرد على من أنكر إمامة عبد الوهاب. وكانت هذه الكتب منتشرة في الجبل.¹²⁵⁵ وألف نفث بن نصر كتاب يبين فيه المسائل التي خالف فيها الوهبة.¹²⁵⁶ وقد رد علي مسائله وآرائه مهدي النفوسي.¹²⁵⁷

أما أشهر تأليف على الإطلاق فهو ديوان العزابة، المعروف أيضاً بـ «نوازل نفوسة». رغم أن البعض يرى أن ديوان الأشياخ الذي ألف في غار أمجماج بجربة.¹²⁵⁸ هو نفسه «ديوان

1248 - المصدر نفسه، ص292.

1249 - يذكر الوسياني أن سبب تسمية هذا الكتاب بأبي مسألة أن أبا عبد الله محمد بن سليمان النفوسي أرسل من «أبدلان» بالجبل يلتمس منه أن يضع تأليفاً مختصراً في الفروع فرأى في منامه أن قائلاً قال له: «اذكر أبا مسألة» فسماه بهذا الاسم، ويسمى أيضاً بـ «الجامع» وهو جزئين. ينظر: السير (مخ)، ج2، و34.

1250 - الشماخي: المصدر السابق، ص423؛ البرادي: الجواهر المنتقاة، ص220.

1251 - ديوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص545..

1252 - الوسياني: السير، ج2، و29.

1253 - الشماخي: السير، ص279.

1254 - المصدر نفسه، ص432.

1255 - الوسياني: السير (مخ)، ج2، و37؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص418.

1256 - الشماخي نفسه، ص193-194؛ T Lewicki: Melanges Berberes, p271.

1257 - بحاز: الدولة الرستمية، ص343؛ Ibid, p269؛ T Lewicki.

1258 - ألف هذا الديوان الفقهاء السبعة: أبو عمران موسى بن زكريا وهو الذي تولى نسخه وأبو عمرو النميلي وعبد الله بن مانوج وأبو زكريا يحيى بن جرناز النفوسي وجابر بن سدرام وكباب بن مصلح وأبو مجبر توزين. يتكون هذا الديوان من إثني عشر كتاباً. ينظر: الوسياني، السير (مخ)، ج2، و27؛ الشماخي: السير، ص401.

العزابة». ألف هذا الديوان جماعة من العزابة هم: يخلف بن أيوب النفوسي، ومحمد بن صالح النفوسي المسناني، ويوسف بن موسى القنطاري، ويونس بن عمران بن أبي عمران، وموسى بن أبي زكريا المزاتي من «تيجريت»، وجابر بن حمو الزنزفي، وإبراهيم بن أبي إبراهيم، وعبد السلام بن سلام من أريغ. ويتألف هذا الديوان من خمسة وعشرين جزءاً.¹²⁵⁹ وتضيف المصادر أسماء أخرى يبدو أنها شاركت في تأليف بعض أجزائه منها عالم يسمى: إسماعيل بن يدير الذي انفرد بكتاب الصلاة، وأبو العباس بن بكر الذي كتب «كتاب الحيض». أما «كتاب الوصايا» فهو من تأليف محمد بن صالح، و«كتاب النكاح» فمن تأليف يخلف بن أيوب.¹²⁶⁰

ورغم هذا الإنتاج الغزير من المؤلفات، إلا أن تأليف علماء المشرق ظلت تحتفظ بمكانتها لدى النفوسيين فظلوا يعتمدون عليها. كمختصر ابن محبوب، ومدونة أبي غانم، ومسند الربيع بن حبيب، وديوان جابر بن زيد، وغيرها. وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن المصادر تشير إلى العديد من المؤلفات، ولكنها لا تذكر عناوينها. ويبدو أنها ضاعت فلم يتمكن كتاب السير والطبقات من الإطلاع عليها. ولذلك تجاوزناها ولم نشر إليها في هذا البحث.

5 - المكتبات:

نلاحظ من خلال ما مر بنا أن إباضية المغرب الإسلامي عامة، والنفوسيين خاصة قد اهتموا بالكتاب تأليفاً ونسخاً، وصرفوا الأموال الطائلة في شراء الكتب. فاشتهرت تاهرت بمكتبة المعصومة التي أشارت المصادر بكتبها وتأسف تأسفاً عميقاً لما وقع لها. كما تتحدث المصادر عن خزانة نفوسة التي لا تختلف كثيراً عن «المعصومة» إذ كانت تحتوي على الآلاف من الكتب. كما تتحدث المصادر عن ديوان بالجبل إشتمل على مؤلفات كثيرة. وقد زار هذا الديوان أبو العباس بن عبد الله بن بكر النفوسي، ومكث فيه أربعة أشهر يقرأ الكتب لا ينام إلا فيما بين آذان الصبح إلى آذان الفجر. وقد احتوى هذا الديوان على تأليف المشرق والمغرب، وأن تأليف المشرق وحدها قارب عددها ثلاثة وثلاثين ألف جزء كلها مؤلفات لأهل المذهب.¹²⁶¹

كما تشير المصادر إلى خزانة أخرى في قصر «ولم» بالجبل، وهي الخزانة التي مكث فيها وارسفلاس بن مهدي - أحد العلماء الذين عاصروا أبا عبد الله محمد بن بكر - مدة

1259 - الوسياني: المصدر نفسه، ج1، و114؛ الشماخي: المصدر نفسه، ص431؛ صالح باجبة: الإباضية بالجريد، ص56.

1260 - الشماخي: المصدر نفسه، ص431.

1261 - الشماخي: المصدر نفسه، ص414؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص289؛ الحارثي: العقود الفضية، ص275؛ عمرو خليفة النامي: ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان، ص24.

إثني عشر سنة يدرس الكتب.¹²⁶² ولم تسعفنا مصادرها من التأكد هل أن هذه الإشارات يقصد بها خزنة أو مكتبة واحدة، أم هي فعلا مجموعة من المكتبات إحداهما في شروس أم قرى الجبل والأخرى في قصر «ولم». والثالثة تسمى «الديوان» ؟

ومهما يكن من أمر فإننا لا نستبعد أن تكون هناك مجموعة من المكتبات موزعة على قرى الجبل، كما لا يمكن أن ننكر وجود مكتبات أخرى في زويلة وغدامس وفزان وغيرها من المناطق القريبة من الجبل والتي يتواجد بها الإباضية.

6 - العلاقات الثقافية بين جبل نفوسة وإباضية المشرق

والمغرب:

لا نبالغ إذا قلنا بأن موضوع العلاقات الثقافية بين أباضية جبل نفوسة وأباضية المشرق والمغرب موضوع يستحيل الإلمام به في هذه العجالة نظرا لسعة الموضوع والذي يقتضي رسالة جامعية وبحثا مستقلا لغزارة المادة فيه. ولذلك سنحاول الإقتصار على الأهم مبرزين أهمية هذه العلاقات ودورها في التواصل الثقافي بين المشرق الإسلامي ومغربه.

أ - مع أباضية المشرق:

ظل التواصل الثقافي بين أباضية الجبل وأباضية المشرق وإفريقية و المغرب الأوسط مستمرا منذ أن وطئت أقدام الداعية سلمة بن سعد أرض المغرب. وتعددت البعثات العلمية إلى البصرة لتلقي العلم والمبادئ عن أئمة المذهب هناك. وعمل المشاركة بكل ما في وسعهم على تقديم المساعدات لإخوانهم المغاربة، خاصة بعد إعلان إمامة الظهور. وقد أخذت هذه المساعدات أشكالا متعددة فجاءت تارة في صيغة معونات مالية، وتارة ثقافية ومذهبية. وقد نقل إلينا ابن الصغير ما قاله المشاركة في إمامة عبد الرحمن بن رستم حيث قالوا: «لا تدخروا عنه مالا ولا تحبسوا عنه عطاء، إبعثوا إليه بجميع ما بأيديكم ليتقوى به على دينه ودنياه، فإنكم تنالون بذلك شرفا عاجلا وغناء آجلا».¹²⁶³

أما في الجانب الثقافي فإننا نعتقد أن المشاركة كانوا يزودون مكتبات الجبل بالكتب على غرار تزويد مكتبة المعصومة في إمامة عبد الوهاب. فالديوان الذي ضم ثلاثين ألف كتاب من تأليف علماء المذهب بالمشرق لا شك أنه من تزويدهم. ويمكن أن نستدل على ذلك بقدم بشر بن غانم بمدونته إلى الجبل. كما أن أباضية المغرب الإسلامي ظلوا يعودون

1262 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 327.

1263 - ينظر: أخبار الأمة الرستميين، ص 37-38.

إلى علماء المشرق يستشيرونهم في كل المسائل التي أشكلت عليهم، خاصة عندما يتعلق الأمر بخلاف بين أهل الدعوة. فقد استشاروا شعيب بن المعروف بمصر. وأبا عمرو الربيع بن حبيب، وأبا غسان محمد بن العمري الغساني بمكة في مسألة النكارية. وهل تجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل؟ وجاءهم الرد بأن الإمامة صحيحة (أي إمامة عبد الوهاب) والشرط باطل.¹²⁶⁴

وعندما منعت نفوسة الإمام عبد الوهاب من المسير إلى الحج، خشية أن يحبسها المسودة «فتتعطل أمور المسلمين وحدود الله وأحكامه» أرسل الإمام كتبا إلى أئمة المشرق الربيع بن حبيب وابن عباد يستفتيهم في ذلك فجاءه الرد: «من كان على هذه الصفة المذكورة من العناء في أمور المسلمين، فليس عليه حج لأن أمان الطريق من الشروط التي يجب بها الحج على من استطاعته».¹²⁶⁵

ولما تزعم خلف بن السمع الشقاق في الجبل أرسل النفوسيون كتابا إلى أبي سفيان محبوب بن الرحيل، وهو آنذاك رأس أهل الدعوة بالمشرق، يستشيرونه في أقوال خلف وأتباعه. وجاءهم الرد بتخطئة من ولى خلف دون موافقة الإمام.¹²⁶⁶

لقد عمل النفوسيون دوما على توثيق علاقاتهم الثقافية بالمشرق وتدعيمها بالزيارات المتبادلة، وفي المقابل ظل علماء المشرق يتحسسون أخبار إخوانهم في المغرب، سواء في مرحلة الظهور، أم في إمامة الكتمان. وكان موسم الحج فرصة للالتقاء بين أهل الدعوة. فهذا عمرو بن فتح عندما توجه إلى مكة حاجا استغل وجوده هناك ليحضر ومن معه مجلس العلامة محمد بن محبوب ويسأله في «مسائل الدماء» وغيرها من المسائل.¹²⁶⁷ وتضيف المصادر أن نصر بن سجميمان - وهو أحد علماء قرية «أصلابون» بالجبل - التقى بأئمة عمان بمكة، وسألهم عن السخط والرضا. وعن القرآن.¹²⁶⁸

ومر بنا أن ابن الجمعي - أحد علماء المذهب المشاركة - زار المغرب واستقر فيه وكانت له حلقة في سجل ماسة منها تخرج أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي. وعموما فقد كان المشاركة يفتدون كثيرا إلى الجبل للاطلاع على أحول إخوانهم.¹²⁶⁹

1264 - أبو زكريا: كتاب السير، ص 93-94.

1265 - المصدر السابق، ص 116.

1266 - نفسه، ص 122-123.

1267 - البغطوري: سير نفوسة (مخ)، و 60: الوسياني: السير، ج 2، و 3: الدرجيني: الطبقات، ج 2، ص 324؛

الشماعي: السير، ص 227: الباروني: الأزهار، ج 2، ص 313.

1268 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 486. قرية غير معروفة في الجبل وقد انفرد الشماخي بذكرها.

1269 - البغطوري: المصدر السابق، (مخ)، و 17-18: الدرجيني: المصدر السابق، ج 2، ص 293: الشماخي: المصدر

نفسه، ص 178.

ب - مع إباضية المغرب:

أما علاقات إباضية الجبل بإباضية إفريقية والمغرب الأوسط، فإن أهم ما يميزها هو كثرة تنقل العلماء بين مواطن إخوانهم، سواء للمساهمة في تأسيس الحلقات العلمية، ومجالس الذكر، أو الاطلاع على أحوالهم. ويروي أبو زكريا أن أبا الربيع سليمان بن خلف المزاتي قال: «طلعنا مع أبي عبد الله (محمد بن بكر النفوسي) إلى وارجلان زائرين في جماعة كثيرة، وفيها قبائل أهل الدعوة بأجمالهم حتى جعل ببعض الطريق... على كل قبيلة منهم عريفا وسفيرا يرعاهم ويتفقد أمورهم خوفا مما يحدثون في وارجلان».¹²⁷⁰ وتشير المصادر إلى زيارة العديد من علماء نفوسة إلى وارجلان وإسهامهم في إنعاش الحياة الفكرية فيها منهم: أبو عبد الله محمد بن سليمان النفوسي.¹²⁷¹ وعيسى بن زاور الأمسناني.¹²⁷² وأبو يعقوب يوسف بن زرار النفوسي.¹²⁷³

كما انتقل بعض علماء أريغ إلى الجبل منهم: بكر بن أبي بكر، وأبو موسى عيسى بن المسيح، وأبو صالح الیهراسني، يريدون عرض مسائلهم على ابن ماطوس بالجبل.¹²⁷⁴ كما كان علماء وارجلان يزورون الجبل باستمرار وقد أشارت المصادر إلى ذلك في العديد من المواضع.¹²⁷⁵ كما كانت العلاقات متينة بين النفوسيين وبين أهل جربة وبلاد الجريد، وبين جربة والمغرب الأوسط.¹²⁷⁶ فقد كان علماء نفوسة يستقرون طويلا في جربة لإلقاء الدروس. وقد مر بنا أن أبا يخلف تكفل بشرح مسائل الخيض بالجزيرة.

ثانيا - الحياة الاجتماعية:

1 - نظام العزابة:

يعد نظام العزابة من الأنظمة التي لجأ إليها شيوخ المذهب بعد أن سقطت إمامة الظهور في تاهرت، ذلك أن الإباضية تعرضوا للعديد من النكبات أجبرتهم على البحث عن إطار آخر غير إطار الإمامة، يمكنهم من الحفاظ على مذهبهم خاصة وأنه أصبحت

1270 - ينظر: كتاب السيرة، ص321-322.

1271 - الشماخي: المصدر السابق، ص407.

1272 - الوسياني: سير مشائخ المغرب، ص50.

1273 - الشماخي: المصدر السابق، ص484.

1274 - مجهول: كتاب المعلقات (مخ)، و11.

1275 - الوسياني: سير مشائخ المغرب، ص35.

1276 - للمزيد من الاطلاع على هذه العلاقات، ينظر: مقالنا: العلاقات الثقافية بين إباضية جربة وإباضية المغرب الأوسط في القرنين الرابع والخامس للهجرة، مجلة العلوم والاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة، عدد2، سنة 1994، ص157-165.

لديهم قناعة - على الأقل في هذه المرحلة - بأنه لا قدرة لهم على إحياء الإمامة من جديد. وقد عبر هذا عن الضعف يعقوب بن أفلق لسكان وارجلان عندما التجأ إليهم بقوله: «افترقوا فقد انقضت أيامكم، وزال ملككم، ولا يعود إليكم إلى يوم القيامة».¹²⁷⁷ ولهذه الأسباب ظهر نظام العزابة ليعوض الإمامة المندثرة، فهو بمثابة «السلطان العادل في العدل سواء».¹²⁷⁸ والذي يشرف على الجماعات الإباضية إشرافا يشمل جميع مناحي الحياة السياسية، والدينية، والثقافية، والاجتماعية.

ويعود الفضل في تأسيس هذا النظام إلى العلامة النفوسي أبي عبد الله محمد بن بكر، وذلك في بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وهو نظام تطور عن نظام الحلقة الذي مر بنا. وقد عرف هذا النظام تطورات مطردة وفق ما تقتضيه الحياة وتغيراتها. وأصبحت المصادر تردد كثيرا كلمة «عزابة» و«عزابي» - وهي مشتقة من «العزابة» ومعناها العزلة، والعزبة، والتصوف، والتهجد على رؤوس الجبال.¹²⁷⁹ ويقصد بـ «العزابي» كل إباضي لازم الطريق وطلب العلم.¹²⁸⁰ وأما مجلس العزابة فإنه يتكون من أهل العلم والورع والصالح من الذين تخرجوا من الحلقة، وقد حددت المصادر عددهم بإثني عشر، وقد يزيد وهم: شيخ الحلقة، وإمام الصلاة، والمؤذن، وكيلا المسجد، ومقرؤو المحاضر وعددهم ثلاثة، وغسالو الموتى وعددهم أربعة أو خمسة، وقاضي للبلد.¹²⁸¹

ولا نريد في هذا المجال أن نتناول هذا النظام بكل تفاصيله، فذلك تناولته العديد من الدراسات.¹²⁸² ولكننا سنركز على دور هذا النظام في الحياة الاجتماعية في الجبل.

ويبدو أن هذا النظام اقتصر وجوده وانتشاره في المغرب الأوسط وإفريقية (بلاد الجريد وجزيرة جربة)، فقط وذلك لأن عزلة الجبل مكنت سكانه من تعيين حكام أو أمراء تولوا

1277 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص178.

1278 - أبو عمار عبد الكافي: السير (مخ)، و5: فرحات الجعبري: نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة، المطبعة العصرية، تونس، 1975، ص25.

1279 - أبو عمار: المصدر نفسه، و2: أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي: كتاب السير، المطبعة العلمية، تونس، 1321هـ، ص91.

1280 - الدرجيني: الطبقات، ج1، ص170؛ بابا وإسماعيل عمر: وادي ميزاب، مجلة التاريخ، عدد19، سنة 1985، ص106.

1281 - أبو عمار: المصدر السابق، و3-5: سالم بن يعقوب: تاريخ جزيرة جربة، دار الجويني للنشر، الطبعة الأولى، تونس 1986، ج1، ص84-86: أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1963، ص105، الجعبري: نظام العزابة، ص80.

1282 - ارجع إلى الفصل الرابع من رسالتنا: الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (296-442هـ) (909-1058م)، رسالة ماجستير مخطوطة كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1988، الجعبري: المرجع نفسه، ص25 وما بعدها؛ باجبة: الإباضية بالجريد، ص181 وما بعدها.

موسى قال: «أهل» دجي كلهم رجالهم ونسائهم مستحقون للحبس والسياط، إلا محمدا (وارسفلاس) وأمه».¹²⁹⁰

وبما أن وظيفة العزابة كانت تهدف إلى حماية الدين، وحماية أهله، فإنه من غير المقبول أن يتعرضوا للطعن. فلما جراً أحد أعيان (إكراين) وطعن في العزابة جعلوا السلسلة في عنقه وحبسوه عقاباً له.¹²⁹¹ وقد تتعدى العقوبة مقاطعة بعض القبائل، فالمصادر تذكر أن الشيوخ منعوا التعامل مع ثلاثة قبائل من بني غمرة، وبني ورسفان، وبني ينجاسن، لأنهم أكثرها من الغارة وأعمال الغصب.¹²⁹² وكان العزابة يمنعون أهل الدعوة الوفادة على العمال الجورة. وقد أخرج رجل يدعى عبد الله بن جابر إلى الخطة لاتصاله بأمرأ مدينة قابس. فالشيوخ يقولون: «إذا رأيتهم العالم يمشي إلى أبواب السلطان فاتهموه على أمر دينكم».¹²⁹³

ويتدخل العزابة في حسم العديد من القضايا تجنباً للخلاف فعندما اشتهر طلوع هلال شوال في الجبل، أكل البعض وأمسك البعض الآخر. خرج أبو هارون التملوشاني ليرغم على من تهادى في الصوم بالإفطار.¹²⁹⁴

ولم يقتصر تدخل العزابة عند هذا الحد، بل كانوا يمنعون أهل الدعوة من الاطلاع وقراءة كتب أهل الخلاف، فقد عاقب العزابة رجلاً يدعى «عبد الله بن عيسى يوسف» عندما علموا بأنه كان يقرأ كتاب لأهل الخلاف عنوانه «كتاب الأشراف على مسائل الخلاف».¹²⁹⁵

ومن العادات الحسنة التي نعتقد أن العزابة هم الذين سنوها هي أن الجائع كان يغلق بعض بابه ويترك الباقي حتى يلفت انتباه الميسورين فينفقوا عليه، وهذا من باب التكافل الاجتماعي.¹²⁹⁶

2 - التنظيم الطبقي في المجتمع النفوسي:

كان المجتمع النفوسي يتكون من عدة قبائل بربرية كنفوسة، وتمثل الأغلبية، ولواتة،

1290 - البغطوري: سير نفوسة، و52.

1291 - البغطوري: المصدر نفسه، و13؛ الشماخي: المصدر السابق، ص305.

1292 - الشماخي: المصدر نفسه، ص493.

1293 - نفسه، ص384.

1294 - نفسه، ص304.

1295 - الوسياني: السير، ج1، و123.

1296 - الشماخي: المصدر السابق، ص239.

الإشراف على الجبل. كما كان هؤلاء يعينون القضاة. وفي بعض الأحيان كان الحاكم يجمع بين الإمارة والقضاء. ولذلك فإننا نشاطر الدكتور إبراهيم فخار الرأي عندما ذكر بأن إباضية نفوسة لم يعرفوا هذا النظام. ذلك أن النفوسيين كانوا يعملون منذ القدم على الحفاظ على استقلالهم عن المغرب الأوسط. وقد ظهرت هذه النزعة بقوة إبان انتفاضة خلف بن السمح.¹²⁸³ وإذا كان على يحي معمر يؤكد على وجود مجلس للعزابة كامل الأعضاء في كل قرية أو مدينة بالجبل. وأن كل مجلس يرأسه شيخ، ومن جملة هؤلاء الشيوخ تكون المجلس الأعلى للعزابة الذي يرأسه شيخ الجبل في جادو.¹²⁸⁴ فإننا نعتقد بأن هذا ربما حدث في فترة متأخرة عن الفترة موضوع الدراسة، وهي الفترة التي عوض فيها مجلس العزابة أمير الجبل، مما يدعم اعتقادنا ما قاله صاحب الاستبصار (عاش في القرن 6هـ) في وصف سكان الجبل بقوله: «ليس لهم أمير يرجعون إلى أمره، وإنما لهم شيوخ وفقهاء في مذاهبهم يرجعون إلى أمرهم».¹²⁸⁵ ولاشك أن المقصود بهؤلاء الشيوخ والفقهاء هم شيوخ العزابة.

ومهما يكن من أمر فإن العزابة سواء أكانوا شيوخ الجبل أم من خارجه، والذين كان دأبهم تفقد أحوال إخوانهم، كان لهم دور كبير في الحياة الاجتماعية والثقافية، وساهموا إلى حد بعيد في تقويم سلوكيات النفوسيين خاصة لما طبقوا نظام الولاية والبراءة والخطة والهجران. وتورد المصادر شواهد كثيرة عن قيام العزابة بمحاربة الانحراف وحماية مصالح الناس. فقد ذكر الوسياني أن أبا يعقوب يوسف بن نفاث كان يتفقد المزارع والطرق فإذا شاهد من ألحق بها ضرراً ضربه.¹²⁸⁶ ويضيف أنه إذا نزلت نازلة بالجبل قام رجل معروف ينادي في قرى الجبل يحذر الناس. وذلك لإعطاء الفرصة للشيوخ وللعزابة للتدبر فيها خشية الفرقة والخلاف.¹²⁸⁷ وتروي المصادر أن عزابيا لا تذكر اسمه كسر معزف امرأة كانت تغني في أحد الملاهي.¹²⁸⁸ وزج العزابة برجل في السجن بسبب تماطله في تسديد دين عليه، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أن دفع ما عليه.¹²⁸⁹ وكان العزابة يوبخون السكان عند صدور عمل قبيح منهم، فقد ذكر أن عزابيا من أهل «اوتلجام» يدعى أبو

1283 - Dr. Brahim Fekhar: Les institutions ibadites Maghrebines au moyen age, l'institution des Azzabas, acte du 3eme congres d'histoires et de civilisation du Magreb Oran 2628- Novembre 1983, OPU, Alger, 1987, T1, p127.

1284 - ينظر: الإباضية في الجزائر، ص260.

1285 - ينظر: ص144-145.

1286 - الوسياني: السير، ج1، و28.

1287 - المصدر نفسه، ج2، و11.

1288 - نفسه، ج2، و67.

1289 - الشماخي: السير، ص406.

ومزاتة، وهواره، وسدراتة، ولماية، وزناتة، وزواغة، وكانت هذه القبائل تدين بالمذهب الإباضي. ولا يعني هذا أن جميع السكان كانوا على هذا المذهب، بل هناك المالكية. فقد ذكر الأستاذ بحاز بأن فقيهها مالكيًا يدعى «أهاب بن مازون النفوسي» كان مشهوراً في الجبل في نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) إذ توفي قبل سنة 320هـ (932م).¹²⁹⁷

وكان سكان الجبل يكونون وحدة اجتماعية انصهرت فيها مختلف القبائل والبطون على الرغم من بعض الحروب الأهلية التي اندلعت بين بعض قرى الجبل نتيجة العصبية القبلية، وربما محاولة للاستقلال عن حكام جادو. ولا ننسى الأقليات غير الإسلامية التي وجدت الحرية والتسامح فتعايشت مع النفوسيين. وقد سبق الذكر أن جماعات كثيرة من اليهود كانت تعيش في الجبل، ولم نعتز على نصوص تشير بأن هؤلاء اليهود قد تعرضوا لأي مضايقات، بل بالعكس فقد مكنهم تسامح النفوسيين من الانشغال ببعض الحرف والصناعات بالإضافة إلى التجارة. أما بقايا النصرانية من روم وغيرهم فمما لاشك فيه أنهم هم الآخرون كانوا يتمتعون بحرية في ممارسة شعائهم الدينية. وقد ثبت وجود العديد من الكنائس منتشرة في العديد من قرى الجبل، ويكفي أن نقول إن أبا منصور إلياس أحد مشاهير الجبل ووالي الإمام أبو اليقظان محمد بن أفلح كان نصراني الديانة. أضف إلى ذلك أن الزواج من النصرانيات كان شائعاً في الجبل.

بالإضافة إلى هؤلاء هناك طبقة العبيد، الذين كانوا يستعملون كخدم في المنازل، والمزارع، ولم يكن العبيد من بلاد السودان فقط، بل فيهم من الروم. وقد عامل النفوسيون هؤلاء العبيد معاملة حسنة فعملوا على تعليمهم ونشر الإباضية في صفوفهم. فقد ذكر أن إمام نفوسة إذ خرجن للحطب لا يرجعن حتى يتذاكرون جميع مسائل كتاب ماطوس.¹²⁹⁸ وكان يسمح لهن حضور المجالس العلمية. فالمصادر تورد إصرار أمة تدعى «غزالة» على التعلم إذ كانت تخدم مولاهما بالنهار، وفي الليل تلتحق بمجلس أبي محمد عبد الله بن الخير.¹²⁹⁹

ولا يعني هذا أن العبيد كانوا ميسوري الحال، أو كان أغلبهم من حظي بالتعليم، فقد إشتكى عبد رومي لسيده عمرو بن فتح - قاضي الجبل في ولاية أبي منصور إلياس - قائلاً له: «يا مولاي فما يبلغ فينا أن تأكلوا القمح، ونأكل الشعير، وتلبسوا الكتان، ونلبس الصوف».¹³⁰⁰

1297 - ينظر: الدولة الرستمية، ص 324.

1298 - الوسياني: السير، ج 2، و 11؛ الشماخي: السير، ص 545؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص 377-378.

1299 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 218؛ بحاز: المرجع نفسه، ص 378.

1300 - البغطوري: سير نفوسة، و 60.

ورغم أن مصادرنا لا تتحدث عن وجود العرب في الجبل، إلا أنه يحتمل وجود جماعات منهم استقروا بعد الفتح، ولكنه لم يكن لهم تأثير لأن الغلبة كانت البربر. وهذا باستثناء عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي، وأبي الخطاب عبد الله الأعلى بن السمع المعافري، والذين تزعموا ثورات الإباضية في النصف الأول من القرن الثاني الهجري (الثامن الهجري)، وحتى عندما انتقل بنو هلال إلى بلاد المغرب، فإنهم استقروا في سفوح الجبل المعروفة بمنطقة «الجفارة».

3 - المرأة:

يعد موضوع المرأة الإباضية من المواضيع الحساسة، والصعبة في الوقت نفسه، لأن عالم المرأة الإباضية سواء في القديم أم في الحديث عالم لا يستطيع أي باحث فهمه، أو دراسته، إلا من داخل المجتمع الذي تعيش فيه، وهذا يعود إلى انعدام المصادر وسكوتها. وسيقتصر حديثنا في هذا المجال عن دور المرأة ومكانتها في المجتمع الذي تعيشه خاصة في مجال الدعوة، والتعليم، وهو الدور الذي أشارت إليه المصادر المتوفرة لدينا.

حظيت المرأة باهتمام كبير ولم يكن هذا الاهتمام أمراً عارضاً، بل هو نابع من صميم الدين الإسلامي، فعملوا على إعدادها إعداداً جيداً لتؤدي رسالتها في المجتمع، ويسروا لها السبل لتلتحق بحلقات الدرس، فكان من عادة سكان قرية «ابناين» مثلاً أن يجعلوا ستاراً في آخر المسجد لكي تجلس النساء لسماع دروس الوعظ التي تسبق الصلاة.¹³⁰¹

وإذا عدنا إلى المصادر نلاحظ اشتهاً العديد من النساء بالعلم والورع، فأخت الإمام أفلح بن عبد الوهاب كانت عالمة بالحساب والفلك والتنجيم.¹³⁰² وأخت عمرو بن فتح كانت تساعد أخاها في نسخ الكتب ومطالعتها.¹³⁰³ ويقال إن ابنة أبي مسور يصلتن النفوسي الأدوناطي - كان معاصراً للإمام عبد الوهاب - كانت تجادل والدها في العلم.¹³⁰⁴ واشتهرت في «ويغو» امرأة تسمى «آسية» بالعلم والصلاح، عاشت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (10م) وكانت معاصرة للعالم أبي يعقوب البغطوري، وأبي محمد ورسفلاس بن مهدي.¹³⁰⁵ وعرفت «شكرت الزعرارية بكثرة الحفظ حتى إنها حفظت كتاب عنوانه «الخليل الصالح» بعد قراءة واحدة، وذلك لأن صاحبه لم يسمح بنسخه

1301 - الشماخي: المصدر السابق، ص 536؛ ديون: تاريخ المغرب الكبير، ج 3، ص 408.

1302 - أبو زكريا: كتاب السيرة، ص 135.

1303 - الشماخي: المصدر السابق، ص 228.

1304 - الشماخي: المصدر نفسه، ص 230؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج 2، ص 525؛ معمر: الإباضية في

ليبيا، ص 243.

1305 - T. Lewicki: Les noms propres, p22.

فحفظته. وراحت تملّي على كل راغب في نسخه.¹³⁰⁶ ومن نوابغ النساء كذلك «أم داود».¹³⁰⁷ و«أم زكار».¹³⁰⁸ وزينب اللاتونية التي كانت مهتمة بالحركة العلمية في الجبل.¹³⁰⁹

ومن النساء الشهيرات كذلك «سرغينت الوريورية». فقد كانت امرأة صالحة ورعة عالمة تسأل العزابة لا للاستفتاء فحسب بل لإختبار معارفهم. مما يدل على المكانة العلمية التي كانت تتبوأها في الجبل. وقد ساهمت بدور فعال في نشر العلم والمعرفة بين نساء قريتها «وريوري» في المنتصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).¹³¹⁰

وقد تمكنت بعض النساء من التفوق بفضل عزمهن وجدهن في أخذ العلم والتفقه في الدين. حتى أصبحن حجة في الدين مثل «أم سحنون اللاتونية» (ق4هـ/10م). التي كان المشايخ لا يفوتون الفرصة لزيارتها والاستفادة من علمها ونصائحها. فقد كانت على حد تعبير الشماخي أفضل عجوز بالجبل. لها أقوال مأثورة في الحكمة. وساهمت في نشر العلم بين النساء وتفقيههن في دينهن.¹³¹¹ كما اشتهرت «زيدت بنت عبد الله الملوثنائية» بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكانت تذكر النساء دوماً بأمر الميعاد والحساب والقبر والموت.¹³¹²

ومن النساء العلماء اللواتي حولهن بيوتهن إلى مدارس لتلقى العلم «زورغ الأرجانية». هذه المرأة النفوسية التي بلغت مبلغاً عظيماً في العلم والصلاح والتقوى. حتى قيل إن ثلث علم الجبل معها. وكانت نساء إيجيطة وأبدلان «يزرنها للاستفادة من علمها».¹³¹³ ولا نبالغ إذا قلنا بأن بعض النساء سمح لهن بالفتيا لعلمهم وتفقههن في الدين. مثل «أم زعور نانا». من «إيجيطة». التي عاشت في القرن الثالث هجري (التاسع ميلاد).¹³¹⁴

وما يدل على أن المرأة النفوسية تسعى دائماً لأن تكون عالمة بدينها. مبلغة له ناشرة للفضيلة. ومكافحة للرديلة. تلك المرأة التي تسمى «أم الخطاب». والتي عاشت في القرن

1306 - البغطوري: سير نفوسة. و17: الشماخي: المصدر السابق. ص234-235؛ بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص207-208.

1307 - الشماخي: المصدر نفسه، ص303.

1308 - نفسه، ص239؛ الدرجيني: طبقات المشايخ، ج2، ص318.

1309 - معمر: الإباضية في ليبيا، ص172.

1310 - بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص346.

1311 - السير، ص298.

1312 - الشماخي: المصدر نفسه، ص318؛ بحاز وآخرون: المرجع نفسه، ج3، ص335.

1313 - البغطوري: سير نفوسة، (مخ)، و59: الشماخي: المصدر نفسه، ص240.

1314 - الشماخي: المصدر نفسه، ص249؛ بحاز وآخرون: المرجع السابق، ج3، ص305.

الثالث الهجري والتاسع الميلادي. في قرية (أغرميمان). فقد كانت هذه المرأة نصرانية الديانة. فتزوجها أبو يحيى الأزدالي - أحد شيوخ الجبل - فاعتنقت الإسلام. وحفظت القرآن الكريم. وجدت في دراسة العلوم الشرعية. وحضور الحلقات العلمية. فأصبحت مرور الزمن مرجعاً في الفتوى. والاستشارة في أمور الدين والدنيا.¹³¹⁵

كما اشتهرت «أم الربيع الوريورية» (القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي) بالفضل والكرم والتقوى. حيث كان المشايخ يقدون إليها. ويجتمعون في بيتها. ويتشاورون. ويتناقشون في المسائل الدينية.¹³¹⁶

ولعل أهم عامل ساعد المرأة النفوسية على أن تأخذ نصيبها من العلم هو كثرة المجالس العلمية. أضف إلى ذلك إرادتها الصلبة وطموحها الكبير في الوصول إلى مبتغاه. وأحسن مثال على ذلك ما صورته الشماخي في سيره عن إصرار «أم ماطوس» على حضور المجالس. فقال «كانت أم ماطوس بكراً. وأرادت أن تتعلم. وبلدها جار إصرار» فإذا جنها الليل ونام الناس. أخذت مزراقاً في يدها وذهبت إلى أبي محمد التميمص فتحضر المجلس. فإذا افترق رجعت فسمع أخوها. وصار يغلق عليها وينام على الباب. فكانت تتركه حتى ينام فتفتح وتغلق خلفها. فإذا رجعت دخلت وأغلقت... وذهبت مرة ليلاً إلى «إجناون» لتحضر المجلس وبينهما قرب عشرة أميال.¹³¹⁷

ومن النساء الفاضلات كذلك «بهلولة النفوسية». تعلمت على يدي أبي ذر أبان بن وسيم الويغوي. وكانت هذه الحلقة - أي حلقة أبان بن وسيم - تعقد في بيتها. ونظراً لصلاحها تزوجها أبا ذر وأصبحت لها هي الأخرى حلقة تؤمها النساء.¹³¹⁸ كما تتحدث المصادر عن نساء أهل «تدينة» وانتقالهن إلى بلدة «سنتوت» ومعهن أولادهن للالتحاق بمجلس أبي الشعثاء والمسافة بينهما أزيد من أربعة وعشرين ميلاً.¹³¹⁹ وتتحدث عن أم يحيى «تكسليت» من بلدة «جليمة». والتي اجتهدت حتى صارت أفضل زمانها أي القرن الثالث الهجري (التاسع ميلادي). وكان عزابة «أمسين» يجتمعون في بيتها كل ليلة جمعة يتذاكرون. وكانت هي الأخرى تعلم النساء إذ فكرت في تخصيص مدرسة للبنات.

1315 - الشماخي: المصدر نفسه، ص249؛ بحاز وآخرون: المرجع السابق، ج3، ص272.

1316 - الشماخي: المصدر نفسه، ص310؛ معمر: الإباضية في ليبيا، ص249؛ بحاز وآخرون: المرجع نفسه، ج3، ص300.

1317 - ينظر: السير، ص317.

1318 - الشماخي: المصدر نفسه، ص217؛ بحاز: الدولة الرسومية، ص378؛ بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص196.

1319 - الشماخي: المصدر نفسه، ص247.

وما يدل على المكانة التي أولاها النفوسيون للمرأة أن أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني لما ولاه الإمام عبد الوهاب أمور الجبل استشار عجوزا كانت تسكن بلدة «إرجى أزمارة» معروفة بالعلم والصلاح. وقد أشارت عليه بالدخول في الولاية فأخذ بنصيحتها.¹³²¹

وفي الختام نقول إن المرأة النفوسية حظيت باهتمام المشائخ نظرا لدورها الكبير الذي تلعبه في المجتمع. فكانت إلى جانب اشتغالها في الزراعة، وفي غزل الصوف، والاهتمام بأعمال بيتها عموما، تأخذ نصيبها من العلوم والمعارف.



خاتمة

وبعد، ومن خلال هذه الدراسة التي حاولنا أن نكشف فيها عن تاريخ هذا الجبل الذي لعب دورا كبيرا في الحركة الإباضية في بلاد المغرب الإسلامي، يمكن لنا أن نستخلص منها النتائج التالية:

1 - يعود الفضل إلى نفوسة في الحفاظ على أمن وسلامة الدولة الرستمية خاصة وأن الجبهة الشرقية كانت مصدر الأخطار الكبرى على الدولة فكانت نفوسة هي الساعد القوي الذي يقف في وجه المتربصين بها. ولذلك يمكن أن نستنتج بأن نهاية الدولة الرستمية بدأت منذ أن تعرض الجبل لنكبة مانوا (283هـ) التي حد فيها سيف نفوسة. وأصبحت الإمامة تعيش مرحلة التقهقر والانحطاط حتى أصبحت لقمة سائغة أمام الغزو الشيعي.

2 - لعبت نفوسة دورا كبيرا في ميزان القوى المتصارعة في تيهرت خاصة أثناء الحروب الأهلية. وكان لها الفضل في استمرار الأسرة الرستمية في الحكم.

3 - كان الجبل سندا قويا للدولة الرستمية، ومصدرا للجندية، ويمكن القول إن الجبل هو الدولة الرستمية والدولة الرستمية هي الجبل.

4 - تزعمت نفوسة أغلب الخلافات التي نشبت بين السلطة في تاهرت. وبين ولاية الجبل بعد أن لاحظت بأنها اخترقت أهم مبدأ أساسي يقوم عليه الفكر السياسي الإباضي ألا وهو الحرية في اختيار الأئمة.

5 - يرجع الفضل لنفوسة الجبل في الحفاظ على استمرارية المذهب الإباضي بعد سقوط إمامة الظهور، وإحياء الإمامة بعد اندثارها.

6 - كان للنفوسيين السبق في إنشاء نظام الحلقة والذي تطور إلى نظام العزابة. وما كان لهذا الأخير من فضل في الحفاظ على تماسك المجتمع الإباضي وحفاظه على مذهبه إلى وقتنا الحاضر.

7 - ساهمت نفوسة بدور بارز في الحركة الثقافية والعلمية. فخلف النفوسيون المئات إن لم نقل الآلاف من الأسفار في مختلف فنون العلم والمعرفة. وساهمت حلقات

1320 - البغطوري: سير نفوسة، و15: الشماخي: المصدر نفسه، ص234: معمر: الإباضية في ليبيا، ص238-239؛

بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص207-208.

1321 - الشماخي: المصدر نفسه، ص182-183؛ بحاز: الدولة الرستمية، ص379-380.

نفوسة العلمية في انتشار العلم. فكان الجبل يعج بالطلبة القادمين من مختلف مواطن الإباضية في بلاد المغرب. وإذا كانت تاهرت معدن الدواب والكراع - على حد تعبير الجغرافيين - فإن الجبل كان معدن العلماء ورجال الفكر.

8 - إذا كان عبد الرحمن بن رستم عين إماما لأنه ليست له عصبية ختميه، ويسهل عزله إذا حاد عن الطريق المستقيم. فإن الأئمة الذين جاؤوا من بعده كانوا في حاجة إلى عصبية نفوسة لحماية وللمحافظة على استقرار السلطة في البيت الرستمي. ولذلك حظيت نفوسة بنفوذ كبير مما جعل أفرادها يتولون المناصب المرموقة ويتدخلون مباشرة في تعيين الأئمة.

9 - يمكن القول بأن وحدة المذهب لم تستطع القضاء على القبلية فعرف الجبل عدة حروب أهلية. وأصبح الإخوة كالتبوس إذا اجتمعوا تناطحوا وإذا افترقوا تصايحوا على حد تعبير أحد الشيوخ. وتعددت الخلافات في الرأي بين الفرق مما أدى إلى ضعف الرابطة الروحية، وإظهار الفساد علانية كشرب الخمر وغيره. وظهور الاغتيالات والتصفيات الجسدية.

10 - يرجع الفضل إلى النفوسيين في نشر الإسلام في بلاد السودان، وفي المساهمة في تنشيط حركة التجارة.

الملاحق

ملحق رقم (1)

رسالة الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسة في مسألة خلف.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله.

من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس.

أما بعد: فأني آمركم بتقوى الله، واتباع ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه. وقد بلغني ما كتبتم به إلي من وفاة السمع، واستخلاف بعض الناس خلفا ورد أهل الخير ذلك.

فإن من ولي خلفا من غير رضا إمامه. فقد أخطأ سيرة المسلمين ومن أبى توليته. فقد أصاب. فإذا أتاكم كتابي هذا فليرجع كل عامل استعمل منكم السمع إلى عماله التي ولي عليها. إلا خلف بن السمع فحتى يأتيه أمري وتوبوا إلى ربكم وارجعوا التوبة لعلكم تفلحون.

الباروني، الأزهار، ص 202-203.

ملحق رقم (2)

الرسالة الثالثة للإمام أفلح إينفاث

من أفلح بن عبد الوهاب إلى نفاث بن نصر. أما بعد:

فالحمد لله المنعم علينا. والمحسن إلينا. الذي بنعمته تتم الصالحات. ولا يهتدي مهتد إلا بعونه وتوفيقه. فله المنة علينا ولا منة لنا عليه. هو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه. وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين وأئمتنا المهتدين الذين في اتباعهم نرجو الهدى. وفي مخالفتهم نخشى الهلكة. ولن يهتدي من خالف العدل ولن ينجو من ابتدع غير الحق. لأن تلك البدعة ضلالة وكل ضلالة كفر وكل كفر في النار.

وقد كتبت إليك غير كتاب. أنصح لك فيه وأدعوك إلى رشدك. وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك إلا ما أكره. ولا أرضاه لدين ولا دنيا. حتى حررت كتابا منشورا إلى عمالنا أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين وابتدع غير طريقتهم. وسار بغير سيرتهم وبنفيه وهجره وإقصائه. فكتبت إلي كتابا كأنك تسخط ذلك. أترى أنني أؤازر من ابتدع في ديننا (كلا) ما كنت بالذي يفعل ذلك. ولا أؤازر من يسعى في خلافنا ما كنا على الهدى.

ثم قلت: أما أمرنا في كتابنا بالبراءة منك. فإن كنت كما كتب به إلينا فأنت محقوق بالبراءة. ومقصي من جماعتنا. لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا. وزعم أن عمالنا أساقفة وأنهم لا طاعة لهم في حال كتمانهم فهو محقوق بالبراءة ومقصي من جماعة المسلمين فإن لم تكن أنت منهم فأنت الذي أبحت لنا البراءة منك. وأحللت بنفسك ما لا بد لنا أن نفعله بك وبغيرك. وإن لم تكن كذلك فإظهار الانتفاء من ذلك. وكذب عن نفسك ما قيل عنك. لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها.

وأما قولك: (تب ما كتبت به) فهو منك عبث إذ لم أشاهدك ولم أشاهد موافقتك حتى يجب لك علي أصل ولاية. ولم يكن لك عندي تقدمه في الموافقة. وإنما رفع إلينا عنك ما رفعه أهل الثقة عندنا فأمرنا عمالنا أن يسيروا في كل من ابتدع بسيرة المسلمين وكتبنا إليهم بذلك فجعلت تكتب إلينا فيما ليس لك به كتاب. فعلام تتجاهل في الأمور. فإن كانت غايتك إنما هي أن نكتب إليك وتكتب إلينا ونجيب. فهذه غاية

قصيرة والسكوت عنك أهناً وأولى بنا. ونحن بأمنينا به أحق من مجاوبة أهل التكلف. ومن ليس له غاية إلا أن يقال فيه كتب فلان. وقال فلان وفلان يفعل ويفعل فلان. وإن كانت غايتك التصحيح فأنف عن نفسك ما رقي عليك. وكن من جماعتنا وموافقي أسلافنا. فإذا تبينت منك الموافقة والانتفاء ما رقي عليك. كان ذلك هو الذي نحبه منك ومن غيرك. وليس لك عندي غير هذا. وإن يكن حقاً ما رقي عليك وما قيل فيك من مخالفة أصحابنا. فأنت وما رضيت به لنفسك. وإني غير كاتب إليك كتاباً بعد هذا. إلا أن انتهى إلينا منك ما نحبه فننزلك من أنفسنا بحيث تحب. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الباروني: الأزهار، ص 261-262.



ملحق رقم (3)

رسالة إبراهيم بن أحمد الأغلبى إلى أبى عبد الله الشيعي

«يقول لك الأمير: ما حملك على تعرض سخطي والتوثب على مملكتي. وإفساد رعيتي والخروج علي. إن كنت تبتغي غرضاً من أغراض الدنيا فإن ذلك ما تجده عندي. وإن كنت تلافيت نفسك وتراجعت عن غيك فأقدم إلي فأنت آمن. فإن أردت المقام ببلدي أقمت وإن أحببت الانصراف إلى الموضع الذي جئت منه انصرفت. وإن كان قصدك قصد من سولت له نفسه الخلاف على الأئمة. واستفساد جهلة الأمة فقد لعلك عرفت كيف كانت عواقب من منته نفسه أمنيته وسولت نفسك لك من الهلاك العاجل قبل سوء المصير في الآجل فلا يغرنك ما رأيته من إقبال هؤلاء الأوباش عليك. واتباعهم إياك فإني لو قد صرفت وجهي إليك لأسلموك وتبرأوا منك. واعلم أنني أردت الاعتذار إليك لإظهار الحجة عليك. وهذا أول كلامي إليك وآخره فقد أعذر من أنذرك».

القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، ص 56-57.



ملحق رقم (4)

رسالة أبي عيسى إبراهيم بن إسماعيل الخراساني إلى أهل المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على نبينا محمد وعلى آله وسلم

من أبي عيسى إبراهيم بن إسماعيل الخراساني وجماعة المسلمين إلى من بلغه كتابي هذا إلى إخواننا من أهل المغرب وأهل ديننا من أهل الحق والرشد سلام عليكم فإني أحمد إياكم الله الذي لا إله إلا هو أسأله أن نصلي على محمد عبده ورسوله (ص) البار الرحيم الذي هدانا وإياكم لدينه الذي لا يرضي إلا به ولا يتولى إلا عليه ولا يبرأ إلا على تركه والذي يثيب به على الوفاء والصدق به جنات النعيم... نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله العظيم وما عظم من عظيم حقه وما حرم من حرمانه فإنه من يتق الله فهو الآمن المحفوظ الذي لا يضره مع أمان الله شيء من أمر الدنيا والآخرة وكذلك كان أهل اليقين والسداد لأمره فاتقوا الله يا معشر المسلمين في أنفسكم ومعالم دينكم وطريقه المستقيم... جاءنا بعض أصحابكم فذكروا لنا أمرا بلغ إلينا وساءنا من هلاك من هلك قبلكم من أهل دين المسلمين وخلافهم أئمة الهدى عند المسلمين بالمشائخ الذين أدركنا عندنا. فإلله المستعان على ذلك وعلى الله التكلان مضى عبد الوهاب رحمه الله على الرضى من المسلمين والاستقامة على الدين لا ينقم عليه أحد من أهل الخي عندنا وعندكم سيرته فيكم سيرة من مضى من أئمة الهدى وحكمه فيكم حكمهم وحرره فيمن حارب حرب من مضى من الأخيار وسيرتهم ولا ينقم عليه أحد في حكم حكمه ولا في قسم قسمه ولا في سيرة سار بها بل كان يدين الله عندنا وعنكم بالحق ودين المسلمين ومشاورة الفقهاء وأهل الرأي من الصالحين والبصيرة في الدين من كان قبلنا وقبلكم. حتى توفي عبد الوهاب رحمه الله رحمة واسعة فإننا لله وإنا إليه راجعون. وقد أدركنا أبا أيوب وائل بن أيوب وغيره من الأشياخ ومن بعده محبوبا أبا سفيان بن الرحيل وهم راضون عنه لا ينتقمون عليه شيئا والحمد لله.

وقد كان فيما بلغنا استعمل على بعض قراكم وبلادكم السمع فكان السمع على تلك الطريقة والاستقامة لا ينقم عليه أحد من المسلمين في حكم حكمه ولا في قسم قسمه يسير فيهم سيرة صاحبه وأهل التقوى من الأئمة قبله ثم مضى لسبيله رحمه الله... فلما توفي السمع رحمه الله بلغنا أن أصحاب تلك القرية استعملوا خلف

بن السمع واشتروا على ذلك رضى عبد الوهاب إن أجاز ذلك جاز علينا قوله والطاعة طاعته في طاعة الله ومريضاته. فكان هذا لعمرى أحسن لو استأذنوا الإمام وخالفوا قول المسلمين حين نزل بهم الأمر من هلاك صاحبهم فاستعملوا عليهم رجلا بغير إذنه والأمر ذلك للإمام الذي هو عليهم فيجب الرجوع إلى رأي الإمام تعقب على رأيهم إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل فهذا الرأي حسن لهم لو استقاموا على هذا. ولكنه بلغنا وانتهى إلينا أنهم لما استعملوه عليهم كتبوا إلى عبد الوهاب رحمه الله في ذلك فلما جاءه كتاب القوم في ذلك أنكر ذلك إليهم وأباه عليهم أشد الإباء فقال لهم: لست أرضى بما صنعتكم. وكان ينبغي لهم أن يسمعوا ويطيعوا لقول عبد الوهاب ويخضعوا ما سواه وينتهوا إلى قوله ورأيه لما أبان لهم فيهم وولايتهم وطاعته واجبة عليهم فمن شاقه وبغى عليه فهو عندنا ضال كافر حتى يرجع ويتوب ويستغفر الله مما صنع وخالف وضع ويرجع إلى الله والمسلمين وجماعتهم عصمنا الله وإياكم من شر ما خلق.

ثم كان بعد عبد الوهاب أفلح ابنه حفظه الله سار سيرة أبيه من قبله في حكم حكمه ولا في قسم قسمه وفيما بلغنا قوله مطاع ورأيه متبع ومشاورة الفقهاء والمسلمين جائزة بعمل برأي المسلمين ويترك ما خالفه فمتعنا الله بحياته لنا ولكم ونسأله العون على الحق والصبر. فبلغنا أنه أنكر على من دخل في رأي خلف كما أنكره أبوه ومن قبله من المسلمين وأبوا ذلك عليهم فخالف خلف وأصحابه وأبوا إلا رأيهم فإلله المستعان وقد فسرنا لهم وإياكم معالم ديننا ووضحنا رأي المسلمين عليهم.

ابن سلام الإباضي: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، ص 161-166.

المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة :

1 - أبو عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب التناوتي (ق 6هـ)

السير

مخطوط بمكتبة الحاج سعيد محمد أيوب - غرداية (الجزائر).

2 - البغطوري (مقرين محمد) (ق 6هـ)

سير مشائخ نفوسة

مخطوط بالمكتبة البارونية، جزيرة جربة، تونس.

3 - مجهول: كتاب المعلقات

مخطوط بمكتبة العطف، غرداية (الجزائر).

4 - مجهول: كتاب كشف الغمة فيما تشاجرت به الأمة (كشف الغمة وبيان كل فرقة).

5 - الوسياني (أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان) (ق 6هـ)

السير

مخطوط بمكتبة القطب بني يسقن غرداية (الجزائر).



المصادر:

6 - ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي 595-685هـ)

كتاب الحلة السيرة

تحقيق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1963.

7 - ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد) (ت ق 11هـ)

المؤنس في أخبار إفريقية وتونس

مطبعة الدولة الرسمية، ط1، تونس، 1386هـ

8 - ابن الأثير (أبو الحسن علي) (555-630هـ)

الكامل في التاريخ

دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1965.

9 - ابن تغري يردى (جمال الدين أبو المحاسن)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

مطابع كوستا تسوماس، القاهرة (د.ت).

10 - ابن حوقل (أبو القاسم محمد البغدادي ت ق 4هـ)

صورة الأرض

دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

11 - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت 808هـ)

كتاب العبر

دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968.

12 - ابن خلدون: المقدمة

دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968.

13 - ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر، (ت بعد 290هـ)

الأعلاق النفيسة

مطبعة بريل، ليدن، 1891.

14 - ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى) (ت 685هـ)

كتاب الجغرافية

تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر، 1982.

15 - ابن سلام الإياضي:

الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إياضية

تحقيق: رق. شفارتزر، وسالم بن يعقوب، دار إقرأ، ط1، بيروت، 1985.

16 - ابن الصغير (ق 3هـ)

أخبار الأئمة الرستمين

تحقيق: محمد ناصر وبحاز إبراهيم بكير، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

17 - ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله 187-257هـ)

فتوح إفريقية والأندلس

تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964.

18 - ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، نشرها ليفي بروفنسال ضمن

Journal Asiatique, Avril-Juin 1934.

19 - ابن عذارى المراكشي (ق 8هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س.

كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط2، بيروت، 1980.

20 - ابن غلبون (أبو محمد عبد الله محمد بن خليل)

تاريخ طرابلس الغرب المسمى (التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار)

تحقيق: الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ

21 - أبو زكريا (يحيى بن أبي بكر ت بعد 474هـ)

كتاب السيرة وأخبار الأئمة

تحقيق: عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985.

22 - أبو عبد الله الصنهاجي (ت 628هـ)

أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم

تحقيق: جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

23 - أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، ت 333هـ)

طبقات علماء إفريقية وتونس

تحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.

24 - أبو عمار عبد الكافي: الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المقال في الرد على أهل

الخلافا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978.

25 - أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل، ت 732هـ)

كتاب تقويم البلدان

صححه: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1830.

26 - الإدريسي (محمد عبد العزيز الشريف الفاوي 548هـ)

القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس

تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

27 - البرادي (أبو الفضل بن القاسم بن إبراهيم) (عاش ق 6هـ)

الجواهر المنتقاة فيما أهمله كتاب الطبقات، طبعة حجرية، القاهرة (د.ت)

28 - البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، ت 739هـ)

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع

تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1955.

29 - البكري (أبو عبد الله، ت 487هـ)

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب

طبعة دي سلان، الجزائر، 1857.

30 - البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي، ت 279هـ)

فتوح البلدان

راجعه: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

31 - التنسي (أبو عبد الله)، تاريخ دولة الأدارسة من كتاب نظم الدرر والعقيان، تحقيق:

عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

32 - الجنائوني (أبو زكريا يحيى، ت ق 5هـ)

عقيدة التوحيد نشرت ضمن 32 T32, Bulletin d-etudes Orientales 1980, 33-Extrait du

33 - الحموي (أبو عبد الله ياقوت، 575-625): معجم البلدان، مطبعة السعادة، ط1،

القاهرة، 1906.

34 - الحميري (محمد بن عبد المنعم، ت ق 8هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق:

إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 1984.

35 - الدرجيني (أبو العباس أحمد، ت ق 7هـ): طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم

طلالي، مطبعة البعث، قسنطينة، (د.ت).

36 - الدوادري (أبو بكر بن عبد الله بن أبيك، ت 736هـ): كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة

المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر، القاهرة، 1961.

37 - الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ت ق 6هـ): كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج

صادق، المركز الإسلامي للطباعة، القاهرة، (د.ت).

38 - السيوطي (جلال الدين، ت 911هـ): تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد

الحميد، دون مكان الطبع، أو دار النشر والتاريخ.

39 - الشماخي (أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، ت 928هـ): السير، طبعة حجرية،

القاهرة، (د.ت).

40 - الشنقيطي (أحمد بن الأمين): الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مطبعة السنة

المحمدية، ط2، القاهرة، 1958.

41 - الشيزري (عبد الرحمن بن نصر): كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: السيد الباز العربي، دار الثقافة، ط2، بيروت، 1981.

42 - عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ت 211هـ): كتاب مسائل نفوسة، تحقيق: إبراهيم طلاي، المطبعة العربية، غرداية (الجزائر)، 1991.

43 - الغرناطي (أبو حامد): كتاب خفة الألباب، نشر ضمن Journal Asiatique, 1925, Tome CCXII

44 - القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق: فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس، 1986.

45 - القاضي النعمان (أبو حنيفة بن أبي عبد الله بن حيون، ت 363هـ): كتاب المجالس والمسائرات، تحقيق: الحبيب الفقي وإبراهيم شيوخ، محمد اليعلاوي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1978.

46 - القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، ط2، تونس، 1986.

47 - القرشي (إدريس عماد الدين، ت 872هـ): عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق: مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، (د.ت).

48 - القرشي: تاريخ الخلفاء الفاطميين في المغرب (القسم الخامس من كتاب عيون الأخبار) تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985.

49 - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي، ت 821هـ): صبح الأعشى في صناعة الأنشا عرض و تحليل عبد اللطيف حمزة، المؤسسة العامة للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت).

50 - المارغني (أبو عمرو عثمان بن خليفة، توفي أواخر ق 6هـ): فرق الإباضية الست وما زاغت به عن الحق، طبعة حجرية، (د.ت).

51 - المالكي (أبو بكر عبد الله، ت 453هـ): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951.

52 - مجهول (توفي ق 6هـ): كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958.

53 - المجلدي (أحمد سعيد - 1094هـ): كتاب التيسير في أحكام التسعير، تحقيق: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.

54 - المزاتي (أبو الربيع سليمان بن يخلف، ت 471هـ): كتاب السير، المطبعة العلمية، تونس، 1321هـ.

55 - المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، ت 383هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة ليدن، ط2، 1906.

56 - النفوسي (أبو عبد الله محمد بن بكر): سير الحلقة، نشر ضمن

Annali: Istituto Universitario Orientali Di Napoli, Nuova Serie 10 Napoli, 1960.

57 - النوبري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت 733هـ): نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق: حسين نصار، مراجعة عبد العزيز الأهواني، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983.

58 - الوارجلاني (أبو يعقوب يوسف إبراهيم السدراتي، ت 570هـ): الدليل والبرهان، تحقيق: سالم بن حمد الحارثي، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1983.

59 - الوسياني (أبو الربيع: سير مشائخ المغرب، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ط)، الجزائر، (د.ت).

60 - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، ت 284هـ): تاريخ اليعقوبي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1960.

61 - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، ت 284هـ): صفة المغرب المأخوذة من كتاب البلدان، نشره دي خويه، مطبعة بريل، 1850.

المراجع:

- 62 - إبراهيم (سنوسي يوسف): زناتة والخلافة الفاطمية، شركة سعيد رأفت للطباعة، ط1، القاهرة، 1986.
- 63 - ابن أبي ضياف: أخاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1963.
- 64 - أتوري (روسي): ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ط2، (دون مكان)، 1991.
- 65 - أطفيش (محمد بن يوسف): رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبي يا جزائري، طبعة حجرية، القاهرة، 1328هـ.
- 66 - أطفيش: رسالة شافية في تاريخ وادي ميزاب (مخطوط بمكتبة القطب، غرداية).
- 67 - الأنصاري (أحمد بك النائب): المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مطابع دار الغندور (دون مكان وتاريخ).
- 68 - أيوب (محمد سليمان): جريمة من تاريخ الحضارة الليبية، دار المصراطي للطباعة والنشر، طرابلس (د.ت).
- 69 - أيوب (محمد سليمان): مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى 1811، المطبعة الليبية، طرابلس (د.ت).
- 70 - باجية (صالح): الإباضية بالجريد، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، 1976.
- 71 - الباروني (سليمان أبو الربيع): مختصر تاريخ الإباضية، مطبعة الإرادة، تونس، 1938.
- 72 - الباروني (سليمان أبو الربيع): الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تحقيق: محمد علي الصليبي، المطابع العالمية، روى، سلطنة عمان، 1987، ج2.
- 73 - الباروني (عبد الله بن يحيى): رسالة سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين، مطبعة النجاح، القاهرة، 1324هـ.
- 74 - باشا (نجا): التجارة في المغرب الإسلامي منذ القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1976.

- 75 - بكير (بحاز إبراهيم): الدولة الرستمية (160-296هـ) (909-777م): دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، مطبعة لافوميك، ط1، الجزائر، 1985.
- 76 - بكير (بحاز إبراهيم): معجم أعلام الإباضية (مخطوط).
- 77 - بل (ألفرد): الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.
- 78 - بن عميرة (محمد): دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- 79 - بن يعقوب (سالم): تاريخ جزيرة جربة، دار الجويني للنشر، ط1، تونس، 1986.
- 80 - بونار (رابح): المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.
- 81 - بيضون (إبراهيم): الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة 92-422هـ/711-1031م، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.
- 82 - تامر (عارف): القائم والمنصور الفاطميان أمام ثورة الخوارج، دار الآفاق الجديدة، ط1، بيروت، 1982.
- 83 - توماس (أرنولد): الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مطبعة الشكيني، القاهرة، (د.ت).
- 84 - الجعيري (فرحات): نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة، المطبعة العصرية، تونس، 1975.
- 85 - الجنحاني (الحبيب): دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1986.
- 86 - الجنحاني (الحبيب): المغرب الإسلامي (الحياة الاقتصادية والاجتماعية ق3-4هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978.
- 87 - جهلان (عدون): الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش (1818-1914)، نشر جمعية التراث، القرارة، (الجزائر).
- 88 - الحارثي (سالم بن حمد بن سليمان): العقود الفضية في أصول الإباضية، نشر وزارة الثقافة، سلطنة عمان، 1983.

- 89 - الحريري (محمد عيسى): الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)، دار القلم، ط2، الكويت، 1987.
- 90 - حسن (حسن إبراهيم): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط9، القاهرة، 1986.
- 91 - حسن (حسن إبراهيم): تاريخ جوهر الصقلي، قائد المعز لدين الله الفاطمي، مطبعة السعادة، ط2، القاهرة، 1963.
- 92 - حسين (أحمد إلياس): الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن 16م كما عرفها الجغرافيون العرب، رسالة ماجستير، كلية آداب القاهرة، 1977.
- 93 - خليفات (محمد عوض): نشأة الحركة الإباضية، مطابع دار الشعب، عمان، 1978.
- 94 - خليفات (محمد عوض): النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان، ط1، عمان، 1982.
- 95 - دبوز (محمد علي): تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، ط1، القاهرة، 1963.
- 96 - رياض (زاهر): شمال إفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، 1965.
- 97 - الزاوي (أحمد الطاهر): تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المعارف، القاهرة (ج.ت).
- 98 - زيتون (محمد محمد): المسلمون في المغرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة، القاهرة، 1984.
- 99 - سالم (السيد عبد العزيز): تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، (د.ت).
- 100 - سرور (جمال الدين): سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1976.
- 101 - السلاوي (أبو العباس أحمد): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، القاهرة، 1316هـ.
- 102 - السيابي (سالم بن حمود بن شامس): طلاقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الإباضي، مطابع سجل العرب (دون مكان)، 1980.

- 103 - طالبى (عمار)، آراء الخوارج، دار العلم للطباعة، الإسكندرية، 1971.
- 104 - الطالبى (محمد): الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي 184-296)، ترجمة: المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985.
- 105 - الطاهر (عبد الجليل): المجتمع الليبي، دراسات اجتماعية وأنثروبولوجية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1969.
- 106 - طرخان (إبراهيم): إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970.
- 107 - طعيمة (صابر): الإباضية عقيدة ومذهب، دار الجيل، بيروت، 1986.
- 108 - العبادي (أحمد مختار): في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، 1971.
- 109 - العبادي (أحمد مختار): في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1978.
- 110 - عباس (إحسان): تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن 9هـ، دار صادر، ط1، بيروت، 1967.
- 111 - عبد الحميد (سعد زغلول): تاريخ المغرب العربي، دار بورسعيد للطباعة، الإسكندرية، 1979.
- 112 - عبد الرازق (محمود إسماعيل): الأغلبية (سياستهم الخارجية)، مطبعة النجاح الجديدة، ط2، الدار البيضاء، 1978.
- 113 - عبد الرازق (محمود إسماعيل): الخوارج في المغرب الإسلامي، دار العودة، بيروت، 1976.
- 114 - عبد الفتاح (مولى أحمد): القوى السنة في المغرب من قيام الدولة الفاطمية إلى قيام الدولة الزيرية (296-361هـ)، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية، 1985.
- 115 - عبد المطلب (رفعت فوزي): الخلافة والخوارج في المغرب العربي (الصراع بينهما حتى قيام دولة الأغلبية)، دون دار النشر والمكان، ط1، 1973.
- 116 - العدوي (إبراهيم أحمد): بلاد الجزائر تكوينها الاسلامي والعربي، مكتبة الأجلو المصرية القاهرة 1983.

- 117 - العربي (إسماعيل): دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980.
- 118 - العربي (إسماعيل): دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.
- 119 - العربي (إسماعيل): عواصم بني زيري، دون دار النشر، بيروت، 1984.
- 120 - عفيفي (محمود إبراهيم): أحوال بلاد المغرب الاقتصادية في ظل السيادة الفاطمية (296-442هـ) (909-1058م)، رسالة دكتوراه، كلية آداب القاهرة، 1977.
- 121 - عنان (محمد عبد الله): تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2، القاهرة، 1954.
- 122 - الفاسي (عبد الرحمن): خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء، 1984.
- 123 - فرج (محمد): عمرو بن العاص، دراسة مستحدثة لحياته وحروبه، دار الفكر العربي، القاهرة، 1960.
- 124 - فلهاوزن (يوليوس): أحزاب المعارضة في الإسلام (الخوارج والشيعة)، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، 1968.
- 125 - لقبال (موسى): دور كتامة في قيام الخلافة الفاطمية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 1979.
- 126 - لقبال (موسى): المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.
- 127 - لومبار (موريس): الإسلام في مجده الأول، القرن (2-5هـ) (8-11م)، ترجمة وتعليق: إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1984.
- 128 - المجدوب (عبد العزيز): الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس، 1985.
- 129 - المدني (توفيق): كتاب الجزائر، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1963.
- 130 - مرمول (محمد الصالح): السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

- 131 - مزهودي (مسعود): الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (296-442هـ)، رسالة ماجستير، كلية آداب القاهرة، 1988.
- 132 - معمر (علي يحيى): الإباضية بين الفرق الإسلامية، مطابع سجل العرب، ط1، القاهرة، 1976.
- 133 - معمر (علي يحيى): الإباضية دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم، مطبعة التضامن، ط2، القاهرة، 1987.
- 134 - معمر (علي يحيى): الإباضية في ليبيا، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ط1، القاهرة، 1964.
- 135 - معمر (علي يحيى): أضواء على الإباضية، المطابع العالمية، روى، سلطنة عمان، (د.ت.).
- 136 - مفتاح (صالح مصطفى): ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، بيروت، 1978.
- 137 - مفتاح (صالح مصطفى): برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، رسالة ماجستير بكلية آداب القاهرة، 1976.
- 138 - المناوي (محمد حمدي): الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، 1970.
- 139 - مؤنس (حسين): فتح العرب للمغرب، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت.).
- 140 - مؤنس (حسين): فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية 711-756)، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، جدة، 1985.
- 141 - مؤنس (حسين): معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار مطابع المستقبل، ط1، القاهرة، 1980.
- 142 - الناضوري (رشيد): المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
- 143 - النقيرة (محمد عبد الله): انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ومناهضة الغرب له، دار المريح للنشر، الرياض، 1982.

المراجع الأجنبية:

- 149-Dachraoui Ferhat: Le califat Fatimide au Maghreb 296362- H, Imprimerie Officielle de la République Tunisienne, Tunis, 1981.
- 150-Despois Jean : Le djebel Nafusa, étude géographique, édition Larose, Paris, 1935.
- 151-Encyclopedie de l'islam nouvelle édition 1979 (Lawata).
- 152-Gautier E.F : Les siècles obscurs du Maghreb, Payet, 1952.
- 153-Golvin L : Le Maghreb central à l'époque des Zirides, arts et métiers graphiques, Paris, 1957.
- 154-Hadj Sadok Mohamed : Description du Maghreb et de l'Europe au 3ème siècle, édition Paul Geuthner, Paris, 1983.
- 155-idris Hady Roger : La Berberie musulmane sous les Zirides, X-XII, Paris, 1962.
- 156-La Voix Henri : catalogue des monnaies musulmanes de la bibliothèque nationale de Paris, V2 (Espagne et Afrique), Paris, 1891.
- 157-Lethilleux Jean : Ouargla cite saharienne des origines au début du XX Paul Gautier, Paris, 1983.
- 158-Lewicki Tadeusz : Etudes Maghrébines et Soudanaises édition scientifique de Pologne, Varsovie, 1976.
- 159-Marcas George, La Berberie musulmane et l'orient au moyen age, Imprimerie Tyopolitho Edition Montaigne, Alger, 1946.
- 160-Solvét C.H : Description des pays du Maghreb, Textes Arabes Traduits D'Abul-Feda, Imprimerie du gouvernement Alger, MDCCCXXXIX.

- 144 - النوري (حمو محمد عيسى): دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا. دار الكروان. باريس. 1984.
- 145 - هويدي (يحي): تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية (الشمال الإفريقي). مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. 1965.
- 146 - ولد دادة (محمد): مفهوم الملك في المغرب. دار الكتاب اللبناني. ط1. بيروت. 1977.
- 147 - يوسف (جودت عبد الكريم): الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م). ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1992.
- 148 - يوسف (جودت عبد الكريم): العلاقات الخارجية للدولة الرستمية. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1984.

الأبحاث العربية:

- 161 - بن تاويت (محمد): دولة الرستميين أصحاب تاهرت. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية. مدريد. 1957. مج5.
- 162 - الحسيني (محمد باقر): دراسات عن نقود الثوار والشعارات والمناسبات المضروبة في إفريقية. مجلة المسكوكات. بغداد. 1976.
- 163 - عمر (بابا واسماعيل): وادي ميزاب. مجلة التاريخ. منشورات المركز الوطني للدراسات التاريخية. الجزائر. 1985. عدد19.
- 164 - فوزي (فاروق عمر): ملامح من تاريخ الخوارج الإباضية. مجلة المؤرخ العربي. منشورات اتحاد المؤرخين العرب. بغداد 1975. عدد2.
- 165 - لقبال (موسى): من قضايا التاريخ الرستمي. مجلة الأصالة. منشورات وزارة الشؤون الدينية. الجزائر. 1977. عدد41.
- 166 - محمود (حسن أحمد): محنة الشيعة بإفريقية. في القرن الخامس الهجري. مجلة كلية الآداب. مطبعة جامعة فؤاد الأول. القاهرة. 1950. مج12.
- 167 - مزهودي (مسعود): العلاقات الثقافية بين إباضية جزيرة جربة وإباضية المغرب الأوسط في القرنين الرابع والخامس للهجرة (10-11م). مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة باتنة. 1994. عدد2.
- 168 - النامي (عمرو خليفة): ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان. الأصالة. منشورات وزارة الشؤون الدينية. الجزائر. 1977. عدد42-43.
- 169 - نوري (دريد عبد القادر): ازدهار الصناعة والزراعة في بلاد السودان الغربي بعد القرن 5هـ/11م. كما وصفته المراجع العربية الإسلامية. المجلة العربية للعلوم الإنسانية. جامعة الكويت. 1986. مج6. عدد21.

الأبحاث الأجنبية:

- 170 - Basset Rene: Les Sanctuaires du djebel Nafousa, Les cahiers de Tunisie, Tunis, 1981, t29, N° 115116-.
- 171 - Bekri Cheikh : Le Kharregisme berbère, extraits des annales de l'institut d études orientales, Alger, 1957, T15.
- 172 - Fekhar Brahim : Les institutions Ibadites Maghrebines au moyen age, l'institution des Azzabas, acte du 3e Congre d'histoire et de civilisation du Maghreb Oran, 2628- novembre 1983, OPU, Alger, 1987.
- 173 - Lhote Henri : la saline d'Amador et le géographe, El-Bekri, Bulletin de liaison saharienne 1953, N°14.
- 174 - Lewicki Tadeusz : Les noms berbères empyes chez les Nafusa médiévaux (VIII-XVI) Folia Orientalia Varsovie, 1972, T14.
- 175 - : La répartition géographique des groupements Ibadites dans l'Afrique du nord au moyen age Rocznik orietalistyczny, 1957 T21.
- 176 - : Tasmiya suyuka Nafusa wa qurakum rocznik orietalistyczny varsovie 1961, T25.
- 177 - : Les subdivisions de Libadiyya, Studia Islamica, Larose, Paris, 1958, T9.
- 178 - : Mélanges berbères -Ibadites (sur la vieille littérature ibadite en langue berbère), revue des études islamique, 1962, cahiers N2.
- 179 - : Les hakims et les muqqadams du Gabal Nefusa au moyen age Rocznik orientalis-tyczny, Varsovie, 1962, T26.
- 180 - : Un document ibadite inedit sur l'émigration des Nafusa du Gabal dans le Sahil Tunisien au VIII/IX e, Folia Orientalia 1959, T 12-.
- 181 - : Quelques extraits inedites relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibadites nord- africains au pays du soudan occidental, Folia Orientalia 1960, T2.

فهرس الموضوعات		
		مقدمة
		المصادر والمراجع (عرض وتحليل)
		الباب الأول: جبل نفوسة من الدعوة الإسلامية إلى الدعوة الإيباضية
		الفصل الأول: جبل نفوسة (البلاد والسكان)
		الموقع الجغرافي
		1 - السكان (أصولهم ومواطنهم)
		أ - نفوسة
		ب - هواره
		ج - لواتة
		د - مزاتة
		هـ - سدراتة
		و - لماية
		ز - زناتة
		ح - زواغة
		3 - أوضاع الجبل قبل الفتح الإسلامي

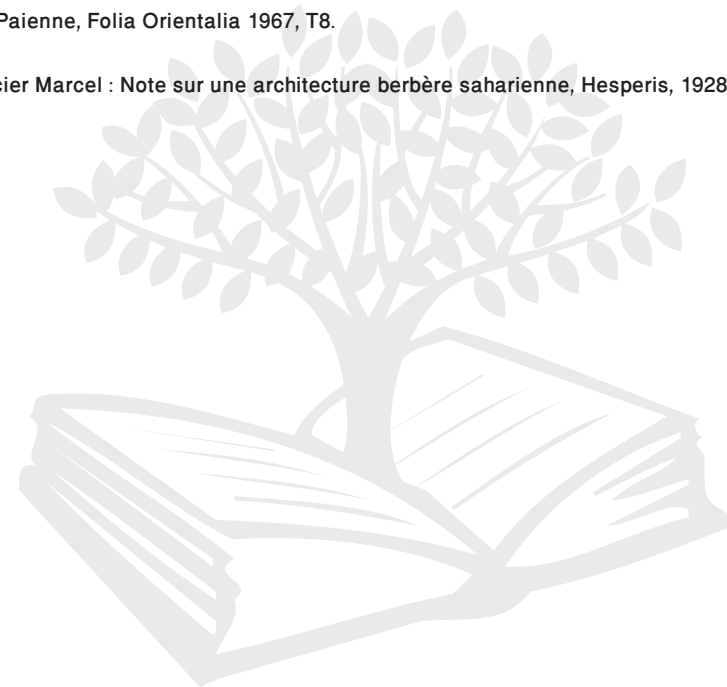
182 - : traits d'histoire du commerce trans-saharien marchands et missionnaires ibadites au soudan occidental et central au cours des VIII-XII S, ethnographia Polska, 1946, V8.

183 - : Les origines de l'islamisation de Tademekka d'après les sources arabes, bibliothèque d'outre-mer, Paris, 1981, N°56.

184 - : Du nouveau sur la liste des tribes berbères d'Ibn Hawkal Folia Orientalia 1971, T 13.

185 - : survivances chez les berbères medievaux des musulmans de cultes anciens et de croyances Paienne, Folia Orientalia 1967, T8.

186 - : Mercier Marcel : Note sur une architecture berbère saharienne, Hesperis, 1928, T8.



		2 - المجال العسكري
		أ - حصار طرابلس
		ب - نفوسة والصراع الطولوني - الأغلبي
		ج - موقعة مانو
		3 - المجال الفكري والعقائدي
		الخلفية
		النفائية
		الفصل الثاني: نفوسة دورها ومكانتها في الدولة الرستمية
		نفوسة وواصلية تاهرت
		نفوسة وفتنة محمد بن عرفة
		نفوسة وفتنة محمد بن رياح ومحمد بن حماد
		نفوسة وتعيين الأئمة
		نفوسة وتولي المناصب في الدولة
		الباب الثالث: جبل نفوسة بين ثلاث قوى (الفاطميون - الزيرون - الهلاليون)
		الفصل الأول: جبل نفوسة والخلافة الفاطمية
		1 - النظام السياسي في الجبل بعد سقوط إمارة الظهور
		2 - الرئاسة العامة

		4 - الديانة
		5 - الفتح الإسلامي
		الفصل الثاني: دخول المذهب الإباضي إلى جبل نفوسة
		1 - دعاة الإباضية في الجبل
		2 - حملة العلم المغاربة
		3 - إمارة عبد الله بن مسعود التجيبي والشارث بن تليد الحضرمي
		4 - قيام الإمامة الخطابية في طرابلس (757-761 م)
		أ - تولية أبي الخطاب الإمامة
		ب - إستيلاؤه على طرابلس
		ج - استيلاؤه على القيروان
		5 - موقف الخلافة العباسية من الإمامة الخطابية
		6 - إمارة أبي حاتم الملوذي
		أ - استيلاؤه على طرابلس
		ب - حصار طبنة والقيروان
		الباب الثاني: جبل نفوسة والحركة الإباضية (776-909 م)
		الفصل الأول: الرواد النفوسيون في المجال السياسي والعسكري والعقائدي
		1 - المجال السياسي

		الأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب
		1 - الزراعة
		2 - الثروة الحيوانية
		3 - الصناعة
		4 - التجارة
		5 - الطرق التجارية
		الطرق البرية
		الطرق البحرية
		أ - الأسواق
		ب - السلع الصادرة والواردة
		ج - تجارة السودان
		6- المكايل والموازن
		7 - العملة
		8 - الحسبة
		9 - مستوى المعيشة
		الفصل الثاني: الحياة الفكرية والاجتماعية في جبل نفوسة
		أولاً: الحياة الفكرية
		تاهرت عاصمة الإشعاع الفكري

		مقدمي النواحي
		3 - الهجرة النفوسية إلى إفريقية والمغرب الأوسط
		4 - قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب وموقف الإباضية منها
		الانتفاضات الإباضية
		أ - ثورة طرابلس (300 هـ/912 م)
		ب - ثورة نفوسة (310 هـ/922 م)
		ج - ثورة النكارية (322 هـ/933 م)
		د - ثورة الوهبية (358 هـ/968 م)
		الفصل الثاني:نفوسة الجبل والصراع الفاطمي -الزيري
		رحيل المعز لدين الله الفاطمي الى مصر
		علاقات إباضية الجبل ببني زيري
		قيام الإمارة الزيرية
		النفوسيون وبني زيري
		3- استراتيجية جديدة للفاطميين
		4- جوغراف والهجرة الى المجهول
		الباب الرابع: الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية
		الفصل الأول: الحياة الاقتصادية في الجبل

		الملاحق
		المصادر والمراجع

		النهضة العلمية بالجبل
		أ - حلقات العلم
		ب - تمويل طلبة العلم والإنفاق عليهم
		ج - التنافس العلمي
		د - إرساء تقاليد الحلقة
		العلوم والعلماء
		العلوم
		العلماء
		حركة التأليف
		المكتبات
		العلاقات الثقافية بين جبل نفوسة وإباضية المشرق والمغرب
		مع إباضية المشرق
		مع إباضية المغرب
		ثانيا: الحياة الاجتماعية
		نظام العزابة
		التنظيم الطبقي في المجتمع النفوسي
		المرأة
		خاتمة